

٥٤١
٢٠١١
٥٩٢

الجامعة الأردنية
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

ابن الأثير القاضي : حياته وشمسره

٦١٦٦٦٦.

اعتمد الطائفة
عسكن محمود خليل اقليفيل

اشرف

الأستاذ الدكتور محمود داود السميرة
أستاذ النقد الأدبي والبلاغة بالجامعة الأردنية
نائب رئيس الجامعة لشؤون البحث العلمي
والدراسات العليا

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة
العربية وآدابها بكلية الآداب في الجامعة الأردنية

١٤٠٢ هـ / ٢٠٢١ م

الاهـداء

إلى اللّٰذِينَ قَالَ الْحَقُّ فِي شَأْنِهِمَا : " فَلَا تَقْسِرُوا
لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَكْفُرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ،
وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلٰثِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا
كَمَا رَبَّانِي صَفِيْرًا " صدق الله العظيْم .
إلى والديّ الكريميْن ، أقدم لهما التّشكّر
الأولى من شمّاري .

حسن

الاهـداة

إلى اللّٰهين قال الحقّ في شأنهما : " فلا تَقْسِل
لِهما أَفًّا ولا تُشهرهما ، وقسِل لهما قولا كريضا ،
واخفض لهما جناح الذل من الرّحمة ، وقسِل ربّ ارحمهما
كما ربياني صغيراً " صدق الله العظيم .
إلى والديّ الكريمين ، أقدم لهما الثمـرة
الأولى من ثماري .

حسن

المحتويات

أ - ط	المقدمة
	الباب الأول : عصر ابن الأبار وحياته
٨١ - ٣	الفصل الأول : العصر
٢٤ - ٣	- الحياة السياسية
٤٣-٢٤	- الحياة الاقتصادية والاجتماعية
٦١-٤٣	- الحياة الثقافية
٨١-٦١	- الحياة الأدبية
١٤٢ - ٨٣	الفصل الثاني : حياة ابن الأبار وآثاره
٨٥ - ٨٣	- اسمه ونسبه
٨٧ - ٨٥	- مولده وبلده
٩٦ - ٨٧	- نشأته وثقافته
١٠٠ - ٩٦	- أهله وأسرته
١٠٦-١٠٠	- شخصيته وصفاته
١١٠-١٠٦	- عقيدته
١١٥-١١٠	- حياته الإدارية
١١٧-١١٥	- تنقلاته
١٢٠-١١٧	- وفاته
١٣٩-١٢٠	- آثاره
١٤٢-١٣٩	- مكانته العلمية

الباب الثاني : شعر ابن الأبار

تمهيد ١٥٣-١٤٤

الفصل الثالث: شعره في البلاط الحفصي ٢٦٦-١٥٥

نظرة عامة ١٦٦-١٥٥

أولا : حياة ابن الأبار في ظلهم من خلال شعره ١٧٩-١٦٦

ثانيا : موضوعات شعره :

أ - المدح ٢٤٨-١٧٩

ب - شعره في بستان أبي فهر ٢٥٧-٢٤٨

ج - الرثاء ٢٦٦-٢٥٧

الفصل الرابع: أغراض شعره ٣٤٤-٢٦٨

١ - المدح ٢٧٤-٢٦٨

٢ - الشعر الوطني ٢٩٤-٢٧٤

٣ - الفزل ٣١٦-٢٩٤

٤ - الوصف ٣٢٤-٣١٦

٥ - الرثاء ٣٣٣-٣٢٤

٦ - الزهد ٣٤٢-٣٣٣

٧ - أغراض أخرى ٣٤٤-٣٤٢

الفصل الخامس: الخصائص العامة لشعر ابن الأبار ٤٣١-٣٤٦

١ - دوره الوظيفي ٣٥٥-٣٤٦

٢ - خصائصه الفنية :

- بناء القصيدة ٣٦٦-٣٥٥

- الأسلوب ٣٨٣-٣٦٦

- المعاني ٣٨٦-٣٨٣

- الأخيلة والصور ٣٩٦-٣٨٦

٤٠٣-٣٩٦

- الموسيقى الشعرية

٤٢٣-٤٠٣

- الاحتذاء والتقليد

٤٢٦-٤٢٣

- الصدق

٤٣١-٤٢٦

٣ - قيمته وآراء النقاد فيه

٤٤٢-٤٣١

الخاتمة

٤٦١-٤٤٣

المصادر والمراجع

المقدمة

في نهاية القرن السادس الهجري ومطلع القرن السابع، شهدت الأندلس ومدينة بلنسية على وجه التحديد، ميلاد عالم أديب، من كبار علماءها وأدبائها، كان له عظيم الأثر في الحياتين العلمية والأدبية، في عصره والعصور اللاحقة، وهذا العالم الأديب هو ابن الأبار القضاعي البلنسي، الذي ولد في بلنسية سنة ٩٥٥ هـ. وقد قدّر لهذا العالم الأديب، أن يكون شاهداً على ما أصاب الأمة الإسلامية في الأندلس، من ضعف وهجز وتفكك، استمرّ في شدّته، واستفحال خطره، حتى تفرقت القلوب، وتحطمت النفوس، وتهدّدت القوى، وتكاثر الأعداء، وغلبت المصالح الشخصية على المصلحة العامة، وانقسم المسلمون في الأندلس على أنفسهم، وحارب بعضهم بعضهم الآخر، بل استعانوا بعدوهم، وكانوا عوناً له على أنفسهم، فتمزّقت قوتهم، وسقطت مدنهم، وأخرجوا من ديارهم. وكانت تلك الأحداث بداية المأساة الحقيقية، التي حلّت بالأمة الأندلسية فيما بعد، فشّت شطّها، وأذيقّت من الويلات، ما تعجز الأقلام عن وصفه.

وكان من بين الذين أخرجوا من ديارهم أهل بلنسية، بعد أن سقطت مدينتهم سنة ٦٣٦ هـ. وكان ابن الأبار، على رأس أولئك الذين استطاعوا النجاة بأنفسهم ودينهم، قاصدين تونس، للاستقرار فيها، وكانت تحكمها في تلك الفترة دولة ناشئة انفصلت عن الموحدين في المغرب، وهي الدولة الحفصية.

أما صلتني بابن الأبار، فهي قديمة، تعود إلى أيام دراستي الجامعية الأولى، أيام كنا نتلقى محاضرات "الأدب الأندلسي"، على يد

استاذنا الفاضل الدكتور عبد الكريم خليفة ، إذ كثيرا ما اتصلت بكتب ابن الأبار ، وعدت إليها ، واستفدت منها ، وكنت خلال تلك الفترة ، قد بدأت أتبيّن عظم الرجل وأهميته ، في حقول العلم المختلفة وبخاصة في حقل التاريخ والتراجم ، إذ يعتبر ابن الأبار من أكبر علماء التراجم في عصره ، وقد نقل لنا في كتبه ، وبخاصة " الحلة السيّارة " و " التكملة " الكثير من أخبار عصره ، وكان شاهدا أميناً على كل ما ينقل .

وعندما بدأت البحث عن موضوع لتسجيله لرسالة الماجستير ، لفت نظري أن اطلعت على نسخة (ميكروفيلم) في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية ، كتب عليها : " ديوان ابن الأبار الخولاني " ، فظننت أن الديوان لا يخصّ صاحبنا القضاعي ، لطفيان شهرته العلمية على الأديبة ، ولكنّ تقديري لهذا العالم ، وقراءتي لبعض أفعاره في المصادر المختلفة دفعاني للتأكد من صحة نسبة الديوان للخولاني ، وبعد الاطلاع على الأفعار الموجودة في الديوان ومقارنتها بما لابن الأبار من أفعار في المصادر ، تبين لي بشكل جازم ، أن الديوان يخصّ القضاعي ولا يخصّ الخولاني ، وعندما طرحت الموضوع على استاذنا الكريم : الدكتور محمود السمرة ، لتحقيق الديوان ، شجعني وأخذ بيدي كما شجعني على ذلك الاستاذ احسان عباس برسالة بعث بها إليّ ردّاً على استشارتي له . ولكنني فوجئت أن الديوان قد أتمّ تحقيقه الاستاذ عبد السلام الهرايس ، فرأيت بعد استشارة استاذنا الكريم ، أن أعكف على دراسة حياته وشعره ، وكان مما دفعني إلى ذلك مجموعة من الأسباب أهمها :

أ - خفاء ذكره وعدم معرفة الناس به شاعرا ، على الرغم من شهرته العلمية بين الدارسين . فلم يبنّه أحد من قبل إلى شعر ابن الأبار وشاعريته ،

ولم تقم أية دراسة شاملة ، تتناول شعر ابن الأبار جميعه ، واكتفت الدراسات التي تناولت هذا الموضوع بالاشادة بقصيدته السيئة ، وقصيدة رثائه لشيخه الكلاعي ، وغيرهما من المقطوعات التي حفظتها المصادر . هذا بالإضافة الى أن الذين تناولوا حياة ابن الأبار في دراسات جزئية أو كليّة ، اعتمدوا بشكل كليّ على كتب التراجم ، ولم يستفيدوا من كتبه وشعره في هذه القضية . ويحسن بنا هنا أن نشير الى بعض الذين تناولوا حياة ابن الأبار وشعره في دراسات جزئية أو كليّة . فمن هؤلاء مجموعة من المؤلفين ، قاموا بالترجمة لابن الأبار على الطريقة التقليدية المتبعة في كتب التراجم القديمة في صفحات قليلة ، منهم محمد مخلوف في كتابه " شجرة النور الزكية " ترجم له في صفحة واحدة ، وذكر خطأ أن ابن الأبار كتب في اشبيلية لأمرأه بلده ، والصحيح أنه كتب في بلنسية . والكتاني في " فهرس الفهارس " ترجم له في صفحة أيضا ، وحديثه بأكملة نقل عن ابن خلدون والغبريني والذهبي . وترجم له شكيب أرسلان في كتابه " الحلل السندسية " في بضع صفحات ، والعاملي في كتابه " أعيان الشيعة " في خمس صفحات ، معظمها نقل عن المقرئ في " نفع الطيب " و " أزهار الرياض " ، وقد ركز في ترجمته على فكرة تشييع ابن الأبار . وفؤاد أفرام البستاني في " دائرة المعارف " في صفحة واحدة ، وحديثه أيضا لا يختلف عن سابقه ، وقد ذكر في ترجمته ، كتاب " درر السمط " و " ايماض البرق " وشك في نسبتها لابن الأبار القضاعي ، ورجّح نسبتها للخولاني ، وهو غير مصيب في ذلك ، كما بينت في هذه الدراسة . ومحمد بن شنب في " دائرة المعارف الاسلاميّة " في ثلاث صفحات . وبالنشائي " تاريخ الفكر الأندلسي " في أربع صفحات ، وذكر أن وفاة ابن الأبار كانت سنة ٦٣٥ هـ ، وأن سقوط بلنسية كان سنة ٦٣٣ هـ ، وهو غير مصيب في ذلك كما بينت .

وقام إلى جانب هؤلاء ، بعض الباحثين الذين حققوا ببعض كتب ابن الأبار ، بالتعريف به في دراسات قد تطول وقد تقصر ، وإن كانت في معظمها متشابهة إلى حد كبير ، لاعتمادها على المصادر التي ترجمت لابن الأبار ، فمن هؤلاء : صالح الأشر في مقدمة تحقيقه " إعتاب الكتاب " ، فقد تعرض لعصر ابن الأبار وحياته بإيجاز . وكذلك فعل حسين مؤنس في تحقيقه لكتاب " الحلة السّيرة " ، إذ تحدث في مقدمته عن حياة ابن الأبار في الأندلس وتونس ، وعن الحياة في شرق الأندلس زمن ابن الأبار ، وعن سقوط بلنسية ، وهي دراسة فيها عمق وأصالة وأن كانت غير شاملة وعرف عبد السلام الهراس في مقدمة تحقيقه لكتاب " درر السمط " تعريفا موجزا بابن الأبار ، وناقش فكرة تشييعه . وقام عبد الله الطباع في دراسته التاريخية " للحلة السّيرة " بدراسة لحياة ابن الأبار ، وبعض آثاره التي وصلتنا ، ورسائله ، وجزء قليل جدا مما عثر عليه من شعره في المصادر .

وتعتبر دراسة عبد العزيز عبد المجيد في كتابه : " ابن الأبار ، حياته وكتبه " ، الدراسة الشاملة المستقلة التي كتبت عن ابن الأبار حتى الآن . وهي دراسة جيدة ، بذل فيها صاحبها كثيرا من الجهد ، وهي تلغ في (٣٨٤) صفحة من القطع الصغير ، تحدث في مقدمتها عن الحياة العامة زمن ابن الأبار ، ثم انتقل فتحدث عن نشأة ابن الأبار وحياته العلمية ، وتوقف عند شيوخه فأحصى منهم عددا كبيرا ، وأسهب في حديثه عنهم . وتحدث بعد ذلك عن كتبه وتوقف عندها ، ونسب إليه خطأ كتاب " الفصول الياضمية " في محاسن شعراء المائة السابعة " كما أثبت في هذه الدراسة . وأقرب حديثا خاصا لرسائله ، وكذلك لأشعاره التي جمع بعضها من المصادر ، ودرسته لشعره فيها كثير من التعميمات ، لعدم اعتماده على الديوان .

ومن الجد ير بالذكر ، أن هذه الدراسة كانت عمدة معظم الذين قاموا بالحديث عن ابن الأبار ، من الذين حققوا كتبه ، فاستفادوا منها بشكل واضح . فالدراسات السابقة - كما نلاحظ - لم توف الموضوع حقه وبخاصة في دراسة شعره ، لأن ديوان ابن الأبار لم يكن معروفا عند هؤلاء الباحثين .

ب - أن شعره يصوّر مختلف الجوانب في البلاط الحفصي ، من أدبيّة ، وعسكريّة ، واجتماعيّة وهذه الدراسة هي أول دراسة - فيما أعلم - ، تتناول واحدا من أدباء البلاط الحفصي هذا البلاط الذي لم نظفر حتى الآن بدراسة دقيقة شاملة للحياتين الأدبيّة والعلميّة فيه ، مع أنه كان يفتّ بالأدباء والعلماء ، الذين قلّ اجتماع أمثالهم في أيّ بلاط آخر . فشعره إذاً ، يُلقى الكثير من الأضواء على بلاط ازدهرت فيه مختلف النواحي السياسيّة والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأدبية ، هذا البلاط الذي لم يجد حتى الآن عناية حقيقية من الباحثين . ويعتبر شعر ابن الأبار بشكل خاص ، مصدرا أساسيا لدراسة حياة أبي زكرياء الحفصيّ وفترة حكمه .

ج - أن شعره يُلقى الأضواء على حياته وشخصيته بشكل خاص ، وعلى الحياة عامّة في القرن السابع الهجري مما لم نظفر به في كتب التراجم .

د - أن شعره يدفع عنه التهمة التي حاول بعض الباحثين المحدثين إلصاقها به ، وهي اتّهامه بالتخاذل والتقاعس ، أمام أحداث وطنه ، وهروبه إلى تونس (١) . فما وصلنا في ديوان والمصادر المختلفة من شعره يعتبر خير دليل على وطنيّة ابن الأبار ، ومدى مشاركته في الأحداث التي كانت تحيط به .

(١) انظر : مقدمة الحلة السيّراء لحسين مؤنس ص ٣٧ .

هـ - كثرة شعرا ابن الأبار ، وإشادة كتب التراجم به وشعره ، والاعلاء من شأنه .

و - وأخيرا ، فإنني لا أخفي أن الشبه الكبير بين حياة ابن الأبار المشرد عن وطنه ، الذي قضى فيه أجمل أيام حياته ، وما واجهه هو وأبناء بلده في البلاد التي هاجروا إليها ، وبين أبناء فلسطين ، الذين أخرجوا من ديارهم وشردوا في مختلف بقاع الأرض ، كان سببا يتضافر مع الأسباب السابقة ويدعمها ، لأن مصيبة ابن الأبار وأهل بلده ، هي مصيبة أبناء فلسطين هذه الأيام .

هذه الأسباب مجتمعة دفعتني إلى دراسة حياة ابن الأبار وشعره ، في محاولة للكشف عن كثير من جوانب حياته ، وتقييم شعره ، وبيان منزلته الشعرية وإضافة ابن الأبار الشاعر إلى ابن الأبار العالم جنبا إلى جنب .

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ، قمت بتقسيم الموضوع إلى بابين وخمسة فصول وخاتمة . تحدثت في الباب الأول عن : عصر ابن الأبار وحياته ، وفي الباب الثاني عن شعرا ابن الأبار .

ولما كنت على يقين أنه لا يمكن فهم الرجل إلا إذا فهم عصره ، فقد وجدت لزاما عليّ أن أتحدث في الفصل الأول عن العصر بكل مظاهره السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأدبية ، لايمانني أن كل تلك الجوانب كانت ذات أثر واضح في سير حياة ابن الأبار وشعره . ومعروف أن ابن الأبار ، عاش جزءا من حياته في الأندلس والجزء الآخر في تونس ، ومن هنا كان علينا أن نسير في دراستنا لكل جوانب العصر السابقة فـــــــي مرحلتين :

الأولى : تتبع كل جوانب العصر السابقة في الأندلس ، حتى رحيل ابن الأبار عنها .

الثانية : استكمال تلك الجوانب في مهجره في تونس .

بعد دراسة شاملة للعصر ، انطلقنا في الفصل الثاني لاستكمال الجانب الأول ، فدرسنا حياة ابن الأبار الخاصة وآثاره . وكشفنا في هذا الفصل الغطاء عن كثير من جوانب حياة ابن الأبار ، عن نسبه ، واسمه ، ومولده ، وبلده ، ونشأته ، وثقافته ، وأهله وأسرته ، وشخصيته وصفاته ، وعقيدته وحياته الإدارية ، وتنقلاته ، ووفاته ، وآثاره ومكانته العلمية .

وما أن انتهينا من إبراز الحياتين العامة والخاصة في الباب الأول ، حتى شرعنا في الباب الثاني في الحديث عن شعر ابن الأبار ، فتحدثنا في تمهيد الباب الثاني عن موهبة ابن الأبار الشعرية ، وصلته بأدباء عصره ، وجمعه لشعره ، ومخطوطة الديوان ، وشعره في بقية المصادر . ثم انتقلنا بعد ذلك فتحدثنا في الفصل الثالث عن شعره في البلاط الحفصي ، وبدأناه بمقدمة ، انتقلنا منها فتحدثنا عن حياة ابن الأبار في ظل الحفصيين كما صورها في شعره ، وبعدها تحدثنا عن موضوعات شعره في البلاط الحفصي .

وبعد هذا الحديث المفصل عن شعره في البلاط الحفصي ، تلك الظاهرة المتميزة في شعره ، التي جعلت منه شاعر بلاط ، انتقلنا لاستكمال دراسة شعره من الناحية الموضوعية ، فتحدثنا في الفصل الرابع عن أغراض شعره ، من مدح ، وشعر وطني ، وغزل ، ووصف ، وراث ، وزهد ، وأغراض أخرى قلّ شعره فيها .

ولكي تبين الصورة واضحة جلية ، كان لا بد من تقييم شعر ابن الأبار ، وإبراز خصائصه العامة ، فحدثنا في الفصل الخاص عن : الخصائص العامة لشعر ابن الأبار ، ومنها الدور الوظيفي الذي اضطلع به شعره إزاء الأحداث التي أحاطت به وبلده ، ثم أبنا الكثير من خصائص شعره الفنية ، ومنها كذلك قيمة شعره وآراء النقاد فيه . وأنهينا الرسالة ، بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلنا إليها .

وإزاء هذا المنهج ، ولكي تتضح معالم الموضوع ، ويظهر بأكمل صورة ، فقد قمنا بالدراسات الكثيرة في كتب التاريخ والأدب ، وقد تعددت مصادر البحث ومراجعته ، ففي الحديث عن العصر بكل جوانبه ، اعتمدنا مجموعة من الكتب من أبرزها : " تاريخ ابن خلدون " ، و " المعجب " و " البيان المغرب " و " الأنيس المطرب " ، و " الذخيرة السنية " و " تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية " ، و " الروض المعطار " ، و " تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين " و " الفارسية في مبادئ الحفصية " ، و " عصر المرابطين والموحدين " ، و " المونس في أخبار إفريقية وتونس " ، و " التكملة " و " عنوان الدراية " ، و " برنامج شيخ الرعيني " .

وفي حديثنا عن حياة ابن الأبار وآثاره ، كانت كتب ابن الأبار هي المصدر الأساسي في ذلك ، فكان جلّ اعتمادنا على " التكملة " و " المحلّة السيرة " و " إعتاب الكتاب " و " درر السمّط " و " مقتضب تحفة القادم " ، بالإضافة إلى ديوان شعره ، الذي أعاننا في إبراز كثير من الجوانب ما لم نعثر له على ذكر في كتب التراجم ، بالإضافة إلى بعض الكتب التي ترجمت له .

أما في الدراسة الموضوعية لشعره في الفصلين : الثالث والرابع ، فقد لجأنا إلى التفاعل مع النص نفسه ، واعتمدنا في ذلك اعتمادا كلياً على مخطوطة ديوان ابن الأبار ، وبعض الكتب التي احتوت على شعره ، بالإضافة

الى " تاريخ ابن خلدون " ، الذي كان أهم مصدر أعاننا في تتبع فتوحات أبي زكرياء الحفصي تاريخياً .

واعتمدنا في الفصل الخامس ، على مجموعة من المصادر والمراجع الأدبية والنقدية من أبرزها : " عيار الشعر " و " يشيمة الدمر " و " خزانة الأدب " لابن حجة الحموي " ، و " نقد الشعر " و " العمدة " . وبالإضافة للكتب السابقة ، فقد استفدنا من بعض الدراسات الحديثة التي أشرنا إليها في هذه المقدمة ، وان كنا قد عارضناها أحياناً ، واتفقنا معها في أحيان أخرى ، وأشرنا لكل ذلك في موضعه .

أما الصعوبات التي تعترض الباحث فكثيرة ، واكتفي في هذا المجال بالتنبيه ، إلى أن أبرز صعوبة واجهتني هي سوء مخطوطة الديوان التي اعتمدتها في دراسة شعر ابن الأبار ، فقد وقع الناسخ في كثير من الأخطاء والسّهو ، بالإضافة إلى تعذر قراءة أبيات بكاملها في بعض الأحيان .

هذا هو بحثي ، أقدمه اليوم ، راجياً أن أكون قد وفقت فيما سميت إليه ، بعد أن بذلت قصارى جهدي . ولا عجب ، فربما أكون قد أصبت في مواطن ، وتعشرت في مواطن أخرى ، فان كنت قد أصبت ، فهذا يسعدني ويبدّد عني كثيراً من عناء البحث ، وهو مطلبي ومسماي ما حييت ، وإن كنت قد تعشرت في بعض المواطن ، فعذري أنني طالب ينشد الحقيقة ، ويسعى للوصول إليها ، وأنني إنسان يخطئ ويصيب ، والكمال لله وحده . وقد صدق العماد حينما قال : " إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه ، إلا قال في غده ، ولو غيّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد لكان يستحسن ، ولو قدّم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذه أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر " .
والله يهدي الى سواه السبيل ،،،

عمان في : ١٩٨٢/٩/١ م

الفصل الأول

المصـر

- ١ - الحياة السياسيّة .
- ٢ - الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة .
- ٣ - الحياة الثقافيّة .
- ٤ - الحياة الأدبيّة .

الحياة السياسيّة

لا يستطيع الإنسان أن يعيش بمعزل عن أحداث عصره وميقاته ، وما أحداث القرن السابع الهجري ، سوى تعبير عن مدى الضعف والانحلال والتفكك ، الذي أصاب الأمة الإسلاميّة في الأندلس . ومع أن الموحدين كانوا باهر في موقعة إراك (١) الشهيرة ، ضدّ النصارى الذين كانوا متناحرين متباغضين ، إلّا أنّ قوتهم ضعف بإطلالة القرن السابع الهجري . وعاد ما بين النصارى من فرقة واضطراب ، إلى وحدة وتماسك ، وقرروا خوض حرب صليبيّة ضدّ سلمي الأندلس ، انتقاماً لما أصابهم في موقعة إراك ، ذلك لأنّ الكنيسة " رأت أنّ الموحدين لم تعد لهم القدرة الكافية ، على مواصلة زحفهم المقدّسة ، إثر وفاة يعقوب المنصور " (٢) . فجهزت جيوشها وأعدت نفسها لفوز بلاد الأندلس .

(١) إراك : حصن منيع بمقرية من قلعة رباح . انظر : الروض الممطر ص ٢٧ ، وقد حدثت هذه المعركة سنة ٥٩١ هـ . انظر تفاصيلها في : المعجب للمراكشي ص ٣٥٨ وما بعدها ، والبيان المفرب لابن عذاري ، ج ٣ ص ١٩٣ - ١٩٧ .

(٢) مأساة الوجود العربي لعبد الكريم التوّاتي ص ٦٠٨ ، والمنصور هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي ، ولي الخلافة سنة ٥٨٠ هـ ، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ .

ولمّا علم الناصر (١) بذلك ، جهّز جيشاً كبيراً ، وسار للاقعة المدوّية أن كان قد فتح قلعة عظيمة لهم تسمى شلْبَطْرَة (٢) . والتقى الجمعان بموضع يعرف بالمِقَاب (٣) ، فدارت المعركة وكانت الدائرة على المسلمين ، فهزموها هزيمة منكّرة ، كانت السبب في ضعف المسلمين وتحطيم

(١) الغاصر : هو محمد بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، ولي الخلافة سنة ٥٩٥ هـ . أخباره في : البيان المفرب ج ٣ ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) شلْبَطْرَة : حصن من حصون الأندلس من عمل قلعة رياح ، انظر : الروض الممطار ص ٣٤٤ ، وقد تمّ فتح هذه القلعة سنة ٦٠٨ هـ . انظر تفاصيلها في : المعجب ص ٣٩٩ ، والبيان المفرب ج ٣ ص ٢٣٨ .

(٣) المِقَاب بكسر الميم ، بالأندلس بين جيان وقلعة رياح . انظر : الروض الممطار ص ٤١٦ . وقد حدثت هذه المعركة سنة ٦٠٩ هـ . انظر تفاصيلها في : المعجب ص ٣٩٩ وما بعدها ، والبيان المفرب ٢٤٠/٣ ، وتاريخ ابن خلدون ٥٢٢/٦ ، والأنيس المطرب لاسن أبي زرع ص ٢٣٤ - ٢٤٠ ، والاستقصا للناصر ص ٢٢٠/٢ .

قوتهم وتسليم بلادهم وتشبهت شملهم (١).

ويروى أبو اسحاق ابراهيم بن الدبّاغ الاشبيلي هذه الهزيمة
بقوله (٢):

وقائلة أراك تطيل فكرا كأنك قد وقفت لدى الحساب
نقلت لها : أفكرني عقاب غدا سببا لمعركة العقاب
نما في أرض أندلس مقبام وقد دخل البلا من كل باب

وبعد هذه الهزيمة الشنيعة ، التي خسر فيها الموحدون معظم
قوتهم ، تنقضي مرحلة القوة والازدهار التي عاشتها الدولة الموحدية ،
وتبدأ مرحلة الضعف والانحلال .

(١) لقد كان لهذه الموقعة الأثر الكبير في نفوس معاصريها ، فابن الأبار
يقول : أنها أفضت إلى خراب الأندلس ، بالدائرة على المسلمين
فيها ، وكانت السبب الأقوي في : " حيف الروم بلادها " ، التكملة :
١٠٢/١ ، ويقول ابن هزاري : أنها " كانت السبب في هلاك أهل
الأندلس " . البيان المغرب : ٢٤٠/٣ ، أما صاحب الذخيرة
السنية فيقول : " إن المغرب قد باد أهل ورجاله ، ونفي خيله وجماته
وأبطاله ، وقتلت قبائله وأخواله ، قد استشهد الجميع في غزوة العقاب
الذخيرة السنية : ص ١٢٦ .

(٢) نفع الطيب للمقرى : ٤٦٤/٤ . ولم نعثر على ترجمة لابي اسحاق ،
وحسبنا على ترجمة لابنه محمد في : الاحاطة لابن الخطيب
٦٨/٣ .

ومما ساعد على اضطراب الدولة والصارعة في انهيارها، تولّي يوسف المستنصر بالله^(١) الحكم بعد والده الناصر. ذلك الصبي الذي انكبّ على لذاته، ووسّط أمور الدولة، لوزيره أبي سعيد بن جامع^(٢) وشيخة الموحدين، فاستبدوا في الحكم^(٣). وحدثت بعض الفتن والثورات التي أنهكت بقايا قوة دولة الموحدين المهزومة، فظهر بنو مرين سنة ٦١٣هـ^(٤) وأوقفوا بالدولة عدّة هزائم، كذلك هزمهم النصارى سنة ٦١٤هـ بقصر أبي دانس^(٥) هزيمة عظيمة تقرب من هزيمة المقاب^(٦) وحدثت بعض الثورات فسي مراكش وسوسة سنة ٦١٨هـ^(٧).

(١) هو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب، تولّى الحكم سنة ٦١١هـ، وسنة عشرة أعوام. انظر أخباره في: المعجب ص ٤٠٤، وتاريخ الدولتين للزركشي ص ١٩، وتاريخ ابن خلدون ٥٢٣/٦، والا ستقصا ٢٢٦/٢.

(٢) انظر أخبار ابن جامع في: المعجب ص ٢٥٥.

(٣) انظر: البيان المغرب ٢٤٣/٣.

(٤) بنو مرين: فخذ من زناتة، سكنوا بلاد القلعة، من زاب افريقية إلى سجلماسة، وهم يتنقلون في تلك البراري. انظر: الأئيس المطسرب

ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٥) موضع بفربي الأندلس. انظر: الروض المعمار ص ٤٧٥.

(٦) يقول ابن الأبار: إنّه فقد في هذه الهزيمة آلاف من المسلمين، وكانت

الموقعة "أحدى الكوائن المنذرة حينئذ بما آل إليه أمر الأندلس" الحلة

السيارة ٢٩٥/٢. ومن الغريب أن ابن عذاري يقول: إنه لم يتحقق له

يذكره في سنة ٦٢٤هـ. انظر: البيان المغرب ٢٤٤/٣.

(٧) انظر هذه الثورات في: المعجب ص ٤٠٨، وسوسة: مدينة عظيمة بالمغرب

انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ٢٨١/٣ - ٢٨٣.

ويصور صاحب "الأئيس المطرب" ضعف المستنصر وهوانه بقوله :
 وكانت أرامره لا بمثل أكثرها ، لضعفه وليانته وإيمانه على الخلاعة ، وركونه
 إلى اللذات ، وتفويضه أمر مملكته وسببات أموره إلى العسفة (١) ، وأحوال
 مشل هــنـسـنـد ، كافية لتقويض أركان دولة قوية مزدهرة ، فكيف
 الحال بدولة ذابت مر الهزيمة ، فبادت قوتها وفنت ؟ !

وانتها حكم المستنصر بـدون عقب سنة ٦٢٠ هـ ، تبدأ مرحلة
 جديدة في الدولة ، هي مرحلة اضطراب وصراع على الحكم ، واستعائية
 الحكام والناظرين بالنصارى ضد بعضهم ، ويصبح الخليفة الموهبة بيد الشيعة
 الموحدين ، يبايمونه متى شاءوا ويقتلونه بالطريقة التي تحلو لهم .

فهذا عبد الواحد بن يوسف أخو المنصور ، يقتل خنقا في مراكش
 سنة ٦٢١ هـ ، بعد توليه الحكم لسنة واحدة (٢) ، ويبيع ابن أخيه
 أبو عبد الله محمد ولد المنصور ، بعد أن قام على عمه عبد الواحد وأعلن
 نفسه أميراً على بلنسية ، باسم المبادل بالله (٣) ، وهذا السياسي (٤) ●

(١) الأئيس المطرب : ص ٢٤٣ .

(٢) أخبار ذلك في تاريخ ابن خلدون ٦ / ٥٢٥ ، والأئيس المطرب : ص ٢٤٣ .

(٣) انظر أخباره في : تاريخ ابن خلدون ٦ / ٥٢٧ .

(٤) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، كان واليا على
 جيان ، ولكنه عندما ثار سنة ٦٢١ هـ استولى على أبدة وياسة وقرطبة
 واستمرت ثورته حتى سنة ٦٢٣ هـ ، عندما ثار عليه أهل قرطبة وقتلوه . انظر
 أخباره في : البيان المغرب ٣ / ٢٤٩ وما بعدها ، وتاريخ ابن خلدون ،
 ٦ / ٥٢٩ .

ينتقض على العادل ويدعولنفسه ببياسة^(١) ويتغلب بالظافر ، وقد عظم أمره في الأندلس واشتدّ خطره ، وقام بالاستعانة بالنصارى ، مقابل تسليمهم بمض حصون الأندلس وقلاعها ، وعاثوا ببلاد الأندلس فسادا وقتلا ونهباً .

وفي مراكش خرج الموحدون على العادل سنة ٦٢٤ هـ ، وقتلوه خنقا ، هايموا إدريس المأمون وهو في الأندلس ، ولكنهم ندوا على مايمته ، فنقضوا بيعته ، هايموا أبا زكريا يحيى وطبقوه بالمعتصم^(٢) . ولما علم المأمون^(٣) بذلك استشاط غضبا واستنجد بالنصارى وسار اليهم مراكش ، فدخلها بمد أن فر المعتصم إلى الجبل ، ثم أخذ المأمون البيعة من كافة الموحدين ، وكان ذلك سنة ٦٢٧ هـ^(٤) .

ولم يستقر الحال للمأمون ، فقد خرج عليه أخوه أبو موسى صاحب مالقة^(٥) وتسمى بالمؤيد ، واستعان بابن هود فأعانه ، واستمرت المناوشات بينهما إلى أن مات المأمون سنة ٦٢٩ هـ^(٦) .

(١) بياضة : بالأندلس ، بينها وبين جيان عشرون ميلا ، انظر : الروض الممطار ص ١٢١ .

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن الناصر محمد بن يعقوب ، أخبارة في الممجب ص ٤١٦ ، والأنيس المطرب ص ٢٤٧ وما بعدها .

(٣) هو أبو الملا إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن . انظر : أخبارة في : الأنيس المطرب ص ٢٤٩ وما بعدها .

(٤) أنظر : تاريخ ابن خلدون ٥٣٠ / ٦ ، ٥٣١ .

(٥) مالقة : بالأندلس ، مدينة على شاطئ البحر ، عليها سور صخر والبحر في قلبها : انظر : الروض الممطار ، ص ٥١٧ .

(٦) انظر : تاريخ ابن خلدون : ٥٣١ / ٦ .

وكان لهذا الصراع بين الموحدين ، أثره الكبير على الأندلس ، فقد قامت بعض الحركات القومية فيها ، قاصدة تحرير الأندلس من سلطان الموحدين ، الذين شغلوا بصراعاتهم ، تاركين البلاد الأندلسية للفُـسزو النصراني ، يبنهش أجزاءها ، ويحتل بلادها ، ومع أن تلك الحركات ، كانت متحدة في هدفها وهو تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى ، إلا أنها كانت متناثرة الرأي ، غير متحدة في كلفتها ، تغلب عليها الأطماع الشخصية مما حدا بها إلى إضعاف نفسها بنفسها بحروبها الأهلية ، بل إلى التمسك استماتتها بالنصارى وضادتهم ، ولو اجتمعت كلمة الأندلسيين ، وتوحدت قوتهم في هذه الفترة المصيبة ، لاستطاعوا حماية بلادهم وإيقادها من المصيبة التي حلت بها ،

وكانت أولى هذه الحركات وأشهرها ، حركة أبي عبدالله محمد ابن يوسف بن هود (١) ، الذي استولى على مرسية (٢) سنة ٦٢٥ هـ ، وأعلن نفسه أميراً عليها ، وطلق باسم المتوكل بالله ، وخطب للمعاسيين في بغداد ، لتصطبغ حركته بالصفة الشرعية . ثم لم يلبث أن دانست

(١) اختلف مؤرخو الأندلس في ابن هود ، فقد أشاد ابن الخطيب في : الاحاطة ٢ / ١٢٨ بشجاعته ونجدته ، ولكن ابن سميذ في : المغرب ٢ / ٢٥١ ، رأى خلاف ذلك فقال عنه " وكان عامياً جاهلاً مشرئوماً على الأندلس " .

(٢) مرسية : بالأندلس وهي قاعدة تدمير وهي على نهر كليل مصر ، انظر : الرض المعطار ص ٥٣٩ .

له جيان (١) وقرطبة (٢) وماردة (٣) ومطليوس (٤) وشاطبة (٥)
وجزيرة شقر (٦) وما والاها ، ثم أطاعته مالقة والمريّة (٧) وغرناطة (٨) ،
وكذلك أطاعته اشبيلية (٩) سنة ٦٢٦ هـ ، بعد مفارقة المأمون لها (١٠) .

(١) جيان : بالأندلس ، بينها وبين بياسة عشرون ميلا . انظر : السرخسي
المقطار ص ١٨٣ .

(٢) قرطبة : قاعدة الأندلس وأم مدائنها . انظر : المصدر نفسه ص ٤٥٦ .

(٣) ماردة : مدينة بجوفي قرطبة منحرفة إلى المغرب قليلا . انظر : المصدر
نفسه ص ٥١٨ .

(٤) بطليوس : بالأندلس من إقليم ماردة بينهما أربعون ميلا . انظر : المصدر
نفسه ص ٩٣ .

(٥) شاطبة : بالأندلس وهي قرية من جزيرة شقر . انظر : المصدر نفسه
ص ٣٣٧ .

(٦) شقر : جزيرة بالأندلس ، بينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا . انظر :
المصدر نفسه ص ٣٤٩ .

(٧) المريّة : بالأندلس بنيت سنة ٣٤٤ هـ . انظر : المصدر نفسه ص ٣٧٥-٣٨٥ .

(٨) أغرناطة : مدينة بالأندلس ، بينها وبين وادي آش أربعون ميلا . انظر :
المصدر نفسه ص ٤٥ - ٤٦ .

(٩) إشبيلية : مدينة أندلسية قديمة ، بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام .
انظر : الروض المصطار ص ٥٨ .

(١٠) أنظر : المعجب ص ٤١٧ ، والاستقصا ٢ / ٢٣٥ .

وكان طو بلنسية في الفترة التي ثار فيها ابن هود، الأمير السيّد أبو زيد الموحدي (١)، فحدثت بينهما بعض الممارك استطاع ابن هود فيها أن يهزم أبا زيد ويُدحره إلى بلنسية. ولم يقتصر الأمر على ابن هود، بل ثار في بلنسية سنة ٦٢٦ هـ زيّان بن مردنيش (٢)، طو أبي زيد الموحدي وأُخرج من بلنسية واستولى عليها (٣).

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن، وهو أخو البيّاسي. وكان أبو زيد حاكماً على بلنسية وشاطبة ودانية وجزيرة شقير منذ سنة ٦٢٠ هـ. وقد بقي في بلنسية حتى ثار عليه زيّان بن مردنيش وطُرد منها. وبعد خروج أبي زيد من بلنسية، احتسب بالنصاري وانضم إليهم فقال: إنّه دخل في دين النصرانية، وقد رافقه ابن الأبار إلى بلاد النصاري، ولكنّه ما لبث أن عاد، عند ما علم بدخول أبي زيد في النصرانية أنظر: البيان المصوب ٣/ ٢٨٤. وراجع في صاحبة ابن الأبار لأبي زيد إلى بلاد النصاري: أزهار الرياض: ٣/ ٢٠٥، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٦٥٣.

(٢) هو زيّان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد بن مردنيش الجذامي، استولى على بلنسية، ودعا للخليفة المباسي ببغداد، وهو آخر أمراء بلنسية. وقد استولى بعد سقوط بلنسية سنة ٦٣٦ هـ، على جزيرة شقير ودانية ومرسية ولقنت، وأخذ البيعة على أهلها للأمير أبي زكرياء. وقد بقي في لقنت حتى سنة ٦٤٤ هـ، ثم غادرها إلى تونس. انظر: المصوب ٢/ ٣٠٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٦٠٠ - ٦٠٥.

(٣) انظر: عصر المرابطين والموحدين ٢/ ٣٩٣ - ٣٩٧.

ولم يكن حال ابن هود مع ثيَّان ، بأفضل من حاله مع الأمير
الموحدي ، فاضطربت الفتنة بينهما وجرت عدة معارك (١) .

على أن أكبر حركة وقعت في وجه ابن هود ، هي حركة محمد بن
يوسف النصري المعروف بابن الأحمر (٢) ، والذي بسط حكمه على وسط
الأندلس ومناسة وادي آش (٣) ، وما حولها (٤) ، ودار الصراع بينهما ، وعقد
ابن هود هدنة مع النصاري لكي يتفرغ لمحاربة ابن الأحمر ، في حين تحالف
ابن الأحمر مع أمير إشبيلية أبي مروان أحمد بن محمد الباجي (٥) .

محمد هزيمة ألحقها ابن الأحمر بابن هود سنة ٦٣١ هـ ، أدرك
الزعيمان خطورة صراعهما فعقدت هدنة بينهما ، ولكن هذه الهدنة كانت

(١) انظر: عصر المرابطين والموحدين ٣٩٥/٢ .

(٢) لقد كانت ثورة ابن الأحمر بحصن أرجونة من أعمال قرطبة سنة تسع
وعشرين وستمائة بعد ثورة ابن هود ، وهو مؤسس دولة بني الأحمر ،
المعروفة بالدولة النصرية ، توفي سنة ٦٧١ هـ . انظر ترجمته فسي :
الاحاطة ٩٢/٢ وما بعدها ، والمغرب ١٠٩/٢ وما بعدها .

(٣) وادي آش : مدينة أندلسية كبيرة ، قريبة من غرناطة . انظر السروض
المعطار ص ٦٠٤ .

(٤) انظر : نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان ص ٣٢ .

(٥) لقد تحالف ابن الأحمر مع الباجي لفاية في نفسه ، لأنه بعد تمكنه
من إشبيلية دس إليه من قتله . انظر عصر المرابطين والموحدين

٤١٥/٢ .

شككية ، بقي كل واحد منهما يترى بالآخر ، لأن ابن الأحمر ، ظلّ يشمر أن ابن هود هو خصمه الحقيقي ومنافسه في رئاسة الأندلس (١) .

وكان النصارى قد استغلوا ظروف المنازعة والمخاصمة والحروب الأهلية بين أبناء الأمة الأندلسية ، فبدأوا بتنفيذ مخططهم والاستيلاء على المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى ، فسقطت ماردة وطليسوس ، سنة ٦٢٨ هـ ، إثر هزيمة لحقت بابن هود ، ثم تيمتها شريش (٢) سنة ٦٣٠ هـ وأندة (٣) سنة ٦٣١ هـ (٤) .

وكانت أعظم ضربة حلت بالأمة الأندلسية في تلك الفترة ، هي سقوط قرطبة (٥) سنة ٦٣٣ هـ ، عاصمة الخلافة القديمة وكبرى قواعده الأندلس ، وكان سقوطها نذيراً بخضوع معظم البلاد والحصون القريبة لسلطان النصارى (٦) .

-
- (١) انظر: عصر المرابطين والموحدين ٤١٦٢، ٤١٧٠ .
 (٢) شريش: من كور الأندلس ، على مقربة من البحر . انظر: الرض الممطار ص ٣٤٠ .
 (٣) أندة : مدينة من كور بلنسية . انظر : المصدر نفسه ص ٤١ .
 (٤) انظر: نهاية الأندلس ص ٢٧ .
 (٥) قرطبة : قاعدة الأندلس وأهم مدائنها ، ومقر خلافة الأمويين : انظر : الرض الممطار ص ٤٥٦ - ٤٦٠ .
 (٦) عصر المرابطين والموحدين : ٤٢٥ / ٢ .

أما بلنسية ، فكانت أيضا هدفا بارزا من أهداف النصارى ، وقرروا احتلالها ، وبدأوا بمهاجمة أطرافها في أواخر سنة ١٢٦١ هـ ، فاستطاعوا السيطرة على برينانة^(١) بعد حصار دام شهرين ، وسقطت بعدها مجرعة من الحصون ، ولكنها كانت من الحصون الأمامية لحصن بلنسية الكبير ، وقد بقيت ثغور بلنسية الأمامية معرضة للغزو النصاراني من سنة ١٢٦١ هـ - سنة ١٢٦٣ هـ^(٢) .

ومن الجدير بالذكر ، أن الأمير زيان قد بذل كل جهد مستطاع ليوقف تقدم النصارى منذ بداية مهاجمتهم لبلنسية ، بل حاول ذلك أن يقوم بغزو أراضيهم ، وهذا حلفا مع ابن هون ، على الرغم من العداوة بينهما ، وقام بمهاجمة بعض الحصون الأرجونية ، ولكنه لم ينجح في ذلك ، فعاد أدراجه إلى بلنسية^(٣) .

وقد هدأت أحوال بلنسية نسبيا ، حتى سنة ١٢٦٤ هـ ، ولا نشغفنا الملك الألباجوني ببعض الشؤون الداخلية والمائليّة في بلاده^(٤) .

(١) برينانة : بالأندلس بقرب عقبة أنبشة قريبة من بلنسية . انظر : الريح المعطار ص ٨٨ .

(٢) انظر : عصر المرابطين والموحدين ٢ / ٤٤٠ .

(٣) انظر : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ليوسف أشباح ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .

(٤) انظر : عصر المرابطين والموحدين ٢ / ٤٤٠ .

وفي سنة ٦٣٤ هـ ، هاجم النصاري حصناً عظيماً من حصون بلنسية ، كان الأمير زيان قد أمر بهدنه لمعظمه وأهميته ، وهو حصن أنيشة (١) المنيع وقد استطاعوا بعد معركة حامية استبسل فيها أهل بلنسية ، السيطرة على هذا الحصن العظيم ، الذي قُتل في معركته سبعون من أفضل رجالات وطماة بلنسية ، كان على رأسهم الشيخ العالم الكبير أبو الريح سليمان بن موسى الكلاعي (٢) ، أكبر شيخ من شيوخ ابن الأبار ، وقد رثاه بقصيدة طويلة سنتحدث عنها فيما بعد . وكانت هذه الهزيمة المظيعة إنذاراً بسقوط بلنسية نهائياً (٣) .

بعد موت ابن هود سنة ٦٣٥ هـ ، وسقوط حصن أنيشة المنيع ، ازدادت ثقة النصاري بقدرتهم على الاستيلاء على بلنسية بأكملها ، وبدأ

(١) أنيشة : بالشين المعجمة والجيم مما ، موضح على مقربة من بلنسية .
انظر : الروض الممطار ص ٤١ .

(٢) هو من أهل بلنسية ، مولده سنة ٥٦٥ هـ ، ووفاته سنة ٦٣٤ هـ . وكان إماماً في صناعة الحديث ، بصيراً حافظاً عارفاً بالجرح والتعديل ، ذاكرة للمواليد والوفيات ، يتقدم أهل زمانه في ذلك ، وفي حفظ أسماء الرجال ، مع الاستبحار في الأدب والاشتجار في البلاغة ، فرداً في إنشاء الرسائل ، مجيداً في النظم ، خطيباً فصيحاً مفوهاً ، له ترجمة : في : برنامج شيوخ الرعيني ص ٦٦ ، ٦٧ ، وتاريخ قضاة الأندلس للنياحي ، ص ١١٩ ، وإعقاب الكتاب ص ٢٤٩ ، والذيل والتكملة ، السفر الرابع ، ص ٨٤ ، ومقتضب التحفة لابن الأبار في : مجلة المشرق ، مجلد ٤١ ، ص ٥٦٧ .

(٣) انظر : عصر المرابطين والموحدين ٢ / ٤٤٢ .

حصار بلنسية في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٦٣٥ هـ ، وشددوا حصارهم وتضييقهم على أهلها ، ودافع عنها أهلها دفاع المستعيت ، واستنجد أميرها زيان بالأندلس . بين الذين لم يستطيعوا تلبية النداء لحرومهم الأهلية من جهة ، وتهديد النصارى لهم من جهة أخرى . كما استنجد بالأمر الحفصيّ أبي زكرياء أمير تونس ، وكان ابن الأبار على رأس الوفد الذي أرسله زيان ، وألقى ابن الأبار بين يديه قصيدة طويلة ، ستحدث عنها . وطبق الأمير الحفصيّ النداء ومعت بأسطول كبير لاجتدتها ، ولكن ذلك أتى بعد فوات الأوان ، ولم يستطع الأسطول إغاثة بلنسية .

ولما اشتدّ الحصار ، وكثر إعياء المسلمين ، يش زيان من الانتصار واضطر إلى مفاوضة النصارى على تسليم بلنسية ، وكان ذلك يوم الثلاثاء فبي السابع عشر من صفر سنة ٦٣٦ هـ . وقد تولى ابن الأبار كتابة المقد عمن أبي جميل زيان بنفسه . وقد نصّ الاتفاق على أن يفادر من أراد من المسلمين بلده خلال عشرين يوماً بأمواله وأسبابه ، يقول ابن الأبار مشيراً إلى التقلّاء الأمير زيان بالطك النصراني : " وفي هذا اليوم خرج أبو جميل زيان ، من مدافع بن يوسف بن سعد الجذامي من المدينة ، وهو يومئذ أميرها . . وأقبل الطاغية ، وقد تزوّجاً بأحسن زوّ في عظماء قومه . . واتفقا على أن يتسلّسم الطاغية البلد سلماً لعشرين يوماً ، ينتقل أهلها أثناءها بأموالهم وأسبابهم . وحضرت ذلك كله ، وتوليت المقد عن أبي جميل في ذلك ، وابتدى بضعفة الناس ، فسيروا في البحر إلى نواحي دانية ، واتصل انتقال سائرهم ببراً وحراً . وصبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور ، كان خروج

أبي جميل بأهله من القصر ، في طائفة يسيرة أقامت معه ، وعند ذلك استولى عليها السروم (١) .

وقبل أن تنتقل إلى افريقيا ، لنلقي نظرة على أحوالها السياسية في هذه الفترة ، سأحاول إيراد أهم الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة المؤلمة ، حتى كانت أحداث النصف الأول من القرن السابع ، أي إذا بنا انتهاء الوجود العربي الاسلامي في الأندلس (٢) .

(١) الحلة السّيرة ١٢٧/٢ ، وانظر في سقوط بلنسية : تاريخ ابن خلدون ٦٠٠/٦ وما بعدها ، وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٢٧ ، ونفخ الطيب ٤٥٦/٤ ، وحصن المرابطين والموحدين ٤٤٤/٢ - ٤٥٠ ، وتاريخ الأندلس ٤٢٢ - ٤٢٤ .

(٢) بعد سقوط بلنسية ، أخذت المدن الأندلسية تسقط تباعا بيد النصارى بيد مهانة ابن الأحمر لهم ودفع الجزية ، كذلك فان أصغر الزعماء الذين اختلفوا واقتتلوا ، كبنو عيسى في شاطبة ، وبني همام في سيوريطة ، وأبي عبدالله محمد بن أحلى في لورقة وغيرهم ، آثروا الانضواء تحت لواء النصارى ، فسقطت شاطبة ودانية سنة ٦٣٨ هـ ، ولحقت ووريطة وقرطاجنة وشلب سنة ٦٤٠ هـ ، ومرسية سنة ٦٤١ هـ ، وجيان سنة ٦٤٤ هـ ، واشبيلية سنة ٦٤٦ هـ ، وشنتمة الغرب سنة ٦٤٧ هـ ، وولاية سنة ٦٥٥ هـ ، وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجري حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت بيد إسبانيا النصرانية . راجع ذلك في : نهاية الأندلس ص ١٦ .

أما أهم الأسباب فهي :

١ - أن الممالك النصرانية توحدت وتجمعت وقررت استرداد الأندلس وتطهيرها من الإسلام والمسلمين ، كل ذلك بتحريض وممونة من الكنيسة التي لعبت دورا خطيرا في الصراع بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة . فقد قام البابا باستصراخ أمم أوروبا وحثها على تنظيم أكبر حملة ضد مسلمي الأندلس ، وتلبية أوروبا النصرانية النداء ، وإرسالها أعدادا كبيرة من المحاربين ، وهدمهم الصاجد وثناة كنائس مكانها في المدن التي كانوا يستولون عليها ، كما أن آلاف منهم كانوا يتقلدون الصليب في مجتهم ، كل هذه أدلة على أن حربهم كانت عقائدية صليبية تهدف إلى القضاء على الإسلام والمسلمين (١) .

٢ - أن استمداد النصارى وتنظيمهم لهذه الجيوش ، جاء في فترة ضعف الخلافة الموحديّة ، واضطراب أمورها ، وانكباب خلفائها على الطغذات ، وصراعهم البغيض على السلطنة ، وإهمال الأندلس وشؤونها ، وتركها للنصارى يقتطمون ما شاءوا منها من الأجزاء .

(١) أنظر تفصيل هذه القضية في : البيان المفرب ٣ / ٢٤١ ، والممجب ص ٢٩٩ ، وتاريخ الأندلس ص ٣٥٢ - ٣٦١ .

٣ - اضطهاد الأندلسيين وظلمهم ، مما كان له أكبر الأثر في هزيمة المسلمين في موقعة الحَقاب ، إنَّ طَبَقَ الأندلسيون هازيين أمام جيوش النصارى ، لأنَّ الناصر كان قد قتل أحد قادتهم الكبار واتبه بمعاونة المدد (١) ، وقد ظهر ظلم الزعماء الموحدين جلياً أيام المستنصر ومد وفاته ، فأضطهدوا وسراحه ، وأبعدوا عن دفة الحكم . وأمام هذا الظلم أخذ الأندلسيون يملطون على الاستقلال عن الموحدين بالوقوف إلى جانب الحركات والثورات المناهضة ، وأخذوا يقتلون الموحدين ويستأصلونهم من كل بلد من بلاد الأندلس (٢) .

٤ - الخلاف بين أبناء الأئمة الأندلسية ، وعدم اتحادهم وتناثر قوتهم واهتمامهم بأطماعهم الشخصية ، واستعانتهم بالنصارى ضد بعضهم ، وتسليمهم البلاد والقلاع الأندلسية غريبة لذلك . هذه هي أهم الأسباب التي مكنت النصارى من الكثير من المسكن الأندلسية ، وجعلت في انهيارها وتسليمها .

* * * *

(١) انظر ذلك في : الأنيس المطرب ص ٢٣٩ ، والاستقصا ٢/٢٢٢ ،

٢٢٣ .

(٢) انظر : تاريخ الأندلس ص ٤٠١ .

أمّا افريقية (تونس) ، فقد توجه إليها ابن الأبار بعد سقوط بلده أيام أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد مؤسس الدولة الحفصية (١) . وقد عطل أبو زكريا بعد انفصاله عن الموحدين ، على مدّ نفوذه إلى ما وراء افريقية ، ولكن الطريق لم تكن ممهدة أمامه ، بل إنّ ثورات واضطرابات اعترضت طريقه ، ولكنه استطاع تصفيتها والقضاء عليها . فمن ذلك ثورة ابن غانية التي قضى عليها سنة ٦٣١ هـ ، (٢) وثورة أهل أوراس سنة ٦٣٦ هـ (٣) ، وثورة الهرغي بطرابلس سنة ٦٣٩ هـ (٤) . ولم تقعه هذه الثورات عن القيام

(١) لقد كانت الدولة الحفصية منذ قيامها في افريقية سنة ٥٦٠ هـ برعاية الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ، تابعة للموحدين واستمرت على ذلك ، حتى تولى الحكم أبو زكريا يحيى سنة ٦٢٥ هـ ، فاستبدّ في الحكم وخلع طاعة الموحدين ، ولقّب نفسه بالأخير وذلك سنة ٦٢٧ هـ ، واستقل استقلالاً تاماً عندما عقد البيعة لنفسه سنة ٦٣٤ هـ . انظر أخبار دولة بني حفص قبل تولى يحيى الحكم في : تاريخ الدولتين ص ١٨ - ٢٣ ، وتاريخ ابن خلدون ٥٧٧/٦ - ٥٩٣ ، والبيان المفروب ص ٢٧١ ، وما بعدها ، وإتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف ص ١٥٢ - ١٥٥ .

(٢) تفاصيل ذلك في : تاريخ ابن خلدون ٥٩٦/٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٥٩٨/٦ ، وأوراس : جبل بافريقية متصل بالسوس . انظر الروض الممطار ص ٦٥ .

(٤) هو يمقوب بن يوسف بن محمد الهرغي من مشيخة الموحدين ، عقد له أبو زكريا على طرابلس وجهاتها . انظر : تاريخ ابن خلدون ٥٩٨/٦ - ٦٠٠ . وطرابلس : من مدن افريقية ، وهي كبيرة أزلية على ساحل البحر . انظر : الروض الممطار ص ٣٨٩ .

ببعض الحملات ، فقد استولى على قسنطينة ، وحجاية (١) سنة ٦٢٦ هـ ، وقام بحملة كبيرة إلى تلمسان (٢) سنة ٦٣٩ هـ ، فاستولى عليها ، وأجبر يُفْمَرَأْسِينَ (٣) على دفع الجزية ، وعاد بعد هذا الفتح قرير الميـن باعتماد ملكه ، وإذعان المغرب لطاعته وانقياده ، نحكمه (٤) ،

ومِنما كان الأمير أبو زكريا يعطى على توطيد أركان دولته ، كانت مدن الأندلس تسقط ثبعا بيد النصاري ، وغادر أهلها بلادهم فارين بأنفسهم ودينهم . وقد توجه عدد كبير منهم إلى افريقية ، واستظلوا بظل دولة بني حفص .

وقد وصلت بيعات أهل الأندلس لأبي زكريا الحفصي أثناء تهديده النصاري لمدنهم . فمن ذلك بيعة أهل بلنسية ، وشقر ، ومرسية ، ودانية (٥) ،

(١) قسنطينة : من شاهير بلاد افريقية الحصينة ، ومنها مين بجاية ستة أيام . وحجاية : قاعدة المغرب الأوسط ، مدينة عظيمة على ضفة البحر . انظر : الروض الممطار ص ٤٨٠ - ٤٨١ ، ص ٨٠ - ٨٢ .

(٢) تلمسان : قاعدة المغرب الأوسط ، وهي مدينة في أول الصحراء على الطريق إلى سجلماسة . انظر : الروض الممطار ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٣) هو يَفْمَرَأْسِين بن زيان مؤسس الدولة المبردية بتلمسان سنة ٦٣٣ هـ ، انظر : الأنيس المطرب ص ٢٥٧ ، والاحاطة ١/٥٧١ .

(٤) انظر : تاريخ ابن خلدون ٦/٦٠٧ - ٦١٠ ، والبيان المغرب ص ٣٦٠ ، وما بعدها والفارسية في جادى الحفصية ص ١٠٩ .

(٥) دانية : مدينة بشرق الأندلس على البحر . انظر : الروض الممطار ص ٢٣١ .

واشبهلية وطريف (١) ، وشريش والمريسة ، وايمة ابن الأحمر سنة ٦٤٠ هـ ،
وأهل سجلماسة (٢) ومكناسة (٣) وسبتة (٤) وطنجة (٥) وقصر ابن عبد
الكريم يوسف أصبح أبو زكريا من أقوى الأمراء سلطانا في شمال-الـ
افريقية (٦) .

وكان أبو زكريا ، قد ولي ابنه أبا يحيى زكريا بجاية
وأعمالها سنة ٦٣٣ هـ ، وكتب له المهد سنة ٦٣٨ هـ ، وخطب له على
جميع منابر افريقية ، ولكنَّ القدر لم يمهله ، فتوفي سنة ٦٤٦ هـ (٧) .

-
- (١) طريف : جزيرة أندلسية صغيرة على البحر يشقها نهر صغير . انظر :
الروض المعطار . ص ٣٩٢ .
- (٢) سجلماسة : من أعظم مدن المغرب على طرف الصحراء . انظر : المصدر
نفسه ص ٣٠٥ - ٣٠٧ .
- (٣) مكناسة : مدينة في المغرب من ينظر فاس بينها وبين فاس أربعون
ميلا . انظر : المصدر نفسه ، ص ٥٤٤ .
- (٤) سبتة : مدينة عظيمة يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا من جهة
المغرب . انظر : المصدر نفسه ، ص ٣٠٣ - ٣٠٥ .
- (٥) طنجة : مدينة بالمغرب قديمة على ساحل البحر . انظر : المصدر نفسه
ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .
- (٦) قصر ابن عبد الكريم : مدينة صغيرة بينها وبين مكناسة في جهة المغرب
ثلاث مراحل . انظر : المصدر نفسه ص ٤٧٦ .
- (٧) انظر بيئات هذه المدن في : تاريخ ابن خلدون ٦٠٠/٦ - ٦٠٥ ،
٦١١ ، ٦١٥ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، والبيان المغرب : ص ٣٥٤ .
- (٨) انظر اخبار أبي يحيى زكريا في : تاريخ الدولتين ص ٣٠ ، وتاريخ ابن
خلدون ٦١٩/٦ - ٦٢٤ .

ومعد موته بمقام واحد لحقه والده ، وطار خبر مهلكه في الآفاق ، فانتفض كثير من أهل القاصية ، ونبذوا الدعوة الحفصية ، وانتفض أهل شبشة وبعثهم أهل طنجة (١) .

ومعد موت أبي زكريا تولى الحكم ابنه المستنصر ، ولم يكن عصره أقل ازدهارا من عصر أبيه ، فبعد ثورة عمه محمد الليحاني والقضاء عليها (٢) أخذ في التمكين للحفصيين في المغرب الأوسط فنجح في ذلك . وقد استتـ...
دخلوا في الدعوة الحفصية سنة ٦٥٧ هـ (٣) .

وصحبا يكن من أمر ، فإن عصر أبي زكريا وابنه المستنصر ، يعتبر
أعظم فترة في تاريخ الحفصيين ، استطاعا في غضون سنوات قليلة ، من رفع
شأن تونس سياسيا وثقافيا وحضاريا ، وأصبحت الدولة الحفصية في زمنهما
القوة الإسلامية التي أضحت أصلا لموحدي الأندلس في بقاء الحكم الإسلامي
في إسبانيا (٤) .

-
- (١) انظر : تاريخ ابن خلدون ٦٢٤/٦ - ٦٢٦ .
(٢) تفاصيل الخبر في : المصدر نفسه ٦٢٧/٦ - ٦٢٨ .
(٣) انظر نصيحة أهل مكة في : الفارسية في جادى الدولة الحفصية
ص ١٢٠ ، وتاريخ الدولتين ص ٣٧ ، وتاريخ ابن خلدون ٦٣٤/٥ ،
وما بعدها .

- (٤) الدولة السعيدية بالمغرب للمبدع علام ص ٢٨٩ .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لم تسلم الحياة الاقتصادية مما أصاب الحياة السياسية من اضطراب وتفكك ، بل انعكست آثارها على الحياة الاقتصادية ، انعكاسا مباشرا . ومع أن الحياة الاقتصادية كانت مزدهرة أيام قوة الخلافة الموحدية (١) فكان الناس يعيشون في رغد من المعيش إلا أن الأحوال تبدلت باطلالة القرن السابع ، فكثر المجاعات ، وقلت الأوقات ، وارتفعت الأسعار ، وتدهورت الزراعة والصناعة وكسدت التجارة ، وتناثر الأموال .

وهناك ظواهر ثلاث عطت على إضعاف الحياة الاقتصادية ، وتدهورها وهي : الثورات والحروب والفتن ، وفساد الولاة واختلاسهم للأموال ، وغزو النصارى للبلاد الأندلسية ، وتدميرهم لكل ما تقع عليه أيديهم .

ففي مطلع القرن السابع ، اشتد عيث طوائف المرابطين بأفريقية " وضربوا مدنها واجتاحوا بسائطها ، وتفاقم هذا الميث والتخريب أيام ثورة بني غانية بما ترتب على مفارقتهم من صنوف الدمار المطبق وقطع السبل ، ونهب التجار ، وانقطاع المعاملات السلعية ، أخذ خراب أفريقية وهي أغنى أقطار الدولة وأوفرها خصبا وموارد يحدث أثره في اقتصاد الدولة (٢) .

(١) لمصرفة مدى ازدهار الحياة الاقتصادية أيام قوة الخلافة الموحدية

أنظر : نفح الطيب ١٠٥/٣ ، وتاريخ الأندلس ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ٦٢٥/٢ .

وتبعاً لهذه الأحداث كانت غزوة العقاب التي قُضت بفناء الجند على الأيدي الماطة وانهارت الزراعة والتجارة وفشت المجاعة في المغرب والأندلس، وتحطمت خزينة الدولة بما لحقته في هذه المعركة (١).

واضطربت الأحوال الاقتصادية، وأخذت تسير من سيء إلى أسوأ، بتولي المستنصر للخلافة، فاشتد الحال وتناهى الفلاة واضطرب الأمن ووقع النهب على التجار (٢).

بعد موت المستنصر اشتملت الحروب والفتن في المغرب والأندلس حول كرسي الخلافة، وكان لتلك الفتن الأثر الكبير في تدهور الحياة الاقتصادية وتحطيمها، فانتشرت المجاعات وتحطمت المرافق، وعدم استت القوات (٣) ونتج عن الصراع حول السلطة أيضاً بمرثرة أموال الدولة ويدفعها للفرقة النصارى. فهذا المؤمن بمقد هدية تحالف معهم، فيدفع "ثلثمائة ألف قطعة من الفضة" (٤)، وهذا الرشيد (٥) يدفع خصمائه ألف دينار لهم، استرضاءً واقتداءً لاستباحة مراكش ونهبها، على أثر اعتداء يحيى الممتصم على كنيسهم في مراكش، وقتله لمن فيها ونهبها (٦).

(١) عصر المرابطين والموحدين ٢ / ٦٢٥.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: البيان المغرب ٣ / ٢٣٦، ٢٤٥، وانظر ما حدث في سنتي ٦١٦ هـ، ٦١٧ هـ في: المصدر نفسه ٣ / ٣٤٥، والذخيرة السننية ص ٣٥.

(٣) انظر: البيان المغرب ٣ / ٣٠٢.

(٤) عصر المرابطين والموحدين: ٢ / ٣٦٣.

(٥) هو عبد الواحد بن إدريس بن يعقوب المنصور، بويغ له بالخلافة بعد موت أبيه. انظر أخباره في الأنيس المطرب ص ٢٥ وما بعدها.

(٦) انظر: البيان المغرب ٣ / ٢٨٤ - ٢٨٥.

وقد سلك زعماء الحركات الثائرة المتخاصمة في الأندلس بعد الفتنة، نفس الطريق الذي سلكه المأمون. فهذا ابن هود يعمد الهدنة مع ملك قشتالة سنة ٦٣٠هـ، نظير ألف دينار يدفعها إليه في كل يوم، عندما تكاثر عليه الخصوم (١). ثم يجدد الهدنة سنة ٦٣٢هـ بمائة ألف وثلاثين ألف دينار (٢) وفي سنة ٦٣٣هـ ينمقد الصلح بين ملك قشتالة (٣) وابن هود لأربعة أعوام بأربعمائة ألف دينار في السنة (٤).

وإذا كان ابن هود قد دفع الأموال الطائلة لأعدائه ليأمن شرهم ويتفرغ لمنافسة ابن الأحمر، فإن ابن الأحمر قد لجأ إلى الأسلوب نفسه وأدى "جزية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب في كل سنة" (٥)، لكي يتفرغ هو الآخر لمنافسة وخصومه، ولم يكن حال الزعماء الصغار بأفضل من حال هذين الزعيمين.

(١) انظر: البيان المغرب، ٢٨٨/٣.

(٢) حصر المرابطين والموحدين ٤١٢/٢.

(٣) قشتالة: هي المملكة الإسبانية الكبرى في تلك الفترة، وحدثها فيما

بين الجنوب والشمال، ومن الممالك الإسبانية في تلك الفترة أيضاً

آرغون وليون. انظر: المصجب ص ٤٠٠، والروض المعطار ص ٤٨٣.

(٤) الأتيس المطرب: ص ٢٢٦.

(٥) مأساة الوجود العربي لعبد الكريم التواتي، ص ٤٠٥.

أما فساد الولاية واختلاسهم وسرقاتهم ، فقد ظهر منذ زمن المنصور ، وقد كانت سرقاتهم تبلغ عشرات الآلاف من الدينارين ولكن المنصور كان يلاحقهم ويماقهم ويسجنهم (١) .

وفي عهد الولاية الذين لحقوا بالمنصور ، نجد أمثلة كثيرة على فساد الولاية واختلاسهم ، ففي سنة ٦٠٤ هـ قُتل الناصر بمدينة فاس (٢) ، فازدهت على بابه قبائل من أقطار المدينة وأخلاق من الناس مشتكين بمعامل فاس ومعامل مكناسة ، فنكبوا جميعا واستصفوا ما وجد لهم من أثاث .

وأموال (٣) وفي سنة ٦٠٧ هـ أيضا - أثناء حركة الناصر إلى الأندلس ، عانى الناس من المجاعة ، وعدم الأقوات ، حتى خلت المخازن ، وأصابها الاقتار ، كل ذلك بسبب الرشوة والاختلاس (٤) .

وإذا كان حال الولاية والمماليك ، قد وصل إلى هذا الحد ففي عهد كبار الخلفاء ، فكيف سيكون الحال في عهد من سيأتي من ضعاف الخلفاء ، وخاصة المستنصر الذي ترك شؤون البلاد إلى عمال ولاية ظلمة ، اشتروا مناصبهم بالمال ، فردوها أضعافا مضاعفة بالسرقة والرشوة (٥) والاضطهاد ٢٢

(١) انظر: البيان المغرب ٢/٣٠٠ ، ٢٠١ .

(٢) فاس: مدينة عظيمة ، وهي قطب المغرب الأقصى . انظر: الروض المصطار ص ٤٣٤ .

(٣) انظر: البيان المغرب ٣/٢٦٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ٣/٢٣٦ .

(٥) انظر : تاريخ الأندلس ص ٤٠١ .

وتتجهجا لكل ما سبق ، كان غزو النصارى للبلاد الأندلسية ، الذين لم يتركوا طريقاً إلا واستعملوه في تدمير الأندلس ونهب خيراتها . فهذا هو زعيم القشتاليين ، يسير صوب الأندلس ، فينتسف الحقول ، وينهب القرى ، ثم يقوم بتخريب أراضي جيان وميلاسة ، ويسلب ما فيها ويمسود مثقلاً بالفنائم (١) . ويسير النصارى في سنة ٦٢٢ هـ نحو قيجاطة (٢) ، التي كانت تزرع بالأموال والثروات ، فيقتحمونها ويستولون على كل ما فيها (٣) ونكتفون بهذين المثلين لأن نظرة فاحصة في المصادر الأندلسية تبين بكل وضوح ، أنه ما من مدينة وقعت في أيدي النصارى ، ونجت من الدمار والتخريب والنهب والسلب .

ولم تكن الحياة الاجتماعية بحال أفضل من الحياتين السياسية والاقتصادية ، بل إن الخلل الذي أصابها ترك آثاره الواضحة في الحياة الاجتماعية ، فاضطربت أحوالها وفسدت .

وكان المجتمع الأندلسي في هذه الفترة يتألف من عناصر سكانية هي : العرب ، والبربر ، وسكان البلاد الأصليين ، وأهل الذمة . وقد اعتاد العرب على " الخروج عن رقعة الحكم وعدم الانقياد للسياسة في فضاية الأحوال عندهم الرحلة والتغلب (٤) . لذلك فقد تألفهم الموحدون

(١) انظر المرجع نفسه ص ٣٥٦ .

(٢) قيجاطة : مدينة بالأندلس من عمل جيان . انظر : الرض المعطار

ص ٤٨٨ .

(٣) انظر : البيان المغرب ٢٤٩/٣ .

(٤) مقدمة ابن خلدون : ص ١١٨ .

وعطوا على استئصالهم ، ونجحوا في ذلك ، فألقوا منهم قوّة عسكرية مميّزة كانت
ثقف إلى جانبهم في حروبهم وعطوا بالرعاية والإحسان ، ووزعت عليهم
الأراضي (١) ، وفي أثناء الفتنة في المغرب والأندلس كانت بعض القبائل
المصريّة والبحريّة تحارب ضدّ الموحدين ، وتعلّى على نشر الخبيث والفوضى
والفساد وقطع الطرق (٢) .

أما أهل الدّمّة ، فمع أنّهم عطوا بقسوة أيام ازدهار الدولة
وقوتها ، إلا أنّهم قد نالوا قسماً كبيراً من الحرّية فيما بعد ، لأنّهم في حالة
قوة ، يستنجد ويحتسب بهم ، فابتليت لهم الكنائس ، وعطوا معاملة حسنة من
قبل ملوك الموحدين ، وعينوا في قصورهم أشخاصاً لاستقبال ملوك المـ
وسفرائهم ، والاستفال بإنزالهم ضيافتهم ، والترجمة عنهم (٣) وتزوج بعضهم
الملوك المتأخرين منهم (٤) ، وقربوا القواد النصارى منهم وأشركوهم في
أعمالهم .

(١) انظر: عصر المرابطين والموحدين ، ٢٧٦/٢ .

(٢) انظر: المرجع نفسه : ٢٥٨/٢ ، ٣٦٤ ، والأندلس المطرب ص ٢٨٨ .

(٣) انظر : البيان المغرب ٢٣٠/٣ .

(٤) لقد تزوّج المأمون من حباية الروميّة أم الرشيد ، التي كان
لها دور كبير في سياسة الحكم ، فقد كانت على اتصال مباشر بالنصارى
حتى أنّها بعد موت المأمون أخفت موته عن العامة ، وكان أول من علم
بموته القواد النصارى ، خوفاً من القيام على ولدها الرشيد . انظر:
البيان المغرب ٢٨٢/٣ .

وكان عامة الناس يضمرون الحقد والكراهة للنصارى لتفطير سبهم واحتلالهم لأرضهم وعيشهم فيها . فهذا يحيى المصطفى يقوم بسا عدة مجموعة كبيرة من الناس بمهاجمة مراكش في غياب المأمون عنها سنة ٦٢٩ هـ فيهدم كنيسة يبيقتل من فيها من النصارى ، ويكثر أيضا من قتل اليهود فيغضب المأمون ، ويقسم أنه سيطلق حلفاءه على مراكش ثلاثة أيام لينتصفوا فيها لأنفسهم (١) .

وكانت معاملة اليهود أيضا حسنة ، مع أنهم عوطوا بقسوة وشدة أيام الأقباط من الموحدين (٢) ، إلا أننا نجد بعضهم في هذه الفترة سفراء عند ملوك النصارى إلى ملوك المغرب كابن الفخار اليهودي (٣) .

وإذا كان هذا هو حال النصارى عند حكام الموحدين ، فإنهم كسبهم في الأندلس كانت الأولى والأخيرة ، لقوتهم وتغلبهم على البلاد ، فكثرت كنائسهم ، وحلت محل مساجد المسلمين ، وتطاولوا في أذى المسلمين وقتلهم وطردوهم لأنهم كانوا يقاتلونهم من منطلق أن المسلمين غزاة الأندلس (٤) ، لذا فإنهم يحاربونهم من أجل انتقامها وإعادة اليهم من جديد (٥) .

(١) انظر: البيان المغرب ٣/ ٢٨١، ٢٨٢ ، والانبيا المطرب ٢٥٣ .

(٢) انظر : البيان المغرب ٣/ ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٣) انظر نفح الطيب ٣/ ٥٢٧ ، وقد أورد له بعض الأسماء في مخاطبة

أديب مسلم ، و ترجم له صاحب المغرب ٢/ ٢٣٠ .

(٤) هذه هي نظرة الصهاينة اليهود لأبناء شعب فلسطين هذه الأيام ، فالفلسطينيون في نظرهم غزاة محتلون ، احتلوا أرضهم وشتتوا شطهم ، وهدموا أعمالهم الوحشية المستمرة ضد أبناء هذا الشعب يهدفون إلى طرده وتصفية جسديا ومعنويا ، ليتمكنوا من العيش فيها بأمن وسعادة بعد تحريرها من المحتلين الغزاة كما يزعمون .

(٥) انظر ما يؤكد هذه الفكرة في تاريخ الأندلس ص ٤٢٢ ، ٤٣٣ .

وكان التقسيم الطبقي يبدو واضحا كل الوضح ، فقد انقسم الناس إلى طبقتين لا ثالث لهما : الطبقة الحاكمة اللاهنية ، ومن يدور في ظلكها ، والطبقة المحكومة المضطهدة .

وهذا التقسيم هو تقسيم الدعوة الموحديّة للناس منذ بدايتها ، فالقبائل الموحديّة هي الحاكمة التي تستحق العطا * وتنفر في البعث ، وغيرها من القبائل رعيّة لهم (١) .

ومع أنّ التعاليم الموحديّة حاربت مظاهر الفساد واللهو وحاولت صبغ الناس ، بالصّفة الإسلاميّة البحتة ، إلا أنّنا نجد حكام الموحديين أنفسهم يعيشون حياة اللهو والترف . فهذا الناصر بعد هزيمته في موقعة المِقاب ، ينفخ في لذاته ، فيقيم " فيها مصطبحا ومفتيقا " ويمسوت بأمر وزرائه بعد " أن دسّوا إليه من سمّه من جواربه في كأس خمر " (٢) .

وإذا كان الناصر قد عاش حياة لهو وفساد لفترة وجيزة ، هربا مما أصابه (٣) ، فإنّ المستنصر قد جعل كلّ حياته لهوا ومجوناً ، فقيسّد كان ميّلا إلى حياة الدّعة والبطالة ، مشتغلا عن تدبير الأمور بما تقتضيه نوازع الشباب (٤) .

(١) انظر تفصيل هذه الفكرة في : المعجب ص ٤٢٤ .

(٢) الأئمة المطرب : ص ٢٤١ .

(٣) يبدو أنّ الأئمة عند ما تصاب بحادث جلل ، فإن حكامها يتجهون إلى الترف واللذة ليتناسوا ما أصابهم .

(٤) انظر : تاريخ ابن خلدون ٦ / ٢٥٠ .

ويقول صاحب الأنيس المطرب "صوّرا حياتهم عند مهاجمة بنسي مرين لهم سنة ٦١٣ هـ. "وكان طوك الموحدون في تلك السنين، قد تهاونوا في الأمور، واشتغلوا باللهو والخمر، وركنوا إلى الفيد في القصور، فأدّى ذلك بهم إلى القصور" (١).

وكانت هناك طبقة من المبيد والخدم تهرسهم وتقوم على راحتهم، وقد وصل عدل المبيد الذين خرجوا مع الناصر في موقعة المقاب لحراسته إلى ثلاثين ألف عبد (٢).

ولم تقتصر هذه الحياة - حياة اللهو الترف والانحراف - على الطوك فقط، بل كان يحياها إلى جانبهم بعض المترفين من الأغنياء والمستهترين كأبي جعفر أحمد بن طلحة (٣) الذي يقول في هجاء بعض الناس وهو في حالة استهثار في شهر رمضان (٤) :

(١) الأنيس المطرب : ص ٢٨٣ ، وانظر تفصيل ذلك في : المصدر نفسه ص ٢٤٣ ، وورقات عن الحضارة المربية بإفريقية لحسن حسني عبد الوهاب ٢/٢٣١ ، ٢٣٢ ، والأدب الأندلسي في عصر الموحدين لحكمة الأوسي ص ٢٣ .

(٢) انظر : الأنيس المطرب ص ٢٤٠ .

(٣) كان من أهل البلاغة والبراعة ، وهو من جزيرة شقر ، استكتبه ابن هود حين تغلب على الأندلس . انظر : نفح الطيب ٣/٣٠٧ ، وله ترجمة في : اختصار القدح لابن سميذ ص ١١٤ .

(٤) نفح الطيب ٣/٣٠٩ ، ٣١٠ .

يَقُولُ أَخُو الْفُضُولِ وَقَدْ رَأَيْنَا
أَشْتَهَكُونَ شَهْرَ الصَّوْمِ هَسَلًا
فَقُلْتُ: أَصْحَبَ سِوَانَا نَحْنُ قَوْمٌ
نَدِينُ بِكُلِّ دِينٍ غَيْرِ دِينِ الرَّ
بِحَيٍّ عَلَى الصَّبْحِ الدَّهْرُ نَدْعُو
فِيَا شَهْرَ الصَّيَامِ إِلَيْكَ عَسَا
عَلَى الْإِيمَانِ يَفْلِحُنَا الْمَجْسُونُ
حَمَاهُ مِنْكُمْ عَقْلٌ وَدِينٌ
زِنَادَةٌ مَذَاهِبُنَا فَنَسُونُ
عَاكِفًا بِهِ أَبَدًا نَدِينُ
وَابْلَيْسُ يَقُولُ لَنَا أَمِينُ
إِلَيْكَ فَفِيكَ أَكْفَرُ مَا نَكُونُ

وكانت نتيجة حياة الطبقة الحاكمة المترفة المتخاصمة ، وخيمة على عامة الناس ، فقد عانوا الكثير من الظلم والاضطهاد ، من العمال والولاة الذين كان كل من ولي منهم على بلد " عمل فيه برأيه واستبد فيه بأمره " (١) .

وكانت الولايات توزع على أقارب الخليفة ، ففي زمن المستنصر كان يحكم الأندلس أربعة من أعمامه ، وقد " أقطع السيد أبو اسحاق (٢) الذي كان يحكم إشبيلية ، حكم المقاطعات والمناصب بالمال ، وفقا لأهوائه ونصح معاونيه ، وكذلك أبعد الرجال الأكفاء ، ولا سيما الأندلسيين - - واضطهدوا صراحة ، واختفى العدل بنتاتا ، لأن القضاة الذين اضطروا إلى شراء مناصبهم ، حاولوا - باضطهاد الشعب وظلمه - أن يستردوا ما خسروا أو يضاعفوه " (٣) فانتشرت الرشوة وعم الفساد ، وامتلات القلوب سخطا وحقدًا على هؤلاء الولاة .

(١) الأنيب المطرب : ص ٢٤٢ .

(٢) هو السيد أبو اسحاق بن أبي يوسف يعقوب المنصور ، ويلقب بالأحول .

انظر: البيان المغرب ٣ / ٢٤٣ .

(٣) تاريخ الأندلس : ص ٤٠١ .

وعند ما وقعت الفتنة وعادت الأندلس إلى عهد الطوائف، اختلفت القلوب وتفرقت وانقسم الناس إلى شيع وأحزاب متنافرة متقاتلة، وصاحبت ذلك هجمة النصارى التي عانى الناس من وبلائها ما تتحطم أمامه الجبال الرواسي، فاشتدت الأحوال، وكثر الجوع والدمار، وتمرض الناس للقتل الجماعي. فقد قتل النصارى من أهل إشبيلية، سنة ٦٢٢ هـ، عندما خرجوا لا عاقبة تطيلة (١) نحو عشرة آلاف، وكذلك من أهل مرسية، وقتلت أمم لا تحصى من البلدين، حتى خلت المساجد والأسواق (٢). وقتل المدو من أهل أبندة (٣) سنة ٦٠٩ هـ ستمين ألفا، وأسر مثل هذا العدد (٤). ومن أهل ميورقة (٥) في مذبحه سنة ٦٢٧ هـ نحو ثلاثين ألف شخص (٦).

(١) تطيلة: مدينة بالأندلس، بين الجوف والشرق من مدينة سرقسطة أنظر: الروض الممطار ص ١٣٣.

(٢) أنظر: الأنيس المطرب ص ٢٧٣.

(٣) أبندة: مدينة بالأندلس، بينها وبين بياسة سبعة أميال. أنظر: الروض الممطار ص ٦.

(٤) أنظر: تاريخ الأندلس ص ٣٧٢.

(٥) ميورقة: جزيرة في البحر تسامتها من القبلية بجاية، ومن الجوف برشلونة من بلاد آرغون، ومن الشرق إحدى جزيرتيها منرقة. أنظر: الروض الممطار ص ٥٦٧.

(٦) أنظر: عصر المرابطين والموحدين ٤٠٦/٢.

ونتيجة للحروب والفتن ، فقد أصيب الناس بالأمية والقحط
والفلاة الشديدة ، حتى بيع القفيز من القمح بشمالين ديناراً ، وخلت الأحصار
من أهلها ، وأكل الناس بعضهم بعضاً (١) .

وقد أصيب الناس بهزيمة نفسية إلى جانب الهزيمة المادية
لهول الأحداث ، فقد ولوا الأديار هازئين في معركة قصر أبي دانوس ،
وذلك لسابق رغبتهم منذ هزيمة العقاب (٢) .

وظهرت خيانات شخصية إلى جانب خيانة الحكام والعمرديسن ،
وكانت الأهقاد والخصومات هي السبب ، رغم سوء الصير الذي ينتظرهم
جميعاً ، فهذه مجموعة من المسلمين الساخطين على الزعماء ، يقومون
أثناء حصار النصارى لقرطبة ، بالاتفاق مع النصارى ، وإحداث ظم فسي
سورها الشرقي ، فيقتحم الأعداء السور ويستولون على الأبراج ، وتسقط
المدينة (٣) .

ونتيجة لتدمير البلاد ، فقد تشتت أهلها ، ونشأت ظاهرة الجلاء
والهجرة ، وترك الناس بلادهم بقلوب محزونة ، وعيون باكية . وكان معظم
الناس يفرّدينه ونفسه ، كما فعل أهل بلنسية ، إذ خرج منها عنده
سقوطها زهاء خمسين ألف نفس (٤) ، ولكن يعض أهل الأندلس تدجّج
وعاش مع النصارى (٥) .

(١) لقد حدثت مجاعات وأمية كثيرة في سنوات متلاحقة في المغرب والأندلس

كما هو الحال في سنوات : ٦١٠هـ ، ٦١٧هـ ، ٦٢٤هـ ، ٦٣٠هـ ، ٦٣٥هـ ،

انظر : الاستقصا ٢/٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٢) انظر : عصر المرابطين والموحدين ٢/٣٣٩ .

(٣) انظر : المرجع نفسه ٢/٤٢٠ .

(٤) انظر : تاريخ الأندلس ص ٤٢٤ .

(٥) انظر : البيان المغرب ٣/٣٦٧ .

والمعارف والصّون ، إلا أنّ حبّ الأدب كان يحملها على مخالطة أهلها
مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها " (١) ، وكذلك

سنانة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح الحليّة دخلت
الأندلس ومدحت أعراسها ، وخاطبت كتابها وشمراتها ، وكانت تنعم
بالأستاذة وهي من أهل التصوّف (٢) . وممن

الطيبات المشهورات أخت الحفيد أبي بكر بن زهر (٣) ، ومن
العالمات عزيزة بنت عبد الملك القرشيّة الأندلسيّة فاضلة سالحة (٤) .

وأمّ الفتح فائضة بنت عبد الرحمن القرطبي ، ختمت على أبيها قراءات نافعة ،
وقالبت "صحيح مسلم" و"السيرة" لأبي إسحاق "والكامل" و"الزوائد" ،
وقرأت القرآن على كثيرين (٥) . وأمّ الهناء بنت القاضي أبي محمد بن عبد
الحق بن عطية ، سمعت أباه ، وكانت حاضرة النادرة سريعة التمثل ، من
أهل العلم والمقل ولها تكليف وهي شاعرة (٦) .

* * * * *

(١) الا حاطة : ٤٩٧/١ ، ٤٩٨ .

(٢) جذوة الاقتباس لابن القاضي ق ٢ ، ص ٥٢٢ - ٥٢٩ .

(٣) انظر : أعلام النساء لمدرضا كجالة ٢٧٨/١ ، نقلا عن مجلة المعرفة .

(٤) انظر : الأعلام ٢٤/٥ نقلا عن التكملة للوفيات النقلة .

(٥) انظر : أعلام النساء ٧٢/٤ ، ٧٣ ، ولم يذكر صدره .

(٦) انظر : نفح الطيب ٢٩٢/٤ .

وقد كانت الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تونس زمن هجرة ابن الأبار إليها ، طيبة مزدهرة ، وطلق نقیض ما كان عليه الوضع في الأندلس ، فقد ازدهرت الصناعة والزراعة والتجارة ، وعم الأمن ، وانتشر الرخاء ، وعاش الناس في رغد من المیش (١) وامتلأت خزائن الدولة بالأموال ، وجمع أهـو زكرياء الحفصي "بمدله وسياسته أموالاً لا تحصر إلا بالبيت ، والبيت مارة عن ألف ألف دينار ، وثمان مائة ألف عشر مرات" ، وقد ذكر أنه ترك سبعة عشر بيتاً من المال (٢) ومعنى هذا أن اقتصاد الدولة بلغ حدّاً كبيراً يدهش كل من يطلع عليه .

وقد عاش الناس بخير ، فأصابهم الثراء ، حتى لقد انعدم الفقراء والمحتاجون . وليس أدلّ على ذلك من هذه القصة : "وقد حكى أنه بقي دينار طبقى بطريق العطارين مدّة لم يرفعه أحد ، ثم بعد ذلك لم يوجد ، فقال الناس : اليوم دخل لبلدنا غريب" (٣) .

وإذا كان طوك الأندلس ، قد اتجهوا نحو الترف والحيـاة اللامية ، فإنّ أبا زكرياء الحفصي ، رغم الرخاء الذي حلّ بدولته ، إلا أنّـه كان عربياً على الأبهة مائل إلى الخمول لباساً ومركباً ، ولباسه الجبة الصوف ، والحرام الصوف (٤) .

-
- (١) أنظر: الحلل السندسية لابن السراج ص ١٠٢٥ .
 (٢) الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية : ص ١١٣ ، وانظر أيضاً :
 المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ١٣٤ ، والحلل السندسية ص ١٠٢٦ .
 (٣) شجرة النور الزكية لمخلوف : ١٢٩/٢ .
 (٤) الحلل السندسية : ص ١٠٢٥ .

وقد وجه كل طاقاته لبناء الدولة وتحسين أحوالها ، وقد قرب وولده المستنصر الشعراء والعلماء ، وكانت تعقد في قصورهم الندوات والمجالس الأدبية ، واحتوت دوتهم من أكابر العلماء والشعراء ما لم يكن عندهم غيرهم (١) .

وكان المستنصر على عكس والده ، ففي حين اتجه والده إلى الزهد والبساطة في حياته ، فقد اتجه هو إلى الترف والبذخ ، وليس أدلّ على ذلك من الصيد ، الذي شيّده وجعله للصيد ، ووصل ما بين قصوره ورأس الطائفة بحائطين ، ثم بنى الصرح العالي بقنّاء داره " واتخذ بخارج حضرته البستان الطائر الذكر ، المعروف بأبي فهر ، الذي يشتغل على جنات معروشات وغير معروشات ، اغترس فيها من شجرة كلّ فاكهة ، ومن أصناف التين والزيتون والرمّان والنخيل والأعناب . . . ونضد كلّ صنف منها في دوحة ، حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البري ، وسمّى دوح هذه بالشعراء ، واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع ، والحواري وشجر النور . . . وشجر الياسمين والخيري . . . " (٢) .

ولم يقتصر الترف على المستنصر فحسب ، بل إن ابن خلدون ، يصف عامة الناس وصفا يدلّ على تأنقهم في كلّ شيء بسبب الثراء الذي أصابهم ، فيقول : " عظمت حضارة تونس ، وكثرت رف ساكنيها ، وتأنق الناس في الملابس والمراكب ، والمباني والمعان والأبنية ، فأستجادوها وتناغوا في اتخاذها وافشائها إلى أن بلغت غايتها " (٣) .

(١) أنظر: الفارسية في جادى الدولة الحفصية ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ٦ / ٦٣٠ .

(٣) الصدر نفسه : ٦ / ٦٢٦ .

ومع ذلك فإننا لم نمتثل رغم هذا الترف ، على ما يشمر بفسادهم وانحرافهم وزيغهم ، لأنّ بني حفص كانوا يحافظون على الشرع ويحتشدون لأمره ، وأخبارهم في ذلك شهيرة ، وكذلك فإنّ أبا زكرياء مؤسس الدولة كان من التقاة الزهاد ، وقد عمل جاهدا على صيغ الدولة بالاسلام وابعادها عن كل فساد (١) .

وقد وصل إلى تونس مجموعة من المهاجرين الأندلسيين ، بمد طردهم من بلادهم ، وكان معظمهم من سلاسل أسر عريقة ، لها في تاريخ الأندلس السياسي والعلمي أثر بعيد . وقد تجمع هؤلاء عصابة واحدة على علماء أهل البلاد وشايخ الموحدين ، وماطلوا الاستئثار بالوظائف الكبرى ومراتب الشرف ، لأنهم كانوا يشعرون بعد مهم وتفوقهم وراعتهم ، لهذا فإنهم أولى بالمناصب المالية من أهل البلاد ، وكما أن

أهل البلاد يرون عكس ذلك ، إذ على هؤلاء المهاجرين بعد أن استقبلوا استقبالا حسنا ، أن يتواضعوا ويقنعوا بما وجدوه في أوطانهم الجديدة ، لا أن يستأثروا بالمناصب الرفيعة والدرجات المالية (٢) .

من هنا نشأ الخلاف بين أهل البلاد والمهاجرين الذين أشغلوا بمضى المناصب المالية . وقد ذكر ابن خلدون عرضا ، نصّا يبيّن لنا نظرة أهل البلاد إلى المهاجرين - وخاصة الذين تقربوا من السلطان - إن يقول أثناء حديثه عن المستنصر : " واستوزر (أي المستنصر) محمد بن

(١) انظر ج. المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٥٩٢ .

(٢) انظر : مقدمة الحلة السيّراء ، تحقيق حسين مؤنس ص ٤٠ .

أبي مهدي الهنتاتي ، وكان عظيماً في قومه ، فأُمل أن يستبدّ عليه لمكان صفوه . . . واستصحب طيه حجر السلطان بما كان له من . . . الصنائع من بيوت الأندلس ، فقد كان أبوه (أي أبو زكريا) اصطنع منهم رجلاً ، ورتب جنداً ، كثروا الموحدين وزاحموا في مراكزهم من الدولة* (١) .

إذاً فالمزاحمة على المناصب والمراكز العالية ، هي السبب الحقيقي في الخلاف ، وفي نظرة الحقد والحسد لهؤلاء المهاجرين (٢) ؟ !
أما بالنسبة لأهل الذمة ، ومعاونة الحفصيين لهم فقد عثرنا على أنه في سنة ٦٤٨ هـ ، جمعت الشكّة لليهود ، ومطغ في ذلّتهم وميزوا عن المسلمين في لباسهم ، وأجبروا على لباس يشعربذلتهم وهوانهم ، لأنهم كانوا قد تشبهوا بملية المسلمين في لباسهم وأحوالهم (٣) .

أما النصارى ، فمع أن المستنصر قد أهدى لبعض طوكهم زرافة أهديت إليه من ملك السودان (٤) ، إلا أننا نرى أنهم لم يماثلوا معاملة حسنة ، لأن القلوب حاقدة عليهم ، ومصطلية بنار هيّجتهم في الأندلس . كما أن الشعراء في مدحهم للطوك الحفصيين ، كانوا يحثونهم على استئصالهم والنيل منهم ، فكيف يعاطون بالرعاية والإحسان ؟ ؟

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/٦٣٧ .

(٢) هذه هي طبيعة النفس البشرية ، ويد وأنّه ما من أمة في أيّ زمان تضع بلادها ، ويهاجر سكانها إلى بلد آخر ، طمعا في الاستقرار والراحة بمد الذي أصابها ، إلاّ وتماضي وتطلي بنار هذه المشكّة ؟
(٣) أنظر : الفارسيّة في مبادئ الحفصيّة ص ١١٧ ، والحلل السندسيّة ،

ص ١٠٢٧ .

(٤) أنظر : المكان نفسه .

وسبب الأمان والرخاء ، فقد تسابق الناس نحو التعليم ، ونهيت
المدارس لهذه الغاية ، كالمدرسة التوفيقية (١) ، ومدرسة
الشماعين (٢) .

وتحسن مركز المرأة الاجتماعي ، وخرجت لتلقي العلم وتدرسه .
فقد علم حمد الفني العبدري ابنته سيّدة كيؤهلها لحرفة التعليم ، وقد
كانت ابنته هذه ، تجتمع مع العلماء ، في الأندية العلمية ، وتبين رأيها
بكلّ وضوح ، وقد طمعت بتونس في بلاد السلاطين من بني حفص ، وفي دور
الأشراف والأغنياء (٣) . وظهر إلى جانبها ، عائشة بنت عمران بسنن
سليمان الصوفي المتصوفة الزاهدة الحافظة (٤) ، وشمس أم الفقراء ، التي
كان يختلف إليها محي الدين بن عربي (٥) ، وغيرهم الكثير .

(١) لقد بنت هذه المدرسة أم المستنصر (عطف) . انظر: الحلل السندسية

ص ١٠٢٧ .

(٢) بني هذه المدرسة أبو زكريا الحفصي . انظر: الصدر نفسه

ص ١٠٢٦ .

(٣) انظر: جذوة الاقتباس ، ق ٢ ، ص ٥٢١ ، ٥٢٢ ، وأعلام النساء

٢ / ٢٧٥ .

(٤) ولدت عائشة في قرية من قرى تونس ، وتوفيت سنة ٦٦٥ هـ ، وحضر جنازتها

أكثر علماء تونس . انظر: شهيرات التونسيات لحسن حسني عبد الوهاب
ص ١١٧ نقلا عن مخطوط مناقب السيّدة الصّومية لمؤلف مجهول .

(٥) انظر: رسالة روح القدس لابن عربي ص ٨٤ ، وانظر: ترجمطين عوسي

مفصلة في ، التنظية ٢ / ٦٥٢ . وعنوان للدراسة ص ٩٧ - ٩٩ وفوات

الوفيات ٢ / ٢٤١ ، ٢٤٣ .

الحياة الثقافية

قد يظنّ من يطلع على الحياة السياسية والاقتصادية —
والاجتماعية ، في الأندلس في القرن السابع الهجري ، أن الحياة الثقافية
كانت أيضا هزيلة مفككة ، ولكنّ المكس هو الصحيح . فـ
استمرت الحياة الثقافية في انتماشها وازدهارها ^(١) ، رغم
سوء الأحوال السياسية وتفرّق كلمة الأمة ، مما يدلّ على أنّه لا علاقة بين
السياسة والثقافة ^(٢) .

وقد ظهرت مجموعة كبيرة من العلماء ، كانوا يقرأون لأن يعلموا ،
لا لأن يأخذوا جاريا ، فالعالم منهم باع لأنّه يطلب ذلك العلم بباعث من
نفسه ، يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده
حتى يعلم ^(٣) .

(١) لقد كانت الحياة الثقافية مزدهرة في المغرب والأندلس على عهد
الموحدين . انظر تفصيل ذلك في : كتاب الملووم والآداب والفنون
لمحمود المنوني .

(٢) يدلّنا تاريخ الفكر الإنساني على أنّه لا صلة بين القوة السياسية
والانتماش الثقافي ، فجان جاك روسو ، ومونتسكيو ظهرا في فترة بلغ من
ضعفها السياسي أن انتهت بالثورة الفرنسية . وروسيا القيصرية
أنجبت أعلاها الأفاضل في الفترة السابقة للثورة البلشفية ، ففيها ظهر
تولستوي ، ودوستوفسكي ، وتشبخوف وجرجينيف . انظر : القاضي
الجرجاني : الأديب الناقد لمحمود السمرّة ص ٢٤ .

(٣) نفح الطيب : ١ / ٢٢٠ ، ٢٢١ .

وازدهرت في هذا المصر مختلف العلوم ، من دينيَّة ،
ولغويَّة ، وعقليَّة . على أنَّه يلاحظ أنَّ العلوم الدينيَّة ، قد نالت حظا وافرا
من العناية والاهتمام ، فكثرت عماؤها ، وألَّفوا الكتب الكثيرة .

وكان العلماء يتلقون علومهم في المساجد على الشيوخ (١) ، وكان
بعض الشيوخ يدرِّس مجَّانا وبعضهم بأجر (٢) . ولم يكن العالم بما يأخذه
في بلاده من العلم ، بل كان يهاجر إلى شتَّى بلاد الأندلس والمغرب ،
وبعضهم كان يهاجر صوب المشرق . وكان الواحد منهم يحرص على السَّماع
من أكثر من شيخ لتتنوع ثقافته وتعمق . ويكفي للدلالة على تنوع ثقافة علماء
هذا مصر ، عتيق بن الحسين بن علف الله التغلبي من بياضة ، والمتوفى
سنة ٦٦١ هـ ، فقد كان مقرئا محدثا ، فقيها ، نحويا ، أدبيا ، تاريخيا ، أخذ
بحظ وافر من علم الطب ، عارفا بعلم الكلام ، وأصول الفقه ، فرضيا ، عدديا ،
عاقدا للشروط ، وصنَّف في الحديث وغيره (٣) .

(١) مع أنَّ محمد الصنوني ، يذكر أنَّ المدارس قد وجدت في المغرب والأندلس
في عهد الموحدين ، إلا أنَّ برنشفيك يذكر في كتابه " شرقي بلاد البربر في
المعهد الحفصي " أنَّ المدرسة التونسية قد سبقت المدرسة المغربية .
وإذا كانت المدرسة التونسية لم تظهر إلَّا زمن أبي زكريا (ت سنة ٦٤٧ هـ)
فمعنى هذا أنَّ المدارس لم تعرف زمن الموحدين ؟ أنظر : مراكز الثقافة
لمثمان الكمَّاك ص ٦٠ .

(٢) انظر : نفع الطبيب ١ / ٢٢٠ .

(٣) الذيل والتكملة للمراكشي ، سفر (٥) قسم (١) ص ١١٩ .

ونتيجة لازدهار الحياة الثقافية ، وإقبال الناس عليها ، فقد ظهرت حرفة الوراقة ، وبيع الكتب ، وكانت الكتب تباع في دكاكين خاصة (١) وتوضع بأوعية جميلة ، وصفها لنا أحد الشعراء المعاصرين بقوله : (٢)

ووعاءٌ عُودٌ للملوم صيَانَةٌ	حَمَلَتْ نَخَائِرَهَا قَوَائِمُ أَرْبَعُ
مَحْفُوظَةٌ الْأَشْكَالِ مَقَادِ حَوْتِ	فَالْعِلْمُ يَحْفَظُ مَا حَوَاهُ وَيَمْنَعُ
خَشَبٌ كَلَوْنِ التَّبْرِيشِ قَوْقَهَا	حَلِيٌّ حَكِي لَوْنِ اللَّجَيْنِ وَيَسْطَرِّعُ

وأما عن عواصم الفكر في الأندلس في هذه الفترة ، فقد اشتهرت : قرطبة ، وشربش ، ومالقة ، وغرناطة ، ولنسية ، ومرسية ، واشبيلية . وكانت كل عاصمة من هذه العواصم تزخر بأعداد كبيرة من العلماء في كل فن ، ولم تكن كلها على درجة واحدة من الأهمية ، بل كانت متفاوتة في ذلك . وكان أعلاها درجة ومكانة ، ملتقى للطلاب والعلماء (٣) .

ويلاحظ على الحياة الثقافية رغم ازدهارها ، تماوجها وعدم استقرارها ، فمنذ ما سقطت قواعد الغرب ، اتجه علماءها صوب اشبيلية . وعند سقوط قواعد الأندلس الوسطى كقرطبة - أعظم مراكز التفكير الأندلسي - وجيان ، اتجه العلماء إلى الجنوب . وعند سقوط قواعد الشرق كبلنسية

(١) أنظر : التكملة لابن الأبار ٢ / ٨٢٢ .

(٢) الملوم والآداب والفنون ص ٢٧٩ .

(٣) أنظر : مقدمة منهاج البلاغ لحازم القرطاجني ص ٥٢ .

وشاطبة ودانية ، غادرها المليماء ، بمضهم إلى ثفور مرسية وأخوازهمـا ،
ومعظمهم إلى إفريقية ، ولا سيما تونس وحاية (١) .

وسنحاول فيما يلي من صفحات التحدث عن المعلوم التي ظهرت
في هذه الفترة في الأندلس ، وأشهر علمائها ومؤلفاتهم ثم ننتقل إلى تونس
حيث انتقل ابن الأبار لتبين الصورة أمانا واضحة مشرفة .

فقد ازدهرت المعلوم الدينية ، وظهر عندنا أئمة وعلمـاء
كبار في سائر فروعها . ففي الحديث ظهرت طئة من أئمة الحديث ،
أمثال : أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي ، "عالم بصناعة
الحديث ، متقدّم في نقادها ، مبرّز في المعرفة بطرق إسنادها ، أجلّ
من كان بقي من الأعلام الأكابر" وله عدّة تواليف (٢) . وداود

بـسـن سليمان بن حوط الله ، المتوفى سنة ٦٢١هـ ، تجوّل
كثيرا ببلاد الأندلس للسمع ، وكان شديد العناية بالرواية ، وهو وأخوه
أبو محمد (٣) ، كانا أوسع أهل الأندلس رواية في وقتهم ، لا ينازعان في
ذلك (٤) .

(١) انظر: عصر المرابطين والموحدين ٢/٦٤٨ .

(٢) برنامج شيوخ الرعيني : ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) أبو محمد : هو عبد الله ابن سليمان بن داود ، ولد بأندة مـن
أعمال بلنسية سنة ٥٤٩هـ ، انظر توجمة في : التكملة ٢/٨٨٤ .

(٤) المصدر نفسه : ١/٣١٦ .

وأبي الخطاب أحمد بن واجب القيسي ، " حامل راية الرواية بشرق الاندلس وآخر المحدثين " (١) وغيرهم الكثير (٢) .

وأما علم الفقه ، فمع أنَّ يمتقوب المنصور حارب المذهب المالكي وأحرق كتبه ، وتمصَّب للمذهب الظاهري ، واعتبر كلَّ علماء الفقه عيسال على ابن حزم أحد أشياخ الظاهريَّة الكبار (٣) ، إلا أنَّ معظم فقهاء العصر كانوا ساخطين على المذهب الظاهري ، وتمصَّبين للمذهب المالكي ، مناصرين له ، متصدِّرين لتدريسه ، عاطلين على نشره ، فمنهم : علي بن عبد الله بن عباس الكلبي ، " كان فقيها حافظا لمذهب مالك متصدرا لتدريسه ، صابرا على نشر العلم " (٤) . ومحمد بن إبراهيم ابن محمد الإشبيلي المعروف بابن الدَّبَّاغ ، " كان وحيد عصره في حفظ مذهب مالك . . . وأقرأ بجامعة غرناطة مدة " (٥) .

(١) التكملة : ١٠٦ / ١ .

(٢) لقد كانت علوم الحديث من أكثر العلوم الدينيَّة ازدهارا ، وقد ذكرت لنا كتب التراجم الكثير من علماء الحديث في هذه الفترة ، انظر :

التكملة ٥٨٧ / ٢ ، ٥٨٨ ، ٦٠٩ ، ٩٢٣ ، ١٠١ / ١ ، ١٧١ ،

الذيل والتكملة ، سفر (٥) قسم (١) ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٣) انظر : العلوم والأدب والفنون : ص ٥٥٠ .

(٤) الذيل والتكملة سفر (٥) قسم (١) ص ٢٣٣ .

(٥) بغية الوعاة للسيوطي : ١٣ / ١ .

وأحمد بن منذر بن جهور الأزدى ، "كان فقيها على مذهب مالك" (١) وإسحاق بن إبراهيم بن يصر المجابري ، "كان فقيها مالكيًا ، حافظًا للرأي" (٢) وعبد الله بن علي الأنصاري الأندلسي ، "كان يسدّ راس الأصول ومذهب مالك باشبيلية وقرطبة" (٣) .

وقد ظهر أيضا علماء تمصّبوا للمذهب الظاهري وتشيعوا له ودافعوا عنه ، أمثال : أبي القاسم أحمد بن مخلد بن يزيد الأموي ، "كان يرغب عن مذهب الإمام مالك ، ويميل إلى الظاهر وينزع إلى ابن حزم ويتشيع له" (٤) وأحمد بن مفرج النباتي المعروف بابن الرومية "كان فقيها ظاهريًا تمصّبًا لأبي محمد بن حزم" (٥) .

وقد نشأت مناظرات ومجادلات بين أنصار المذهبين ، كلّ يدافع عن مذهبه ويتهيزله . فقد ألف أبو عبد الله محمد بن سعيد الإشبيلي المعروف بابن زرقون ، كتابا في الردّ على ابن حزم ، سمّاه : "المعلّى في الردّ على المعلّى والمجلّى لأبي محمد بن حزم" (٦) .

وازدهرت علوم الكلام والأصول ، وأخذ بعض الأندلسيين ، يرحل إلى المغرب لتلقّي هذا العلم من منابعه (٧) .

(١) التكملة : ١١١/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٩٤/١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٤٦/١ .

(٤) برنامج الرعياني : ص ٥٠ والتكملة : ١١٥/١ - ١١٦ .

(٥) التكملة : ١٢١/١ .

(٦) المصدر نفسه : ٦١٦/٢ .

(٧) انظر : عصر المرابطين والموحدين : ٦٥٩/٢ .

وقد نبغ عدد من علماء الأندلس بعلم الكلام والأصول ، أمثال :
محمد بن إبراهيم المهري ، الذي برز في علم أصول الفقه ، حتى اشتهر
بالأصولي ، وكان علم وقته في هذا الميدان (١) . ومحمد

بن يحيى بن علي بن أجلي ، " كان يجتمع إليه في علم الكلام ، ويؤخذ
عنه ، وله فيه تواليف ، وله أشعار بمقتضى شاعده ، وعلم ممتقده متسواردة
فيها قوله (٢) :

المروء يعلم بالضرورة نفسه	والثابت الموجود حي واحد
والخلق بين حقيقة ومقدار	تقضي عليه بالاختار شواهد
فانظر بمقلك إن بدالك شرح ذا	له فأنت حذر مستقيم راشد

ولم يكن علم القراءات والتجويد ، أقل ازدهارا ، من علم الحديث
والفقه ، فقد كثر القراء ، ونضت الساجد بهم ، وكانوا يقرءون بالقراءات السبع
ومن أهم شيوخ الإقراء في هذه الفترة : أحمد بن علي الأنصاري ، يمرضها بالحصار
" تصهر للإقراء ، ورأس في ذلك أهل عصره ، وكانت الرحلة إليه في وقته في
الأخذ عنه ، ولم يكن أحد من صناعه يدانيه في الضبط والتجويد والإتقان ،
وحسن الأداء ، وكان تصدره ببلنسية (٣) ، وحقيق بن محمد بن علي القساني ،
" كان مقرئا عارفا بالقراءات ، وحسن القيام عليها ، متفنا في الأداء (٤) . وعلم

(١) أنظر : التكملة : ٢/٦٨٤ . " كان يجتمع إليه في علم الكلام ، ويؤخذ

(٢) الخلة السمرية لابن الأبار : ٢/٢١٤ . " كان يجتمع إليه في علم الكلام ، ويؤخذ

(٣) التكملة : ١/١٠٠ .

(٤) الذيل والتكملة : ٥/٣٠٠ . " كان يجتمع إليه في علم الكلام ، ويؤخذ

والخلق بين حقيقة ومقدار
فانظر بمقلك إن بدالك شرح ذا

ولم يكن علم القراءات والتجويد ، أقل ازدهارا ، من علم الحديث
والفقه ، فقد كثر القراء ، ونضت الساجد بهم ، وكانوا يقرءون بالقراءات السبع
ومن أهم شيوخ الإقراء في هذه الفترة : أحمد بن علي الأنصاري ، يمرضها بالحصار
" تصهر للإقراء ، ورأس في ذلك أهل عصره ، وكانت الرحلة إليه في وقته في
الأخذ عنه ، ولم يكن أحد من صناعه يدانيه في الضبط والتجويد والإتقان ،
وحسن الأداء ، وكان تصدره ببلنسية (٣) ، وحقيق بن محمد بن علي القساني ،
" كان مقرئا عارفا بالقراءات ، وحسن القيام عليها ، متفنا في الأداء (٤) . وعلم

ابن جابر بن طيِّ اللّخمي ، " كان مقرّناً مجوّداً . . . عكف على إقراء القرآن . . . نحو خمسين سنة " (١) . ومحمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المماقري الأندلسي ، كان مقرّناً للقرآن ، ونظم قصيدة فنيّ القراءات ، صرّح فيها بأسماء القراء (٢) ، وغيرهم الكثير (٣) .

وأما علم التفسير ، فقد تعاون مفسرو الأندلس مع مفسري المغرب وابتدع علم جديد لقواعد التفسير ، كان يلقى كقوانين تنزل في علم التفسير ، منزلة أصول الفقه من الأحكام ، وعلى أحكام هذه القوانين ألف أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي كتاباً سماه : " مفتاح اللب المقل على فهم القرآن المنسل " (٤) .

ولم يقتصر الأمر على التأليف في تفسير القرآن ، بل اتجه بعضهم إلى الاختصار ، فقد اختصر أبو عبد الله بن المبرد الأنصاري " الكتاب " للزمخشري ، وحذف منه مسائل الاعتزال (٥) وظهر أيضاً نوع من التفسير ، هو التفسير بالاشارة ، وهو تفسير عجيب تكلم فيه عن وقت خروج الدجّال وطلوع الشمس من مغربها . . . (٦) ، ومن اشتغل به ، أبو الحسن التجيبي الآنف الذكر .

(١) الذيل والتكملة : سفر (٥) قسم (١) ص ١٩٨ .

(٢) أنظر : بغية الوعاة ٤٣/١ .

(٣) أنظر الصفحات التالية في التكملة : ١٠٢/١ ، ٦٨٩/٢ ، ٦٣٥ ،

٦٣٦ ، ٥٩٩ ، ٥٩٧ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ .

(٤) أنظر : الملوّم والآداب والفنون : ص ٤٤ .

(٥) أنظر : بغية الوعاة ٧٧/١ .

(٦) أنظر : الملوّم والآداب والفنون : ص ٤٤ ، ٤٥ .

ومن علماء التفسير في هذه الفترة : محمد بن أيوب الفافقي من أهل بلنسية (١) ، ومحمد بن عبد الجبار بن خلف القيسي من أهل دانية (٢) ، ومحمد بن عبد الله بن قاسم الأنصاري من أهل بلنسية (٣) .

ولغ علم التصوف ذروته في هذه الفترة ، وظهر أعظم متصوفة الأندلس ، وهو محمد بن علي بن محمد ، الشيخ محي الدين الطائسي المعروف بابن عربي الصوفي سنة ٦٣٨ هـ ، الذي أكب نفسه على التأليف في التصوف ، فأكثر وأبدع . ومن مؤلفاته : " الفتوحات المكية " وهو مؤلف ضخم يمالج فيه طرائق الصوفية طاجا شاعلا . و " التدبيرات الإلهية " و " قصص الحكم " و " مناجى الرسائل " و " مفاتيح الغيب " و " الاعلام بإشارات أهل الأوهام " وغيرها الكثير (٤) .

ولم تكن علوم العربية تقل شأنًا واهتمامًا عند علماء هذا العصر عن العلوم الدينية ، بل إنك تكاد لا تجد أحداً من أهل العلوم الدينية لم يكن عالماً بالعربية ، نحوها . ويانها ، وأدبها . وكان معظمهم يتصدّر لا قرائها في المساجد إلى جانب العلوم الدينية . وكان

(١) انظر ترجمته في : التكملة ٥٨٢/٢ .

(٢) انظر ترجمته في : المصدر نفسه ٥٩٤/٢ .

(٣) انظر ترجمته في : المصدر نفسه ٦١٥/٢ .

(٤) انظر : فوات الوفيات ٢٤١/٢ - ٢٤٣ ، وقد ذكره صاحب " الفوات "

نحو خمسين مؤلفا . وللتعرف على بعض علماء التصوف ، انظر : التكملة

١١٢/١ ، ٦١٥/٢ ، ٦٥٨ .

لمعلوم النحو واللغة المرتبة الأولى ، " فكل عالم في أي علم لا يكون ممكناً
من علم النحو - بحيث لا تخفى عليه الدقائق - ، فليس عندهم بمستحسن
للتمييز ، ولا سالم من الأزدراء " (١) .

وعلى الرغم من هذا الاهتمام ، إلا أن لفتهم كانت كثيرة الانحراف
عن أوضاع العربية ، " حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلموني أبي
علي (٢) ، المشار إليه بعلم النحو في هذا العصر ، الذي غيّبت تصانيفه
وشرقت ، وهو يقرى دسه ، لضحك بطل فيه من شدة التحريف الذي فسي
لسانه . والخاص منهم إذا تكلم بالاعراب ، وأخذ يجري على قوانين النحويين
استثقلوه واستبردوه " (٣) . وممن
هنا فقد اقتصر استعمال اللغة الفصحى على " القراءات ،
والمخاطبات بالرسائل ، وعلم الأدب ، المنشور من حفظ التاريخ والنظم
والنثر ومستظرفات الحكايات " (٤) .

(١) نفخ الطيب : ٢٢١ / ١ .

(٢) أنظر ترجمته في : التكملة ٦٥٨ / ٢ ، وبرنامج الرعيني : ص ٨٣ ،
واختصار القدر لابن سميد : ص ١٥٢ .

(٣) نفخ الطيب : ٢٢١ / ١ .

(٤) التصدي ونفسه : ٢٢٢ / ١ .

ومع أنه قد ظهر في هذا العصر، أئمة من علماء النحو - غصت
بهم كتب التاريخ (١)، أمثال أبي علي عمر بن محمد الأزدي الشلمينسي
كثير أساتيد إشبيلية في العربية، وابن عصفور الإشبيلي (٢)، ومحمد بن
علي بن إبراهيم المالشي، المعروف بالشلمين (٣)، لأنهم لم يحاولوا
فعل ما فعله ابن مضاء القرطبي (٤) من تجديد للنحو واللغة، بل اتجهوا
إلى ما سبقهم من تراث في هذا المجال، بالدِّرس والشرح، والرد على بعض
الكتب النحوية (٥).

وإذا كانت العلوم النحوية قد بلغت ذروتها في هذا العصر،
فكثير أعلامها والتأليف فيها، فإن العلوم النقدية والبلاغية، وإن قلَّ ما
وصلنا منها، إلا أن كتاب حازم القرطاجني (٦) "منهاج اللفاء" وسراج

(١) للمتصرف على مزيد من علماء النحو في هذه الفترة، انظر الصفحات التالية
في : التكملة ١/ ١٦٨، ٢٨٧، ١٢٤، ١١١، ٢٢٧/ ٥٧٧، ٥٧٨،
٦٠٥، ٦٦٠، ٥٠٤، ٧١٢، ٦٥٨، برنامج الرعياني : ص ٨٦، ٧٩،
٩٠، ٨٨.

(٢) انظر ترجمته في : التكملة ١/ ٥٤٦، وصفية الوعاة : ٢/ ٢١٠.

(٣) انظر ترجمته في : وصفية الوعاة ١/ ١٨٧.

(٤) توفي ابن مضاء سنة ٥٩٢ هـ، وألف كتاباً في النحو واللغة سماه : "الرد
على النحاة"، وقد حققه شوقي ضيف، دار الفكر العربي، القاهرة،
١٩٤٧ م.

(٥) انظر : نفح الطيب ٤/ ١٤٨، وصفية الوعاة : ١/ ٣٥٩، ٤٠٦.

(٦) انظر ترجمة حازم في بأزهار الرياض ٣/ ١٧١، وصفية الوعاة ١/ ٤٩١، ودرة
الحجال لابن القاضي ١/ ٢٥٤، وشذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٣٨٧،
وشجرة النور الزكية ١/ ١٩٧.

الأدباء^(١)، يعتبر حسنة من حسنات نقد هذا المصير ولاغته . وقد ألفه بطريقة فريدة ، في شكله ومضمونه ، وتأثير بشكل كبير بمؤلفات ابن سينا ، وأقام قوانينه ونظرياته على أصول من علمي البلاغة والمنطق . ولاضافة لما سبق فقد ظهرت أيضا مجموعة من المؤلفات في علم العروض^(٢) .

وأما علوم الفلسفة ، فمع أن يعقوب المصنوع كان شغوفا بها ، وجمع حوله الكثير من علمائها^(٣) ، إلا أنها بالجملة علم محقوت عند عامة الناس ، وكل من يقرأ الفلسفة تطلق عليه المأمة اسم زنديق . وإذا ما زلّ قتلوه أو أحرقوه^(٤) وقد قتل المأمون أحد أعلام الفلسفة الكبار في هذا المصير وهو ابن خبيـب الأندلسي^(٥) ، لذلك فإن خواصهم الذين يحبونه نبأ عظيما ، يخفون تصانيفهم ويسترزون أنفسهم من المأمة .

ولم يكن علم التنجيم يقلّ مقّا وكرها عند عامة الناس — علم الفلسفة ، إلا أن خواصهم كانوا يحبونه ويقلون عليه . ومن علمائهم البارزين : مطرف الإشبيلي الذي اشتغل به طويلا ، إلا أن أهل بلده كانوا ينسبونه للزندقة ، بسبب اعتكافه عليه ، فكان لا يظهر شيئا مما يصنف^(٦) .

(١) انظر: كتاب المنهاج بتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، معالي المطبعة الرسمية ، تونس ، سنة ١٩٦٦ .

(٢) أنظر ر: أزهار الرياض ١٢٢/٣ ، والتكلمة ١١١/١ .

(٣) انظر: عصر المرابطين والموحدين ٢٢٣/٢ .

(٤) انظر نفح الطيب : ٢٢١/١ .

(٥) انظر ترجمته في : المفرب ٢٩٦/١ .

(٦) أنظر : نفح الطيب ١٨٦/٣ .

وفي ميدان العلوم ، ازدهرت علوم الطب والهندسة والحساب ، وحفظ هذا المصرب أعداد كبيرة من علماء الطب ، أمثال : عبد الطك بن محمد من بلنسية ، " كان أحد المهرة في صناعة الطب " ، معترفا له بالتقدم بها ^(١) وعبد الله بن الوليد المذحجي ، " كان ماهرا في الطب " ^(٢) وغيرهما الكثير ^(٣) .

وظهر أعظم علماء النبات في عصره ، وهو أبو المباسين مفسرج المعروف بابن الرومية ، " أتقن علم النبات ومعرفة أشخاص الأدوية " وقواها ومناقصها ، واختلاف أوصافها ، وتباين مواطنها ، وله الذكر الشائع والسّمة الحسنة ^(٤) . وكذلك تلميذه ابن البيطار المالقي ، كان من أعظم النباتيين بعد أستاذه ^(٥) .

وظهر علماء في الهندسة أيضا منهم : محمد بن سليمان السلمي " كان عذريا فريضا صاحب مساحة " ^(٦) ، ومحمد بن بكر الفهري ^(٧) ، وغيرهما ^(٨) .

(١) الذيل والتكفة : سفر (٥) قسم (١) ص ٤٥ .

(٢) التكفة : ٢ / ٩٤٠ .

(٣) انظر : التكفة ٤ / ٢٥٠ ، ١١٣ ، ٢ / ٦٠٨ ، ٦١٩ ، ٩٠٣ . وحيون

الانبا في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٥٣٣ - ٥٣٦ ، ص ٥٣٨ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٥٣٨ ، وانظر في ترجمة ابن الرومية : الا حاطة

٢٠٧ / ١ .

(٥) انظر : فوات الوفيات ١ / ٢٠٤ .

(٦) التكفة : ٢ / ٥٩٥ .

(٧) انظر ترجمته في : المصدر نفسه ٢ / ٦٠٨ .

(٨) انظر الصفحات التالية في : المصدر نفسه ٢ / ٦٢٤ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ .

وسبب هذه الكثرة من العلماء ، فقد ألف بمض رجال هـذا
المصر ، مما جم في تراجم الأعلام ، وصل فيها مؤلفوها الجديد بالتقديم ،
كمؤلفات ابن الأبار (١) ، وابن سعيد المغربي في : "المغرب في حلس
المغرب" و "اختصار القدح المعلق" و "الفصول الياصرة في محاسن
شمراء المائة السابعة" (٢) ، وأبي العباس الفرناطي صاحب كتاب
"المشرق في علماء المغرب والمشرق" (٣) ، وأبي القاسم الملاحي ، صاحب
كتاب "تاريخ علماء البيرة" و "الأسانيد" (٤) .

❖ ❖ ❖ ❖

ولم يقدّر لهذه الحياة الزاهرة بالعلم والثقافة ، الاستمرار
والبعطاء والثبات . فقد تشتت شملها ، ونزح أهل الأندلس عند سقوط
بلادهم بيد النصارى ، وتوجه بعضهم إلى المغرب ، وبعضهم إلى المشرق ،
إلى سوريا أو مصر أو الحجاز ، ولكن معظمهم هاجر إلى عاصمة دولة فنيصة
هي : تونس عاصمة الحفصيين ، التي شهدت في هذه الفترة نشاطاً
ثقافياً لا مثيل له .

(١) سنتحدث عن مؤلفات ابن الأبار ، عند حديثنا عن حياته .

(٢) كل هذه الكتب تمّ طبعتها ونشرها .

(٣) شجرة النور الزكية : ١٩٩/١ .

(٤) برنامج الرعيدي : ص ٦٤ - ٦٦ .

وهناك عدة عوامل ساعدت على هذا النشاط

أهمها :

- (١) - الأعداد الكبيرة من العلماء الأندلسيين التي وصلت إلى تونس حاملين معها كل علومها وثقافتها . وكانت هذه الأفواج المهاجرة متنوعة في ثقافتها ، فمنها : الفقيه والمحدث والمهندس والفيلسوف ، والمؤرخ ، والأديب ، وعالم المصنوعة .
- ومن أشهر من هاجر إلى تونس من علماء الأندلس ، ابن الأثير ، وابن سيد الناس الفقيه المحدث (١) ، وابن عصفور النحوي الشهير ، وابن الرومي عالم النباتي ، وأبو الغياص الفرناطسي الفقيه المؤرخ (٢) ، وابن الفخازر البلنسي (٣) ، وحافظ القرطاجني الناقد المعروف ، وأبو المطرف بن عميرة الكاتب الشهير (٤) ، وغيرهم الكثير .

(١) انظر ترجمته في : شجرة النور الزكية ١٩٤/١ - ١٩٥ .

(٢) انظر ترجمته في : المرجع نفسه ١٩٩/١ .

(٣) انظر ترجمته في : المرجع نفسه ١٩٩/١ .

(٤) هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن الحسين بن عميرة المخزومي ، وأصله من جزيرة شقر ، بها ولد سنة ٥٨٢ هـ ، سكن بلنسية ، ودرس الفقه والحديث وشف باللفة والعلوم والآداب ، من أعلام الكتابة المشهورين ، خدم الرشيد الموحي ، ثم انتقل إلى تونس واتصل بالحقوقيين وكتب للمستنصر ، بقي في البلاط الحقوقي حتى وفاته سنة ٦٥٨ هـ ، انظر ترجمته في : اختصار القدر ص ٤٢ ، ونهج الطبيب ٣١٣/١ ، والمغرب ٣٦٣/٢ .

وقد استوطنت هذه المجموعة من العلماء تونس، بعد أن حطت أهلها معها من الأندلس، ولم تفقد نشاطها في مهجرها الجديد، بل ظلت على اتصال بالعلم والثقافة.

٢ - أن تونس في هذه الفترة كانت تشدّ إليها الرّجال من سائر الأقطار، وصارت دار علم تلقاه فحول عن فحول^(١)، وكان حكّامها من العلماء المهتمين بشؤون الثقافة. فقد كان أبو زكريا الحفصي من "العلماء الصالحين"، قرأ على الشيخ الرعيني كتاب "المستقصى" للفيثالي، وغيره من الكتب المفيدة، وقرأ النحو على ابن عصفور^(٢) وكان أبو زكريا "يجالس طلبته العلم ويشاركهم أحسن مشاركة"، من غير محاراة، ولا إظهار إيالة على أحد منهم^(٣). ومن أهم آثاره العلمية، مكتبة التي أنشأها في القصر، وجمع بها ستة وثلاثين ألف مجلد من أنفس المؤلفات^(٤).

ولم يقل اهتمام المستنصر بالعلم وأهله عن أبيه، فقد "رتّب لمجالسته أعلاماً من الفقهاء والأدباء، كالمحدث الحافظ أبي بكر بن سيّد الناس، والأستاذ ابن عصفور، والكاتب البليغ أبي عبد الله بن الأبار، والفقهاء أبي المطرق بن عميرة، وغيرهم من الأعلام"^(٥).

-
- (١) أنظر: شجرة النور الزكية ٢/ ١٣٨.
 (٢) اتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف: ص ١٥٦.
 (٣) الفارسيّة في جادى الحفصية: ص ١١٣.
 (٤) أنظر: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ١٣٤، والحلل السندسيّة ص ١٠٢٦.
 (٥) الفارسيّة في جادى الحفصية: ص ١٢٣.

٣ - وفرة عدد من علماء تونس ، شاركوا في شتى أنواع المعلوم والمعارف ، كأبي عمرو عثمان القيسي المعروف بابن عربيّة المتوفى سنة ٦٥٩ هـ ، محدث مشهور وشاعر مذكور ، له مجموعة من التأليف ، وكان ممن نظروا ابن الأبار ، ومن خواص أبي زكرياء (١) ، وأبي علي بن موسى الفقيه ، ولي النظر في خزانة كتب أبي زكرياء (٢) ، وأبي محمد بن عبد العزيز القرشي ، فقيه ومحدث ومفسر ، وله جملة تأليف (٣) ، وأبي القاسم ابن البراء التنوخي ، إليه انتهت رئاسة العلم (٤) ، وغيرهم الكثير (٥) .

٤ - كثرة مراكز الثقافة وتوافرها في هذه الفترة . فقد أنشئت المدارس في مختلف أنحاء البلاد ، وأمن لطلبتها كل سبل الراحة والاستقرار ، فالمدرسة هي مسكن ومأكل ومشرب ، وفصل أول

-
- (١) انظر: شجرة النور الزكية ١٨٩/١ ، لابن عربيّة ترجمة وافية في : رحلة التجاني ص ٣٧٥ - ٣٨٠ ، وله ديوان شمس اسمه : "قوائد المدح وموائد المنح" .
- (٢) انظر ترجمته في : شجرة النور الزكية ١٩٠/١ .
- (٣) المكان نفسه .
- (٤) المرجع نفسه : ١٩١/١ .
- (٥) انظر: المرجع نفسه ١٨٩/١ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٤٩ .

دراسة ومكتبة وشيوخ تعليم (١) ، وازدهرت العلوم في جامع
الرئيسية ، وحظيت بمناخ فائقة من أبي زكرياء الحفصي ، فجلب
إليه العلماء من مختلف البلاد ، ولكن طمأ الأندلس كانوا في طليعة
الأساتذة في هذا الجامع ، كابن عصفور النحوي ، وابن سميـد
وابن الأبار وحازم القرطاجني .

وكانت تدرس فيه مختلف أنواع العلوم ، من دينية ، ولفوية ، وأدبية ،
وعقلية . ولقد بلغ من اهتمام الناس بالثقافة ، أن كل عائلة كانت تحرص
على تعليم ابنها في هذا الجامع ، ليلتحق بركب العلماء ، فتتسـل
السـمعة والشهرة (٢) ، ومعنى هذا أن الحياة في تونس
قد اصطفت بالصفوة العلمية ، مما جعل الناس يتسابقون فسي
إرسال أبنائهم إلى مراكز الثقافة .

وهكذا نرى أن هذه المواطن اجتمعت لتجعل من تونس عاصمة
العلم والثقافة ، فاحتضن العلماء بتشجيعهم وتكرمهم لينشـروا
العلم ويخرجوا العلماء .

(١) أنظر : مراكز الثقافة لمثمان الكماك ص ٦٠ .

(٢) أنظر : الأدب المفرقي لمحمد بن ثابت ص ٦٩ - ٧١ .

الحياة الأدبية

لقد كانت الحياة الأدبية في هذه الفترة ، استمرارا لما كانت عليه الحياة الثقافية ، من نشاط وازدهار وظهرت عوامل كثيرة ، شجعت الأدب وعطت على نموه كما فمن ذلك : ظهور مجموعة بارزة من الشعراء ، ما زال شعرها ينشد ويقرع الأذان حتى أيامنا هذه ، أمثال : حازم القرطاجني ، وأبـن الأـبـار ، وأبـن سـهـل الـشـبـيلي (١) ، وأبي البقاء الرندي (٢) ، وأبي الحسن بن حريق (٣) ، وأبي بكر الصابوني (٤) ، وأبـن مـرج الكـحل (٥) وغيرهم .

- (١) هو إبراهيم بن سهل الشبيلي ، كان يهوديا ، برع في الشعر ، واتسم شعره بالركة ، وتوفي غريقا سنة ٦٤٩ هـ . انظر ترجمته في : المفرب ٢٦٩/١ - ٢٧٠ ، ورايات المبرزين ص ٢٢ ، واختصار القدح ص ٧٣ .
- (٢) هو صالح بن يزيد بن صالح ، من أهل رندة ، شاعر مجيد في المدح والنزل ، مولده سنة ٦٠١ هـ ووفاته سنة ٦٨٤ هـ . انظر ترجمته في : الاحاطة ٣ / ٣٦٠ وما بعدها ، وانظر عنه كتاب : أبي البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، لمحمد رضوان الداية .
- (٣) هو علي بن محمد بن أحمد بن حريق المخزومي بلنسي ، كان شاعرا مقلقا مجيدا ، كاثبا بليغا كثيرا ، وشعره كثير مدون . مولده سنة ٥٥١ هـ ووفاته سنة ٦٢٢ هـ . انظر ترجمته في : المفرب ٣١٨ / ٢ ، والذيل والتكملة : سفر (٥) قسم (١) ص ٢٥٧ ، وزاد المسافر ص ٢٢ .
- (٤) هو محمد بن أحمد بن الصابوني الشبيلي ، شاعر مشهور ، كان قد تقدم عند مأمون بني عبد المؤمن ثم اتصل بأبي زكرياء الحفصي ، رحل إلى مصر ومات في الاسكندرية سنة ٦٣٤ هـ . ترجمته في : المفرب ٢٦٣/١ ، واختصار القدح ص ٦٩ ، ومقتضب التحفة في مجلة المشرق ، مجلد ٤١ ص ٥٨٢ .
- (٥) هو محمد بن إدريس ، من أهل شقر ، ومن أعظم شعراء عصره برع بشكل خاص في الفزل والشعر الوصفي ، وعاش حينما في ذروة طه ، وتوفي ببلده سنة ٦٣٤ هـ . ترجمته في : المفرب ٣٧٣/٢ ، والاحاطة ٣٤٣/٢ ، هرنامج الرعيني ص ٢٠٨ ، والتكملة ٣٤٤/١ .

وإنَّ نظرة فاحصة في كتب التراجم الأندلسية (١) ، تبين للباحث كثرة أدباء هذه الفترة ، حتى إنَّه ليخيَّل له ، أنَّ الشمر كان يجري على لسان . والفعل كان الشمر يجري على لسان الفقيه ، والمحدث ، والمفسر والطبيب ، والمهندس . . .

والإضافة إلى هذه المجموعة من الشعراء ، ظهرت مجموعة كبيرة من الكتاب كان من أبرزهم أبو العطف بن عميرة ، الذي يعتبر مفخرة ، من مفاخر عصره ، والذي وصفه ابن سميد بقوله " شيخ كتاب زماننا ، وإمام أدباء أو اننا " (٢) ووصفه صاحبه ابن الأبار بقوله : " فائدة هذه المائة ، والواحد يفي بالمائة " (٣) .

ومن العوامل التي عطلت على ازدهار الأدب أيضا ، تشجيع الخلفاء والسادة الموحدين ، الأدباء ، وتقريبهم منهم وإغراق الأموال عليهم لمدهم والمدافعة عن حقوقهم ، ودِّمَّ خصوصهم . هذا بالإضافة إلى أنَّ بعضهم كان يقول الشمر ويتذوقه كالمؤمن (٤) كذلك التفَّ الأدباء حول زعماء الأندلس بمد الفتنة ، وأخذ كل منهم ، يمدح صاحبه ويدافع عن حقه ، ويدعو إلى الاتفاق حولهم .

(١) انظر مقتضب التحفة في مجلة المشرق ، مجلد ٤١ ، ص ٥٥١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، والمغرب ٢ / ٧٣ ، ٨١ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٦٨ - ١٧٢ ، ٢١٥ ، ٢٨٦ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٦١ . ومواضيع كثيرة في الحلة السَّيراء والتكلمة والذيل والتكلمة .

(٢) اختصار القدر : ص ٤٢ .

(٣) مقتضب التحفة في المشرق ، مجلد ٤١ ، ص ٥٧٤ .

(٤) انظر بعض شعره في : البيان المغرب ٣ / ٢٦٦ .

ومنها أيضا : امتزاج الأندلسيين بغيرهم من أبناء المغرب وافريقية ، وما تبع ذلك من تنافس علمي وأدبي . ونحن وإن كانت النصوص التي بين أيدينا قليلة في هذا المجال ، إلا أن رسالة الشقندي (١) ، تعتبر دليلا واضحا على ذلك التنافس ، وخاصة بين المغرب والأندلس . وكان للنكبة التي حلّت بالأندلس ، أثرها الكبير في نفوس أدباء هذه الفترة ، فألهبت مشاعرهم وأذكت عواطفهم ، فقالوا القصائد الكثيرة المكمية في رثاء وطنهم والحنين إليه ، وكتبوا الرسائل الكثيرة التي صوّروا فيها حالهم ، وشعورهم تجاه أهلهم وملازمهم .

وقد ازدهر فنا الترشيع والزجل في هذه الفترة بظهور فيها مشعّون وزجّالون بارعون ، كابن سهل الإشبيلي ، وأبي جعفر الشنيطي (٢) ، وأبسي الحسن ابن جزمون (٣) ، وغيرهم .

أما موضوعات الشعر ، فقد تعددت وتنوّعت ، وقال الشعراء في معظم الأغراض المألوفة . ففي الغزل ظهر ابن سهل الإشبيلي ، الذي قصر معظم شعره على هذا الفن . وكذلك ، ابن مرج الكحل ، " زقت ، كان شاعرا

(١) هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد ، توفي سنة ٦٤٩ هـ ، ترجمته في : المغرب ٢١٨/١ ، ونفح الطيب ٢٢٢/٣ ، واختصار القدر ص ١٣٨ ، ورسالتيه في النفح ٢٢٢/٣ - ١٨٦ . ورسالته في تفضيل الأندلس وبيان محاسن أهلها في العلم والشعر ، وقد عارض بها أبا يحيى بن أبي زكريا ، ص ١١٠ . ناصر بن عبد المؤمن في تفضيل برّ المدونة .

(٢) انظر ترجمته في : المغرب ٣٦١/٢ .

(٣) انظر ترجمته في : المصدر نفسه ٢١٤/٢ .

غزلا ، بارع التّوليد ، رقيق الفزل ^(١) وأبو بكر يزيد بن محمد بن صقلاب^٢ كان غزلا ماجنا ، صاحب إبداع في قواف وأسجاع ^(٢) وغيرهم .

وفي الهجاء ظهرت مجموعة كبيرة من الشعراء ، ذكر منهم ابن الأبار في تحفته مجموعة كبيرة ^(٣) .

وقد برز في الرثاء ظاهرة جديدة ، وهي رثاء الملما والشهيدا^٤ الذين كانوا يستشهدون أثناء الصراع المبرر مع النصرانية . فمن ذلك القصائد المبكية التي قيلت في رثاء أبي سليمان الكلاعي ، عندما استشهد في موقعة أنيشة ^(٤) .

وأطلع شعرا هذا العصر ، بنوع من الألفاظ والأحاجي ، يختبئ الواحد منهم فيه ، ذكاء صاحبه صريحا بذلك عن نفسه .

على أن أكثر موضوعات الشعر ذيوعا في هذه الفترة ، هو الممدح ، والشعر الوطني ^(٥) ، والزهد وما يتصل به من شعر ديني ، ووصف الطبيعة .

(١) الإحاطة : ٣٤٣/٢ .

(٢) مقتضب التحفة في : المشرق ، مجلد ٤١ ، ص ٥٦٣ .

(٣) انظر : المصدر نفسه ، ص ٥٢٩ ، ٥٨٠ .

(٤) انظر قصيدة أبي المطرف ابن عميرة في رثاء الكلاعي في : الرّوض المعبّط ص ٤١ ، وقصيدة لابن شلبون في : مقتضب التحفة في المشرق مجلد ٤١ ص ٥٢٨ ، وسيأتي الحديث عن قصيدة ابن الأبار في رثاء الكلاعي ومن سقطوا معه .

(٥) مانعيني بالشعر الوطني ، تلك القصائد التي قالها الشعراء في الحث والاستصراخ لانقاذ بلادهم من الأخطار التي داهمتها في هذه الفترة وكذلك قصائد رثاء تلك المدن بمد ضياعها ، وشعر الحنين إليها بعد الرحيل عنها .

ويحدّثنا المقرئ عن اهتمام حكّام الأندلس بالشعر وأهله فيقول :
 " والشعر عندهم له حظّ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، ولهم عليهم
 وظائف ، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظام ملوكهم المختلفة ، ويوقع
 لهم بالصلّات على أقدارهم " (١) .

وقد التف الشعراء حول الخلفاء والسادة الموحدين بمدحهم ،
 ويذمون خصومهم . ويكفي لتصور كثرة الشعر الذي قيل في مدحهم أن نعلم
 أن ميمون بن خبازة (٢) ، بلغت أمداحه في المأمون ثلاثة مجلدات ضخمة .

وقد قام أدباء هذه الفترة بتصوير حياتهم ، بمختلف اتجاهاتها
 وجوانبها ، فصوّروا الحياة السياسيّة في مدحهم لمن يلتفون حولهم وهجاءهم
 لأعدائهم . وقد قيلت قصائد كثيرة صوّرت صراع الناصر مع ابن غانية (٣) ، وقصائد
 في مدح المأمون أثناء صراعه مع ابن هود وانتصاراته عليه (٤) .

أما المستنصر ، فلم نعث على شيء يذكر في مدحه ، ويبدو أن ذلك
 يعود إلى أن المستنصر قد ترك زمام الحكم لغيره ، وانكبّ على طوائفه ، ولم
 يحدث شيء في زمنه يستحق من أجله المدح . ويبدو أيضاً أن الشعراء
 توجهوا بمدحهم إلى وزيره ابن جامع ، الذي استبدّ بالحكم (٥) .

(١) نفح الطيب : ٢٢٢/١ .

(٢) هو أبو عمرو ميمون بن علي المعروف بابن خبازة ، ناظم ناثر ، أكثر من امتداح
 ملوك عصره ، توفي برهاط الفتح سنة ٦٣٧ هـ . له ترجمة ومجموعة من الأشعار
 في : أزهار الرياض ٣٧٩/٢ - ٣٩٢ ، وفي جذوة الاقتباس ق ١ ، ص ٣٤٨ -

٣٥٧ .

(٣) أنظر بعض هذه القصائد في : البيان المغرب ٢١٦/٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٤) أنظر بعض هذه القصائد في : المصدر نفسه ٢٥٨/٣ - ٢٦٠ .

(٥) أنظر : المغرب ٣٦١/٢ .

ومعد وفاة المستنصر ، حدث الصراع بين أمراء الموحدين على السلطة ، وقد صوّر لنا الأدب ذلك ، وإن كان ما وصلنا في هذا المضمّار قليل جدا ، إلا أننا نعتقد أن شعرا كثيرا قد قيل ، ولكنه ضاع ولم يصل حتى الآن .

وقد انبرئت كل مجموعة من الشعراء تدافع عن أميرها ومن تلتف حولها ، وتحاول جاهدة إثبات حقه في الخلافة . وكان من أبرز ذلك ، الصراع الذي دار بين المأمون ويحيى الممتصم . فمن ذلك قصيدة قالها أبو الربيع سليمان بن أحمد الداني ، في مدح يحيى الناصر ، نال فيها من عمه المأمون ، مظلما^(٢) :

وَمَلِكٌ يَحْيَى لَا نَفَاتَ لَهُ وَمَلِكٌ إِدْرِيسُ وَاهِي الرُّكْنُ مِنْ دَرَسُ

ومن ذلك أيضا : قصيدة أبي زيد الفازاري^(٢) في مدح المأمون

وشكر هلال بن مقدم الخلطي لمبايعته له ، ونغوره من يحيى الممتصم . وفيها تأكيد على حقّ المأمون في الخلافة ، وأنه لا بدّ من انتصار المأمون ، على من سلب الخلافة ظلما وجورا^(٣) .

(١) المصدر نفسه ٤٠٦/٢ ، وترجمة الداني في : المكان نفسه ، والذيل والتكفة السفر الرابع ص ٥٧ .

(٢) هو عبد الرحمن بن يخلفتن الفازاري ، شعره كثير جدا ، ونشره مشهور ، توفي في مراكش سنة ٦٢٧ هـ له ترجمة طويلة في : الا حاطة ٥١٧/٣ ، وما يمدّها برنامج الرعيّني ص ١٠٢ .

(٣) انظر القصيدة في : البيان المغرب ٢٦٠/٣ .

وطبيعي أن يردّ الشمراء الذين يلتفون حول يحيى على هذه القصيدة ، وقد قام أبو طهيد الله بن الصغار بالرد عليها ناهياً ما جاء في قصيدة الفازاري مؤكداً أن الحق في الخلافة ليحيى (١) .

وعند ما حدثت الفتنة في الأندلس ، وثار ابن هود ، وقف الأديب أيضاً بشكل يتفق مع اتجاهاتهم وقناعاتهم . والتفت كل جماعة حول من تؤمن بأنه سينقذ الأندلس من الخطر المحدق بها ، تدافع عنه ، وتحاول إثبات حقه وسلامة خط سيره . ونحن نتوقع أنه قيل في هذه القصيدة ، شعر كثير ولكنه لم يصلنا شيء يذكر .

يقول أبو بكر بن عمار كاتب ابن هود ، طالباً من جند ابن هود الاستيسال والتضحية وداعياً إلى الالتفاف حوله والمقاتلة إلى جانبته (٢) :

قُلْ لِمَنْ يَشْهَدُ عَرَباً	تَحْتَ رَايَاتِ ابْنِ هُودٍ
ثُمَّ لَا يُقَدَّمُ فِيهِمْ	لِإِقْدَامِ الْأَسْـودِ
حُرْمَ الْحِظِّ مِنَ الدُّنْـ	يَا وَمِنْ دَارِ الْخُلُودِ

وشمراء هذه الفترة ، مقلدون في مدحهم ، فلا تجديد في معانيهم ، ولكنها تدور حول المدل والهذل والشجاعة لكن القصيدة التي أكثروا من التركيز عليها ، هي الخلافة . فكل ما دح يحاول إثبات

(١) أنظر : البيان المغرب ٢ / ٢٦٢ .

(٢) المغرب : ٢ / ٢٢٩ . وترجمة ابن عمار في : المكان نفسه .

وكان للأحوال السيئة التي عاشها الناس ، بسبب ظلم الحكام
واغفالهم لهم ، واهتمامهم بمصالحهم الشخصية ، أثره الكبير في الأدب ،
فظهر نوع من الشعر تولى نقد الأوضاع الفاسدة . ولكن نتيجة للـ
والقهر الذي كان يمارسه هؤلاء الحكام ، فقد اضطر الأديباء إلى إخفاء
أدبهم . ومن ذلك أبيات لأبي عبد الله محمد القازاري ، وجدت برقعة
في جيبه يوم موته ، يقول فيها: (١)

الرومُ تَضْرِبُ في البلادِ وتُفْنِصُ والجورُ يأخذُ ما بقي والمفسرُ
والمالُ يُورِدُ كَلَّةَ قِشَالِسَةٍ والجندُ تسقطُ والرعيةُ تسلمُ
وذو التميمين ليس فيهم صلصمُ إلا مصينٌ في الفسادِ مسلّمُ
أسفي على تلك البلادِ وأهلها الله يُلطِّفُ بالجمعِ ويرحمُ

ومن ذلك أيضا ، أبيات لسميد بن حكم القرشي (٢) يصور

فيها فساد طوك زمانه ، وحبهم للشبهوات بقوله (٣) :

إِنِّي لأَعْجِبُ مِنْ طُوكٍ أَصْحَسُوا وَهُمْ مَوَالٍ أَعَدُّ الشَّهَوَاتِ
لَوْ وَفَّقُوا وَفَّقُوا اجْتِمَاعَهُمْ عَلَى نَفْيِ الْهَوَى فُضْلًا عَنِ الْخَلَوَاتِ

(١) انظر محمد القازاري وأبيات شعره في : نفح الطيب ٤ / ٤٦٧ .

(٢) هو سميد بن حكم بن عمر القرشي ، كان نحويًا أديبًا ، حسن
التصرف في انشاء الكلام نظمًا ونثرًا ، شارك في الفقه والحديث
له ترجمة في : الذيل والتكملة ، السفر الرابع ص ٢٨ ، والحلة السيرة
ص ٣١٨ - ٣٢٠ ، وعنوان الدراية ص ١٨١ ، واختصار القدر ص ٢٨ .

(٣) الحلة السيرة : ٢ / ٣٢٠ .

مَرَّتْ سِنُونَ وَهُمْ مَلَاكُ الْيُورَى يَا لَيْتَهُمْ مَرُّوا مَعَ السَّنَنِ سِنُونَ
مَا نَحْنُ إِلَّا فِي فَلَاةٍ لِلْمَسْرَدَى فَلْتُخْذَرْ الشَّهَوَاتُ فِي الْقَلْبَوَاتِ

ولكن مثل هذا الأدب ، لم تكتب له الحياة ، ولم يصلنا منه
مادة وفيرة ، وهذا هو الحال في كل زمان ، فلا حياة للأدب الذي يمارض
السلطة الحاكمة ، وصيرته في معظم الأحيان الاندثار والضياع ؟

وكان لنكبة الأندلس ضياع مدنها ، الأثر الكبير في نفوس أهلها
الذين عشقوا بلادهم ، فقام الشعراء وقالوا القصائد الكثيرة ، التي تفيض
بالألم واللوعة ، والحزن ، والتي تدل على مدى إخلاصهم وحبهم لبلادهم .

لقد رثى الشعراء البلاد الأندلسية الضائعة عامة ، وصوّروا ما
أصاب أهلها من قتل وأسر وتشريد ، وامتزج ذلك الرثاء بحنين يشبه
الألم والحسرة ، ليمددهم عن مراتع لهوهم وصبح قلوبهم . ولقد كان
الشعراء صادقين في عاطفتهم ، نحو أوطانهم ، مما جعل أثر قصائدهم
يظل حياً في نفوس قارئها في كل زمان ،

وكان لسقوط بلنسية بالذات ، أعظم الأثر في نفوس شعرائها ،
فقد أكثر ابن الأبار وصاحبه ابن عميرة من رثاء بلنسية بخاصة ، والأندلس
عامة .

أما أبرز شعراء الشعر الوطني في هذه الفترة ، فهم : ابن الأبار
وابن عميرة ، وأبو البقاء الرندي ، وحازم القرطاجني ، وهم جميعاً من أعلام
الشعر في هذه الفترة .

وسنكتفي بمعرض جزء من قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء
الأندلس عامة ، التي اشتهر أمرها وذاع صيتها ، لأنّ الشمر فني
هذا المجال كثير ، ويمكن العودة إليه (١) .

يقول الرندي مصوراً ما أصاب المسلمين من قتل وأسز وذل ، بسبب
فرقتهم ، واختلاف كلمتهم (٢) :

كَمْ يَسْتَفِيتُ بَنُو الْمُسْتَضْعِفِينَ وَهَمْ
أَسْرَى وَقَتْلَى فَمَا يَهْتَزُّ إِنْسَانُ
مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ
وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ
أَلَا نَفُوسٌ أَبْيَاتٌ لَهَا هِمَمٌ
أَمَا طَى الْخَيْرَ أَنْصَارٌ وَأَعْوَانُ
يَا مَنْ لَذَّةُ قَوْمٍ يَمُودُ غِرْمُهُمْ
أَحَالَ حَالَهُمْ كُفْرٌ وَطُغْيَانُ
فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ
طَيْبُهُمْ مِنْ ثِيَابِ الذَّلِّ أَلْسَوَانُ
وَلَوْ رَأَيْتُ بَكَاهُمْ عِنْدَ بَيْعِهِمْ
لَهَالِكِ الْأَمْرِ وَاسْتَهْوَاكَ أَحْزَانُ

هرسم لنا صورة لآلم وطفل ، حيل بينهما ، تمزق النفس ، وتقطع
الأحشاء ، يقول :

يَا رَبِّ أُمَّ وَطْفَلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا
كَمَا تُفَرِّقُ أَرْوَاحَ وَأَبْجَدَانُ
وطفلة ما رأتها الشمس إن برزت
كأنما هي يا قوت ومرجبان
يقودها العليج للمكروه مكرهه
والمين باكية والقلب حيران
لعل هذا يذوب القلب من كمد
إن كان في القلب إسلام وإيمان

(١) راجع ديوان حازم القرطاجني في أكثر من موضع ، وخاصة مقصوده ص ٢٧ -

٤٧ . وقصائد لأبي المطرف في مقتضب التحفة في مجلة المشرق مجلد ٤١ ،

ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ومواضع متفرقة في نفح الطيب .

(٢) أنظر قصيدة الرندي كاملة في : أزهار الرياض ١/ ٤٧ - ٥٥ .

وقد اتسم الشعر الوطني بالمحافظة الصادقة الجامعة ، وتصوير
آثار النكبة ، تصويراً يمد عن كل مصلحة أو منفعة . والمعماني الدينيّة ،
بارزة وواضحة فيه ، كذلك فإنّ الجانب الإنسانيّ واضح كلّ الوضوح كتصوير
ويلات الحرب ومصائبه . وفي شعرهم خلط بين الرثاء ووصف جمال بلادهم
والحنين إليها ، كلّ ذلك بأسلوب سهل قويّ حزين يؤثّر في النفس
ويثيرها .

أما الزهد وما يتصل به من شعر ديني ، كالحجائيات ، والمشمرات
النهرية ، وما قيل في تمثال النمل النهوي ، فقد كثير بشكل كبير ، حتّى
إنّ بعض الشعراء ، قد قصر شعره على الزهد وما يتصل به من شعر ديني ،
كابن قسّوم الأشبيلي (١) ، وأبي زهد الفازاري .

ملاد الأندلس مائة ، جملة بديعة في بساطتها ، وأنهارها
وطيب هوائها . . . ، لذا فقد افتتن شعراؤها بجمالها ، وصوروا لنا
ذلك تصويراً يدلّ على مدى تعلقهم وارتباطهم وحبهم لبلادهم . حتّى إنهم
لم يتركوا جزئية إلاّ وقالوا فيها شعراً توصفوا الرياض وأشجارها وخضرتها
وصياها ، وتفتنوا في وصف أزهارها وورودها ، توصفوا الآس والخيبري
والخرجس والسوسن ، وأزهار اللوز . ووصفوا أثمار الأشجار ، من تفاح ورمّان
وعنب وغيرها . ووصفوا الدواليب والأنهار والجداول والخسوف والشمس
والقمر (٢)

(١) انظر ترجمته في : التكملة ٢/٦٤٩ .

(٢) انظر أمثلة على مقطوعات الوصف في : المنرب ١/١٠٤ ، ٣٤٠ ، ٢/١٧٦ ،

٣١٠ ، ٣٢٠ ، ٤٠٦ ، والاحاطة ٢/٤٦٩ - ٣٢٠ .

وقد جاء وصفهم في مقطوعات شعرية لا تزيد في معظمها على
هشرة أبيات . وهي تصوّر انفعال الشاعر بمنظر يثيره ويحركه فيعبر عن انفعاله
بأبيات الوصف . وقد أسبغ الشعراء الصفات الانسانية على موصلاتهم من
أنهار وأشجار وأزهار وحادثاتها كط يحدث الإنسان إنساناً حياً .
وأهتموا بالألوان في وصفهم للمناظر الطبيعية ، فكانت تظهر وكأنها صورة
زيتية طونة ، مع عناية بتوزيع الظلال والضياء وتصوير للحركة والسكون (١) .
وأزدهر النثر والكتابة ، وخاصة الرسائل الدبلوماسية ، ذلك
لأن السادة الموحدين ، الذين حكموا أقاليم الدولة الموحدية ، كانوا
يجمعون في بلاطاتهم أعداداً كبيرة من الكتاب ، كما هو الحال في بلاط
الخليفة في مراکش . وبعد حدوث الفتنة في الأندلس واضمحلال دولة
الموحدين ، تمددت الولايات الحاكمة في الأندلس ، وكثر نتيجة ذلك
عدد كتّاب الرسائل الدبلوماسية (٢) . كذلك
ازدهرت الرسائل إلى الأغويّة ، كالتهنيتي ، والتمنّائي ،
والمتاب والشّاء ، والشكر .

ونتيجة للنكبة التي حلت بالأندلس في هذه الفترة ، فقد ظهرت
الوصايات إلى الرؤساء والحكام بحق بعض الأندلسيين الذين تركوا بلادهم ،
من أجل إعانتهم وصا عدتهم في غربتهم . كذلك صور معاصرو المحنة ما
حلّ بالأندلسيين من فرقة وأسر وقتل وتشريد . كل ذلك بما طفة ونفحة

(١) الأدب الأندلسي في عصر الموحدين لحكمة الأوسي ص ٨٩ .

(٢) انظر: أبو المطرف ابن عميرة: حياته وآثاره لمحمد بن شريفة ، ص ١٨٣ .

حزينة ، تدعى القلب وتقطع الأحشاء . وهم في تصويرهم لأثار النكسة ، يرثون بلادهم وصفون جمالها ، مع خلط ذلك بحنين وتشوق لأوطانهم .

أما أبرز كتاب هذه القضية ، فهما : ابن الأبار وصاحبه ابن عميرة (١) .

ومن أشهر كتاب هذه الفترة بشكل عام : أبو المطرف ابن عميرة وابن الأبار ، وأبو عبد الله بن عيَّاش (٢) ، وابنه أحمد بن عبد العزيز بن عيَّاش (٣) ، وابن الجنان (٤) ، وطلي بن محمد الرعيبي (٥) ، وغيرهم (٦) .

- (١) أنظر بعض رسائلهما الوطنية في : الرُّوض الممطار ص ٩٧-١٠١ ، ونفح الطيب ٤/٤٩٦-٤٩٩ ، والاحاطة ١/١٧٦ .
- (٢) توفي سنة ٦١٨ هـ ، وكتب للنصور الموحدي والناصر المستنصر ، له ترجمة في : المغرب ٢/٨١ .
- (٣) توفي سنة ٦٢٩ هـ ، كان كاتباً محسناً ، جاء بعد والده ، فكتب للمستنصر والمأمون . له ترجمة في : التكملة ١/١١٩ .
- (٤) توفي سنة ٦٥٠ هـ ، وله مراسلات بينه وبين كتاب عصره ، كإبي المطرف ، كتب لابن هود ، ولإبي جميل زيان . له ترجمة في : الاحاطة ٤/٣٤٨ ، وعنوان الدابة ص ٢١٣ - ٢١٥ .
- (٥) كان كاتباً بليغاً ، وكانت له مراسلات مع ابن الجنان وإبي المطرف ، توفي سنة ٦٦٦ هـ ، كتب لابن هود ، لابن الأحمر ، ولأواخر خلفاء الموحدين ، له ترجمة في : صلة الصلة لابن الزبير ص ١٤٠ وما بعدها .
- (٦) أنظر بعضهم في : الحلة السَّيِّرا ٢/٣٠٨ ، ومقتضب التحفة في مجلس الشرق مجلد ٤١ ، ص ٥٧٨ ، ٥٨١ .

وقد كانت رسالة " طلق السبيل " للمصري ، وغيرها من الرسائل الدينية والزهدية ، محبة لدى الكثيرين من كتاب هذا العصر ، الذين عارضوها ونحوها (١) .

أما سعات النشر ، فهي كميات الشعر أيضا ، إذ كثر الإسراف في التكلفة بالمحسّنات البديعية ، وطلب طبع الطابع الديني ، فكثرت الاقتباسات من القرآن الكريم والحديث الشريف ، كل ذلك بسبب ثقافة الكتاب الدينية ، التي كانت لها الصدارة في هذه الفترة .

* * * *

وقد كانت الحياة الأدبية في تونس ، والبلاط الحفصي بشكل خاص ، مزدهرة نشطة أيضا . وظهرت أغراض الشعر وفنونه ، ما لا يختلف في شيء تقريباً عن أغراض الشعر في الأندلس . ولكن الذي يلفت النظر ، كثرة الشعر في مدح الحفصيين . ونستطيع تحليل ظاهرة كثرة شعر المدح وازدهار الحياة الأدبية في تونس والبلاط الحفصي بشكل خاص بما يلي :

١ - أن أمراء بني حفص ، كانوا أهل طم وأدب ، يفرضون الشعر ويتذوقونه ويحكمون عليه ، ويشاركون في الكتابة . فقد كان أبيو زكريا الحفصي ، شاعرا معسنا فصيحاً ، وله شعر مدون (٢) ، وكان كاتباً متقدماً (٣) . وكان أيضا من الذين يتذوقون الشعر

(١) من الذين عارضوا رسالة " طلق السبيل " للمصري ، ابن الأبار ، وستحدث عن رسالته فيما بعد .

(٢) انظر : الفارسية في مبادئ الحفصية ص ١١٢ ، وله أشعار في الحليل السندسية لابن السراج ص ١٠٢٥ ، والمختب المدرسي لحسن حسني عبد الوهاب ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) انظر : البيان المغرب ٣/ ٣٩٤ ، وله رسالة طويلة في : الصدر نفسية ٣/ ٣٩٥ ، وما بعدها .

ويحكى عن عليه ، فقد ذكر الشجاني في رحلته ، في أثناء حديثه عن ابن عريضة ، قوله : " وكان الأمير أبو زكريا - رحمه الله - استدعاه - جماعته من خواصه وشعرائه لمنزلة في رياضته المسمى " بأبي فهر ، فنظموا في وصفه قصائد ورفعوها إلى الأمير أبي زكريا ، فأجابهم بأبيات تتضمن تفضيل شعر أبي عمرو هذا ، على شعر جميع من حضرها وفيهم ابن الأبار وغيره . وأبيات الأمير أبي زكريا - رحمه الله هي :

ألا إن ضمائر القريض لم تـ	به شعراء السبق أربعة لـ
فأما المجلي ، فهو شاعر جمـ	أتى أولاً والناس كلهم بـ
وأما الصلي فهو حب ر قضاة	بأدابة تزهو الإ مارة والمجـ
وأما الصلي فالمماوي (٣) أمـ	أتى ثالثاً لكن يلين ويشـ
ومقدّمهم الكومي (٤) أقبل تالياً	وكم جاء سباقاً بصومه النهـ (٥)

(١) جمّة : موضح المهدية من البلاد الافريقية ، ومنها ابن عريضة . انظر :

الروض المعطار ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ولا بن عريضة شعر في المكان نفسه .

(٢) حب ر قضاة هو ابن الأبار .

(٣) (٤) المماوي : هو الفقيه الخطيب أبو القاسم بن معاوية اليحصبي ،

كنيته اسم ، ويكنى أيضاً أبا الفضل ، والكومي : هو أبو زكريا يحيى

بن محمد بن الفليظ . انظر : رحلة الشجاني ص ٣٧١ . ولم نعثـ

لهما على ترجمة وافية في المصادر .

(٥) التـ : الشي المرتفع ، أو الكريم ينهض إلى معالي الأمور .

هُمْ عِلْمُ النَّاسِ مَا مِنْهُمْ غَنِيٌّ وَهُمْ شِعْرُ الْطُكِّ مَا مِنْهُمْ بَسْدٌ (١)
 وكان المستنصر أيضا كموالده ، يتذوق الشعر ويقرضه ، فمن شعره ،
 قوله في حبيب (٢) :

مَالِي عَلَيْكَ سِوَى الدُّمُوعِ مُمِينُ إِنَّ كُنْتَ تَفْدُرُ فِي الْهَوَى وَتَخْنُونُ
 مَنْ مِنْجِدِي غَيْرَ الدُّمُوعِ وَإِنَّهَا لَمَفِئَةٌ مَهْمَا اسْتَفَاثَ حَزِينُ
 اللَّهُ يُعْلِمُ أَنَّ مَا حَمَلْتَنِي صَعْبٌ ، وَلَكِنْ فِي رِضَاكَ يَهْسُونُ

وقد حوّل بنو حفص ، بلاطهم إلى منتدى للملطاء والأدباء ، ويمقدون فيه الندوات العلمية والأدبية ، ويفدقون على الملطاء والأدباء ، الأموال الطائلة . " ولما كان شعر المدح من دون فنون الشعر المربي ، مرتبطا على مدى التاريخ الأدبي بالأساسة والحكام ، وذوي الجاه والنفوذ فهو إذاً متأثر سلبا وإيجابا بموقفها منه ينمو ويزدهر ، وجود ويتسع ، إذا لقي تشجيعا ورعاية وعطا من لدنها ، بينما يخمل ويذبل ، يتكفف ويضيق ، حينما يزهد فيه ذوو السلطة ويهبطونه ، غير ملتفتين إلى قائله فلا بد لمنشي هذا الفن من توفر عاملين مهمين في مدوحه ، لينشط ويتحفز ، ويحيد ويدع في مديحه . وأول هذين العاملين ، الأذن الصاغية من المدوح ، والذهنية الناقدة والحساسة المتذوقة ، وثانيهما : النفس الكريمة واليد الممطاة " (٣) وقد توافر هذان العاملان في أمراء بني حفص .

(١) أنظر الأبيات في : رحلة التجاني ص ٣٧٦ .

(٢) نفخ الطيب : ٣٢٣ / ٢ ، وأنظر من شعر المستنصر أيضا في النفح

٣٢٢ / ٢ ، ٣٢٣ ، ٤ ، ١١٠ .

(٣) الشعر في عهد المرابطين والموحدين ص ٧٩ .

٢ - اجتماع مجموعة كبيرة من الشعراء الأندلسيين والتونسيين البارزين في البلاط الحفصي بشكل خاص ، أمثال : ابن عربيّة ، وابن الأبار ، وحازم القرطاجني ، والمماوي ، والكومي ، والحنفى ^(١) ، وأبي عمران بن سميد ^(٢) ، وغيرهم الكثير .

وقد كان هؤلاء الشعراء يتسابقون في مدح الأمير الحفصي في كل مناسبة . وقد نظم ابن عربيّة الذي كان من الشعراء البارزين في البلاط ، ديواناً في مدح الحفصيين سمّاه : " قصائد المدح وخصائد الخلع " وكان هذا الشاعر من نظراء ابن الأبار ، ومن خواص الأمير أبي زكريا الحفصي ^(٣) .

وكان هؤلاء الشعراء يتبارون في مدح الحفصيين ، كل يحاول منافسة صاحبه ، لينال الحظوة والرفعة عند الأمير ، حتى إن أحداً منهم إذا نظم قصيدة ، قام الآخرون بمعارضته لإظهار براعتهم — من ذلك قصيدة حازم القرطاجني التي مطلعها ^(٤) :

مَنَى النَّفْسُ يَدَيَّ مِنْكُمْ وَالنَّوَى تُقَصِّصِي
فَكَمْ ذَا يَطِيْعُ الدَّهْرَ فِيكُمْ وَكَمْ يَمَصِّي

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزناتي المعروف بالحنفى ، انظر

ترجمته في : رحلة التجاني ص ٣٦٩ - ٣٧١ .

(٢) انظر ترجمته في : نفح الطيب ٢ / ٣٦٤ .

(٣) انظر : ص ٥٩ من هذه الدراسة .

(٤) القصيدة في : ديوان حازم ص ١٦٤ .

فقد عارضه من شعراء البلاط ابن الأبار بقصيدته التي مطلعها (١) :
أُجِجْتُ قَتْلِي رِيحُ الشَّنْفَرِ وَالْخُرْصِ .

وذاك نجيمي في مخصبها الرخص (٢)

وعارضه أيضا ابن الصابوني الشاعر الأشبيلي ، قبل وفادته طس
تونس ، بقصيدة مطلعها (٣) :

شَخِصْتُ لِمِزْمِ الْبَيْنِ فَأَخْتَرْتُ شَخِصِي

زِيَادَةُ وَجْدٍ تُنْهَكُ الْجِسْمَ بِالنَّفْسِ (٤)

وعارضه كذلك ابن عربي بقصيدته التي مطلعها (٥) :

أَشَارَ لَدَى التَّوْدِيْعِ بِالْعَنَمِ الرَّخِصِ

هَانَ فَلَا أَهْلًا بَيَانَ وَلَا دِعِيًّا (٦)

٣ - المنافسة بين الدولة الموحدية في المغرب . والدولة الحفصية فإذا
كان بنو حفص يعلمون أن واحدا مثل صيمون بن خبازة ، قال ثلاثة

(١) القصيدة في : مخطوطة ديوان ابن الأبار ص ١٦٥ .

(٢) الشَّنْفَرُ : القُرْطُ . الخُرْصُ : الحلقة من الذهب أو الفضة ، والرَّخِصُ :
الناعم اللين .

(٣) مقدمة منهاج البلغاء ص ٨٠ ، نقلا عن مخطوطة ابن رشيد "مل"
المصيبة .

(٤) يقال : اغترتة المنيّة : أخذته . النفس : الكدر .

(٥) مقدمة منهاج البلغاء ص ٨٠ ، نقلا عن مخطوط ابن رشيد "مل"
المصيبة .

(٦) العنم : نبات أطلس دائم الخضرة والبيان : موضع من عن يمين طريق البصمد
من الكوفة . انظر : معجم البلدان ١/٣٣٢ . والدعس : قطعة مستديرة
من الرمل .

مجلدات ضخمة في مدح المأمون الموحدي ، فإنه كان عليهم
أن يشجعوا الأدباء على القول الكثير من الشعر في مدحهم ،
وتسجيل انتصاراتهم ومناقبهم ، ليبينوا لخصومهم أنهم أهل للمدح ،
وأنهم يقومون بما يوجب على الشعراء التغني بانتصاراتهم
وصفاتهم .

٤ - كثرة الفتوحات الحفصية ، التي فتحت للشعراء أبواباً لتسجيلها
ومدح قوادها ، وتمنيتهم والتعريف بخصومهم ، ثم المناقشة
بينهم في تسجيل تلك الفتوحات ، وتشجيع الأعداء لهم بمعطياتهم
الكثيرة . فمن ذلك ما سجله ابن خلدون بعد فتح أبي زكريا
لتلمسان بقوله : " وما بعد هذا الفتح ، قرير العين إلى تونس ،
قد دخل الخضره واقتعد أريكسه ، وأنشده الشعراء في هذا الفتح
وأسنى جوائزهم " (١) .

والنسبة لخصائص مدحهم ، فإنها تكاد لا تختلف في شيء عن
خصائص المدح عند الموحدين ، التي سبقت إشارتنا إليها .
أما أشهر الكتاب في البلاط الحفصي فهم : أبو المطرف ابن
عميرة ، كان من خواص جلساء المستنصر بعد اتصاله بالحفصيين ،
وابن الأبار ، وأبو المباس أحمد بن إبراهيم الفسّاني التونسي ، ولدا
ومشأ ووفاء ولم يزل كاتب أبي زكريا إلى أن توفي ، ثم كتب بعده لولده
المستنصر ، وكان من خواصه (٢) :

(١) تاريخ ابن خلدون : ٦ / ٦١٠ .

(٢) أنظر : الفارسية ص ١١٦ .

وكشفتهم لا تختلف في مجموع خصائصها ، عن الكتابة فسي
الأندلس لأنّ أعلام الكتاب في الأندلس ، حلّوا في تونس .

هذا هو المصير ، وهذه هي الحياة التي عاش في ظلها
أبن الأندلس : ضعف وتفكك واضطراب وشقت في الحياة السياسية
والاقتصادية والاجتماعية في الأندلس ، أزدهار ونشاط في الحياتين
الثقافية والأدبية .

أما الحياة التي أحاطت به في تونس ، فهي : ازدهار وقوة
ونشاط في جميع النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية
والثقافية والأدبية .

الفصل الثاني

حياة ابن الأبار وآثاره

- اسمه ونسبه
- مولده ولده
- نشأته وثقافته
- أهله وأسرته
- شخصيته وصفاته
- عقيدته
- حياته الادارية
- تنقلاته
- وفاته
- آثاره
- مكانته العلمية

اسمه ونسبه

لقد كان الغبريني المتوفي سنة ٧١٤ هـ، أو فني من ذكر لنا اسم ابن الأبار ونسبه . فقد قال عند ترجمته له : " هو أبو عبد الله ^(١) محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القاضي ^(٢) ، الشهير بابن الأبار ^(٣) " . ^(٤) وقد أكد لنا أنه رأى نسبه بخط يده فنقله . والحقيقة ، أن

- (١) هي كنية ابن الأبار ولم يعرف بغيرها .
 (٢) القاضي هنا نسبة إلى قبيلة قضاة اليمنية ، التي استوطنت بعضها في شرقي الأندلس . أنظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٤٠ . وقد أكد ابن الأبار نسبه إلى قضاة في إحدى قصائد مدحه . أنظر : مخطوطة الديوان ص ٩٢ .
 (٣) هذا هو لقب صاحبنا الذي اشتهر به . ومن الذين تلقوا بهذا اللقب ، أبو جعفر أحمد بن محمد الأندلسي الخولاني ، المتوفي سنة ٤٣٣ هـ . وقد وقع الكتبي في خطأ ، إذ نسب قصيدتين لصاحبنا ، مع أنها لابن الأبار الخولاني . وثمة في ذلك من المحدثين ، عبد العزيز عبد المجيد . الأولى مظلما :

زارني خيفة الرقيب مريسا يتشكى القضيب منه الكثيـ
والثانية :

لم تدر ما خلّدت عيناك في خلدي

من الفرام ولا ما كابدت كـ

أنظر : فوات الوفيات ٢ / ٤٥١ ، وابن الأبار : حياته وكتبه ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، وقد نسبتا إلى ابن الأبار الخولاني كما جاء في : وفيات الأعيان ١ / ١٤٢ ، والوفاء بالوفيات ٨ / ١٣٧ ، ومما هدد التنصيص للمعباسي ١ / ٣٤ . ومن الذين تلقوا بهذا اللقب أيضا كما يقول ابن خلدون رجل خياط عاش في تونس ، وتواطأت شهرته مع صاحبنا ابن الأبار . وقد أورد له جزءا من قصيدة بائية ، تنفي أن تكون لابن الأبار القاضي ، وأكد أنها لابن الأبار الخياط ، ولم نتمكن من ترجمة لهذا الخياط الذي ذكره ابن خلدون . أنظر : تاريخ ابن خلدون ، ١ / ٦٠٣ ، ٦٠٤ .

والأبار : هو صانع الأبر ، جمع أبرة ، وكذلك الذي يصلحها . والأبرة سلسلة الحديد ، والجمع أبر وأبار ، وصانمها أبرار ، والذي يسوي الأبر يقال له : أبرار . ونحن لا ندري ، إن كان هذا مجرد لقب لصاحبنا ، أم أن أحد أجداده كان يصنع الأبر .

(٤) عنوان الدراية : ص ٣٠٩ .

الفبريني ، وان لم يذكر لنا صدره ، الا أننا نرجح أنه قد اعتمد تكملة ابن الأبار ، عندما قام بترجمته لوالده ، فقال : هو " عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي والدي - رحمه الله - " (١) .

ومعد الفبريني ، لم نجد أحداً من الذين ترجموا لابن الأبار ، زاد شيئاً على ما ذكره . وقد ذكر التجيبي الحوفي سنة ٧٣٠ هـ في برنامجه ، اسم ابن الأبار كاملاً ، كما ذكره الفبريني (٢) ، أما بقية المصادر التي ترجمت لابن الأبار أو ذكرت شيئاً من أخباره ، فقد لجأت الى اختصار اسمه ، وكانت تكفي بي بذكر اسمه وكنيته ولقبه فقط (٣) . والفريب أن ابن سعيد الذي عاصر ابن الأبار والتقى به ، لا يذكر اسمه كاملاً عند ترجمته له ، فقد ذكر في " اختصار القدرح " ، أنه " محمد بن عبد الله القضاعي ، ابن الأبار " (٤) .

وهكذا نرى أن المؤرخين لم يختلفوا في اسم صاحبنا ونسبه ، وأنهم أجمعوا على أنه عربي النسب ، ينسب الى قضاة ، كذلك فإن بعض المؤرخين كان ينسبه الى بلده بلنسية ، منهم : الذهبي (٥) والصفدي (٦) والمقرئ (٧) ويسدو أن مكانة ابن الأبار وشهرته ، هي التي حدت ببعض المؤرخين الى اختصار اسمه ، والاقتصار على كنيته ولقبه ،

(١) التكملة : ٨٨٨/٢ .

(٢) انظر : برنامج التجيبي ص ٣٨ .

(٣) انظر : تاريخ ابن خلدون ٦/٦٥٢ ، ومستودع العلامة ومستبدع العلامة لابن الأحمر ص ٢٨ ، ورواة الجنان للياضي ٤/١٥٠ وغيرها .

(٤) اختصار القدرح : ص ١٩١ . وكذلك فعل في : المغرب ٢/٣٠٩ . روايات البرزني ص ٨١ .

(٥) انظر : المعبر للذهبي ٥/٢٤٩ ، وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٥٢ .

(٦) انظر : الوافي بالوفيات ٣/٣٥٥ .

(٧) انظر : نفح الطيب ٢/٥٨٩ .

مولده، ولده

تجمع المصادر على أنّ مولد ابن الأبار، كان في مدينة بلنسية سنة ٩٥ هـ، وأنّ أصله من "أندة". وذهب الفبريني إلى أنّ أصله من أجردة^(١) دون ذكر صدره. ونحن ننفي زعم الفبريني، لأنّ ابن الأبار، ذكر لنا أصله ولده، وسنة مولده، فقال عند ترجمته لوالده: "والدي - رحمه الله - من أهل أندة، وسكن بلنسية"^(٢). وحدّد مولده فقال: "مولدي: عند صلاة الغداة من يوم الجمعة في أحد شهرى ربيع سنة ٩٥ هـ"^(٣).

إذا فابن الأبار بلنسيّ المولد والنشأة، نشأ وترعرع في ربوع بلنسية، التي تمتهر من أجلى مدن الأندلس، والتي أكثرت الحصاد من مدحها، واسباغ صفة الجمال عليها. فمن ذلك قول ابن سعيد في وصفها: "مطيب الأندلس، ومطمح الأعين والأنفس، قد خصّها الله بأحسن مكان، وخصّها بالأثمار والجنان، فلا ترى إلاّ ماها تتفرّع، ولا تسمع إلاّ أطيارا تسجع، ولا تستنشق إلاّ أزهارا تنفح، وما أجلت لمنظاً بها في شيء إلاّ قلت هذا أطيب، ولها البحيرة التي تزيد في ضياء بلنسية، ضحو الشمس عليها. ويقال: إن ضو بلنسية، يزيد على ضو سائر بلاد الأندلس، وجوها صقيل أبدا، لا ترى فيه ما يكدر خاطراً ولا بصراً، لأنّ الجنات والأنهار أحذقت بها، فلم يثر بأرجائها تراب من سير الأرجل، وهبوب الرياح، فيكدر جّوها. وهو أومها حسن... وأخذها من كل حسن بنصيب. ولها البحر على القرب، وحيث خرجت من جهاتها، لا تلقى إلاّ منازة وسارح، ومن أبدعها وأشهرها

(١) أنظر: عنوان الدراية ص ٣٠٩.

(٢)، (٣) التكملة: ٨٨٨/٢، ٨٨٩.

الرصافة (١) . . . وهي مدينة متمكنة الحضارة جليلة القدرة (٢) ، ووصفها صاحب "الروض المعطار" ووصف أهلها فقال : " وهي مدينة سهليّة ، وقاعدة من قواعد الأندلس . ، عامرة القطر ، كثيرة الثجارات ، وبها أسواق وحطّ ، واقلّاع . . . وهي على نهر جار ينتفع به ، ويسقي المزارع ، وعليه بساتين وجنات وعمارات متصلة ، والسفن تدخل نهرها . . . ولأهلها حسن زيّ ، وكرم طباع ، والغالب عليهم ظيب النفوس ، والميل الى الراحة ، وهي في أغلب الأمور راحية الأسفار ، كثيرة الفواكه والثمار ، جامعة لخيرات البر والبحر (٣) ، هذه هي مسقط ابن الأبار ، وهذا وصفها . وهي - كما لاحظنا - من أجمل بلاد الأندلس وأوفرها بالخيرات . وقد كان لذلك الجمال وتلك الخيرات ، عظيم الأثر في نفوس أهلها . وسنلاحظ ذلك بوضوح في شعر ابن الأبار فيما بعد .

(١) الرصافة : كثيرة ، منها الرصافة ببلنسية ، بينها وبين البحر . انظر :
الروض المعطار ص ٢٦٩ .

(٢) المفرب : ٢٩٧/٢ ، ٢٩٨ .

(٣) الروض المعطار : ص ٩٧ ، وانظر في وصف بلنسية أيضا : المعجب
للمراكشي ص ٤٥٤ .

نشأته وثقافته

لقد كان للبيئتين : العامة والخاصة ، اللتين نشأ فيهما ابن الأبار ، الأثر الكبير في ثقافته . فكما أشرنا ، كانت الحياة الثقافية مزدهرة ، وكان الناس يتسابقون نحو العلم ، ويبدلون كل جهد من أجل تحصيله ، وقد ظهرت مجموعات كبيرة من العلماء في كل موضوع .

في مثل هذا الجو العلمي ولد ابن الأبار ، ونشأ وترعرع . وكانت نشأته الخاصة في بيت والد ، نال من علوم عصره نصيباً وافراً ، مما جعله يعتبر الشيخ الأول لولده . وقد ترجم له ابن الأبار في " التكملة " ، وذكر بعض صفاته وعلمه ، فقال : " وكان رحمه الله ، ولا أزكيه - مقبلاً على ما يمينه ، شديد الانحياز ، بعيداً عن التصنع . . . مقدماً في حذية القرآن ، كثير التلاوة له ، والتهجد به ، . . . ذاكراً للقراءات ، مشاركاً في حفظ المسائل ، آخذاً فيما يستحسن من الأدب " (١) .

ولا شك في أن صفات الوالد ، وأخلاقه وعلمه ، كان لها عظيم الأثر في نفس صاحبنا ونشأته . وقد بدأ يتلمذ على شيخه الوالد منذ سن مبكرة . وكان طبيعياً أن يبدأ بالعلوم الدينية ، وخاصة تلاوة القرآن الكريم ، لأن العلوم الدينية ، كان لها الصدارة في عصره ، فحلاً على والده القيصران الكريم بقراءة نافع مراراً (٢) ، ولم يقتصر الأمر على العلوم الدينية ، بل يقبل

(١) انظر ترجمة والد ابن الأبار كاملة في : التكملة ٢ / ٨٨٨ - ٨٩١ ، والذيل

والتكملة ، السفر الرابع ، ص ١٧٩ .

(٢) انظر : التكملة ٢ / ٨٨٩ .

ابن الأبار: "وسمعت منه أخبارا وأشمارا" (١) ويبدو أن الوالد قد لاحظ النبوغ والذكاء في ولده، منذ سني حياته الأولى، فنحاول أن يوجهه الوجهة العلمية، فميين له معلما خاصا، يهتم به ويقوم على تعليمه، وهو محمد ابن عبد الله بن أبي زاهر، ويكنى: أبا حامد، والتوفى سنة ٦٣٣هـ. فعندما تخرج اسم له ابن الأبار قال: "وهو كان معلما، وعنه أخذت قراءة نافع، ومه انتفعت في صفري، وسمعت منه وأجاز لي، وسمع مني كتاب "اللجين في مراثي الحسين" من تأليفي" (٢).

هذه هي القاعدة الأساسية الأولى، لثقافة ابن الأبار، وهي تقوم على أمرين: ثقافة الوالد، الذي اهتم بابنه منذ صغره، فحرص على أن ينشأ نشأة علمية خالصة، وثقافة المعلم أبي حامد.

وقد انطلق ابن الأبار من هذه القاعدة، ليتصل ببقية علماء عصره، فينهل من علومهم على اختلافها. وقد تعرفنا على مجموعة من شيوخ ابن الأبار، من خلال ترجمته لبعضهم في كتبه، مع أنه أشار في "التكلمة"، إلى أنه وضع مجمعا فسي أسما شيوخه (٣)، ولكن لسوء الحظ، لم يصلنا، ولا نعرف عنه شيئا.

ومن شيوخ ابن الأبار، الذين أخذ عنهم العلوم الدينية: أبو عبد الله محمد بن أيوب بن وهب بن نوح الفافقي البلسي، المتوفى سنة ٦٠٨هـ، الذي أخذ عنه علم القراءات. قال "تلوت عليه القرآن

(١) انظر التكلمة ٢/٨٨٩.

(٢) المصدر نفسه: ٢/٦٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ١/١٢٥.

بالسَّبَّح ، وأجاز لي ، وسمعت منه ، بعد والدي - رحمه الله - ومع (١) ويصف لنا علمه قائلاً : " وهو أغزر من لقيت علماً وأبعدهم صيتاً " (٢) ومعنى هذا أن ابن الأبار قد أثقن قراءة القرآن الكريم بالقراءات السَّبَّح وهو ابن ثلاث عشرة سنة أو أقل من ذلك ، ومثلهم فيهم أيضاً : أحمد بن محمد بن علي بن علي بن عون الله الخوافي سنة ٦٠٩ هـ ، آخر المقرئين في شرقي الأندلس ، يعرف بالحصَّار ، يقول عنه ابن الأبار : " أخذ عنه والدي - رحمه الله - القراءات ، وأجاز له ، وأخذتها عنه بعد ذلك بمدة ، وسمعت منه وأجاز لي " (٣) . وكذلك أبو الحسن علي بن أبي أحمد بن عبد الله بن خيرة البلنسي ، خطيب مسجد ها ، يقول في حقه : " تلمذ عليه بالقراءات السَّبَّح ، وسمعت منه جل ما عنده " (٤) . هؤلاء العلماء الثلاثة بالاضافة إلى والده ومعلمه أبي حامد ، هم أبرز من درس عليهم ابن الأبار علم قراءات القرآن الكريم .

أما علم الحديث والتاريخ ، فقد أخذه عن شيخه أبي الخطاب ، أحمد ابن واجب القيسي الخوافي سنة ٦١٤ هـ ، المحدث المؤرخ ، وقد كان له هذا الشيخ عظيم الأثر في حياة ابن الأبار العلمي ، إذ نجده يسند إليه الكثير من روايات الحديث والأخبار . يقول ابن الأبار في حقه : " حامل راية الرواية

(١) انظر: التكملة ٥٨٤/٢ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) المصدر نفسه ١٠٠/١ .

(٤) ابن الأبار : حياته وكتبه ، ص ١١٣ . لم نعثر على ترجمة له في التكملة المطبوعة .

بشرق الأندلس ، وآخر المحدثين " (١) ، " وكانت الرحلة اليه في زمانه " (٢) ، رزقت منه قبولا ، واختصاصا ، فمعظم روايتي قديما عنه ، وأجاز لي غير مرة خطأ ولفظاً " (٣) .

ومن شيوخه البارزين ، داود بن سليمان بن حوط الله ، المتوفى سنة ٦٢١ هـ ، سكن بلنسية من سنة ٦٠٨ هـ - ٦١١ هـ . وقد استفاد ابنه من الأبار من هذا الشيخ بشكل كبير ، لأنه - كما يبدو - قد لا زمه طيلة مكوثه في بلنسية ، إذ نجده ينسب إليه الكثير من الروايات والأخبار والأشعار في كتبه ، يقول عند ترجمته له : " وكان شديد العناية بالرواية ، كانت أغلب طبعه من الدراية ، فمال إلى الجمع والإكثار " (٤) .

ومن أخذ عنهم الأخبار رواية الحديث والآداب ، محمد بن سليمان الأنطري النحوي من أهل بلنسية ، المتوفى سنة ٦١٠ هـ . وهو نوع جديد من شيوخه ، كان يجمع بين النقل والمقل والرواية والدراية . يقول ابن الأبار عنه : " وقد نقلت من خطه ما نسبته إليه في هذا الكتاب (أي التكملة) ، وأجاز لي بلفظه ، وسمعت منه بعض نظمه " (٥) .

ومن أخذ عنهم اللغة والنحو والآداب ، محمد بن إبراهيم بن صلم البكري من أهل بلنسية ، المتوفى سنة ٦٢٨ هـ . وقد ترجم له في " التكملة " فقال : " سمع من شيخنا أبي عبد الله بن نوح قديما ولا زمه ، وأخذ عنه المربية والآداب وأقرأ بها ، وكان مقدما ، حسن التعليم بها ، وهو أحد من أخذتها عنه . قرأت عليه جملة من أول " الأيضاح " لأبي علي الفارسي ، وناطنيه مرارا " (٦) .

(١) ، (٢) ، (٣) : التكملة : ١٠٦/١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٤) المصدر نفسه : ٣١٧/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٥٨٨/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٦٢٧/٢ .

ومن الذين أخذ عنهم الأخبار والأشعار ، أبو محمد عبد الله
ابن مطروح التجيبي ، من أهل بلنسية ، المتوفى سنة ٥٦٣٥ هـ . يقول ابن
الأبار في حقه : " كان فقيها عارفا بالأحكام . . . أدبيا شاعرا . . . سمعت
منه حكايات وأخبارا ، وأنشدني لنفسه ولغيره كثيرا ، وأجاز لي - غير مرة - جميع
ما رواه وأنشاه " (١) .

وهناك نمط آخر من شيوخ ابن الأبار ، وهو محمد بن عبد الله بن
خلف بن قاسم الأنصاري ، من بلنسية ، المتوفى سنة ٥٦٤٠ هـ ، وكان من
المصوّفة . يقول عنه ابن الأبار : " وطريقة التصوّف كانت أغلب عليه ، وألف
كتاب "سيم الصبّا" في الوعظ على طريقة الجوزي ، قرأ عليّ بلفظه مواضع
منه . . . وسمعت منه غير ذلك ، وأجاز لي وصحبه طويلا " (٢) ونرجح أن يكون
لهذا الشيخ بعض الأثر في نفسية ابن الأبار ، وخاصة أنه أكثر من صحبته .

ويعتبر أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاهي ، أكبر محدث في عصره ،
وأبرز عالم في زمنه ، من أهم شيوخ ابن الأبار الذين تتلمذ عليهم ، وصحبهم
مدة طويلة ، فقد صحبه قرابة عشرين عاما ، وتأثر به أيما تأثر ، ظهر ذلك جليا
عند ترجمته له . يقول ابن الأبار مبينا ما استفاده من هذا العالم الجليل :
"أخذت عنه كثيرا ، وانتفعت به في الحديث كلّ الانتفاع ، وأمدني من تقييداته
وطرفه " (٣) وهو أيضا شيخه ومعلمه للكتابة ، إذ يقول : "شيخني الذي أورثني
هذه الصداقة ، ورضي اتخاذا لها لي بضاعة ، وضمن أن لا إضافة ولا إضاعة ،
فاسترجعت حصاته ، وأقبلت عليها قابلا وصاته ، غير مستبدل بها خطوة " (٤) .

(١) التكملة : ٩٠٠ / ٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٥١ / ٢ .

(٣) ابن الأبار : حياته وكتبه ص ١٣١ . لم نعث على ترجمة له في التكملة

المطبوعة .

(٤) اعتاب الكتاب : ص ٢٤٩ .

هؤلاء هم أهم شيوخه ، وهم كما نلاحظ أصحاب ثقافات متنوعة ،
فمنهم : المؤرخ ، والمحدث ، والفقيه ، والمقري ، وعالم العربية . . . وكان
كل واحد منهم من مشاهير زمانه في علمه وتخصصه ، من أفاض ابن الأبار فائدة
كبيرة .

ولم تقتصر تلمذة ابن الأبار ، على الذين سبق ذكرهم فقط ، بل
إن نظرة فاحصة في كتبه ، تبين لنا كثرة الذين سمع منهم وأجازوه (١) وإن
تأليف ابن الأبار معجماً لمشيخته ، لدليل على كثرتهم ووفرة عدد هم .

ويبدو أن نهل ابن الأبار ، من ثقافة عصره ، لم يتوقف عند سنن
مدينة ، فقد ظلّ يتلمذ على شيوخ عصره ، حتى وهو ابن الأرمين أو يزيدي
ودليل ذلك قوله عند ترجمته للحسن بن محمد بن الحسن بن فاتح ، المعروف
بالشمّار : " وسمعت أنا منه في منتصف رمضان سنة ٦٣٥ هـ ، إثر مناظرة الروم
بلنسية لمشرة أيام ، حكايات وأشماراً ، وأجاز لي بلفظه ما وراه " (٢) . وكأنه
حتى في أدق الظروف وأصعبها ، لم يشغل عن السماع والتحصيل . ويؤكد
المراكشي في الحقيقة السابقة بقوله عن ابن الأبار : " ولم
يرل يسمع العلم ويتلقاه ، عن الكبير والنظير والصغير ، شغافاً به وحسباً
عليه إلى منتهى عصره " (٣) .

ومجد رحيله إلى تونس ، التقى هناك بمجموعة من العلماء ، الذين
سمع منهم وأجازوه ، من أبرزهم : محمد بن يحيى بن هشام الأنصاري

(١) انظر التكملة : ٦٠٨/٢ ، ٦٤٦ ، ٧٥٩ ، ٦٣٦ ، ٦٣٩ ، ٥٨٧ ،

٥٩٤ ، وغيرها .

(٢) التكملة : ٢٦٧/١ .

(٣) مقدمة درر السمط ص (١) ، نقلاً عن مخطوط الذيل والتكملة ج ٦ .

الخزرجي ، المعروف بابن البرزعي . يقول عنه : "لقيته بتونس ، وصحبته أعواماً ، وأخذت عنه كثيراً ، وأجاز لي خطأ ولفظاً غير مرة" (١) . وعبد الله بن محمد بن عبد الله الصنهاجي "غرب عن وطنه إلى تونس سنة ٦٤١ هـ ، فلقيته بها مراراً ، وسمعت كثيراً ، وأجاز لي لفظاً جميع روايته" (٢) . وإبراهيم

بن إسحاق بن محمد العبدري ، المعروف بابن عائشة المتوفى سنة ٦٤٢ هـ ، "لحق بتونس حميد السيرة . . . صحبته وسمعت منه أخباراً" (٣) . ومحمد بن عبد الله بن عمر ، المعروف بابن الصفار ، والمتوفى سنة ٦٣٩ هـ ، يقول عنه : "استقر أخيراً بمدينة تونس ، وبها لقيته فـ في شعبان سنة ٦٣٦ هـ ، ثم صحبته بعد ذلك طويلاً ، وسمعت منه بعض رواياته ، وأجاز لي بلفظه غير مرة" (٤) . وعبد الله بن أحمد بن عبد الله الأنصاري . يقول : "صاحبته بمدينة تونس مدة ، وسمعت منه كثيراً ، وسمع مني يسيراً ، وأجاز لي بلفظه ما رواه وجمعه وأنشأه" (٥) .

هذا هو ابن الأبار ، يقل على العلم بشغف ولا يكاد يترك فرصة إلا ويستغلها . وهو في أخذه عن الشيوخ يتحرى فيهم القدرة والملمس والنهاية ، ودليل ذلك أنه في ترجمته لمحمد بن عطية بن موسى بن عبد العزيز ، يقول : "سمعت من يغمزه فتركت الأخذ عنه" (٦) .

(١) التكملة : ٦٦١/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٩٢٥/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٧١/١ .

(٤) المصدر نفسه : ٦٤٧/٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٩٣/٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٦١٩/٢ .

ومما يلفت النظر ، أن كلّ شيوخ ابن الأبار تقريباً ، من أهل بلنسية ، أو من الذين قد موا إليها ، فهل اكتفى بشيوخ بلده ، ولم يسافر في الأندلس من أجل السماع والتلمذة ، كما كان يفعل معظم علماء عصره ؟

لقد ذكر ابن شاكراً أن ابن الأبار قد جال في بلاد الأندلس (١) ،

ولكنه لم يذكر لنا سبب تجواله . ومهما تكن الدوافع والأسباب لتجواله ، فإني أستطيع الجزم أنه كان في أثناء تجواله ، يتصل بعلماء البلد الذي يحل فيه ، فيأخذ عنهم ويحيزونه في بعض الأحيان . من ذلك

محمّد بن عبد الملك الفهري من أهل اشبيلية ، يقول : " جالسته في آخر سنة ٦١٦ هـ ، وسمعت منه ما حكاه في تناهي أحوال اشبيلية في ذلك التاريخ " (٢) . ومحمد بن علي بن الزبير بن أحمد بن خلف القضاعي ، من أهل مريطور (٣) ، يقول : " لقيته مراراً ببلده ثم ببلنسية ، وحدثني بحكايات وأخبار لي بلفظة ما رواه " (٤) . ومحمد بن علي بن أحمد الزهري ، من أهل إشبيلية ، المتوفى سنة ٦٢٣ هـ ، يقول في حقه : " سمعت مناظراته . . . واستجزته ما روى عن أبيه " (٥) .

(١) انظر : فوات الوفيات ٣٥٦/٣ .

(٢) التكملة : ٦١٦/٢ .

(٣) مريطور : حصن بالأندلس ، قريب من طرطوشة ، وهو على جبل ، ويظهر البحر منه شرقاً وغرباً . انظر : الروض الممطار ص ٥٠٤ .

(٤) التكملة : ٦٢٤/٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٦١٩/٢ .

ولقد أثمرت ثقافة ابن الأبار الواسعة المتنوعة ، ثمارا كثيرة
ناضجة ، وإنَّ نظرة فاحصة فيما وصلنا من كتبه ، لتبيِّن أنَّه كان على ثقافة
ومعرفة ، لم يصل إليها إلاَّ القليل من أبناء عصره . وكان أولى بمشغل
هذا العالم أن ينقطع للملم والتأليف ، وأن يعتمد عن كلِّ ما يشغله
عن ذلك . ولو فعل ذلك حقيقة ، وجتَّب نفسه ، هموم السياسة ومضائهم ،
لأنَّ نتج إنتاجا خصبا غزيرا أكثر مما أنتجه ، وإن كان ما انتجه على الرغم
من انشغاله بالسياسة - يعتبر دليلا واضحا على عظمته وطوِّ شأْنه
وتفوقه العلمي .

يا مولا كان الحفاظ يحلّنه والجود بالضيفان عنه يرحب
ونحن لا نستغرب ذلك ، فقد كان والده عالما ، وله شأن فسي
زمنه ، وما يدعم ذلك قول ابن الأبار عند ترجمته لوالده وإشارته لوفائه ؛
" وكانت جنازته مشهودة ، والثناء عليه جملا " (١) ،

لقد ذكر ابن الأبار عند ترجمته لمحمد بن حسن الأنصاري
المعروف بابن الوزير ، المشتهر بابن البطرني (٢) ، أن هذا الرجل
هو صهره ، وأنه انتقل معه إلى تونس ، بمد سقوط بلنسية ، ومات فيها
سنة ٦٣٧ هـ ، ولكنه لم يذكر هل كان زوج شقيقته أم زوج ابنته . كذلك
فإن حديثه عنه لا يختلف عن حديثه عن أي شخصية أخرى .

وإذا كنا لا نستطيع الجزم بأن ابن البطرني هو زوج ابنته ، فإننا
نؤكد أن عيسى بن لب بن محمد بن الحسين بن عوف الزمري ، أبو الحسن ،
هو صهره زوج ابنته ، إذ يقول صاحب " الذيل والتكبة " عند ترجمته له :
" روى عن صهره أبي زوجه ، أبي عبدالله بن الأبار " (٣) .

وفيما يتعلق بأسرته من زوجة وأولاد ، ظم نمش على شي * يذكره
سوى بعض الأبيات الشعرية ، التي ألح فيها إلى أسرته وأولاده ، ويبدو أنه
تزوج وهو في الأندلس قبل رحيله إلى تونس ، لأنه يقول عندما لحق بأبي زيد
الموحدي إلى بلاد الروم (٤) :

-
- (١) التكبة ٢٥ / ٨٩٠ .
(٢) انظر ترجمته في : المصدر نفسه ٢ / ٦٤٦ . وقد وقع عبد الميزيد المجيد
في خطأ عند ذكره له فذكره بحسن الأنصاري . انظر : ابن الأبار : حياته
وكتبه ص ١٣٦ . وكذلك وقع عبدالله أنيس الطباع في الخطأ نفسه في كتابه
عن الحلة السيرة ص ٧٣ .
(٣) الذيل والتكبة : سفر (٥) قسم (١) ص ٥٠٤ . وقد ذكر في الهامش عنه ،
مولده سنة خمس عشرة وستمئة ، وتوفي بتونس ليلة الاثنين لا ربح وعشرين
ليلة غلت من شهر رمضان سنة ست وثمانين وستمئة .
(٤) مخطوطة الديوان : ص ٧٤ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا أَهْلٌ وَلَا وَلَدٌ وَلَا قَرَارٌ وَلَا صَبْرٌ وَلَا جَلَسٌ
كَانَ الزَّمَانُ لَنَا سِلْماً إِلَى أَمَدٍ فَعَادَ حَرْباً لَنَا لَمَّا انْقَضَ الْأَمَدُ

فهو إذاً ، يتحير ويتألم لبعده عن أهله وأولاده . ويقول في مكان

آخر ، ذاكرا أبنائه بشكل صريح في قصيدة مدح لأبي زكريا (١) :

وَرَأَجَمْتُ بِالْبُشْرَى نَفْساً عَهْدَتْهَا مُخَاطَبَةً مِنْ عَطْفِهَا بِمَفَاتِيحِ
وَقَلْتُ لِأَبْنَائِي : وَقَدْ نَبِئْتُهَا التَّسِي ثَنَّتْهُمْ ثَنَاءً بَيْنَ شَادٍ وَمَادِحِ
أَسْرُوا دُعَاءً لِلْأَمِيرِ وَأَطْنَسُوا وَسَيَرُوا عَلَى نَهْجٍ مِنَ الشُّكْرِ وَاضِحِ

وفي إحدى قصائده ، يحدثنا عن مجموعة من الأيتام الذين

أشغلوه ، ودعوه للترحال المستمر . ونحن لا ندري ما صلة القرابة التي

تربطه بهم ، لكن ربما كانوا أبناء صهره ابن البطرني ، الذي تبعه مع أسرته

إلى تونس ، فمات فيها سنة ٥٦٣٧ هـ .

يقول في حديثه عنهم (٢) :

دَعَانِي لِتَرْحَالِي اضْطِرَارٌ وَلَمْ يَزَلْ يُحَلِّلُ مَا أَضْحَى عَلَى الْمَرْءِ يَحْرُمُ
وَلَا أُطِيفَالٌ ، طَوَاهِمُ طَوَاهِمُ فَأَعْظَمُ مَا يَبْقَى جُلُودٌ وَأَعْظَمُ

(١) مخطوطة الديوان ص ٤٥ .

(٢) المصدر نفسه . : ص ١٢٤ ، ويبدو أن الشاعر قد قال هذه

القصيدة ، وهو في تونس ، وأنها كانت في استعطاف أبي زكريا الحفصي ،

عندما حصلت الجفوة بينهما ، لأنه يقول :

إمام الهدى ، عطفاً ، ورخص ، ورقّة

فشأن الموالى أن يرقوا ويرحموا

- أسى بي الأسى عادتهم والديتهم . فما منهم الا يتيم وأيتـم (١)
 هم أبدا همي ، ظلي أليـل بمعزتي عنهم ويومي أيتـم
 جوانحهم تزكوليهـا وتلتظي وأعينهم تهـي تحيما وتسجـم (٢)
 تخالهم في شجوهم وانتخابهم حمام (٣) كي افنانها تترنـم
 لأزجيت (٤) أيامي وزجيت فرجة ولما يسر مري يسرحلي وطجم

وهذه الأبيات ، تكشف عن نفسية شاففة ، تفيض بالحنان والعطف والرحمة ، نحو هؤلاء الصبية الضعاف الأيتام ، الذين أشغلوا الشاعر ، فطال ليله وكثر ترحاله ، ليعمل على راحتهم واسعادهم .

-
- (١) الأيتـم : العرب رجلا كان أو امرأة ، ويقال : تركوا النساء
 أيامي ، والأولاد يتامى .
 (٢) زكا الشيء : زاد . وتسجم : تفيض بالدمع .
 (٣) الأصل " حمام " وهـا لا يستقيم البيت .
 (٤) في الاصل " ازجيت " والصحيح أزجيت ، ويقال : أزجيت أيامي :
 دافعتها بقوت ظليل .

شخصیت و صفات

وهو رجل مؤمن ، يتوجّه إلى الله في ساعة الشدّة ، فيدعو به
بثقة واطمئنان ، يقول (١) :

يا شقيق النفس أوصيك وإن
لا تبت في كمد من كبـدٍ
شقّ في الإخلاص ما تنتهـجـه
ربّ ضيق عاد رهباً مخرجه (٢)
ولطف الله أصبح واثقاً
كلّ كـوبٍ فعليه فرجه

وهو رجل مخلص وفيّ ، يحبّ من يتصل بهم ، ولا يتخلّى عنهم ،
ومخاصة في أوقات الشدّة . دليل ذلك خروجه مع السيّد أبي زيد الموحديّ ،
عندما ترك بلنسية ، وذهب إلى بلاد النصارى ، يقول في ذلك (٣) :

قالوا : الخروج لأرض الروم منقصة
إذا خرجت وفاء ثم عدت تقبي
فقلت : كلا ولكنّ صا دها بـاء
أثنت بفعلتي عداتي والأهـبـاء

ولكنّ وفاء لم ينسه عقيدته وإيمانه ، فعاد سريعاً بعد أن اعتنق
أميره النصرانيّة .

وهو عطوف شفيق ، تفيض نفسه بالرحمة والحنان (٤) .

وهو رجل خبير وشفاعة في وقت كان الناس أحوج شيء فيه إلى
من يمدّ يد المون إليهم ، ويمينهم على صائهم (٥) .

(١) مخطوطة الديوان ص ٣٨ ، وانظر أيضاً : عنوان الدراية ص ٣١٣ .

(٢) في الديوان " فرجه " ، وفي عنوان الدراية " مخرجه " .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٠ .

(٤) انظر أبياته السابقة في الأيتام . ص ٩٨ ، ٩٩ ، من هذه الدراسة .

(٥) انظر : أزهار الرياض ٢١٧/٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ .

ولمّا كان ابن الأبار قد أتيح له منذ بداية حياته الاتصال بأمرائه بلده في بلنسية ، ثم استمرار ذلك الاتصال بالحكام بعد رحيله إلى تونس ، لذا فقد عرف بالأبهة والجلال والرياسة (١) . ولا شك أن هذا الاتصال المبكّر بالحكام ، قد قوى في نفسه صفة الطموح ، والطمع للوصول إلى أعلى المراتب ، وقد تحقق له بعض ذلك في بلده ، وفي تونس ،

ولا أظننا ننسى تلك الصفة التي أبرزتها أحداث عصره وسقوط بلده على وجه الخصوص ، وهي الوطنية الحقة ، فقد أخلص لوطنه وأمسّه ، وذهب يستصرخ أمير تونس ، لينقذ بلده ويحميه من سقوط محقق ، وظهرت وطنيته بوضوح في قصائده ورسائله التي قالها في رشائه بلده وأهله والحنين إليه .

وهناك صفتان ، لا بدّ من التوقف عندهما وهما :

- الفضب مع شيء من الفخر والتكبر .
- والدّل إلى حدّ المبهوديّة .

فقد قال ابن سميد مذهباً إلى خلق ابن الأبار : " صار ... صاحب الملافة في بيت الكصاب ، إلا أن أخلاقه ، لم تمنه على الوفاء بأسباب الخدمة ، وقصّت عنه ظلّ تلك النعمة " (٢) . وكما أن ابن ... خلدون أكثر تصريحاً ، عندما قال : " وكان في ابن الأبار أنفة وأو (٣) وضيق خلق " (٤) .

(١) انظر: فوات الوفيات ٢/ ٤٥٠ ، والوفى بالوفيات ٣/ ٣٥٥ ، والصبر في

خير من غير للتدهي ٥/ ٢٤٩ .

(٢) اختصار القدر : ص ١٩١ .

(٣) البأو : الكبر والفخر .

(٤) تاريخ ابن خلدون : ٦/ ٦٥٣ .

وقد تناقل كثير من الذين ترجموا لابن الأبار ، مقولة ابن خلدون .
ولكن إلى أي حدّ نوافق ابن سعيد وابن خلدون في قوليهما ؟

إنّ نعمت ابن الأبار بالفضب والتكبر^١ وضيق الخلق ليس صحيحا ،
فابن الأبار العالم الفقيه المقرئ المحدث ، هادي النفس ، رزين وقور ، يشور
لكرامته ويدافع عنها . ونشير هنا إلى أنّ الظروف التي تحيط بالإنسان تسيره ،
وقد تفرض عليه أن يسلك سلوكا معيّنًا ، فالهادي قد يتحوّل إلى ثائر ، وإذا
عاش بين أناس يحمدهونه ويكيدون له ، والثائر قد ترتاح نفسه وتطمئن إذا وجد
ظروفا تناسبه وترجح نفسه . وهذا ما حصل لابن الأبار ، فهو بعد رحيله إلى
تونس ، وهو العالم الجليل ، الكريم الخلق والطباع ، أنزله سلطانها منزلا يليق
بعله ، فجعله كاتب علامته ، ولكن رجال حاشيته ، الذين يتصفون بالمكـر
والخداع والحسد ، أخذوا يكيدون له^(١) ، لأنهم كانوا يرونه أغزر منهم
علما ، وأعظم قدرا ، وهو اللاجي^٢ للمرتحل عن وطنه . وكان ابن الأبار يدرك كلّ
ذلك . وكان ينظر إليهم ، فيجد هم أرفع منه منصبًا ، مع أنه أكثر منهم علما . . .
أقول : كل هذا أثر في نفسيّة ابن الأبار ، وجعل تلك النفسيّة
الهادئة المتزنة ، تتحوّل إلى نفسيّة غاضبة حاقدة . فعندما طلب أبو زكريا^٣
صرف كتابة العلامة إلى أبي المباسم الفسّاني ليكتبها بالخط المشرقي ، بمعد
أن كان ابن الأبار يكتبها بالخط المفسريّ غضب ابن الأبار ، وجاهر بوضعها
سخطا وثأرا لكرامته . وعندما عوّب ، رمى بالقلم وتمثل^(٢) :

(١) يبدو أن بعض التونسيين كان يشمر بظلم ابن الأبار ، والمكر والمدا^٤
المبيّت له ، فحاولوا الانتصار له ، منهم : أبو اسحاق ابراهيم التجاني
التونسي ، الذي ألف كتابا في الانتصار لابن الأبار بمنوان " مؤازرة الوافد
ومبارزة الناقد في الانتصار لابن الأبار " . انظر : شجرة النور الزكية

١/٢٠٦ ، ١٩٥٠ .
(٢) انظر : تاريخ ابن خلدون ٦/٦٥٣ ، وانظر هذا البيت في : المصنف
الطبيب في شرح ديوان أبي الطيّب ص ١٧ .

فاطلب المَرْفُ في لَظَى ، وَذَرِ الدُّ لَّ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ

فابن الأبار في تحطه بهذا البيت ، يعلق عن نفسية عزيزة كريهة ترى أن يوضع كل انسان في مكانه ، وأن يعامل الجميع معاملة تليق بقدرهم ومكانتهم . . . كل هذه الأمور ، هي التي خلقت من ابن الأبار نفسية ثائرة متبرمة ، ليست راضية بما يحيط بها . وكان خصومه له بالمرصاد ، فزعموا أنه متكبر ويثور لأتفه الأسباب .

ومما يدعم القول السابق ويرجحه ، أننا لم نعهد ابن الأبار ثائرا متكبرا ضيق الخلق في بلده ، مع أنه قضى في خدمة أمراء بلده فسترة طويلة في شبابه ، كانت كافية للكشف عن تلك السمة التي اتهم بها . ولكن الظروف التي أحاطت به في بلاط أمراء بلده ، تختلف اختلافا كبيرا عن تلك التي أحاطت به في تونس . فهو في بلده عزيز كريم ، له الحق في أن يصل إلى أعلى المراتب ، وإن كان أهلا لها ، وكان ابن الأبار أهلا للمنصب الذي تولاه في بلده ، ظم يتمرض لمن يحسده أو يكره إليه - كما وصلنا - ولكنه في تونس غريب لا جىء ، فإذا ما وصل إلى مرتبة عالية ، حسد عليها ، حتى وإن كان أهلا لها ، لأن أبناء تونس يرون أنهم أحق بذلك من ذلك الطارىء الوافد .

والصفة الثانية التي لا بد من التوقف عندها ، هي تذلل ابن الأبار في اعتذاره للسلطان أبي زكريا الحفصي . ومن يطلع على مقدمة "إعتاب الكتاب" الذي قدّمه معتذرا للسلطان ، يلاحظ أن ابن الأبار قد أسرف في تذليل نفسه ، حتى كأنه يستجديه المطف والفقران ، وهذه الذلة ظهرت أيضا في قصائد اعتذاره ، ونحن هنا نذكر أبياتا أربعة ، جعل ابن الأبار نفسه فيها عبدا .

يقول (١) :

وغير يدع ولا يحمي
صَحَّحَ الموالى عن المبيد

ويقول (٢) :

عادته العفو والموالى
تعمفوا إذا أخطأ المبيد

وفي بيت ثالث يقول (٣) :

أنا المبد الشكور لما حبتني
به عيائه والمجد الأثيل

ويقول (٤) :

مولا يهدك ما له من معدل
عن دار عدك منذ حل وخيما

نعم . . . إن ابن الأبار الوفي المخلص ، أبت نفسه أن تتخلل
عن ذلك الرجل ، الذي استقبله بعد مسقوط يده ، وأهله محلا يليق
بمقامه ، فصب عليه أن يتنكر لنمته وجميله وحسن صنيعه ، لأنه كان يعلم
أن أعداءه كانوا وراء كل مصيبة تحل به .

أقول : مع أن ذلك قد يعتبر مررا له في تذله ، ومع أنه كان
مجاوبا في ذلك من سبقه من الشعراء في اعتذارهم للطوك ، إلا أنه كان
عليه أن يترفع عن ذلك ، وأن يظل محافظا على كرامته ، وعلى شخصيته
كمال له من القدر والجلال ما جعل كل من ترجموا له ، يشهدون له
بذلك .

(١) مخطوطة الديوان : ص ٧٠ ، وإعتاب الكتاب : ص ٢٦٠ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ٧١ ، وإعتاب الكتاب : ص ٢٥٧ .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٢٠ ، وإعتاب الكتاب : ص ٢٦٠ .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٣٤ ، وإعتاب الكتاب : ص ٢٥٦ .

ونحن بعد الاستعراض السابق ، لا بد لنا من التوقف عند الكتاب الذي اتهم ابن الأبار بسببه بالتشيع ، لنرى فيما إذا كانت التهمة صحيحة أم لا .

يبدأ ابن الأبار كتابه بما يشير إلى تأييده لآل البيت فيقول : "رحمة الله ومركاته عليكم أهل البيت فروع النبوة والرسالة" (١) ، إلى أن يقول : "أولئك السادة أحيي وأقدي ، والشهادة بحبهم أوفي وأؤدي ، ومن يكتمها فإنه أشم قلبه" (٢) .

ويستمر في كتابه معلنا حبه لآل البيت ، وتقديسه لهم ، وتنقيص قدر بني أمية . ويرى أن علياً سيّد الأوصياء ، وآخر الخلفاء ، وأن معاوية أول الطوك . ومع أنه بين الرجلين خلاف واضح في المزايا ، إلا أنهم سيجتمعان في الجنة (٣) ، ويستمر في بيان مكانة علي رضي الله عنه . فيقول مشيراً إلى حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - (٤) : "قلوا أن لا نبي بعدى ، نص في الامتناع ، وكان (أنت بمنزلة هارون من موسى) حجة في الاتباع" (٥) .

ثم يصور مأساة الحسين بمناطفة تأججة فيقول : "ما عذراً لمؤبة وأبنائها في قتل الملوثة ، وأفنائها ؟ أهدم يقسمون رحمة ربك ؟ كم دليل في غاية الوضوح على أنهم كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق" (٦) .

(١) انظر : درر السمط ص ١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥ .

(٤) أشار ابن الأبار إلى حديث الرسول عليه السلام الذي يقول : أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدى . أنظر صحيح مسلم

بشرح النووي ١٥/١٧٤ .

(٥) درر السمط : ص ٢٢ .

(٦) المصدر نفسه : ص ٦٧ .

ويبدو أن ابن الأبار كان صادقاً في تصوير مأساة الحسين ، فقد ألف كتاباً خاصاً في رثائه سمّاه " معدن اللّجين في مراثي الحسين " (١) .
ويبدو من عنوانه أنه قصائد رثائية تقابل كتابه " دور السّمط النثري " .

وقد خلا كتاب " الدرر " من أي رأي من آراء الشيعة ، كالقول بالامامية ، والمصنعة والآراء الأخرى ، كما أنه خلا مما زعمه الصفدي من أن ابن الأبار قد وصف علياً - عليه السلام - بالوحي .

ومعد ، فإننا إن نوّكّد ما ذهب إليه عبد الله الطّبّاع (٢) ، ومعد السلام الهرّاس (٣) ، من أن ابن الأبار في كتابه قد بيّن لنا حبّه وتقديره لآل البيت ، دون أن يظهر شيئاً من تشيّمه - وهذا أمر لا يستطيع أحد أن يأخذه عليه - ، فإننا نوّكّد أيضاً أن ابن الأبار من علماء السنّة وحفّاظها ، ولم تظهر في مؤلفاته التي وصلتنا أيّة نزعة شيعيّة بل إنه يبرأ من كلّ مذهب غير حبّ الله ورسوله وصحابته ، فيقول من قصيدة في مدح الرّسول عليه السلام وصحابته (٤) :

نصبتُ لإخلاصي لهم وتخلصي بإرشادهم من حيرة الرّفْض والنّصبِ
فأثبتتُ حبّ الله حبّ رسولِهِ وليس مثابُ الواصلين سوى الحسبِ

كذلك فإنّه يعلن عن تمسّك أهل الأندلس بالسنّة ومعاداتهم للشيعة فيقول : " كلاً بل دانت للسنّة ، وكاهت من البدع في أحسن جنّة " .

(١) سنشير للكتاب عند حديثنا عن آثاره .

(٢) انظر مقدمة كتابه عن الحلة السيّرا* : ص ٧٨ ، وما بعدها .

(٣) انظر مقدمة دور السّمط : ص (م - ص) .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ٣٠ .

هذه المروانية^(١) مع اشتداد أركانها ، واعتداد سلطانها ألقت حسب آل النبوة في حبسات القلوب ، وولّت ولم تظفر من خلعة ولا نقله بمطلوب ، إلى المراقبة بأقاصي الثغور ، والمحافظة على ممالي الأمور . . من مصادرة الشيعة وموالاته الشريعة^(٢) .

محمد أن تغينا عن ابن الأبار التشييع ، سنتوقف عند بمسبب الأبيات الشعرية ، التي إن فسرناها بظاهرها ، حكمنا على ابن الأبار بالاهيران بالله ، يقول^(٣) : قسما بيمين المرتضى لقد انقضى من بأسه وهل الصفاح صفاحا ويقول أيضا : قسما به ، ولولا اماره نجلاه لفدا الهدى نشرافير نظام فكما نراه ، يقسم بمحمد ووجه ، فيحله محل الله ، ولو أخذنا بظاهر الأبيات لكفرنا الرجل ، ولكننا - لا طمئنانا إلى عقيدته - نرى أن هذه الأبيات مبالغة واضحة أتت في لحظة انفعال دون سابق اصرار لذا فانها لا يمكن أن تحس عقيدته بسوء .

-
- (١) المروانية : نسبة لمروان بن الحكم بن أبي العاص السجستاني سنة ٦٥ هـ وهو أول من ملك من بني الحكم بن أبي عاص ، واليه ينسب (بنو مروان) ودولتهم (المروانية) . أنظر ترجمته في : تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني . ٩١/١٠٠ ، ٩٢ .
- (٢) الروض المعطار : ص ١٠٠ .
- (٣) مخطوطة الديوان : ص ٤١ .
- (٤) الصدر نفسه : ص ١٢٨ .

حياته الإدارية

يبدو أن ابن الأبار، قد اتجه نحو الأعمال الإدارية الشيعية،

منذ بداية حياته . فبعد أن أخذ من ثقافة عصره بنصيب كبير ، وتلمذ على مجموعة كبيرة من كبار شيوخ بلده ، بدأ في عمله ككاتب لحاكم بلده بلنسية ، وكان في ذلك الوقت ، هو السيّد أبو عبد الله بن أبي حفص الموحدى ، ثم كتب فيما بعد لابنه السيّد أبي زيد (١) .

ونحن لا نعرف فيما إذا كان ابن الأبار قد زاول عملاً قبل توليه الكتابة عند أبي عبد الله الموحدى ، أم لا ؟ لأن الجزء الأول من حياته في الأندلس يكتنفه الكثير من الغموض . لذا فإننا نفترض أن أول عمل قام به في حياته هو توليه الكتابة عند أمير بلده . ولا نستطيع تحديد سن ابن الأبار حينذاك ، ولكننا نعلم أن أبا زيد قد تولى بلنسية سنة ٦٢٠ هـ ، وهذا يعني أن ابن الأبار قد عمل قبل هذا التاريخ لأنه عمل عند والد أبي زيد ، قبل عمله عند أبي زيد . فذهب عبد المولى عبد المجيد ، إلى أن السن المناسبة لتوليّه عملاً كهذا ، هي سنة ٦١٥ هـ أي عندما بلغ سن العشرين ، أو بعدها بقليل (٢) . ولم تصلنا حتى الآن أية رسالة من رسائله التي كتبها عند هذين الأميرين . كذلك فإننا نتساءل : هل استمر ابن الأبار في عمله ككاتب لأمرائه بلده منذ بداية حياته ؟ أم أنه قد تولى أعمالاً أخرى ؟ وهل أنقطع عن الكتابة لهذين الأميرين أم لا ؟

(١) انظر : تاريخ ابن خلدون ٦/٦٥٣ ، ونفح الطيب ٢/٥٨٩ ، ٥٩٠ .

(٢) انظر : ابن الأبار : حياته وكتبه ، ص ١٤٠ .

ومهما يكن من أمر ، فإن ما نستطيع قوله ، استنادا لما جاء في المصادر : أنه قد تولّى الكتابة للأُميرين الموحديين حتى سنة ٦٢٦هـ ، ثم خرج بعدها ، مع الأُمير أبي زيد عند ما ترك بلنسية متوجها إلى بلاد النصارى ، ولكنه ما لبث أن عاد تاركا مولا بهمد أن اعتنق النصرانية . وهنا نتساءل ماذا كان عطل ابن الأُبار بهمد عودته إلى بلنسية ؟

لقد أشارت المصادر (١) ، إلى أن ابن الأُبار قد كتب أيضا بهمد رحيل أبي زيد عن بلنسية ، عند والي بلنسية الجديد ، الذي تولّى أمورهما من سنة ٦٢٦هـ - ٦٣٦هـ ، وهو أبو جميل زيّان بن مردنيش . ونحن لا نستطيع التأكيد ، أن ابن الأُبار قد تولّى الكتابة عند زيّان بهمد عودته وتركه للأُمير الموحديّ . ولا نعرف فيما إذا كان قد انقطع عن عطله الكتابيّ لفترة معينة ، أم أنه تولّى الكتابة عند زيّان بهمد ٦٣٣هـ ؟ لأنه ذكر - عرضا أنه تولّى قضاء دانية سنة ٦٣٣هـ ، ثم تركها (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإنه قد كتب لأُمير بلده الجديد ، واستمر في عطله حتى سنة ٦٣٦هـ . وعند ما حوصرت بلده ، كان من أوائل الذين يسمّونهم زيّان إلى أمير تونس لطلب نجده .

وهكذا نرى أن ابن الأُبار ، قد تولّى منذ بداية حياته ، مناصبا من المناصب الرفيعة في الدولة ، كان يسند لذوي العلم والمكانة (٣) وقد استمر في منصبه حتى سقوط بلده .

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون ٦/٦٥٣هـ ونفح الطيب ٢/٥٩٠.

(٢) انظر: التكملة ٢/٨٩٩.

(٣) انظر: تاريخ الدولتين ص ٢٨.

وعندما سقطت بلنسية نهائياً ، واضطر أهلها لمغادرتها ، نجد ابن الأبار يكفّ مرة ثانية ، من قبل الأمير زيّان بحمل أهل بلده إلى تونس لمباينة الأمير الحفصي . وقصد رافد

ابن الأندلس من الأبار أهل بلده إلى تونس ، وألقى بين يديّ الأمير أبي زكرياء ، قصيدة مدح طويلة مؤثرة بلغت سبعمائة بيتاً ، أطن فيها عن ولائه وولاء الأندلسيين ، وما يمتهم جميعاً له ^(١) ويد وأنّ اتصال ابن الأبار بعد أداء هذه المهمة لم تطل ، إذ عاد إلى مرسية التي استولى عليها أبو جليل . ولكنه كما يبدو - وجد الناس قد اضطربت عزائمهم واستبد بهم اليأس ، فادرك أنّ الأحوال ستزداد سوءاً ، وأنّ المصير سيكون ضياع شرقية الأندلس ، فقرّر الهجرة نهائياً من الأندلس مع أهله إلى تونس ، التي سبق له الاتصال بحكامها فقال عندهم التقدير والاحترام ^(٢) .

ومن المؤكد أنّ ابن الأبار لم يذهب مباشرة إلى تونس ، بل نزل بجاية أولاً ، وفي ذلك يقول الضبريني : " وكان أول وصوله من الأندلس إلى المدونة رسولاً عن والي بلنسية ، وقضى رسالته عند طك افريقية ، وفي حديث طويل . ورجع إلى الأندلس ، ثم رجع إلى المدونة قاصداً استيظانها ، فتحيّر سكين بجاية ، ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضرته ^(٣) . ويفهم من قول الضبريني أنّ ابن الأبار ، قد ذهب إلى بجاية بعد سقوط بلده مباشرة ، قاصداً الاستيطان في تونس . ولكنّ الصحيح ما ذكرناه ،

(١) انظر القصيدة في : مخطوطة الديوان ص ٤٤ - ٤٨ .

(٢) انظر : مقدمة درر السمط ص (ج) .

(٣) عنوان الدراية : ص ٣١١ .

وهو أن ابن الأبار قد كَفَّ أولاً بعد سقوط بلده ، يحمل بيعة أهل بلده إلى الأمير الحفصي ، وبعد عودته من هذه المهمة إلى الأندلس ، قرر أخيراً مغادرة الأندلس نهائياً .

وقد التقى ابن الأبار في بجاية بالأمر أبي يحيى الحفصي ، لأنه كان والياً على بجاية ، وهناك استقبله أحسن استقبال ، ومدحه ابن الأبار بهذه المناسبة بقصيدة طويلة بلغت تسعة وسبعين بيتاً ، اتخذ نكبتهم ومأساة وطنه تمهيداً لمدحه فيها (١) ، ثم توجه إلى تونس ، كما ذكر الفبريني باستدعاء من المستنصر .

موصول ابن الأبار إلى تونس ، قام أميرها الحفصي فأنزله في خير مكان ، ورشح له كتابة علامته وهي : " الحمد لله والشكر لله " ، واستمر على ذلك فترة من الزمن ، إلى أن قام السلطان بصرف العلامة إلى أبي العباس الفسائي ، لأنه كان يحسن كتابتها بالخط الشرقي ، فغضب ابن الأبار ، وجاهر بالمخالفة ، فطلب منه السلطان أن يلزم بيته ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد أن استشفع السلطان ، ورفع إليه كتاب " اعتاب الكتاب " (٢) .

وبعد وفاة أبي زكريا الحفصي ، حل مكانه ولده المستنصر ، ونال ابن الأبار عند المستنصر منزلة كبيرة ، وقربه منه وأعجب بعلمه وأدبه ، حتى كان من أكثر المقربين إليه (٣) ، ولكن الوشاة لم يفلتوا عن الإساءة إليه ،

(١) انظر القصيدة في : مخطوطة الديوان ص ٧٧ - ٨١ .

(٢) (٣) انظر : تاريخ ابن خلدون ٦/ ٦٥٣ ، ٦٥٤ .

وتحريض السلطان عليه ، مما جعل ابن الأبار يذهب إلى بجاية ويمكنه فيها فترة (١) ، إلى أن عاد إلى تونس بدعوة من المستنصر ، وكتاب كتبه إليه صاحبه أبو المطرف بن عميرة سنة ٦٥٢ هـ (٢) .

وعاد ابن الأبار ، ولكن حساده ظلّوا له بالمرصاد ، إلى أن كانت حادثة قتله في المام التالي .

-
- (١) لا نعرف متى كانت مفادرة ابن الأبار من تونس إلى بجاية ، ولكن الهراس يرى أنها كانت بعد سنة ٦٥٠ هـ ، أنظر . مقدمة درر السمّطص (د) .
- (٢) أنظر نصّ كتاب ابن عميرة لصاحبه ابن الأبار في : عنوان الدراية ص ٢٩٩ .

تنقلات

من الثابت أن ابن الأبار قد تجوّل في بلاد الأندلس^(١)، ولكننا نجعل سبب تنقله . فهل كان ذلك طلباً للمعلّم ؟ أم الملم ؟ أم في مهمّات سياسيّة ؟ ذلك لأنّه يقول عند ترجمته لمحمد بن عليّ الزهيريّ : "لقبته بقصر الإمارة في إشبيلية وقد حضر مع الأطباء لمعالجة واليها حينئذ"^(٢) . وممنس هذا أن ابن الأبار كان يجتمع بولاة البلاد التي كان يتوجّه إليها ، مما يجعلنا نظنّ أنّه قد يكون موفداً في مهمّات سياسيّة ، ولكنّ الذي يجعلنا نتردد في إصدار هذا الحكم ، علماً أنّه كان يمكث في البلد الذي يحلّ فيه فترة طويلة ، وانجاز المهمّات السياسيّة يكون عادة في فترة قصيرة . ويبدو أنّ أول سفر قام به ، كان إلى إشبيلية . فقد ذكر - عرضاً - عند ترجمة أحمد بن محمد الطرسوني قوله : "لقبته بـ..."^(٣) فـ... رضيّ بن رضا ن سنة ست عشرة عند توجّهي إلى إشبيلية ثمّ في صدوريّ أيضاً عنها في رمضان سنة تسع عشرة"^(٤) . وهمّ هذا يكون قد مكث في إشبيلية مدة ثلاث سنوات . ولم يسافر ابن الأبار إلى إشبيلية فقط ، بل نجده ينزل بثغر بطليوس^(٥) ، وكان ذلك سنة ٦١٩ هـ^(٥) ، وكذلك فانه قد سافر إلى أندة ، إذ يقول عند ترجمته لمحمد ابن الزمير القضاعي من أهل أندة : "لقبته مراراً بلبلده"^(٦) .

-
- (١) أنظر : الوافي بالوفيات ٣٥٦/٣ .
 (٢) التكلّة : ٦١٩/٢ .
 (٣) المصدر نفسه : ١١٣/١ .
 (٤) بطليوس : بالأندلس من إقليم طارّة ، بينهما أربعون ميلاً وهي حديثة أنظر : الروض المصطارص ٩٣ .
 (٥) أنظر : التكلّة ٣٣٩/١ .
 (٦) المصدر نفسه : ٦٢٥/٢ .

ولم تكن عودته من إشبيلية سنة تسع عشرة ، عودة أخيرة ، إذ نجده
يميد السفر إليها ، لأنه يقول عند ترجمة محمد بن إسماعيل بن خلفون الأودي :
"لقيته بالورّاقين من إشبيلية في رمضان سنة ست وعشرين" (١) وكذلك فإننا
نجد في وادي آش في السنة نفسها ، لأنه يقول عند ترجمته لجودي بن عبد الرحمن
القيسي : "ودخلت وادي آش سنة ٦٢٦ هـ ولم ألقه" (٢) هذا بالإضافة إلى سفره
إلى بلاد النصارى ، ودانية وتطيه القضاء لها كما ذكرنا .

هذه هي الإشارات التي وردت في كتبه حول هذه القضية ، أمّا
المصادر التي ترجمت له ، فلم نجدنا ولم تذكر شيئاً حول تنقلاته . وسفر وتنقل
ابن الأبار وهو في الأندلس ، لا يزال غامضاً كبقية جزئيات حياته في هذه
الفقرة .

محمد سفره إلى تونس واستقراره فيها ، يبدو أنه لم يفاد رهاً
إلا إلى بجاية ، بعد الجفوة بينه وبين أبي زكريا ، وبينه وبين المستنصر فسي
المرّة الثانية كما ذكرنا .

(١) التكملة : ٢ / ٦٤٣ .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٢٥٠ .

وفاته

يصاب الباحث بالدهشة والاستغراب ، عند ما يعلم أنَّ نهاية ابن الأبار ، كانت على يد من خدمهم ، وقال غرر القصائد في مدحهم وتسجيل مآثرهم ومعاذهم ، وهم طوك بني حفص . إذ كانت نهايته على يد المستنصر الحفصي ، الذي كان ابن الأبار من أكثر المقربين إليه .

وقد تحدث الصفدي ، وابن شاعر الكتبي ، عن سبب مقتله ، فقالا : إنَّ المستنصر قتله "لأنَّه تخيل منه الخروج وشقَّ المصا . وقيل : إنَّ بعض أعدائه ذكره عند صاحب تونس ، أنه ألف تاريخاً ، وأنه تكلم فيه في جماعة" (١) . وفي رواية

لا يـ... خلدون ، أنه "جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواثق (٢) ، وتساءل عنه السلطان ، فاستنبههم . فقدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولاية وطالما ، فاتهم بتوقيع المكروه للدولة والترتب بها ، كما كان أعداؤه يشتمون عليه ، لما كان ينظر في النجوم ، فتقبض عليه ، ومث السلطان إلى داره ، فرفعت إليه كبة أجمع ، وألقى أثناهما - فيما زعموا - رقعة بأبيات أولها :

طَفَى بَتُونُسَ خَلْفًا (٣) سَمَوُهُ ظُلْمًا خَلِيفَةً (٤)

(١) الوافي بالوفيات : ٦٥٣ / ٣ ، وفوات الوفيات : ٤٥٠ / ٢ .

(٢) هو ابن المستنصر الحفصي .

(٣) الخلف : الولد الطالح .

(٤) في رواية أخرى أن الأبيات التي وجدت ، قد بدأت بقوله : عَقَّ أَبَاهُ وَجَفَا أُمَّهُ وَلَمْ يَقُلْ مِنْ عَشْرَةِ عَمَّهِ

أنظر : تاريخ الدولتين ص ٣٦ .

فماستشاط لها السلطان ، وأمر بامتحانه ، ثم بقطه قمصاً
بالرماح وسط محرّم ، سنة ثمان وخمسين ، ثم أحرق شلوه وسيقت مجلّـدات
كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه^(١) .

ونحن نرى أنه لا يميل أن توقع عقوبة القتل بهذا الشكل ،
بإنسان كان من أكثر المقربين إلى الدولة ، لمثل هذا السبب الذي ذكره
ابن خلدون . وإنني لا أتفق مع حسين مؤنس^(٢) في رفضه لهذا السبب ،
ونذهابه إلى أن مقتل ابن الأبار وحرق شلوه وكتبه لم يكن نتيجة غضب
المستنصر ، بل نتيجة خوف منه ، لأن الطوك يكتفون بالسجن أو الإبعاد ،
إذا لم يشمروا بما يهدّد عروشهم . لذا فلا بدّ وأن تكون التهمة التي
دبّرت لابن الأبار هي : تهديد السلطان ، والاشتراك مع نفر في ذلك ،
كما أشار الصفدي وابن شاكر ، لأنّ قوله لذلك البيت من الهجاء - إن كان
قد قاله - ليس مبّراً لكلّ ما حصل .

وقد نجح أعداء ابن الأبار - كما يبدو - ، في تأليب السلطان
عليه ، وخاصة بعد عودته من بجاية ، فقد كان المستنصر لا يطيق النظر^(٣)
إليه ، فكان يسأله من بعيد ، وإن دخل عليه ، لم يكلمه أو يلتفت إليه ،
فشكا ابن الأبار ذلك فقال^(٤) :

طَلْتُ سَنِي وَقَدْرِي فِي انْخِفَاضٍ وَحُكْمَ الرَّبِّ فِي الْمَرْسُورِ مَاضٍ
إِلَى كَمْ أَسْعَطُ الْأَقْدَارَ حَتَّى كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا بِرَاضٍ سَاضٍ
وَقَالَ (٥) :

أَمْرِي عَجِيبٌ فِي الْأُمُورِ بَيْنَ التَّوَارِي وَالظُّهُورِ

(١) تاريخ ابن خلدون : ٦٥٤/٦ ، ٦٥٥ .

(٢) انظر : مقدمة الحلة السّيرة ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) انظر : نفح الطيب ٥٩٢/٢ .

(٤) أزهار الرياض : ٢٢٢/٣ .

(٥) نفح الطيب : ٥٩٢/٢ .

مُسْتَعْمَلٌ عِنْدَ الْمَفْيَسِ وَمُهْمَلٌ عِنْدَ الْحُصُونِ

وقد اختلف في تحديد مقتل ابن الأبار، فذهب الفهريني والذهبي (١) إلى أنه توفي ضحوة يوم الثلاثاء في العشرين من المحرم سنة ٦٥٨ هـ، وذهب ابن خلدون والمقري (٢) إلى أنه توفي وسط محرم سنة ٦٥٨ هـ. ونحن نأخذ برواية الفهريني لأنها أقدم رواية.

وأخيرا نقول: إن نتيجة لهذه الحادثة الشنيعة، فقد أشفق على ابن الأبار، من ترجموا له فيما بعد، وأجمعوا على أنه قتل ظلما وعدوانا، حتى وصفه بعضهم بالشهيد (٣).

(١) انظر: عنوان الدراية ص ٣١٤، والمبر ٢٤٩/٥.

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون ٦٥٥/٦، ونفح الطيب ٥٩١/٢.

(٣) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٢٩٥/٥، ومرتة الجنان

للإفقي ١٥٠/٤، وبرنامج التجميعي ص ١٦٠.

ويبدو أن البلاط الحفصي بعد موت أبي زكرياء الحفصي، قد اضطرب حاله، وأن المستنصر أخذ يستمع للوشاة والحاسدين، وينفذ ما يشيرون به عليه، فبعد تمكنهم من ابن الأبار سنة ٦٥٨ هـ، نجدهم يوغرون قلب السلطان على أبي المباس أحمد اللباني فبأمر بتمذيبه وقتله سنة ٦٥٩ هـ، وتخرج جثته إلى الصبيان يجرونها. والفريب أن ابن أبي الحسين ومضى أعوانه هم الذين سموا بقتل اللباني، وهم أيضا من كان لهم يد في قتل ابن الأبار، كما ذكر ابن خلدون ٦٥٤/٦.

وانظر حادثة مقتل اللباني في: تاريخ الدولتين ص ٣٦، ٣٧، وشجرة

النور الزكية ١٨٩/١.

آثاره

تمددت آثاره بين الأبار ، حتى بلغت نحو خمسين مؤلفاً (١) ، وتنوعت في التاريخ ، والحديث ، والآداب . وقد وصلتنا بعض هذه الآثار وتم طبعمها . أما بقية آثاره ، فيبدو أنه قد تم إحراقها كما أحرقت جثته . ولا ندري إن كانت الأيام المقبلة ستظهر لنا شيئاً مما نجا منها أم لا ؟

وقد استطعنا إحصاء مجموعة من كتبه التي وصلتنا أسماؤها مشوثة في كتبه وكتب من ترجموا له ، منها :

- ١ - "إيضاح البرق في أدباء الشرق" (٢)
- ٢ - "قطع الرياض في بدع الأغراض" (٣)
- ٣ - "الكتاب المسمى" (٤)
- ٤ - "إفادة الوفاة" (٥)
- ٥ - "هداية المصترف في المؤلف والمختلف" (٦)
- ٦ - "كتاب التاريخ" (٧)

-
- (١) أنظر: مقدمة درر السمطص (ب) .
 - (٢) الحلة السيرة ٢/٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ .
 - (٣) المصدر نفسه : ١/٢٣ ، وورد أيضاً في هدية العارفين باسم "قطع الرياض في تعيين الأسماء" ٢/١٢٧ .
 - (٤) الحلة السيرة : ٢/٣٧٣ .
 - (٥) نفع الطبيب : ١/٣١٥ ، ٣١٧ .
 - (٦) المصدر نفسه : ٢/٥٩٢ . وورد أيضاً في التكملة باسم : "هداية المصترف في المؤلف والمختلف" ١/١٩ .
 - (٧) نفع الطبيب : ٢/٥٩٢ .

- ٧ - "معدن اللّجين في مراثي الحسين" (١)
- ٨ - "غصراء السّندس ، في شعراء الأندلس" (٢)
- ٩ - "معجم أصحاب ابن العربي" (٣)
- ١٠ - "معجم مشيخته" (٤)
- ١١ - "الأرسميّات" (٥)
- ١٢ - "أنيس الجليس ونديم الرئيس" (٦)
- ١٣ - "مشكل الصّلة في ذيل تاريخ ابن بشكوال" (٧)
- ١٤ - "المأخذ الصالح في حديث معاوية بن صالح" (٨)
- ١٥ - "المورد السلسل ، في حديث الرحمة السلسل" (٩)
- ١٦ - "معجم أصحاب إسماعيل بن الحضرمي" (١٠)
- ١٧ - "له منتخب ومقتضب لأحد كتب محمد التجيبي" لم يذكر اسمه (١١)

- (١) التكلفة : ٦٣٥ / ٢ ، ونفح الطيب ٤ / ٢٢٠ .
- (٢) التكلفة : ١٩ / ١ .
- (٣) المصدر نفسه : ٥٣ / ١ .
- (٤) المصدر نفسه : ١٢٥ / ١ .
- (٥) فهرس الفهارس : ٩٩ / ١ ، وقد ذكره التجيبي بكتاب الأرسمين حديثاً عن أرسمين شيخاً من رجال الأندلس ، من أرسمين مصنف : من تصنيف شياخ الأندلس أيضاً ، لأرسمين عالماً من أرسمين طريقاً ، إلى أرسمين تابماً ، عن أرسمين صحابياً ، بأرسمين اسماً من أرسمين قبلاً ، في أرسمين باباً " بونائج التجيبي ص ١٦٠ .
- (٦) هدية المارفين للبغدادى : ١٢٧ / ٢ .
- (٧) المكان نفسه .
- (٨) المعجم لابن الأبار : ص ١٨٧ .
- (٩) هذا الكتاب مخطوط بمكتبتي الاسكوريال وباريس : انظر ابن الأبار : حياته وكتبه ص ١٧٥ .
- (١٠) التكلفة : ١٨٥ / ١ .
- (١١) المكان نفسه .

أما كتبه التي وصلتنا وطبعت كلها تقريباً^(١) ، وإن كان بعضها لا يزال بحاجة إلى تنقيح . وتحقيق جديد ، وطبعة طباعة تقوم على الأسس الصحيحة ، فهي :

- (١) وقع بعض الباحثين المحدثين في خطأ ، فنسبوا لابن الأبار كتاباً ثم طبعه وهو : " الفصوص الياصرة في محاسن شعرا " المائة السابعة لابن سميد المغربي . ومن هؤلاء الباحثين : بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ١١٥/٦ ، وعبدالمزيز عبدالمجيد في كتابه عن ابن الأبار ص ٢٧٨ ، وما بعدها ، وعبدالله الطباع في كتابه عين الحلة السيرة ص ١٠٨ ، ١٠٩ . وقد حقق هذا الكتاب إبراهيم الأبياري ونسبه لابن سميد المغربي ، وناقش في مقدمة التحقيق فكرة نسبه لابن الأبار ، فنفى ذلك ، لأن في الكتاب اشارات إلى أن صاحب الكتاب قد سافر إلى القاهرة والاسكندرية وحلب ومغداد . أنظر الصفحات التالية في الكتاب : ٨٩ ، ٨٧ ، ١١١ .
- ونحن نعرف أن ابن الأبار لم يفادرتونس بعد رحيله إليها ، سوى ذهابه إلى بجاية . كذلك فإن أسلوب الكتاب ، يختلف اختلافا تاما عن أسلوب ابن الأبار ، مما يجعلنا نذهب إلى ما ذهب إليه الأستاذ إبراهيم الأبياري ، وهو أن الكتاب لابن سميد وليس لابن الأبار .
- انظر : مقدمة الكتاب لإبراهيم الأبياري .

١ - التكملة لكتاب الصلّة (١) :

يشكل هذا الكتاب ، الحلقة الثالثة من تراجم رجال الأندلس ، فقد جاء تكملة " لتاريخ الأندلس " لابن الفرضي ، و " الصلّة " لابن بشكوال . وقد كان أبو الربيع سليمان الكلاعي ، هو الذي شجع ابن الأبار وحضّه على تأليفه ، كما جاء في مقدّمة كتابه ، إن يقول : " وأبو الربيع بن سالم ، وهو ندبني إليه ، وحضّني عليه " (٢)

وقد بدأ كتابه بمقدّمة حدّد فيها بداية عظه في كتابه فقال : " وكان من انبمائي لهذا التقييد ، الطمس فيه حسن المصون والتأييد ، أول شهر المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة " (٣) ومعنى هذا أنّه بدأ بمؤلفه وهو في قمّة نضوجه العلمي ، وكان ذلك وهو لا يزال في بلده قبل سقوطه . ولقد أضى فترة طويلة في تأليفه وجمعه وتنقيحه . يقول " فلمّا أن استوفى عشرين حولاً " (٤) ، بهمل زاد

(١) لقد كان المستشرق الإسباني كودينا أول من نشر كتاب " التكملة " فنشر القسم الأول سنة ١٨٨٦ م ، والثاني سنة ١٨٨٩ م في مدريد ، وقد نشر القسم الباقي منه ابن شنب هل في الجزائر سنة ١٩٢٠ م ، ثم طبع الكتاب في القاهرة سنة ١٩٥٦ م ، بمكبة الخانجي بصر ، وقلد وصل حتى الترجمة ٢١٨٨ فقط . لذا فان الكتاب لا يزال بحاجة الى تحقيق وتنقيح ، وطبعه كالا محققا لعظيم أهميته .

(٢) مقدّمة التكملة : ص ٧ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٣ .

(٤) لقد ذكر صالح الأشر أن ابن الأبار قد انتهى من كتاب التكملة سنة ٦٤٤ هـ وهو خطأ واضح لأن ابن الأبار مكث في تأليفه عشرين سنة أو يزيد ، وكان قد بدأ بتأليفه سنة ٦٣٢ هـ . أنظر : مقدمة إختاب الكتاب ص ٢١ ، وهذا بالاهافة إلى أنّه قد ترجم في التكملة ، لأشخاص عاشوا بعد سنة ٦٥٢ هـ . أنظر : التكملة ١ / ١٢٠ .

واستولى على الأمر ، الذي من تأتق فيه أصاب أو كاد : أبرزته بعد طول الحجاب" (١) .

ويحدثنا عن عنايته بتأليفه فيقول : "وعنيت بهذا التأليف أتمّ عناية ، وبلغت منه من التصحيح أقصى نهاية ، وما زلت أسمواليه حالا على حال ، وأعكف عليه بين حلّ وارتحال إلى أن بهر فجره نهارا وضاحا" (٢) .

وابن الأبار ، وإن كان قد سار على نهج ابن الفرضي وابن بشكوال ، إلا أنه لم يبدأ من حيث انتهى ابن بشكوال ، يقول : "ولم اقتصر به على الابتداء من حيث انتهى ابن بشكوال ، بل تجاوزته وابن الفرضي ، أتولى التقصي ، وأتموخي الإكمال ، وربما أعدت من تحييفا ذكره ، وما تعرفا أمره ، وإن خالفتهما في نسق الحروف" (٣) ، فجريت على النهج المعروف" (٤) .

ثم يحدثنا ويذكر أسماء الذين أخذ مادته عنهم ، فيقول : "والذين استضأت بشماعهم واستشهدت من أوضاعهم أتيت بالأسانيد اليهم بد ، ورأيت أن أضع من عنا تكرارها عبثا ، وكثير ممن أفاد القليل ، قد أخذ فهم لثلا أطيل" (٥) .

(١) مقدمة التكملة : ص ٤ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) لقد رتب ابن الأبار ترجمه حسب الحروف الهجائية المفريسة :

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ
ف ق س ش ه و ي .

(٤) مقدمة التكملة : ص ٤ .

(٥) مقدمة التكملة : ص ٤ . وأنظر أسماء الذين أخذ مادته عنهم

ص ٤ - ٧ .

أما الأسلوب الذي اتبعه في تراجم كتابه ، فهو الأسلوب المتبع في كتب التراجم عامة ، فقد كان يذكر اسم الرجل كاملاً ولقبه وكنيته ولده . ثم يتحدث عن علمه وشيوخه الذين قرأ عليهم ، وفي بعض الأحيان ، يذكر بعض الأحداث المتفرقة التي تتصل بالمرجم . وقد يذكر بعض كتبه ، ثم يذكر تاريخ ولادته ووفاته ، إن وجدت .

ولم يكن ابن الأبار مجرد ناقل فقط ، بل نجده في كثير من الأحيان يناقش بعض القضايا فيرجحها أو يردّها . كذلك فقد كان يصدر في بعض الأحيان ، بعض الأحكام النقدية على مترجمه ، كأن يقول : " وشعره قوي " أو " ولم تكن له عناية بالحديث " وغير ذلك .

ويشتهر كتاب " التكملة " من الكتب التي لا يستطيع الباحث في تاريخ الأندلس ، الاستغناء عنه ، لأنه مع ما سبقه وما لحقه من كتب في هذا المجال ، يعتبر من المصادر الأساسية في تاريخ الأندلس الثقافي وتراجم علمائها .

٢ - الحلّة السّيرة (١)

هو كتاب تراجم ، ترجم فيه صاحبه لخلقاء وأمراء دولة الأندلس والشمال الإفريقي ، الذين علموا على ازدهار الشعر في القرن الأول الهجري حتى القرن السابع الهجري . وقد قسمه إلى قسمين : قسم تحدث فيه عن الذين عثر على أشعارهم من القرن الأول الهجري حتى القرن السابع . والقسم الثاني : تحدث فيه عن الذين لم يعثر على أشعارهم من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع .

(١) لقد تم تحقيق الحلّة ونشرها نشرة علمية بتحقيق حسين مؤنس سنة ١٩٦٣ م في القاهرة .

ويبدو أن ابن الأبار ، قد ألف كتابه ، وهو في تونس وقبل أن تسوء علاقته مع طوك بني حفص ، لأنه يقول في مقدمته : " ولم أعرض لمن عرضت عنهم الدولة الحفصية " (١) ، ويظهر أنه قدّمه لأبي يحيى الحفصي وليّ المصهد (٢) ، وتقديماً ابن الأبار الكتاب لأبي يحيى يعني أنه قد ألفه قبل سنة ٥٦٤٦ هـ ، لأنّ أبنا يحيى . مات سنة ٥٦٤٦ هـ (٣) .

وقد بدأ كتابه بمجموعة من القصائد والمقطوعات الشعرية ، من شعر هؤلاء الطوك والأمراء ومعظمها في الفزل والزهد والفخر . . . ثم انتقل ليحدثنا عن كتابه ومنهجه فيه فيقول : " وقصرت على طوك إفريقية وبلاد المغرب المضافة إليها . وقدّمت القاديين في المائة الأولى من السلف الأول عليها ، لأنها من أوائل فتوح الإسلام . . . وفي المائة الثانية صارت الأندلس دار إيمان ، فواليت ذكر ولايتها من ذلك الزمان ، ليوقف على جلالة شأنهم ، ويمرّف ثمنهم من البلاغة ومكانهم ، وذكرت أنباءهم (٤) .

وقد استمر في القسم الأول من كتابه على هذا الحال حتى القرن السابع الهجري .

أما طريقة كتابته عنهم فيقول : " واختصرت أنباءهم هرباً من التطويل ، ورهباً للثقل . . . وربما عرض ما يدعو إلى البسط ، فالتقتض حكيم هذا الشرط " (٥) .

(١) الحلة السّيرة : ١١/١ .

(٢) انظر المصدر نفسه : ١٢/١ .

(٣) يرى عبد الله الطّباع أنّ الفترة التي ألّف فيها الحلة بعد سنة ٥٦٤٦ هـ ، وقبل سنة ٥٦٥٥ هـ ، وهو غير صيب في ذلك ، والسبب الذي ذكرناه .

(٤) الحلة السّيرة : ١١/١ .

(٥) المكان نفسه .

وقد رتب تراجمه ترتيباً زمنياً ، وجمع رجال كل أسرة معا ، أو الرجال الذين تضمهم ميول سياسية متجانسة ، فقال : " وأبرزته مسوقاً على الحقب ، منسوقاً بحسب الرتب ، أعين للصدر صدر كل مائة ، وأبين من تميز في جماعة أو تهيّز إلى فئة " (١) .

وفي القسم الثاني من الكتاب ، تحدّث عن الذين لم يمثروا على أسماءهم من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع . يقول : " والذين ما عثرت على أسمائهم أفردت باباً لأخبارهم " (٢) .

وابن الأبار ، حريص على أن يذكر لنا مصادره . وكان يشير إليها في أثناء حديثه ، وهي كثيرة متنوعة (٣) .

ويمتد كتاب " الحلّة السّيرة " ، من أهم الكتب التاريخية والأدبية بشكل عام ، وخاصة في القسم الذي تحدّث فيه عن رجال القرون السّابع الهجري ، إذ قام بوصف ونقل دقيق وأمين ، لبعض أحداث عصره التي شاهدها وعانها .

(١) الحلّة السّيرة : ١١ / ١ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) انظر بعض هذه المصادر في دراسة الطباع للحلّة السّيرة ص ١٦٦ ، وما بعدها .

أما زمن تأليفه فيبدو أنه قد ألفه قبل سنة ٦٥٥ هـ ، كما جاء في المخطوطة المحفوظة بالاسكوريال (١) . كذلك
 فإن الأبيات الشعرية التي بعث بها سميد بن حكيم
 إلى ابن الأبار بعد أن وصله كتاب "المعجم" ، وذكره لكتاب "التكلمة"
 تؤكد أن "المعجم" قد أُلقي بعد "التكلمة" (٢) . وقس
 سبقنا إشارتنا إلى أن ابن الأبار قد انتهى من "التكلمة"
 سنة ٦٥١ هـ ، وأكثر قليلا ، وهذا يعني أن "المعجم" قد تم تأليفه
 بعد هذا التاريخ .

أما قيمته : فإنه يعتبر من الكتب الفريدة التي وصلتنا ، لأنه
 أكل كتاب أندلسي وصلنا من هذا النوع .
 ٤ - إعتاب الكتاب (٣) :

لقد غضب أبو زكريا الحفصي من ابن الأبار ، وأقصاه عن علمه ،
 فقام ابن الأبار بتأليف هذا الكتاب ، مستشفعا بنجله الأمير أبي
 همد الله ، فنال بشفاعته عفو أبي زكريا .
 أما زمن تأليف الكتاب ، فهو بين سنتي ٦٣٨ هـ وسنة ٦٤٦ هـ ،
 لأن أبا يحيى ولي العهد الذي أشاد به ابن الأبار ودعا له في
 مقدمة كتابه (٤) ، قد عين ولياً لوالده سنة ٦٣٨ هـ وتوفي سنة ٦٤٦ هـ .

- (١) أنظر: الحلة السيرة للطباع ص ١٠٠ .
 (٢) سيأتي ذكر الأبيات عند حديثنا عن مكانته العلمية .
 (٣) لقد تم طبع الكتاب . بتحقيق صالح الأشرقي دمشق سنة ١٩٦٥ .
 (٤) أنظر: إعتاب الكتاب ص ٤٨ .

وقد بدأ كتابه بمقدمة تحدّث فيها عن أهميّة الكتاب ، وأنّها ما
بالدعاء للأمير ونجله ، طالبا منه الشفاعة .

والكتاب يضمّ خمسة وسبعين شخصا ترجم لهم ، مقسمين إلى قسمين :
قسم لتراجم المشاركة . وقسم آخر لتراجم الأندلس وشمال إفريقيا . وقد تسلسل
في تراجمه تسلسلا زمنيا في كلا القسمين . واتبع منهجا واحدا في كتابه ، فهو
يبدأ الترجمة بتحديد أسماء السّادة الذين كتب لهم صاحب الترجمة ، ويمرّ
سريعا حتى يصل إلى السيّد الذي أغضبته زلّة صاحب الترجمة ، فيتوقّف
ليقنّ علينا الطرق التي استخدمها صاحب الترجمة لإرضاء سيّده ، من رسالة
أو قصيدة يمدحه فيها ويمتدّر عن زلّته ، وقد يستطرد أحيانا ، فيذكر رسائل
أو قصائد مشابهة لآخرين ، ولا يهمل ابن الأبار عن ذكر ما دره ، فقد كان
أميناً في نقله وفي الإشارة إليها ، وهي متنوعة من مشرقية ومغربية .

ويمتدّ الكتاب من المصادر التاريخية والأدبية المهمّة ، التي كشفت
لنا بعض الجوانب في حياة بعض الكتاب والوزراء في الدولة الإسلامية في
المشرق والمغرب ، وقد حفظ لنا بعض الرسائل والقصائد الشعرية التي ينسدر
وجودها في غيره من المصادر . كذلك فإنّ الكتاب يمثل أسلوبا جديدا في كتب
التراجم ، وهو الأسلوب الذي يوجه وجهة خاصّة تناسب غرضه وموضوعه
الأساسي (١) .

(١) هناك حديث واف عن الكتاب في مقدّمته : ص ٢٤ - ٢٢ .

٥ - درر السبط في خبر السبط (١) :

لقد أشرنا إلى هذا الكتاب عند حديثنا عن عقيدة ابن الأباور وبيننا أنه اتهم بسببه بالتشيع.

يبدأ الكتاب بمقدمة تحدث فيها عن شرف آل النبوت وتوكلهم عليهم وحبهم لهم، ثم قسمه بمد ذلك إلى أربعين فصلاً، تحدث فيها مجتمعة عن مأساة آل البيت من بدايتها، من ستم الذراع للوالد الأكبر محمد بن عبدالله (٢)، إلى المذبحة الشنماء بكر بلا، التي ذهب ضحيتها الحسين ومن معه (٣).

وكتاب "الدرر" ليس فقط في خبر السبط - الحسين - كما يلاحظ من عنوانه، بل هو تأريخ لمأساة آل البيت جميعاً، وهو نمط خاص على هامش السيرة، من أول البعثة إلى نهاية الخلافة، فهناك فصول في صفت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسيرة خديجة وفاطمة وأخرى في مناقب علي - رضي الله عنه - ومنازعة معاوية له على الخلافة، ووقعة صفين، ولقطات من سيرة الحسن.

أما زمن تأليف الكتاب، فيبدو أنه قد ألفه في أواخر أيامه، وهو في بجاية، عندما كان يمانى من بعض الصموات والمشا كل (٤).

ويعتبر كتاب "الدرر" من المصادر التاريخية الذي نحا فيه مؤلفه منحى فريداً في مادته وأسلوبه، وكتابة السبب والتراجم.

(١) لقد ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب محققة بتطوان سنة ١٩٧٢م، بتحقيق

عبد السلام الهراس وسميد أحمد أعراب.

(٢) انظر: درر السبط ص ٣٧.

(٣) انظر: المصدر نفسه ص ٣٥.

(٤) هناك حديث واف عن الكتاب في مقدمته: ص (ص - ت).

٦ - تحفنة القادم :

لم يصلنا كتاب " التحفة " حتى الآن ، وما وصلنا هو مقتضب له فقط (١) . ويتبين من المقتضب ، أن الكتاب في الأدب ، ترجم فيه مؤلفه لمائة شاعر وأربع شاعرات من أهل الأندلس .
ويبدو أنه أول كتاب ألفه ابن الأبار في الأدب ، إذ يقول :
" جعلته باكورة ما بين يدي في هذا الفن " (٢) .

بدأ ابن الأبار كتابه بمقدمة - نقلها مختصر الكتاب - تحدث فيها عن كتابه وضمه فيه فقال : " هذا اقتضب من بارع الأشعار ، بل يانع الأزهار ، قصرت على أهل الأندلس (بلدي) ، وحصرته إلى من سبق وفاته منهم مولدي ، ثم ألحقت بهم أفراداً لحقهم شيوخ ذلك الأوان ، لأضاهي أنموذج أبي علي ابن رشيقي في شمراء القيروان (٣) وأضفت هؤلاء الطارئين على الجزيرة من الفرياء ، وريأت به عملاً تضمنته تصانيف السابقين من الأدباء . . فجئت بجواهره لم يستذل مصونها ، وأزهاره لم تهتصر غصونها (٤) .

(١) لقد قام أبو اسحاق إبراهيم بن محمد البلفيقي بعمل مقتضب لتحفة ابن الأبار . وقد قام الفريد البستاني بنشر " المقتضب " في مجلة المشرق البيروتية السنة الحادية والأربعون . ثم قام إبراهيم الأبياري سنة ١٩٥٧ م بإعادة نشره وطبعه في القاهرة .

(٢) مجلة المشرق ، مجلد ٩ ، ص ٣٥٣ .

(٣) أنظر : شمراء القيروان من أنموذج الزمان لابن رشيقي ، جمع وتعليق زين العابدين السنوسي ، تونس ، سنة ١٩٧٣ .

(٤) مجلة المشرق ، مجلد ٤١ ، ص ٣٥٣ .

وقد ذكر أنه عارض فيه كتاب " زاد المسافر " (١) لأبي بحر إدريس فقال : " ولما عارضت " زاد المسافر " ، سميت " تحفة القصاد " وسميته أسجاع الناصر ، ناسيا من ذكر في ترجمته أبو بحر إدريس . . . وهذا أو أن الشروع في المراد بهذا المجموع ، فابتداء الأول فالأول في الزمان ، وربما قدّمت الأكبر بالمكان ، إلا أن يمرض من النسيان ما هو موكل بالإنسان " (٢) .

ويعتبر هذا الكتاب ، من الكتب البارزة التي ألفها ابن الأبار إذ حشد فيه مجموعة من أدباء بلده ، وذكر بعض أخبارهم وأشعارهم ، مما يعطيه قيمة تجعل كل دارس لأدب هذه الفترة ، لا يستطيع الاستغناء عنه .

٧ - رسائله (٣) :

أشرنا فيما سبق ، إلى أن ابن الأبار قد عطي في الكتابة منذ بداية حياته ، عند أمراء بلده في بلنسية ، ثم انتقل كاتباً لأمرأ بني حفص بعد سقوط بلده واستمر في الكتابة عندهم حتى وفاته .

-
- (١) انظر : زاد المسافر لأبي بحر صفوان بن إدريس النجيب ، تحقيق عبد القادر محداد ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ م .
- (٢) مجلة المشرق ، مجلد ٤١ ، ص ٣٥٤ .
- (٣) هناك دراسة وافية لرسائل ابن الأبار في : ابن الأبار : حياته وكتبه ، ص ٢٩٤ - ٣٣٣ . ودراسة أخرى في مقدمة دراسة عبد الله الطباع للحلّة السّيرة ص ١١٧ - ١٢٨ .

ولم يصلنا للأسف من كل ما كتب ، سوى رسائل معدودة ، لا تزيد على سبع رسائل ، نجدها مثبتة في مثل : "أزهار الرياض" و "نفح الطيب" و "الروض الممطار".

وهذه الرسائل ، واحدة منها في مدح المستنصر الحفصي عندما جلب الماء إلى تونس (١) ، والباقية رسائل إخوانية مختلفة الموضوعات ، واحدة منها وطنية ، كتبها ابن الأبار مجاوما صاحبه ابن عميرة ، وهي في بكاء الأندلس ورثائها ، وقد كتبت بماطفة صادقة ، وأسلوب حزين ، يقول فيها : "وأما الأوطان المحبب عهدها بحكم الشباب ، المشبب فيها بمحاسن الأحباب ، فقد ودّعنا مهادها وداع الأبد ، وأخنى عليها الذي أخنى على لبد ويستمر في انغماله وحزنه متأسيا على ضياع بلده وغيره من البلاد الأندلسية فيقول : "أين بلنسية ومغانيها ، وأغاريد ورقها وأغانيها ؟ أين حلى رصاتها وجسرهما ؟ . . . أين جد أولها الطفاحة وخمائلها ؟ أين جنايبها النفاخسة وشماثلها ؟ . . . وهل كانت حتى بانت إلا رونق الحق ومشاة الإيمان ؟ ثم لم يلبث داء عقرها ، أن دب إلى جزيرة شقرها ، فأمر عذيبها النмир ، وذوى غصنها النضير ، وخرست حمائم أرواحها ، وركدت نواسم أرواحها ، وضع ذلك اقتحمت من الأيام دانية ، فنزحت قطوفها وهي دانية ، وبالشاطية مطائرها ، من جيف الأيام وانماثلها ، والهفاه ثم لهفاه على تدمير (٢) وتلاعها ، وجيآن وتلاعها ، وقرطبة وتواديهها ، وحمص وواديها ، كلها رعي كلوها ، ودعي بالتفريق والتفريق طؤها ، غنى الحصار أكثرها ، وطمس الكفر عينها وأثرها . . . (٣)"

(١) لقد قال المقرئ عن هذه الرسالة : "الرسالة الغريبة صاقا ، المتلاثة

نظما واتساقا ، التي لم ينسج على منوالها ، ولم يأت أحد بمثالها"

انظر الرسالة في : أزهار الرياض ٣ / ٢١١ - ٢١٥ .

(٢) تدمير : من كور الأندلس ، سميت باسم طكها أنظر : الروض الممطار ص ١٣١ .

(٣) نفح الطيب : ٤ / ٤٩٧ - ٤٩٨ ، والروض الممطار ص ١٠٠ .

وهناك قسم آخر من هذه الرسائل في الشفاعة لبعض الناس
وتيسير أمورهم ، كرسالته إلى سميد بن حكيم رئيس منورقة (١) ، وثانية إلى
رئيس شاطبة أبي الحسين بن عيسى (٢) ، وثالثة لانصرف لمن وجهها (٣) ،
وله رسالة في تهنئة صديقه أبي المطرف ابن عميرة بقضاء شاطبة (٤) وأخرى
في الرد على سميد بن حكيم (٥) . فموضوعات
رسائله ~~تتنوع~~ إذاً واقعية بعيدة عن اللهو والمبسّس ،
مناسبة مع ظروف حياته السياسية والاجتماعية ، فهو رجل وطني مخلص
لأصدقائه ، وهو أيضاً رجل خير وشفاعة في وقت احتاج فيه الناس إلى الخير
والشفاعة .

أما طريقته في كتابة رسائله ، فإنه يبدأ رسالته عادة بمقدمة فيها
تحية وإشارة إلى مقام المكتوب إليه وصلته بالكاتب ، ويوضح في المقدمة أيضاً
فكرته الأساسية ، ثم يدخل بعد ذلك إلى موضوعه الرئيسي ، وبعد عرض موضوعه ،

-
- (١) ذكرها صاحب الرض الممطار : " منورقة " وهي جزيرة تقابل برشلونة ،
انظر : ص ٥٤٩ ، وانظر الرسالة في : أزهار الرياض ٢١٧/٣ .
- (٢) هو أحمد بن عيسى الخزرجي ، منتماه إلى قيس بن سعد بن عبادة ،
ولد بدانية ، ومنها نشأ ، ثم أوطن شاطبة ، ووطي عليها من قبل ابن
هود ، ثم صارت إليه دانية ، انظر ترجمته في : الحلة السيرة ٣٠٣/٢ -
٣٠٦ وانظر الرسالة في : أزهار الرياض ٢١٩/٣ ، ٢٢٠ .
- (٣) انظرها في : أزهار الرياض ٢٢٠/٣ ، ٢٢١ .
- (٤) المصدر نفسه : ٢١٨/٣ ، ٢١٩ .
- (٥) المصدر نفسه : ٢١٥/٣ ، ٢١٦ .

ينتهي رسالته بما يتفق ومقام المخاطب وصلته به ، ومعبارة " والسلام " أو " والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " أو " آمين آمين " ، والسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين " . وهو بهذه الطريقة يتفق كثيرا مع الرسالة المعاصرة في أيامنا .

وابن الأبار ، غير مجدد في أسلوبه ، فقد أتبع الأسلوب الذي اتبعه كتاب النثر من قبله ومعه ، وهو " أسلوب السجع الشبيه بالشعر المنثور ، أسلوب تختار فيه الكلمة لجرسها وإيقاعها ومحاسنها اللفظية ، أسلوب يعتمد على تكرار المبارات والجل ، للدلالة على الفكرة الواحدة ، أسلوب يميل إلى الإطناب لتأكيد المعنى ، ولما في الإطناب من دلالة على قدرة الكاتب اللفظية ، أسلوب كثر فيه الاقتباس من القرآن والحديث والحكم والأمثال والشعر ، تأكيداً للفكرة ، وتحلية وتجميلاً . وقد يضمن الكاتب الرسالة أحيانا شعرا من نظمه " (١) . وقد تميّز أسلوب ابن الأبار أيضا ، بعمد الإغراق في إخفاء الفكرة أو الإغراب في اللفظ " (٢) .

والإضافة إلى رسائله السابقة ، فقد وصلتنا رسالة له ، تختلف عن سابقتها ، في أنها نمط من أنماط المعارضة لبعض رسائل المشارقة ، عارض فيها رسالة أبي الملا المعري " ملقي السبيل " (٣) وهي : " مظاهر

(١) ابن الأبار : حياته وكتبه : ص ٣٢٦ .

(٢) المرجع نفسه : ص ٣٢٩ .

(٣) انظر هذه الرسالة في : رسائل البلغاء لمحمد كرد علي ص ٢١٤-٢٣٠ . وقد

أطلع الاندلسيون بمعارضة هذه الرسالة الوعظية ، فمن الذين عارضوها : ابن الأبار ، وأبو عبد الله بن أبي الخصال وزير يوسف بن تاشفين ، وأبو الربيع الكلاعي شيخ ابن الأبار ، ومعارضته هي : " مفاضة القلب الملييل ومنابذة الأمل الطويل ، بطريقة المعري في ملقي السبيل " ، ولم تصل إلينا من هذه المعارضات سوى معارضة ابن الأبار .

السمي الجميل ، ومجاورة المرعى الويل ، في معارضة ملقسي
السبيل " (١) .

وموضوع الرسالة ، الوعظ والزهد ، كموضوع رسالة أبي الملا ، وقد
سلك فيها ابن الأبار طريقة الممرى تماما في المعارضة ، فرتب الدقعات
على حروف المعجم ، ولكن حسب الطريقة الأندلسية ، وقد بدأها بجمل من
النثر مسجوعة ، ثم أعقبها بأبيات من الشعر ، وجعل كل سجمة في فقرات النثر
قافية لأحد أبيات الشعر ، إلا البيت الأول ، فإنه يضم سجتين واحدة في
صدر البيت ، والثانية في عجزه ، حفاظا على التصريح^(٢) في بداية المقطوعة
الزهدية .

وهذا النوع من الرسائل ، يكون هدف الكاتب فيه ، إظهار براسته
وقدرته اللغوية ، لذا فهي نوع مصنوع يخلو من العاطفة والخيال .

وهذا مثال على ذلك من الرسالة من حرف الثاء (٣) :

حرف الثاء

من على تماقب الأعصار مكث ، وأي واف من الأعمار ما نكث .

(١) لقد نشر الدكتور صلاح الدين المنجد هذه الرسالة سنة ١٩٦٣ م في بيروت
ضمن كتيب " رسائل ونصوص " .

(٢) التصريح : هو تصيير قافية المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة ، مثل

قافيتها إلى جانب عذوتها وسلامة مخارجها . أنظر : نقد الشعر ص ٤٢ .

(٣) رسائل ونصوص : ص ٤٦ .

جمع المرء ليدنياه وحرث . وفرط في جنب الله وما اكثرت . لم يخلق
عشا فبالله والمهث . بيني القصر ويخرب الجدت . أما تبصر الكهـل
هالكا والحدث .

مَنْ ذَا عَلَى الدَّهْرِ مَكْثٌ	وَأَيُّ عُمْرٍ مَا نَكْثٌ
خَانَ الْفَتَى مَا جَمَعَتْ	يُمْنَاهُ خَوْفًا وَحَسْرَتٌ
وَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُ	فَمَا بَكَى وَلَا اكْتَسَرَتْ
يَمِثُّ فِي سَفَاهِيَةٍ	وَالْمَرْءُ لَمْ يُلْقِ عَمَتْ
يَا عَامِرَ الْقَصْرِ أَمَّا	تَأْسَى لِإِخْرَابِ الْجَدْتِ
كَيْفَ اغْتَرَّتْ وَالسُّرْدَى	يَلْفَ كَهْلًا بِحَدَثِ

٨ - ديوان شمره :

سنتحدث عنه في الباب الثاني .

مكانته العلميّة

بمد الاستمرار السابق لبعض جوانب حياة ابن الأبار وثقافته وآثاره ، يحسن بنا التنبيه إلى المكانة العلميّة التي احتلها ابن الأبار . فقد احتل مكانة علميّة مرموقة بين أبناء عصره . وأجمع المؤرخون أيضاً على غزارة علمه وسمة ثقافته .

ونستطيع أن ندلل على مكانته عند أبناء عصره بهذه الأبيات التي بعث بها سميد بن حكم القرشي ، إلى ابن الأبار ، بمد أن وصله منه كتابه "المعجم في أصحاب أبي علي الصدّقي" ، يقول فيها (١) :

يا طول فخر قضاة بأخيها	ماذا أفاد من المعلوم بنبيها
أمدى إليهم من نتائج فكره	حلاً يحلّ بالهدى مهديها
فالأريعون الأرمينيات قد	شهد الجميع له بفضل فيها
وأبان في التاريخ كلّ هداية	ظلّ الزمان ضلالة يخفيها
فوصل تكلمة إلى الصلة الخدي	يدعى قليلاً في الأنام نبيها
ومعجم لصحابة الصدّقي صا	د فغرة ، قد صاف من يرميها
فبحقه يُسمع أبو عبد الإله	هو مؤرخاً ومحدثاً وفقيرها
وإذا جيات للكتابة أجريت	لم يجر إلاّ لا حقاً ووجيها

أما المؤرخون الذين تبعوا ابن الأبار وترجموا له ، فقد أكثروا من الإشادة بعلمه . فهذا الفبريني يقول في حقه : " ولا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام ، إلاّ وله فيه رواية إما بمموم أو خصوص " (٢) ويصفه

(١) المعجم في أصحاب الصدّقي : ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٢) عنوان الدراية : ص ٣١١ .

في موضع آخر بالنَّاقِد الفقيه (١) . ويقول في موضع ثالث أيضا : "الفقيه المحدث المقرئ" النحوي الأديب المجيد اللغوي الكاتب البارع التاريخي (٢) وقد أشار الفهريني بتعارفه السابقة إلى أن ابن الأبار كان نحويًا لغويًا أيضًا ، وهو ما لم تشر إليه بقية المصادر . ولا ندري ، فربما كان ابن الأبار كما ذكر الفهريني ، فألف شيئًا من كتبه في النحو واللغة ، ولكن ضاع أو أحرق كما أحرق جثته .

ويقول الصفدي أيضًا في حقه : "وعني بالحديث . . . وكان بصيرًا بالرجال ، عارفًا بالتاريخ ، إمامًا في المصنفة ، فقيها مقرئًا إخباريًا ، فصيحًا . . . وله من المصنّفات في الحديث والتاريخ والأدب" (٣) ويقول الذهبي عنه : "أحد أئمة الحديث ، قرأ القراءات ، وعني بالآثر" (٤) . ويقول ابن خلدون : "وكان علامة في الحديث ولسان العرب" (٥) .

أما ابن الأحمر فقد أطنب في الثناء عليه إذ يقول : "هو سراج العلوم الموقد ، وربّ النظام السهل الذي ليس به متفقد وصاحب الذكاء الذي بهر طبعًا ، وحامل الفوائد التي عمرت للمعاسن ربما ، ومولف الكتب التي زهر لإصابة قد نشر بيساتينها ، ومُنشئ الطروس التي جادت عليها سحاب التحبير بهتانها" (٦) .

(١) انظر عنوان الدراية : ص ٢٠٤ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٠٩ .

(٣) الوافي بالوفيات : ٣/٣٥٦ .

(٤) المبر : ٥/٢٤٩ .

(٥) تاريخ ابن خلدون : ٦/٦٥٣ .

(٦) مستودع الملامة : ص ٢٨ .

وقد أشاد معظم الدارسين المحدثين لابن الأبار من عرب ومستشرقين بتفوقه العلمي ومراعاته فيه ، منهم : عبدالمعز عبدالمجيد في كتابه " ابن الأبار : حياته وكتبه " ، وعبدالله الطباع في كتابه عن " الحلة السّيرة " ، وغيرهما من الذين قاموا بتحقيق كتبه .

وكان على رأس الذين نهضوا إلى قيمته ومنزلته من المستشرقين : المستشرق الهولندي دوزي ، الذي قال عنه : " إن ذلك المؤرخ الصادق ، كان يؤلف وتحت يده وثائق على أكبر جانب من الأهمية ، وهو يتأزر بطكة نقادة صحيحة قوية ، ويمتاز إلى جانب ذلك ، بمحاطفة جيّاشة ، تذكرنا بفجوة العرب القدماء " ، وأسلمهم في الحياة والإحساس ، وهو شبي " نادر بين معاصريه " (١) ومنهم أيضا : المستشرق بالثيا ، الذي اعتبره أكبر مصنف في علم الرجال أطلعته الأندلس (٢) .

ونحن نؤكد ما ذهب إليه القدماء والمحدثون ، من أن ابن الأبار ، كان عالما نادرا بين معاصريه ، وأن إنتاجه الضخم في مختلف فنون العلم لا أكبر شاهد على ذلك .

وهكذا نلاحظ أن لا خلاف في اسم صاحبنا ونسبه ، فهو عربي ينسب إلى قضاة ، ولد في بلنسية سنة ٩٥ هـ ، ونشأ وترعرع فيها ، وكانت نشأته نشأة علمية خالصة منذ أيامه الأولى ، إذ تلقى العلم على يدي والده معلمه الأول ، ثم على يدي معلمه الخاص أبي حامد .

انطلق ابن الأبار بعد ذلك باحثا عن العلم بشكل أوسع ، مجالسا لأمله ، آخذا عن كبار علماء عصره في مختلف الفنون حتى أواخر حياته ، فاستمعت ثقافته وتممقت .

(١) لقد ضمّن بالثيا هذا القول لدوزي في كتابه : تاريخ الفكر الأندلسي

ص ٢٢٩ .

(٢) أنظر : المرجع نفسه ص ٢٧٧ .

وقد خفيت معالم أسرته في آثاره والمصادر التي ترجمت له ، ولم
نتمرّف إلاّ على والده العالم وصهره ابن البطرني والزهريري ، وهديثهم
عنهم لا يختلف عن حديثه عن أي شخصية ترجم لها . كما استطعنا أن نؤكد أنه
قد تزوج وأنجب أبناً منذ أيام وجوده في الأندلس .

وقد تعرّفنا على كثير من صفاته ، وكان شمره هو المعين الأول
لنا على ذلك .

أما فيما يتصل بمقيدته ، فقد نفينا تهمة تشيع ابن الأبار ، وأكدنا
أنه من أهل السنة والجماعة ، وإن كان قد أبدى حبّه وتقديسه لآله البيت في
بعض كتبه .

وحثنا في حياته الإدارية ، فإذا بنا نجده يتصل بأمرائه بلده منذ
أيام شبابه ، فقد كتب لهم في بلنسية حتى سقوطها ثم انتقل فكتب لأمرائه بني حفص
ولكنّا لم نظفر بشيء من رسائله في هذا الموضوع .

وفيما يتعلق برحلاته وأسفاره ، فقد أكدنا أنه قد جال في بلاد
الأندلس ، وإن كنا لا نستطيع تحديد سبب تجواله ، ومع ذلك تبين أن ابن الأبار
خلال تجواله في الأندلس ، قد التقى بكثير من العلماء وأخذ عنهم . أما في تونس
فلم يفادها إلاّ إلى بجاية .

وكانت نهاية ابن الأبار سنة ٦٥٨ هـ ، نهاية الحرق الشنيعة ، على
أيدي من أخلص لهم وأكثر من خدشهم ، وسخر كل طاقاته من أجلهم .

أما آثاره فقد تمّدت حتى بلغت خمسين مؤلفاً ، ومعظمها في التاريخ
والحديث والآداب . وصلنا بعضها وتم نشره وهو قليل ومعظمها لا نعرف عنه شيئاً .
ولا شك أن هذا النتاج الضخم ، كان ثمرة ثقافة واسعة وعلم غزير ، مما جعل الكثير
من معاصريه ومن لاحق بهم ، يشهد لابن الأبار بالتفوق العلمي والبراعة فسيحي
التأليف .

تمهيد

لم يكن ابن الأبار نابغا في العلوم المختلفة منذ حداثة سنه فقط ، بل إن موهبته قد مكنته من قول الشعر في سن مبكرة . فقد ذكرت في ديوانه في أكثر من موضع ، مقطوعات وقصائد كانت تسبق بهذه العبارة : " وما قاله في صباه " (١) ونحن وإن كنا لا نستطيع تحديد سنه عند ما بدأ بتنظيم الشعر تحديدا دقيقا ، إلا أننا نستطيع أن نؤكد أنه قد قال الشعر منذ الخامسة عشرة من عمره أو قبل ذلك ، لأن ناسخ الديوان ، قال عند إيراده لإحدى قصائده : " وما قاله وهو ابن خمس عشرة سنة " (٢) .

إذاً ، فابن الأبار صاحب موهبة شعرية ، مكنته من نظمه وهو فتى صغير . وقد استغل هذه الموهبة وبدأ يعمل على صقلها ، وذلك بسماعه الآداب والأشعار من شيوخه واتصاله بمعظم أدباء زمانه .

وقد أتاح له علمه ومركزه الاجتماعي ، الاتصال بمعظم أدباء عصره ، وخاصة من بـ ~~سـ~~ رز منهم واشتهر . وفي ~~بـ~~ لاط الحفصيين الذي كان يضم فحول الشعراء من الأندلسيين والتونسيين ، والذي كان ابن الأبار واحدا من أوطك الأعلام ، أتيح له أن يتصل بمعظمهم .

(١) انظر الصفحات التالية في : مخطوطة الديوان ص ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٧٢ ، وغيرها .

(٢) المصدر نفسه : ص ٧٢ .

ومن أبرز الأدباء الذين اتصل بهم: أبو المطرف بن عميرة^(١) وحازم
القرطاجني^(٢)، وإبراهيم بن صناديد الأنصاري^(٣)، وأبو علي بن الشيخ
المكرم أبي موسى^(٤)، الذي قال عنه ابن الأبار: "شعر أبي علي - أعزّه
الله - كثير، وقد وقفت على ديوانه وسمعت منه غير قصيدة وقطعة بلفظه"^(٥).
ومنهم - محمد بن إدريس المصروف بمرج الكحل، الذي يقول عنه
ابن الأبار: "كان شاعرا مفلحا بديح التوليد والتجويد، وقد حمل عنده
ديوان شعره، وسمعت بلفظه كثيرا منه"^(٦)، وسعيد بن حكم القرشي^(٧)
وغيرهم الكثير.

ومما يخطر بالذهن، ونحن نتحدث عن شعر ابن الأبار، التساؤل
فيما إذا كان ابن الأبار قد جمع شعره بنفسه في حياته، أم أنه قد جمع فيما
بعد؟

يبدو لي أن ابن الأبار كان يكتب شعره بنفسه في حياته، وأنه
كان حريصا على ضمّه في ديوان أو دواوين خاصّة، واعتمادنا في ذلك
على قولين:

- (١) انظر بعض الأبيات المتبادلة بينهما في: الوافي بالوفيات ١٣٤/٧.
- (٢) انظر بعض الأبيات التي يمثّلها ابن الأبار إلى حازم في: مخطوطة
الديوان ص ٧١، ص ١٤٣.
- (٣) انظر ترجمته في: الحلة السّيرة ٢٩٩/٢ وما بعدها، وانظر بعض
الأبيات التي قالها ابن صناديد مجاوبا ابن الأبار في: المصدر نفسه
٢٠٢/٢.
- (٤) انظر ترجمته في: المصدر نفسه ٢٨٤/٢، وقد ذكر ابن الأبار مجموعة من
القوائد المتبادلة بينهما. انظر: المصدر نفسه ٢٨٦/٢ - ٢٩٠.
- (٥) المصدر نفسه: ٢٨٤/٢.
- (٦) التكملة ٢٤/٢٣٦.
- (٧) انظر بعض القوائد المتبادلة بينهما في: المعجم لابن الأبار ص ٣٣٦،
ومخطوطة الديوان ص ٤٩، وأزهار الرياض ٣/٢١٥.

١ - أن ناسخ الديوان ، قد ذكر في تقديمه لبعض الأبيات قوله : " وقرأت بخطه " (١) فهذه إشارة إلى أن ابن الأبار قد كتب شعره أو بعضاً منه في حياته بخطه ، وإن كنا لا ندري إن كان الناسخ قد نقل الأبيات من كتاب لابن الأبار ، لأنه كان كثيراً ما يذكر شعره في كتبه ، أو من أحد دواوينه .

٢ - أن ابن خلدون قد ذكر في ترجمته له ، عندما أشار إلى وفاته ، أنه قد أحرقت معه كتبه ودواوينه (٢) وهو قول صريح أشار فيه ابن خلدون إلى أن شعر ابن الأبار قد جمع في دواوين خاصة في حياته ، وأن تلك الدواوين قد أحرقت مع كتبه إلى جانب جثته ، ومن المرجح أن يكون ابن الأبار هو جامع تلك الدواوين بنفسه .

ويبدو أن نسخاً من بعض كتب ابن الأبار ودواوينه ، قد نجت من الاتلاف وإشمال النار فيها ، بدليل قول الفبريني الصوفي سنة ٧١٤ هـ : " وأشماره وكتائبه متداولة بين الناس ومروغوب فيها عندهم وموجودة لديهم " (٣)

وممنى هذا أن أشمار ابن الأبار ، لم تنته بانتها حياة ، وأنهما بقيت متداولة وموجودة عند الناس حتى زمن الفبريني . ولكننا للأسف بعد الفبريني لم نجد أحداً من الذين ترجموا لابن الأبار يشير إلى ديوانه سوى ابن خلدون . صمدحما لم نجد أية إشارة إلى ديوانه ، وأغلب الظن أن ابن

(١) مخطوطة الديوان : ص ٧٥ .

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون ٦ / ٦٥٥ .

(٣) عنوان الدراية : ص ٣١٢ .

خلدون نفسه لم يشاهد ديوان ابن الأبار ، وطوره لصّح بذلك ، ولكنّه
اكفى بالقول: أنّ دواوينه قد أحرقت معه .

وقد بقي هذا الغموض يكتنف شعر ابن الأبار حتى المصراع الحديث
إذ لم يشر أحد من الذين تناطوا ابن الأبار ومضى كتبه ، إلى أنّ له ديوان شعر ،
بل ذهب عبد الله الطباع إلى أنّ ابن الأبار لم يخلف ديوان شعر أو مجموعة
من القصائد ، وكل ما تركه لنا لا يتمدى الأبيات المتفرقة ، التي جمعها بعض من
اشتمت بترجمته (١) .

وقد استمر الحال ، حتى سنة ١٩٧٢ م ، إذ نبّه عبد السلام
الهراس في مقدّمة تحقيقه لكتاب " درر السمّط " إلى وجود ديوان لابن
الأبار ، وأنه قد أتمّ تحقيقه ، وينوي طبعه بتونس (٢) .

ولما لم يطبع حتى الآن ، فسنشير إلى المخطوطة الوحيدة للديوان ،
الموجودة في الخزّانة الطكيّة في الرباط تحت رقم (٢٠٤٦) ، وفي مركز الوثائق
والمخطوطات في الجامعة الأردنيّة نسخة صورة عن النسخة المفريّة .

(١) انظر: الحلّة السيّارة لمبد الله الطباع: ص ١٣٣ .

(٢) لقد أخبرني أيضا الأستاذ الفاضل محمد المنوني مدير الخزّانة
الطكيّة بالرباط ، أنّ عبد السلام الهراس قام بتحقيق ديوان ابن
الأبار ، وينوي طبعه بالدار التونسيّة ، وقد اتصلت بالدار التونسيّة
للنشر ، فأخبروني أنّ الديوان لم يباشربطباعه حتى الآن ، وأنّ بعض
الصّمومات تحول دون ذلك .

وهذه بعض الملاحظات على الديوان وناسخه :

- ١ - لقد بلغت عدد صفحات الديوان (٢٢٨) ورقة ، في كل ورقة واحد وعشرون سطرا ، وقد يذكر الناسخ في السطر الواحد بيتين من الشعر . وقد اشتطت صفحات الديوان على (٢٠٩) قصائد ومقطوعات ، وبلغت مجموع الأبيات في الديوان (٥٦٢١) ، وقد تأكلت الصفحات الأولى التي ربما كانت تحمل اسم الناسخ واسم الديوان وغير ذلك من المملومات ، وجزءا من شعر ابن الأبار . ومن المرجح أن ما هو متاكد لا يزيد على صفحتين ، لأن القصيدة الأولى في الديوان ناقصة ، وهي موجودة كاملة في نفح الطيب (١) . وقد وجدت أن ما هو متلف من القصيدة سبعة عشر بيتا فقط .
- ٢ - لقد كتب الديوان بخط مغربي واحد ، باستثناء أربع ورقات في نهايته جاءت بخط مغاير (٢) وهو مرتب حسب الحروف الهجائية المغربية ، وإن كان الناسخ قد أنهى الديوان بقصيدتين ليستا على حرف اليا ، بل إحداهما على حرف الباء في مدح أبي زكرياء الحفصي ، وقد بلغت اثنتين وخمسين بيتا ، والثانية على حرف الدال وهي غير واضحة ، ولكن يبدو أنه نظمها في أواخر أيامه ، بعد سوء علاقته بالأمر الحفصي ، وقد بلغت تسعة وسبعين بيتا .

(١) هي قصيدته الهزلية في استصراخ أمير تونس ، ولم يذكر المقرئ قائلها :

أنظرها في : نفح الطيب ٤ / ٤٧٩ .

(٢) انظر : مخطوطة الديوان ص ٢٢٥ - ٢٢٨ .

- ٣ - أصاب النسخة الكثير من التلف ، الذي ذهب بأبيات كاملة أو بجزء منها ، ووقع الناسخ ببعض الأخطاء ، والسّهو ، ما جعله يكرّر مجموعة من القصائد والمقطوعات أكثر من مرة في الديوان .
- ٤ - قد يكرّر الشاعر في الصفحة الواحدة البيت مرتين متلاحقتين مع ذكر خلاف بسيط بينهما ، قد يكون في كلمة أو أكثر ، أو أن يذكره في الحاشية ، منها إلى أنك تستطيع قراءته بشكل آخر (١) ، مما يشعر أن الناسخ ربما آخذ على أكثر من نسخة في ديوانه .
- ٥ - قد يكتب الناسخ بعض أبيات القصيدة في الحاشية ، بشكل مماكس لنظام ترتيب الأبيات في الصفحة ، وهذا دليل على نوع من الاضطراب في النسخة . ولا ندري إن كانت الأبيات التي يكتبها بهذا الشكل ، هي زيادة مثلا من نسخ أخرى غير النسخة التي اعتمدها الناسخ ، أم أنه في أثناء كتابته للقصيدة ، نسي ذكرها ، فلم يجد لها مكانا ، فكتبها بهذا الشكل إلى جانب أبيات القصيدة (٢) .
- ٦ - لقد ترك الناسخ صفحتين بدون كتابة ، فقد ذكر في منتصف الصفحة التاسعة والتسمين في الديوان عبارة " وقال أيضا " ، ثم وضع خطا مائلا فيها وتركها بدون كتابة أي شيء ، وكذلك فعل في الصفحة التالية لها ، ولا ندري سبب ذلك ، ولكن ربما تكون القصيدة التي أراد ذكرها تتعارض مع سياسة البلد الذي وجد فيه الناسخ ، فحذفها ، ليحمر القارىء أن شيئا قد حذف .

(١) انظر: مخطوطة الديوان ص ٢١٣ ، ص ٨٠ .

(٢) انظر أمثلة على ذلك في : المصدر نفسه ص ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٢٢ ، ٠٠٠ .

- ٧ - مع أنه لم يكتب على نسخة الديوان اسم الناسخ والمصر الذي عاش فيه ، إلا أننا نرجح أن يكون الناسخ من معاصري ابن الأبار ، وربما من أصدقائه ، ذلك أنه قال بعد أن ذكر بيتين لابن الأبار ، قال بعدهما مباشرة : " فأجبت مع نثر " ، وذكر خمسة أبيات من الشعر لنفسه (١) . ويرجح أيضا أنه قد جمع الديوان ونسخه بعد وفاة ابن الأبار ، لأنه كان كثيرا ما يذكر عبارة " وقال أيضا رحمه الله " .
- ٨ - أننا نرجح أن الديوان لم يضم أشعار ابن الأبار كلها ، وأنّ قسما منها لا يزال ثائها ، وربما انتهى أمره بانتهاء حياة الشاعر ، وذلك لعدة أسباب :
- أ - أنني قد جمعت قسما من أشعار ابن الأبار من المصادر المختلفة لم أعتزلها على ذكر في الديوان ، مما يشير إلى أن الديوان لم يشتمل على شعر ابن الأبار كله .
- ب - يبدو أن الناسخ أحيانا ، كان يختار ما يريد من شعر ابن الأبار ، أو ما توافر له ، بدليل أنه كان يذكر بعض الأبيات من قصيدة دون أن يذكرها بأكملها ، فيقول : " ومنها " ، ثم يذكر أبياتا أخرى من القصيدة وهكذا ، مما يبين أنه في مثل هذه الحالات كان يختار أبياتا معينة من القصيدة دون ذكرها بأكملها ، وقد أورد لنا في نهاية الديوان ثلاثة عشر بيتا من قصيدة لا مئة ، أشار الناسخ إلى اختتانه وإعجابه بها ، ويبدو أن الأبيات هي مطلع غزلي لأحدى قصائده ، ولم يذكر الناسخ هذه القصيدة في قافية اللام ، فأين بقية أبيات هذه القصيدة (٢) ؟

(١) انظر : مخطوطة الديوان ص ١٦٤ .

(٢) انظر القصيدة في : المصدر نفسه ص ٢٢٨ .

ج - ما ذكره ابن خلدون ، من أن ابن الأبار خلف مجموعة متحسن الدواهي ، ولم يخلف ديواناً فقط ،

د - أن صلته بأبناؤه بلده في بلنسية ، كانت تفرض عليه أن يقول شمرا فيهم ، وكذلك صلته بالأبناؤه المستنصر في تونس كانت تفرض عليه أن يقول فيه ، ولكننا لم نجد له في ذلك سوى الشئ القليل مما يدعوننا إلى الذهاب إلى أن أثماره فيهم جميعاً ، لم تصلنا حتى الآن ، كما سنبين فيما بعد بشئ من التفصيل .

أما الكتب التي ترجمت لابن الأبار ، فلم تغفل شعره وشاعريته ، بل ذكرت جزءاً من شعره في شأياها ، سواء أوطك الذين عاصروا ابن الأبار ، أو الذين لحقوا به فيما بعد ، فمن معاصريه الذين ضمنوا كتبهم شيئاً من شعره ، ابن سميد المغربي في كتبه : " اختصار القدح الصلبي " ، و " روايات المبرزين " ، و " والمغرب في حلل المغرب " . ويبدو أن معظم ما ضمته ابن سميد في كتبه ، قد سمعه مباشرة من ابن الأبار ، لأنه كان يجالسه ويستمع إليه ، يقول : " ولي معه مجالسات آتق من خلق الشهاب ، وأبهج من الروض غبّ نزول السحاب ، ولم أجمع به إلا في هذه الحضرة المليحة (يعني الحضرة الحفصية) ، وصفت من فؤاده في النفس بقية " (١) وكثيراً ما كان يقدم للأبيات التي يذكرها بقوله : " وأنشدني " أو " ومما أنشدني " ومن معاصريه أيضاً الرعيني الحنفي سنة ٦٦٦ هـ ، فقد ضمن في برنامجه جزءاً من قصيدة ابن الأبار في رثاء شيخه الكلامي

(١) اختصار القدح : ص ١٩١ .

ومن المصادر اللاحقة التي احتوت على شعر لابن الأبار: "عنوان الدراية" للفبريني ، و "الروض المعطار" للحميري ، و "تاريخ ابن خلدون" ، و "الذيل والتكملة" للمراكشي ، و "الرحلة المغربية" للمبدري ، و "الوافي بالوفيات" للصفيدي ، و "فوات الوفيات" للكتبي ، و "تاريخ قضاة الاندلس" للنباهي ، و "درة الحجال" لابن القاضي ، و "الاحاطة في أخبار غرناطة" لابن الخطيب ، و "رحلة التجاني" ، و "شرح مقامات الحريري" للشريشي ، و "شرح شواهد التلخيص للمباضي" ، و "أعمال الأعلام" لابن الخطيب ، و "نفح الطيب" ، و "أزهار الرياض" للمقري ، هذا بالإضافة إلى الأسماء التي ضمنها ابن الأبار في كتبه ، و "إعجاب الكتاب" ، و "الحلّة السيّارة" ، و "تحفة القادم" .

وقد بلغ عدد الأبيات التي تضمنتها تلك المصادر ، ما يزيد على خمسمائة وخمسين بيتاً . ومعنى هذا أن شعره كان متداولاً معروفاً كما ذكر الفبريني .

ويبدو أن شهرة شعر ابن الأبار وذيوعه بين الناس ، وتداوله في زمنه والعصور اللاحقة ، كان لسببين بارزين هما :

- ١ - ارتباط شعر ابن الأبار ببعض الأحداث التاريخية ، والمناسبات العظيمة التي كان لها أعظم الأثر في نفوس أبناء زمانه ، وفي مسار حياتهم ، وفي نفوس أبناء الأمة الإسلامية فيما بعد ، كرتائسه لشيخه الكلاعي ومن استشهد معه من المجاهدين في وقعة أنيشة ، واستصراخه الأمير الحفصي وطلب نجدته قبيل سقوط بلده ، ثم قصيدته التي ألقاها بين يدي الأمير الحفصي عندما حصل بيعة أهل بلده للأمير الحفصي ، ومقطوعات وقصائده حنينه لوطنه ، التي لا تعبّر عن نفسية ابن الأبار فقط ، بل تحمل همّه وهمّ أبناء وطنه جميعاً .

٢ - ارتباط شعره في تونس بالأمارات الحفصية ، والمطل على تخليد
أمجادها ، وتسجيل مآثرها ، وقيامه فيها مقام أجهزة الإعلام
في أيامنا وموقفه المدافع عنها وعن أصحابها ، مما جعله يشكل
اللسان الناطق للدولة وأصحابها . وارتباط الشعر بالسياسة ،
عاطل مهم من عوامل ذيوعه وانتشاره وخاصة في زمن الدولة التي
يقال في مدح أصحابها .

ولا نمضي بكلامنا انعدام قيمة شعره الأدبية ، فقد
نالت قصائده ومقطوعاته في الفول والوصف إهتمام وإعجاب
بعض معاصري ابن الأبار . ولكن ارتباط شعره بدور وظيفتي
- كما سنبين فيما بعد - سواء في الأندلس أو تونس ، كان أبرز سبب
في شهرته وذيوعه .

الفصل الثالث

شعره في البلاط الحفصيّ

نظرة عامة

- أولا : حياة ابن الأبار في ظلّهم من خلال شعره
ثانيا : موضوعات شعره :
أ - المدح .
ب - شعره في بستان أبي فهر .
ج - الرثاء .

نظرة عامة

لقد كان ابن الأبار واحداً من بين مجموعة كبيرة من الأندلسيين الذين ودّعوا بلادهم إلى غير رجعة ، بعد أن سقطت في أيدي النصارى ، فارين بأنفسهم ودينهم . وكانت وجهاتهم مختلفة ، فمنهم من اتجه صوب المغرب ، وكثير منهم كانت وجهتهم إفريقية (تونس) . وكان ابن الأبار القضاعي ، من بين الذين اتجهوا صوب تونس ، بعد أن سقطت بلنسية ، وعاش فيها النصارى كما عاشوا فيما سبقها من البلاد الأندلسية .

ولكن لماذا أثر ابن الأبار الرحيل إلى تونس ، ولم يرحل إلى الشرق أو المغرب ، كما صنع مثلاً صاحبه : حازم القرطاجني ، وابن عميرة المغزومي ، اللذان كانا قد توجهوا إلى المغرب ، قبل توجههما إلى تونس (١) ، مع أن الأمير الموحد الرشيد دعا المهاجرين الأندلسيين إلى النزول في رباط الفتح واتخاذ ضاكنه وأرضه ، بدلاً من مساكنهم وأرضهم ؟ (٢)

لقد شهد ابن الأبار في أوائل القرن السابع الهجري ، أيام شبابه في الأندلس ، ضعف الدولة الموحدية وزوال قوتها ، وخروج الممدن الأندلسية عليها ، والصراع بين حكامها على السلطة ، واستنجاد بعضهم بأعدائهم النصارى ، مما كان يشير إلى أن الدولة تعيش أواخر أيامها وأنه لا بد من أن تُلغظ أنفاسها في وقت قريب .

(١) أنظر : أزهار الرياض ٣ / ١٧٣ ، وأبو المطرف أحمد بن عميرة : حياته

وآثاره لمحمد بن شريفة ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) راجع ص ٣٦ من هذه الدراسة .

ويبدو أنّ إدراك ابن الأبار لهذه الحقيقة ، جعله لا يفكر في الذهاب إلى المغرب ، لأنّ إقامته فيها لن تطول ، ولن يكون فيها أيّ نوع من الاستقرار أو السّعادة التي يبغيها . ثم كيف تشجّع له نفسه بالتوجّه نحو أناس خانوا الأمّة ، فباعوا البلاد والعباد ، وقهروا الأعداء منهم وأشركوهم في حكمهم (١) ، وهو الفقيه المحدث المقرئ . وهل كان رحيله إلى دولة شارفت على الانتهاء يتفق وما نعرفه عنه من طموح ، بعد أن فقد مكانته السياسيّة ككاتب يبعث به على رأس الوفود في المهمّات الخطيرة ، بعد أن سقطت وتحطمت آماله في أن يعود الحال كما كان عليه ؟ وهل كان يرى في الدّولة الموحديّة القدرة على استعادة وطنه بعد ضياعه وتشتت أهله ؟

ولم يفكر ابن الأبار في السّفر إلى المشرق أيضاً ، لأنّه بذلك سيّتمعد عن أهله ووطنه ، ولن يكون بإمكانه تأدية واجبه نحوهم . وكأنّه بعد رحيله عن وطنه ، كان يرى أنّ دوره نحو وطنه ، لم ينته ، وأنّ بإمكانه بتوجهه إلى أكبر قوّة قريبة من وطنه ، أن يعمل على استنهاض همّتها ، فعملها تستطيع استرداد وطنه وتحقيق ما تصبو إليه نفسه (٢) .

إنّ اختيار ابن الأبار لتونس طبعاً له بعد سقوط بلده ، كان الخيار الوحيد أمامه ، لأنّه لا يستطيع البقاء في بلده ، ولا تلبّي رغباته وطموحه بسفره إلى مراكش أو المشرق . فكان عليه إنذاراً ، اختيار تلك الدولة الفتيّة الناشئة ، التي كانت في أوج قوّتها وازدهارها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، والتي

(١) راجع ص ٢٥٨ من هذه الدراسة .

(٢) دليل ذلك كثرة استنهاض الأمير الحفصي في مدائحه لاستعادة وطنه .

سبق له الاتصال بأبيها ، الذي استمع إليه وهو ينشد قصيدته السينية المؤثرة ، التي كانت مدحا واشادة واستنهاضا له . وقد رأى ابن الأبار هذا كله ، أن توجهه إلى تونس قد يحقق له كل ما في نفسه ، من راحة واستقرار وطموح واستعادة وطنه .

ويبدو أن الأمير الحفصي قد أعجب بابن الأبار العالم الأديب الكاتب عند التقائهم ، وخاصة أنه طلب من أكثر من واحد من شمره حضرة مجاورة قصيدته السينية لحسن موقعها منه ، وأن ابن الأبار قد أحس بذلك ، فقرر تنفيذ عزمه وهو الرحيل . فعاد إلى بلنسية ، " وحمل أهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه ، فنزل منه بخير مكان ، ورشحه لكتيب علامته في صدور رسائله ومكتوباته " (٢) .

ولما كانت الدولة الحفصية ، قد خرجت على الموحدين وانفصلت عن الخلافة الموحدية بعد سنة ٦٢٧ هـ ، فقد كان عليها نكابة بالموحدين ومنافسة لهم (٣) ، أن تعمل على اجتذاب أكبر عدد من الأندلسيين ، وخاصة العلماء والأدباء ، وأن تحلهم بأحسن مكان ، وأن تموضهم ما فقدوه في بلادهم ، لأنها كانت تعلم ما يمكن أن يحدث هؤلاء العلماء والأدباء من آثار إيجابية على الدولة . فقد كانت النهاية الاستفادة من طاقات هؤلاء العلماء والأدباء ومنافسة من خرجوا عليها وهم الموحدون .

(١) أنظر : نفح الطيب ٤ / ٤٦٠ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ٣ / ٦٠٣ .

وقد اشعرنا إلى أن ابن الأبار كان قد نزل بجاية أولا ثم توجه إلى تونس .

(٣) أنظر : المصدر نفسه ٦ / ٦٢٧ .

إذا ، فقد اتفق الهدف ، فتونس ترى الخير في تلك الزمرة المهاجرة ، التي كان ابن الأبار عظماء بارزا من أعلامها ، وابن الأبار يرى أن الإمارة الحفصية خير ما يمكن أن يلتجأ إليه . ومن هنا ، فقد أحلت الدولة الحفصية بعض أعلام الأندلس ، محلا يليق بمقامهم ، أمثال : ابن الأبار ، وصديقيه حازم القرطاجني وابن عميرة وغيرهم . ووجدنا في المقابل ، هؤلاء الأعلام يخلصون للدولة ولا يضمنون عليها بشي ، يستطيعون تقديمه . ولقد كان الحب والإعجاب متبادلا بين الجهتين ، لولا وجود بعض القلوب الحاقدة الحاسدة التي كانت تعمل دأبة على تنفير القلوب والكيد لهؤلاء المهاجرين .

وهل ابن الأبار في البلاط الحفصي مثليا العمل نفسه ، الذي كان قد اعتاد عليه في بلده ، وهو كتابة الإنشاء والملاحة السلطانية ، التي توضع على المكاتبات السلطانية ، وترفع إلى السلطان ، ليضع عليها خاتمه . وكان هذا المنصب من المناصب الرفيعة في الأندلس وأفريقية ، وهو لا يسند إلا لكتاب من كبراء الدولة ، وذوي الرأي والمكانة منهم ، ويكون له اعتبار الوزراء (١) ومعنى هذا أن ابن الأبار قد أصبح رجلا بارزا من رجال الدولة ، يطلع على خفاياها ودقائق أمورها . ولقد كان ابن الأبار أهلا لهذا المنصب ، إذ سبق وأن قضى معظم حياته بالعمل فيه عند سلاطين بلده ، وكان الأمير الحفصي مطمئنا إلى قدرته وكفائه . ولقد حقق ابن الأبار بهذا المنصب ما يتفق ورغباته وطموحه .

(١) راجع ص ١١١ من هذه الدراسة .

ولكن هل اكتفى ابن الأبار بمجرد كونه عالما كاتباً في البلاط الحفصي ، أم عطل على تسخير كل طاقاته الملمية والأدبية في سبيل أولئك الذين أكرموا وفادته وأحلوه في أحسن مكان وهو المقرب اللاجئ ؟

إن الناظر في آثار ابن الأبار ، يلحظ أن الرجل لم يبخل على أمراء الدولة الحفصية بشيء يستطيعه ، وأنه قد سخر كل طاقاته الملمية والأدبية في سبيل الحفصيين ودولتهم ، فقد قال فيهم شعراً كثيراً ، ولم يقتصر وفاء ابن الأبار على أشعار المدح فقط ، بل نجده يؤلف كتاباً من خيرة كتبه في تمجيد شاعرية أبي زكريا وابنه أبي يحيى ، وهو كتاب "الحلة السيرة" ، تدليلاً على أن قول الشعر من خصال كبار الخلفاء والسلاطين (١) .

وقد أشرنا عند حديثنا عن الحياة الأدبية في تونس ، إلى العوامل التي أدت إلى كثرة شعر المدح في البلاط الحفصي ، والعوامل تلك هي نفسها التي حدثت بابن الأبار ، إلى استغلال موهبته الشعرية التي ظهرت منذ سني حياته الأولى .

فابن الأبار لم يكف بكونه عالماً . يعود إليه الأمير الحفصي ، إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لفت أو معنى ليجلّه (٢) ، ولم يكف أيضاً بالكتابة ووضع العلامة السلطانية على المكاتبات ، بل إن الظروف التي أحاطت به فسي البلاط الحفصي ، جعلته يستغل موهبته الشعرية ، ويحسن استخدامها ، ليصبح شاعراً بارزاً من شعراء البلاط الحفصي . وقد كان استخدام ابن الأبار

(١) انظر: حديثنا عن كتاب الحلة السيرة في هذه الدراسة .

(٢) انظر: نفح الطيب ٢/ ٥٩٢ .

لموهبته الشعرية منذ أول لقاء بالأمر الحفصي ، فقد ما جاءه مسترخيا
مادحا ، كذلك فإن أول ما قاله للمستنصر عند قدومه إلى تونس . كان شعرا ،
إن أنشد بين يديه (١) :

بشرأي بآشرت الهدى والنورا في قصدي المستنصر المنصورا
وإذا أمير المؤمنين لقيته لم ألق إلا نصرة وسُـرورا

وقد سبقت إشارتنا إلى أبيات أبي زكريا ، التي قالها في الموازنة
بين أربع قصائد رفعت إليه في مدحه وهو في بستان أبي فهر ، وأشار فيها
إلى فضل ابن الأبار على الإمارة الحفصية فقال : " بأدابه تزهو الإمارة والمجد " .
وشرح في نهاية أبياته بأن هؤلاء الشعراء ، هم علماء الناس وشعراء الطوك ،
لا استغناء عنهم (٢) .

إن ابن الأبار الشاعر في البلاط الحفصي ، لم يقل عن ابن الأبار
المعالم أو الكاتب . وقد أحب ابن الأبار الإمارة الحفصية التي كان يرى فيها
القوة والمنة والاستقامة ، بحيث تستطيع حماية وإعادة بلده ، في وقت ضعفت
فيه الخلافة الإسلامية في المشرق والمغرب ، وأحب الأمير أبا زكريا ، وأعجب به ،
لأنه كان يرى أنه قد تجملت فيه كل الصفات النبيلة الحميدة ، من قوة وكرم
وتقوى . . . ، ما جعل لسانه يفيض بقصائد المدح . وقد بلغت أشعاره في
البلاط الحفصي (٣٦٢٨) بيتا ، منها (٣٤٨٧) بيتا في المدح ، موزعة
على تسعين قصيدة ومقطوعة ، و (١٤١) بيتا في رثائهم ، موزعة على أربع قصائد .
وهي نسبة تشكل ثلثي شعره تقريبا ، كما أنها تشكل ديوانا كبيرا .

(١) انظر : عنوان الدراية ص ٣١١ .

(٢) راجع الأبيات في الحياة الأدبية في تونس في هذه الدراسة .

ويدور في ذهن ونحن نتحدث عن شعره في البلاط الحفصي ، التساؤل
الثاني : هل عرف ابن الأبار كشاعر بلاط في الأندلس ، وخاصة أنه على عـنـد
أمرائه بلده منذ بداية حياته ؟ وهل توافرت الظروف هناك ليكون كذلك ؟

إنَّ ما وصلنا من شعره في ديوانه أو المصادر المختلفة ، ينفي أن يكون
ابن الأبار ، قد عرف كشاعر بلاط في بلده بلنسية ، وأنَّ وما وصلنا من مدحه فـنـسـي
غير الحفصيين ، لا يكاد يذكر لقلته (١) ، ومع أنَّ الباحث لا يستطيع الجزم بأنَّ
ابن الأبار لم يخلف شعرا في سلاطين بلده ، يحكِّه من نعتة بصفة شاعر بلاط ،
إلاَّ أنَّه يبدو أنَّ أمرائه بلده ، وخاصة زبَّان بن مردنيش ، لم يكن يعمل على تشجيع
الشعراء أو الإغداق عليهم . ربما بسبب ظروف الحرب وعدم الاستقرار التي كانت
تميشها إمارة بلنسية . وأنَّ اهتمامه كان منصبا على الجند والإعداد للوقوف
أمام الأعداء ، مما جعل بلاطه يخلو من الندوات والمجالس الأدبية ، التي يكثُر
قول الشعر فيها . وقد ذكر ابن الأبار نفسه ، حادثة وقعت بمحضرة في قصر
الإمارة بلنسية ، ونقلها عنه ابن سميد ، ما يؤكِّد القول السابق ، وهي أنَّ زبَّان
احتجم صبيحة بعض الجُمع ، فأحسن إلى الحجام ، ورفع إليه ابن عميرة شعرا
يعدده فيه ، فلم يجزه ، فكتب إليه إرتجالا (٢) :

أرى من جاء بالموسى مواسى وراحة من أراح المدح صَفَرا
فأنجَحَ سَميُّ ذَا إِذْ قَصَّ شَمَرا وأخفقَ سَميُّ ذَا إِذْ قَصَّ شَمَرا

(١) سنتحدث عن مدحه في غير الحفصيين في أغراض شعره .

(٢) انظر الحادثة والأبيات في : المغرب ٢ / ٣٦٣ - ٣٦٤ ، واختصار

القدح ص ٤٢ .

وله نفسه في الأمير زيان (١) :

هُوَ مَا عَلِمَ مِنَ الْأَمِيرِ قَطَا الَّذِي تَزْدَادُ مِنْهُ وَفِيهِ لَا تَرْتَابُ
لَا تَتَّقِي الْأَجْنَادُ فِي أَيَّامِهِ فَقَرَأُ ، وَلَا يَرْجُو الْفَنَى الْكُتَابُ

فهذه الأبيات تشير إلى عدم اهتمام زيان بالأدب وأهله ، مما يجعلنا نذهب إلى أنه ربما اقتصر على ابن الأبار في هذه الفترة على الأعمال السياسية بسبب ظروف بلده ، وأنه كان يقول الشعر في أمراء بلده في المناسبات المهمة ، كما سنبين عند مدحه لابي زيد الموحدي ، عند تمكنه من قلعه بيران . وما أن خرج من بلده واتصل بأمراء بني حفص الذين وفروا له كل السبل للقول والإبداع فيه ، حتى أخذ به سر قصائد المدح ويرقمها للأمير في مختلف المناسبات . وكان بسلط بني حفص ، فسح المجال أمام ابن الأبار ، لأن يستخدم موهبته الشعرية ، ويستغلها الاستغلال الحقيقي ، فكان منه ذلك السيل من القصائد .

ومعنى هذا أن ابن الأبار ، لم يعرف كشاعر بلاط أو شاعر مدح إلا بمدح حلطه في البلاط الحفصي ، وأنه يعتبر من الشعراء الذين قصروا مدحهم على أناس يمينهم ، وهذا نادر في الشعر العربي ، إذ أن معظم المادحين العرب كانوا ينتقلون من شخص إلى آخر في مدحهم . أما ابن الأبار ، فقد قصر مدحه تقريبا على بني حفص ، فقال فيهم وأكثر ، حتى إنه لم يترك مناسبة عامة أو خاصة إلا ونظم فيها شعرا . فقد نظم الأشعار في تهنئتهم بفتحاتهم ، بمدح عودتهم منتصرين ، وفي مبايعة الوفود لهم ، مشيدا ومخلدا ، وفي الأعيان - عيد الفطر - والأضحي - ، وفي عقد الولاية لابني أبي زكريا - أبي يحيى المستنصر - ، وتوقف عند أهم أثر من آثارهم ، وهو بستان أبي فهر ، وقال القصائد المكية في رثائهم إخلاصا ووقفا ، ووقع مجموعة قصائد احتذار لهم عندما حصلت جفوة بينه وبين أبي زكريا .

(١) الوافي بالوفيات : ١٣٤/٧ .

ويلحظ الناظر في أشعاره في البلاط الحفصي ، أن معظمها كانت في أبي زكريا ، أما شعره في ولديه ، فهو قليل جداً إذا ما قورن بما قيل في والدهما . ففي ولده أبي يحيى لم نجد له سوى سبع قصائد مبعثرة في الديوان والحلّة السّيرا^(١) ، وهناك قصيدة خلط فيها بينه وبين أخيه المستنصر^(٢) أما المستنصر فلم نجد له فيه سوى بعض المقطوعات ، وبخاصة تلك التي رفعها إليه عندما طلب إليه أن يكون شفيعة إلى والده^(٣) وأنا كان ابن الأبار لم يفرد في مدحهما القصائد الكثيرة ، فإنه كثيراً ما ذكرهما ، وذكر أخيهما أيضاً أبا بكر وإبراهيم في قصائد مدحه لوالدهم ، ذلك لأنهم أصل في الامارة الحفصية وخلفاء والدهم فيما بعد .

يقول مادحا لهم جميعاً^(٤) :

تَبَارَكَ مَنْ أَحْيَا الدِّينَانَ والدُّنَا	لدولة يحيى المرتضى وهدي الخلقا
وَأَطْلَعَ مَنْ أَبْنَاءَهُ زَهْرَ أَنْجَمٍ	ينافس في أنوارها المغرب الشرقا
تلا زكرياء الأمير محمداً	هرز إبراهيم بمدحهما سبقا
وجاء أبو بكر أخيراً بأول	من الفضل يستولي على شأوهم لحقا ^(٥)

(١) انظر هذه القصائد في مخطوطة الديوان : ص ٢١٦ - ٢٢٢ ، ٧٧ - ٨٧ ،

١٦ - ١٨ ، ٣٨ - ٤٠ ، والحلّة السّيرا : ص ٢٨٣ .

(٢) انظر القصيدة في : مخطوطة الديوان ص ٧٥ - ٧٧ .

(٣) سنشير إلى بعضها عند حديثنا عن حياة ابن الأبار في ظل الحفصيين .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٩٣ .

(٥) الشأو : الشوط . وتشير كتب التاريخ أن أولاد أبي زكريا خمسة ، وقد

أشار الشاعر إلى أربعة وأغفل أبا حفص عمر . انظر الحلل السندسية

ص ١٠٢٦ .

وأشارته لأبي بكر وإبراهيم قليلة في شمره ، ومعظم إشاراتهما لأخويهما أبي يحيى والمستنصر ، ذلك لأن ولاية العهد قد أسندت إلى أبي يحيى أولاً ثم إلى المستنصر بعد موت أخيه . ويدوانهما كانا يشاركان والدهما أعباء الخلافة ، وبشكل خاص أبو يحيى الذي عقد له والده الولاية على بجاية (١) .

إن كثرة قصائده في أبي زكريا ، وقلتها في ولده أبي يحيى ، ليس غريباً ومن الممكن قبله . فأبو زكريا هو الخليفة ، ولده ليس غير تابع له . ولكن الذي يلفت النظر قلة أشعاره في المستنصر لأنه أصبح الخليفة بعد موت والده سنة ٦٤٧ هـ . فكان على ابن الأبار أن يكتبه من مدحه ، وبخاصة أنه كان من أكثر المقربين إليه . ولكن يبدو أن الجفوة التي حصلت بينهما فأبعدت ابن الأبار إلى بجاية لمدة سبع سنوات ، كانت السبب في قلة أشعاره فيه . ومع ذلك فالباحث يتساءل : ألم يقل ابن الأبار شيئاً في مدح المستنصر من سنة ٦٤٧ هـ - ٦٥٠ هـ ، وكذلك بعد عودته من بجاية سنة ٦٥٧ هـ . بعد عفو المستنصر عنه ؟ وهل يُعقل أن تكون موهبته الشعرية قد جفت بعد موت أبي زكريا ؟ ثم لماذا قام المستنصر باستدعائه من بجاية ؟ هل بسبب قصائد كان يرفقها ابن الأبار إليه بين الحين والآخر ، يستمطفه فيها ويؤكد له حبه وإخلاصه ؟ أم أن أعداء ابن الأبار أقنعوا المستنصر باستدعائه ، ليدبروا له المكيدة النهائية التي ستودي بحياته وتريحهم منه إلى الأبد ؟

(١) ذكر أيضاً صاحب "الروض المعطار" أن أبا زكريا قد صحب ولده المستنصر عندما خرج لملاقاة السعيد الموحدي سنة ٦٤٧ هـ . الروض المعطار : ص ١١٥ .

إنّ قلّة المادّة الشمرية التي وصلتنا في مدح المستنصر وأبي
يحيى أيضاً ، لتؤكد - ما سبق أن ذكرناه - أنّ أشرار ابن الأبار لم تصلنا
كاملة ، وأن جزءاً منها لا يزال ضائعاً .

وقد كان لكثرة أشراره في بلاطهم ، ما جعلنا نخصهم بفصل
مستقل ، نحاول فيه استجلاء تلك الظاهرة المتميزة في شعره ، التي هي
صورة للحياة الأدبية في البلاط الحفصي . وقد قصصنا الحديث عن شعره في
بلاطهم إلى قسمين : قسم تناولنا فيه أشرار ابن الأبار التي صور فيها
حياته في البلاط الحفصي . والقسم الآخر تحدثنا فيه عن موضوعات شعره
في البلاط الحفصي .

أولاً : حياة ابن الأبار في ظلهم من خلال شعره

من طبيعة حياتنا التقلب وعدم الثبات ، فالحياة لا تسير على وتيرة واحدة ، بل تضطرب في أحيان ، وتستقر في أحيان أخرى ، فمن سمد في يومه ، فقد يشقى في غده ، والعكس صحيح . ولا يستطيع الإنسان أن يعيش بعيداً عما يواجهه في حياته ، من غنى وفقر ، وفرح وحزن ، ومحبة وكراهة ، واستقرار وتشرد ، وألم وراحة ، فكل هذه تترك آثاراً واضحة في النفس ، بعضها يسـزل ومعضها يتجمع ويتراكم ، لتظل آثاره مؤثرة في سلوك الفرد طوال حياته . ويختلف التعبير عن المظاهر السابقة من إنسان لآخر ، وطما كان الفنان من أشد الناس إحساساً وتأثراً ، فإنه سيكون أنجح من ينبئك عن إحساساته وخلجات نفسه بألفاظه أو لوحاته أو تماثيله . . .

وإذا كان الأمر كذلك ، فهل سارت حياة شاعرنا في البلاط الحفصي على وتيرة واحدة ؟ وهل صوّرها في شعره بكلّ مراحلها ؟

لم تسر حياة ابن الأبار في البلاط الحفصي سيرا ثابتاً ، بل مرّت بمراحل متباينة . وقد صوّر الشاعر حياته زمن أبي زكريا بكلّ مراحلها تصويراً دقيقاً . بمعضها أفرد له القصائد والمقطوعات ، ومعضها مزجها بقصائد مدحيه التي كان يرفقها للأصير الحفصي . والناظر في شعر ابن الأبار في هذه القضية ، يستطيع تقسيم حياته في ظلّ أبي زكريا إلى ثلاث مراحل :

- ١ - مرحلة السّعادة والإعجاب المتبادل ، فيما بينهما في بداية قدوم ابن الأبار .
- ٢ - مرحلة الشكوى والمماناة والألم ، بعد إقصاء الأمير له ، إثر خلاف حصل بينهما ، وط تخلفها من قصائد اعتذار .
- ٣ - المرحلة الأخيرة ، وهي قبول الشفاعة وعودة الحياة إلى ما كانت عليه .

لقد قدم ابن الأبار إلى تونس ، في وقت اشتد فيه الحال على
الأندلسيين ، بمد ضياع وطنهم ومفادرتهم له . وقد كانوا في تلك الفترة
بأس الحاجة إلى المواساة والوقوف إلى جانبهم . وحل ابن الأبار فسي
البلاط الحفصي ، فاستقبل وحسنت وفادته ، وأصبح من المقربين إلى السلطان ،
كاتبه وشاعر دولته وعالما بارزا في بلاطه ، وأحب كل منهما الآخر ، فأكثر ابن الأبار
من مدحه لمن أحب ، وأكثر الأمير الحفصي من عطائه لمدحه . وهذا انتقل
إلى الأبار من حياة التشرد والشقاء إلى حياة الاستقرار والسعادة .

وقد كان لذلك عظيم الأثر في نفس الشاعر ، فنقله لنا في قصائد
مدحه ، مصورا بالكشر والحمد للأيدي الحفصية التي أكثرت من الإنعام
عليه . ويصور ابن الأبار بداية انتقاله إلى البلاط الحفصي ، نبينا المنزلة
التي احتلها في البلاط بمد تشرده وشقائه وخوفه ، بقوله (١) :

إلى الغاية القصوى سعت بي أسعدي وحضرة يحيى المرتضى الغاية القصوى
ويقول أيضا (٢) :

حبا وحعى في عسرة ومخافة
فها أنا ذا في ظله واحترامه
ويقول مصورا حياته عندهم وكأني في الجنة (٣) :

فَسُوِّغْتُ فِيهَا السَّلْمَ غَوَارِفا
وَوُوتْتُ مِنْهَا مَنَزلًا جَنَّةَ المَأْوَى
ولقد كان لتلك الرعاية ، ما جعله يحبهم ويألف في ذلك ويكثر وهجو
يصريح بذلك الحب فيقول (٤) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ٢١٣ .

(٢) الصدر نفسه : ص ١٣٠ .

(٣) الصدر نفسه ص ٢١٣ .

(٤) الصدر نفسه ص ١٤٨ .

يقولون ما أضناه؟ قلت: أحبهم هوى الفرة الفرا صيرني كهنس
ويقول أيضا (١) :

وَصِدْقُ حُبِّي لَا سُلْوانَ يَكْذِبُهُ فِيهِم ، وَإِنْ أَتَيْعَ الْهَجْرَانُ هَجْرَانَا
ويبالغ في حبهم ، فيجمله كافيا له في حياته ومدحه ، فيقول (٢) :

فَبَشْرَى لِمَنْ لَمْ يَتَّخِذْ غَيْرَ حُبِّهِمْ عَتَاداً وَزَادَ اللَّذَاتِ وَالْمَحِيصَا

هذه هي المرحلة الأولى من حياته في البلاط الحفصي ، وإنَّ الشمر الذي
يصورها لكثير في قصائد مدحه ، ولكنه يدور حول المعاني السابقة . وقد استمرت
المرحلة السابقة منذ قدم إلى تونس وحتى أواخر سنة ١٤٥ هـ (٣) .

ولكن هل تستمر حياة السّعادة ، أم أنَّ قلوب الحاسدين التي
تتطوّر ، حقدًا ، لا تنفكّ تملط على تنفير القلوب وإيمادها ؟ لقد نبهنا إلى
أنَّ قلوب بعض التونسيين ، كانت تملط ، حقدًا على الأندلسيين ، لأنهم أدركوا
مزاياهم لهم على المناصب والمراكز ، فأخذوا يكيدون لهم ويحاوّلون إيمادهم (٤)
وكان من الذين كُربهم ، صاحبنا ابن الأبار ، إذ حدث خلاف بينه وبين أبي
زكريا ، أدّى إلى اقصائه وإيماده . وقد كان لهذه الحادثة أعق الأثر فسي
نفس الشاعر ، فصورها في قصائد مدحه وفي مقطوعات مفردة ، ومزجها بإحساسه ،
شاكيا متألما ومضيفا عليها نفخة حزينة تلين القلب وتثير الشفقة . والمطسّف
عليه . وهي تدلّ على مدى حبه ومثانة علاقته بالأمر .

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٥٤ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٢١ .

(٣) انظر : مقدمة درر السمط ص (ج) .

(٤) راجع حديثنا عن الحياة الاجتماعية في تونس في هذه الدراسة .

فمن معاناته هذه الأبيات التي صوّر فيها حاله وقد أصيب بصرف
دائم لا شفاء منه ، وأصبح عاجزا عن الصبر والتحمل ، يقول (١) :

يا للزّمانِ أَطْنِي بِزَمانِهِ (٢)
أَصْحَبَتْ بِالْإِخْلادِ فِيهَا أَقْصَعُ
لا بُرّةَ مِنْها يُسْتَفادُ بِحِيلَةٍ
فإلى الرّضوى بِالْحُكْمِ فِيها المَرْجِعُ
مَنْ أَيْنَ لي صَبْرٌ طوى مَضْغِلَ النّوى
سُدَّتْ إلى الصّبرِ الطّريقَ المَهِيعُ (٣)

ويضيق الحال بالشاعر ، وتشتاوه الهواجس ، ويميد ذاكرته إلى تاريخ حياته ،
فتظهر له الصورة قائمة ، لاسعادة فيها ، ضياع وتشتت وصائب ، فيصاب بالقنوط
والياس ، ويصبح محاولا الهروب من الحياة . . . الهروب الذي قد يريجه من
أحزانه وآلامه . . . إنه الموت الذي يُتمنى كلما أحسّت النفس بالضعف وعدم
القدرة على مواصلة الصير . . . إنه شموخ طبيعي ، لا غرابة فيه في النفس
البشرية عامة ، فكيف الحال بنفس شاعر محب مخلص ؟ إنه يرفض الحياة التي
عزّ فيها ما يقيم أوده ، ولتجنّ إلى الله ، لعلّه يكون خير معين له على
مصائبه ، يقول (٤) :

كَمْ تَمَنَيْتُ الرّدى في عيشَةٍ
طَلَباً صارَ لَهَا صُلْبُ الرّدى
لا أودُّ المُرَّ القائِمَ إذْ
عزّ فيه ما يُقيِمُ الأودا
حسبي الله لَشَتَى نُسُوبُ
ليس يَحْصِيها حِسابٌ أبدا
قد خَلَعْتُ الصّبرَ في أَثْنافِها
فَرطَ جَهدٍ وَبَسْتُ الكَمادَ
هذه ما أَعاني كَبِيدِي
تَتَلَطّى وتَشْطّى كَبِيدِي (٥)

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) الزمان : المرض الدائم .

(٣) المهييع من الطرق : البين .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ٦٥ .

(٥) الكبد : المشقة والمعاناة .

إِنَّ النَّاسَ يَسْمُدُونَ بِمَلُومِهِمْ وَأَدَابِهِمْ ، فَلَمَّا ذَا كُتِبَ الشَّقَاءُ عَلَى
الشَّاعِرِ بِأَدَابِهِ ؟ وَلَمَّا ذَا أَبْعَدَ مَعَهُ أَنَّهُ وَفَى مُخْلِصٌ ؟ إِنَّهُ الْحَظُّ الَّذِي ابْتِمْنَسَدَ
عِنْدَ فَأَشَقَى حَيَاتِهِ . وَهَذِهِ صُورَةٌ أُخْرَى مِنْ مَعَانَاةِ النَّفْسِ ، وَلَطَجًا آخَرَ عِنْدَ
مُوَاجَهَةِ الْحَصَائِبِ يَقُولُ (١) :

رَأَيْتِي مَرَدَ وَدَ الشَّرَائِعِ كُلِّهَا تَقَرَّبْتُ بِالْإِخْلَاصِ أَقْصَى وَأُبْعَدُ
نَصِيحِي مِنَ الْآدَابِ حَرَفْتُهَا الَّتِي شَقِيتُ بِهَا جَارًا لِمَنْ بَاتَ يَسْمُدُ
وَالْحَظُّ لَحَظٌ كُلُّهُ وَفِي خَاسِئًا كَأَنِّي وَإِيَّاهُ شَمَاعٌ وَأَرْمَدُ

وَالنَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُتَقَلِّبَةٌ ، تَتَوَرَّعُ سَاعَةً وَتَهْدَأُ أُخْرَى ، تَقْنَطُ الْيَوْمَ ، وَتُسْتَبْشِرُ
غَدًا ، تَهْزِمُ لَحْظَةً وَتَتَمَسَّكُ أُخْرَى . وَهَذَا هُوَ حَالُ الشَّاعِرِ ، فَبَعْدَ مَعَانَاةِ . أَعَادَ
فِيهَا مَا أَصَابَهُ لَحْظَةُ السَّيِّئَةِ ، وَأُخْرَى رَأَى فِيهَا الصُّورَةَ الْقَاتِمَةَ مِنْ حَيَاتِهِ ، فَحَاوَلَ
الْهَرُوبَ ، نَجَدَهُ يَتَمَسَّكُ فَيُشِيرُ النَّفْسَ وَيَحْنِيهَا ، بِأَنَّهَا إِنْ عَادَتْ لَا سَتَمُطِّافُ الْأَمِيرِ .
فَلَنْ يَرُدَّهَا . إِنَّهَا إِحْسَاسَاتٌ نَقَلَهَا الشَّاعِرُ كَمَا أَحْسَسَهَا ، مِمَّا أَضْفَى عَلَيْهَا الصَّدَقُ
وَالتَّأَثُّرُ وَالْوَاقِعِيَّةُ ، يَقُولُ (٢) :

أَنَا جَارُ الْبَحْرِ إِلَّا أَنَّ لِي مِنْهُ فِي حَالِ الْوُرُودِ النَّمْدَا (٣)
وَعَلَى ذَلِكَ يَا نَفْسِي فَكَلَا تَبْأَسِي ، إِنْ مَعَ الْيَوْمِ غَمْدَا
فِي الْإِمَامِ الْمُرْتَضَى مِمَّا مَضَى هَلَقَ يُطْلِكُ عَيْشًا رَغْبَا
وَمَتَى عُدْتُ إِلَى اسْتِمطَافِهِ تَجْدِي الْمَوَدَّ إِلَيْهِ أَحْمَدَا
كَيْفَ لَا تُمْنَى أَيْادِيهِ بِنَسَا وَهُوَ أَعْلَى النَّاسِ عَيْنًا وَيَسْدَا

(١) إِيْتَابُ الْكِتَابِ : ص ٢٦٢ .

(٢) مَخْطُوطَةُ الدِّيَّوَانِ : ص ٦٥ .

(٣) الثَّمَدُ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَدَدٌ .

وإذا كان ابن الأبار ، قد صور بعض حالات ضعفه ، فإننا نجد
 في أحيان أخرى ، يحاول مواساة نفسه ، والنهوض من كبوته ، يقول (١) :
 يَمِيرُنِي قَوْمي بِجَفْوَةِ سُلْطَانِي وَتَشْفِيهِمْ شَكْوَى بَنِيهِ أَوْطَانِي
 يَرَوْنَ خُمُولاً عَظْلَتِي لِلْعُوقَفِي وَتَكْ طَلَى لَمَعِ النَّبَاهَةِ بِرَهَائِي
 وَقَالُوا : خُفُوفٌ . قُلْتُ لَا بَلَّ رَجَاحَةٌ
 كَفَتْنِي إِلْقَاءُ بَكْفِي لَا دَعَانِي
 إِذَا عَهْدُ وَلِيٍّ لِلنَّزَاهَةِ رَاكِبًا
 فَضْمَبُ الْأَسَى سَهْلٌ وَإِنْ هَذَا أُرْكَانِي

وهذه الأبيات تشير إلى حالة الشاعر ، بمد أن أوقفه السلطان
 عن الكتابة وأمره لزوم بيته ، وما تعرض له من ضائقات من حساده . كما
 تبين صورة مؤلمة نقلها الشاعر لأبناء جلدته ، الذين ما تعرض أصحابهم حتى شدَّ
 كلَّ منهم ساعده لتوجيه التهم إليه ، فرحين بما أصابه . وهي تشير أيضا إلى
 أن البلاط الحفصي لم يشهد منافسة بين الأندلسيين والتونسيين فقط ، بل
 شهد أيضا صراعا بين الأندلسيين أنفسهم (٢) . ويبدو الشاعر في الأبيات
 ثابتا قويا ، وأنه أهل للصائب - " فصعب الأسى سهل وإن هدَّ أركانِي " - وأن
 تصرفه لم يكن عن خفة ، بل غاية في العقلانية ، لأنه أبعد الذلَّ عن
 نفسه . . . إنه نص شمري لم تألفه من الأبار تجاه الدولة الحفصية وأميرها
 المحبَّب إلى نفسه . . . إنها لحظة شموز بالمرَّة والإباء والثبات ، جعلته

(١) أزهار الرياض : ٣ / ٢٢٢ .

(٢) لقد أشار ابن الطَّوَّاح في كتابه : " سبك المقال " ، في أثناء حديثه عن ابن
 الأبار ، إلى موقف ابن عميرة من صاحبه في أثناء محنته يقول : " وكان شيخه
 القاضي الأديب الأهل المتفنن أبو المطرف أحمد بن عميرة ممن كان يمين
 طيه أيام محنته ، وقد أظهر بخطه قبائح كانت سماء زفافه " انظر : أبو
 المطرف أحمد بن عميرة : حياته وآثاره ص ١٥٥ ، نقلا عن سبك المقال ،
 مخطوط الخزنة الملكية بالرباط ص ٩٧ .

يملن في بيته الذي تمثل فيه (١) ، عن سخطه لقرار الأمير ، وتفضيله المشي بمزة في جهنم على المشي حياة الذل في الجنة .

ولكن لماذا فضل ابن الأبار البقاء في البلاط الحفصي ذليلاً ولم يرحل إلى لظى بكبرياء وعزته ؟ ألم يكن بمقدوره ترك السلطان عزيزاً ، بسل القيام بهجائه كما كان يفعل الكثير من الأدباء ؟

يبدو أن الحالة التي أصابت ابن الأبار عندما طلب إليه السلطان ترك العلامة السلطانية ، كانت حالة نفسية عابرة وثأراً لكبرياءه وتفضيل غيره عليه . ولو كان يؤمن حقيقة بما قال ، لما بقي لحظة في بلاط السلطان . ومن المرجح أن الظروف التي أحاطت به في تونس ، كانت تفرض عليه ، بذل قصارى جهده للمودة إلى ما كان عليه في البلاط الحفصي ، فهواً يستطيع الترحيل إلى المغرب لمواقفه الواضحة منها (٢) ، كما أنه لا يستطيع المشي بميدا عن الحكم والساسة ، لأنه عرف منذ أن كان في وطنه بالأبهة والرياسة والجلال ، وكان المشي في ظلال الحكم ، كان أمراً ملازماً له ، يجري فيه مجرى الدم ، فلا يستطيع الابتعاد عن أجوائه وأروقته . وإذا كانت جفوة بسيطة بينه وبين السلطان ، قد أثارت من حوله زمرة من الاتهامات والانتقادات من أقرب الناس إليه ، فكيف الحال لو ثبت على موقفه حقيقة وترك البلاط ؟

لقد وجد ابن الأبار بعد زوال لحظة الانفعال ، أن خير السبيل التوجه للأمير أبي زكريا ، ليفقر له زلته ، ويميده إلى ما كان عليه في البلاط الحفصي . وقد بذل كل ما في وسعه خلال العام الذي قضاه بميدا عن الأمير

(١) راجع البيت ص ١٠٤ من هذه الدراسة .

(٢) سنشير إلى موقف ابن الأبار من الخلافة الموحدية عند الحديث عن طرده .

المقصي لا رضائه ونيل عفوه . فالتجأ لوليّ العهد أبي عبد الله المستنصر لعله
يتوسّط له عند والده ، وقد صرح ابن الأبار بذلك في شعره فذكر شفيعه
بقوله (١) :

تَشَفَّعْتُ فِيهَا لِلْإِمَامِ بِنَجْلِهِ وَنَعِمَ شَفِيعُ الْمَذْنِبِينَ مُحَمَّدٌ

بل إنه يطلب إليه مباشرة أن يكون شفيعه لوالده ، فيقول (٢) :

كُنْ لِي شَفِيعاً إِلَى إِمَامٍ لَيْسَ عَلَى فَضْلِهِ مَزِيدٌ

ولم يعتمد على شفاعته المستنصر فقط ، بل ألف كتاباً - كما ذكرنا - سماه :

٣ "إِغْتَابُ الْكِتَابِ" ، اعذر فيه للسلطان عما بدر منه واستشفع بطبي عهده أبي

يحيى أيضاً ، هذا بالإضافة إلى قصائد الاعتذار التي كان يرفقها للسلطان ،

وقصائد المدح المزوجة بطلب العفو والصفح (٣) . وتنازل قصائد اعتذاره ،

بالقصر نوعاً ما ، بمكس قصائد مدحه ، مع إشارته فيها لما أصابه بعد اهتمامه

عن السلطان ، ليرقّ الأمير ويغفوه عنه . وهي لا تختلف في معانيها عما هو

مألوف في قصائد الاعتذار ، فالشاعر يمتزج بذنبه منذ البداية ، ثم يملن عن

تمتته وندمه على ما بدر منه ، لأنّ شروط التوبة الصادقة ، الندم على ما كان ،

يقول (٤) :-
مَوْلَايَ دَامَتْ لَكَ السُّمُودُ أَخْطَأْتُ أَخْطَأْتُ لَا أَعُودُ

(١) إغتاب الكتاب : ص ٢٦٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٥٧ .

(٣) انظر بعض هذه القصائد في مخطوطة الديوان : ص ١١٦ ، ١٧٣ ،

١٧٦ - ١٧٨ .

(٤) إغتاب الكتاب : ص ٢٦٧ .

ويقول مشيراً إلى تهمة وندمه (١) :

أَذْنَبَ لَكُنْ تَابَ مِنْ فُورِهِ وفي قبولِ التَّوْبِ رَفْعُ الْجُنَاحِ
ويقول أيضاً (٢) :

نَدَمِي عَلَى مَا نَدَمَنِي دَائِمٌ وَهَلَامَةُ الْأَوَابِ أَنْ يَشْتَتِمُوا

وكمادة الممتدّرين ، فإنه بعد أن اعترف بذنبه ، لجأ إلى الحديث عن الوشاة
والحساد ، فرأى أن الحساد هم الذين أثاروا السلطان ونقضوا الحديث
بغير وجهه الذي قيل فيه ، محاولة منهم ليقاع الفتنة ، يقول (٣) :

أَقْصَاهُ عَنْكَ تَرْكُ بَخِيطِيَّةٍ خَالَ الصَّوَابَ خِلَالَهَا وَتَوَمَّمَا
وَلَقَدْ تَحَفَظَ فِي الْمَقَالَةِ جُهْدَهُ لَكِنَّهُ نَعِيَ الْحَدِيثَ وَتَمَنَّمَا

والممتدّر وخاصة للطوك ، يكثر من تصوير نفسه بالعبودية وهي قضية
موجودة في معظم قصائد الاعتذار منذ العصر الجاهلي (٤) ، وذلك لشعور
الطوك بالملو والمظمة • فتصوير الممتدّر لنفسه بالعبد ، قد يرضي كبرياءهم
وعظمتهم ، يقول (٥) :

عَادَتُهُ الْمَقْوُ وَالْمَوَالِي تَمَقُّوْا إِذَا أَخْطَأَ الْمَبِيْدُ

(١) إعتاب الكتاب ، ص ٢٥٨ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٥٦ .

(٣) المكان نفسه .

(٤) أنظر في ذلك إحدى قصائد النابغة الذبياني التي يمتدّر فيها للنعمان

في : ديوانه ص ٣٨ .

(٥) إعتاب الكتاب : ص ٢٥٧ .

وقد مزج ابن الأبار قصائد اعتذاره بالاستمطاف ، طالباً من الأمير أن يعيده إلى جواره ، لأنه لا يستطيع الاعتماد عنه ، ويفضل الموت في أرضهم على أن يتركهم ، يقول (١) :

إِمامَ الهدى ، عطفاً ، ورحمى ، ورقصة
فشأنُ الموالي أن يرقوا ويرحموا
ويقول أيضاً (٢) :

مَولايَ عَمدك ما لَه مِن مَمدلٍ عَن دارِ عَدلِكَ مَنذُ حَلٍّ وَغَيِّمَنا
لَو أَنَّهُ يَجِدُ الحِياةَ كَريمَةً في غيرِها لَراى الحَنيَّةَ أَكرَمَنا

وفي سنة ٦٤٦ هـ في أواخر شهر رمضان قبل العيد ، استطاع ابن الأبار أن يفوز بالصَّحِّف والمفو ، ويمود سيرته الأولى (٣) . وهنا تنتهي مرحلة المماناة وما تخللها ، وتبدأ المرحلة الأخيرة من حياته في ظل أبي زكريا ، التي كانت قصيرة ، والتي كانت فيها حياة ابن الأبار شبيهة بحياة فسي المرحلة الأولى .

وقد رفع ابن الأبار مجموعة قصائد شكر فيها الأمير ونجله محمد الذي كان شفيها له ، وفيها تبدو الفرحة والسرور والبشرى لظفره بما تمنسى وأجهد نفسه حتى ناله .

فمن قَولِهِ ما دَحا شاكِرا ، وصَبينا وَقتَ الصَّفحِ (٤) :

بُشرى بِإِسفارِ صَباحِ النَّجَاحِ عَن صَفحَةِ الصَّفحِ وَخَفَضِ الجَنَاحِ

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٢٤ .

(٢) إعتاب الكتاب : ص ٢٥٦ .

(٣) أنظر : مقدمة درر السَّمطِص (ج) .

(٤) إعتاب الكتاب : ص ٢٥٨ .

هَذَا افْتِتَاحُ الصَّوْمِ مُسْتَقْبَلًا
عَنِ اخْتِتَامِ الرِّضَى وَافْتِتَاحِ
إِنْ أَلَامَ الْهَادِي الْمُرْتَضَى
أَكْدَ بِالْمُطْفِرِ شُرُوطَ السَّهَابِ
لَيْنَ السَّجَايَا عَاطِرَاتِ كَمَا
هَزَّ الرِّيحَ حِينَ هَبَّ الرِّيحِ
وَحَسَّنَ إِسْجَاحَ (١) إِلَيْهِ النَّدَى
لِوَجْهِ الدَّهْرِ عَلَى حُلْمِهِ
لِذَا انْفِصَاحِ وَلِذَاكَ انْسِيَا
لَمْ يَكُ مِنْهُ لِلنَّفْسِ اكْسِيَا

ومن قوله في شكر المستنصر (٢) :

أَجَارَ مِنَ الْخَطْبِ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ
فَقَعْتُ بِمَا أَوْلَاهُ أَثْنِي وَأَحْمَدُ
يَوْمَ أَتَنِي بِالْبَشَارَةِ رُسُلُهُ
سَجَدْتُ وَفِي التَّبَشِيرِ لِلَّهِ يُسْجَدُ
وَأَمَلْتُ بِالْكَسْرِ الْمَزِيدِ مِنَ الرِّضَى
وَأَيَّةُ نَعْمَى كَالرِّضَى تُتَرَبَّسَدُ

وإذا كان ابن الأبار ، قد صوّر مراحل حياته زمن أبي زكرياء فسي
شمرة ، فإننا نكاد لا نجد شيئاً عن حياته زمن المستنصر ، وهي فترة - كما نعلم -
ليست قصيرة ، إذا امتدت من سنة ٦٤٧ هـ - سنة ٦٥٨ هـ .

وقد أشارت كتب التاريخ والتراجم إلى أن حياته سمعت في بدايته
عهد المستنصر (٣) ، حتى سنة ٦٥٠ هـ ، لأن الشاعر بعدها رهل إلى بجاية
وظل هناك حتى سنة ٦٥٧ هـ .

وهناك مجموعة أبيات عثرنا عليها في مدح المستنصر ، ضمن رسالة كتبها
الشاعر طارحها المستنصر ، وهي تدل على سمادة حياة الناس عامة ، ولا شك أنها
تدل على سمادة حياة الشاعر أيضاً في ظل المستنصر ، يقول (٤) :

(١) الإسجاح : الإحسان والمغفو والتكرم .

(٢) إعتاب الكتاب : ص ٢٦١ .

(٣) راجع ص ١١٣ من هذه الدراسة .

(٤) أزهار الرياض : ٢١٤/٣ .

جَمَعْتَ لِلنَّاسِ بَيْنَ الرَّيِّ وَالشَّيْبِ فَمِمَّ بِأَخْصَبِ صُطَافٍ وَمُتَبَعٍ
وَلَمْ تَدْعَ كَرَمًا إِلَّا أَتَيْتَ بِهِ تُضِيفُ مُتَدَعًا مِنْهَا لِمَنْ تَسُدُّ
لَمَّا وَلِيْتَ خَلْعَتَ الْخَيْرِ أَجْمَعِ عَلَيْهِمْ ، فَبَدَّوْا فِي أَجْطَلِ الْخَلْعِ
لِلَّهِ أَيَاكَ اسْتَوْفَتْ مَحَاسِنُهَا فَلَا فَضِيلَةَ لِلْأَعْيَادِ وَالْجُمُعِ
دَاعَتْ مَسَاعِيكَ وَالْأَقْدَارُ تَسْعُدُهَا تُطْلِي الْمَسَاجِدَ إِنْصَافًا مِنَ الْبَيْعِ

ومع أنَّ المادة الشفريَّة ، لا ستمعنا في توضيح سير حياته زمن
المستنصر ، إلاَّ أنه كما يبدو من بعض المقطوعات التي وصلتنا ، لم يكن راضيا
عن حياته في أواخرها . فقد بثَّ الشاعر فيها آلامه وشكواه ، وهو ناظم على
الزَّمن الذي شرَّده عن وطنه ، ولم يسمده في وطنه الثاني . يقول في إحدى
مقطوعاته شاكيا بنفمة حزينة ، سوء حاله ، وكثرة الخطوب التي أحْدَقَتْ بِهِ ،
حتى إنَّه كما حاول النهوض من خطب ، تكالب عليه خطب آخر ، يقول (١) :

تَحْيِفُ حَالَتِي حَيْفَ الزَّمَانِ وَصَدَّقَ الْهَاسِ مِنْ كَذِبِ الْإِمَانِ
وَمَرَّتْ فِي أَلْيَتِي اللَّيَالِي بِتَرْوِيحِي فَأَنْتَ بِالْأَمْسَانِ
أَمَا قَنَمْتُ وَقَدْ كَفْتُ بِهِضَمِي وَضَمِي دُونَ أَبْنَاءِ الْبَيْتَانِ
أَحَاوُلُ أَنْ أَقُومَ لِمَا يُوَاتِسِي فَتَقْمَدُنِي الْخُطُوبُ بِلا تَوَانِي
فَهَلْ مِنْ أَخَذٍ بِيَدِي أَخِيذِ بِمَعِينِ اللَّهِ شِدَّةَ مَا يُمَانِي
وَمَا أَبْغِي عَلَى تَلْفِي دَلِيلًا كَفَانِي أَنْتَ حَيَّ كَفَانِي

(١) أزهار الرياض : ٢٢١/٣ .

(٢) الألفية : اليمين .

ومن قوله كذلك ، نادى على اتصاله وخدمته للطوك ، لما أصابه من أذى في ذلك ، مع أنهم عبيد الله (١) !

حرمت الرشاد لأنني سفاها
خدمت الطوك وهم أعبد
وفي رغباتي لهم جئت أنا (٢)
فهلأ رغبت لمن أعبد

هذا كل ما وصلنا عن هذه الفترة ، وهو - كما نلاحظ - لا يعطي صورة واضحة عن حياته زمن المستنصر.

(١) مخطوطة الديوان : ص ٧٤ .

(٢) أنا : اشتد .

ثانيا : موضوعات شعره (١)

أ - المدح (٢)

لقد كثرت قصائد مدح ابن الأبار في البلاط الحفصي ، حتى شككت جزءا كبيرا من شعره . وقد أشرنا - فيما سبق - إلى الأسباب التي دعت ابن الأبار إلى ذلك ، كما بينا أن معظم مدائحه فصي البلاط ، كانت في أبي زكرياء الحفصي .

ولم يختلف ابن الأبار في قصائد مدحه ، عما هو مألوف فصي قصائد المدح في الشعر العربي ، من حيث المضج والضميرون . فضججه في مدائحه تقليدي ، يقوم على تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة ، وحشد صفات متنوعة للمدح . على أن الظروف التي كانت تحيط بالامارة الحفصية ، جعلت مدائحه في الحفصيين ، تنقسم إلى قسمين بارزين : قسم تغلب عليه سمة الحرب والقوة ، يتحدث فيه الشاعر عن فتوحات الأمير الحفصي الكثيرة ومايعات البلاد له ، وإعلان ولائها وطاعتها ، مع التركيز على قوته وشجاعته ، والتنويه بالجيش الحفصي وأدواته الحربية ، ونتائج فتوحاتهم ، وذكر بعض الصفات التقليدية أحيانا مزوجة بصفة القوة ، كالكرم والعلم والتدين وهسذة

(١) من موضوعات شعره أيضا في البلاط الحفصي بالاضافة لما سنذكره ، الاعتذار والاستعطاف والشكوى ، وقد أشرنا إليها عند حديثنا عن حياته من خلال شعره .

(٢) هناك بعض قصائد المدح للشاعر في بني حفص ، كانت مزوجة باستصراخهم وحثهم على استمادة وطنه ، وسنتحدث عنها عند الحديث عن شعره الوطني .

القصائد تكون عادة تهنئة بفتح أو مايمعة ، وهي تشكل نسبة كبيرة من مدائحه ، لكثرة فتوحات بني حفص ، ويمعات البلاد لهم (١) . أما القسم الثاني : فهو قصائد مدح عامة ، يقولها الشاعر في مناسبة عادية ، كشفاء الأمير من مرض ، أو تهنئة بمعيد ، أو عقد ولاية لأحد أبناء الأمير (٢) ويحشد الشاعر في هذا القسم كثيرا من الصفات التقليدية التي سنتحدث عنها بالتفصيل . والتقسيم السابق تقريبي فقط ، لأنّ شهج ابن الأبار في مدحه - كما ذكرنا - منهج تقليدي . فقد يمجّ على انتصار من انتصارات الأمير في قصيدة مدح عادية ، وقد يكثر من ذكر الصفات التقليدية في قصيدة حرب مثلا (٣) ولكنّ السّمة المامة لقصائده ، الاكثار من ذكر ما يتصل بالحرب في قصائد التهنئة بالفتوحات أو المايمعات أو قصائد تهديد النصارى ، والاكثار من الصفات التقليدية المعروفة في قصائده المادية .

ولكي تبين الصورة واضحة لمدائحه في البلاط الحفصي ، سنتحدث فيما يلي من صفحات ، عن أهمّ ما اشتطت عليه تلك القصائد ، ولن نخصّ قصائده في ولديّ أبي زكرياء بحديث مستقل لقلتها ، ولأنّها لا تختلف في معانيها عن قصائده في أبي زكرياء .

* * * * *

(١) أنظر جزءاً من هذه القصائد في مخطوطة الديوان : ص ٧ ، ١٨٨ ،

١٩٣ . . .

(٢) أنظر قسماً من هذه القصائد في : المصدر نفسه ص ٨ ، ٦٥ ، ٩٥ . . .

(٣) من قصائده التي لم يلتزم فيها بالتقسيم الذي ذكرناه في مخطوطة الديوان :

ص ٢٥ ، ١٨٥ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٩ . . .

لقد كان شاعر المدح العربي ، يميل قصارى جهده على إسباغ كل صفة حميدة على مدوحه ، وإبعاد كل سوء ورذيلة عنه ، وكأنه كان يحاول رسم شخصية مثالية لمدوحه في كل صفاتها ، حتى لو لم تكن تلك الصفات متوافرة فيه .

وطالما أن ابن الأبار كان مقلدا في مدائحه ، فطبيعي أن لا تخلو قصيدة مدح من مدائحه ، من حديث عن صفات المدوح ، التي هي تقليدية أيضا ، طرقها من سبقه من الشعراء ومن عاصره أيضا ، وهي في معظمها عربية إسلامية ، نسبة إليها نقاد العرب ، بمد استخلاصهم لها من شعر المدح العربي كالكرم ، والشجاعة ، والقوة ، والتدين . . . ، وغيرها من الصفات المعنوية التي دعا إليها معظم النقاد العرب .

وإذا كان ابن الأبار ، قد ركّز على الصفات المعنوية ، فإن هذا لا يعني أنه أهمل الصفات الشكلية الحسية التي رأى بعض نقاد العرب ، عدم وصف المدوح بها ، كقدامة بن جعفر (١) ، في حين خالفه ابن رشيقي في نظريته تلك فقال : " وأكثر ما يميل على الفضائل النفسية التي ذكرها قدامة ، فإن أضيف إليها فضائل عرضية ، كالجمال والأبهة وسطة الخلق وسعة الدنيا ، كان ذلك جيدا (٢) .

فابن الأبار إذا لم يأخذ برأي قدامة ، بل خلط في مدحه بين الصفات النفسية والشكلية ، وإن كان معظم تركيزه على الصفات النفسية ، وهذا يتبدى من المادة الشعرية التي خلفها في كلا الأمرين . ويدور معظم شعره في حديثه عن صفاتهم الشكلية ، حول جمال الوجه وإشراقه ، أكثر من تشبيههم بالشمس والقمر والنجوم والمصابيح . فمن ذلك هذه الصورة الجميلة التي يقول فيها (٣) :

(١) انظر : نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ٦٩ ، وما بعدها .

(٢) المصداق لابن رشيقي : ١٣٥ / ٢ .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٢٦ .

كَانَ بَنِي أَبِي حَفْصٍ نَجُومٌ وَيَحْيَى الْمُرْتَضَى بَدْرُ التَّهَامِ
ويقول (١) :

طَلَعَتْ كَالشَّمْسِ فِي ضَاهَا بِكُلِّ حُسْنٍ وَكُلِّ حُسْنٍ
ومن قوله كذلك (٢) :

تُضِيُّ دِيَا جِوَارَ اللَّيَالِي وَجُوهَهُمْ فَتَحْنُ طُيُولَ الدَّهْرِ فِي وَسْطِ الشَّهْرِ
وإذا كان ابن الأبار قد ركز على تشبيههم بالكواكب ، فإنه يستمد
أحيانا بعض صفات الطبيعة المحيطة به ، كالربيع في نضارته ، والجنان بما طشت
به من أزهار ، يقول (٣) :

فَقُلْ فِي الرَّبِيعِ النَّضْرَ بَشْرًا وَبَسْمًا وَقُلْ فِي الصَّبَاحِ الطَّلُقَ بَدْرًا وَمِسْمًا (٤)
ويقول أيضا (٥) :

تَخَالَ الْأَرْضُ قَدْ طُشَّتْ جِنَانَنَا بِمَا التَّحَفَتْ مِنَ الزَّهْرِ الْجَنَنِيّ

ومع أن تركيز ابن الأبار كان على جمال وجوههم ، إلا أننا نجده ممجها
بقوام الأمير أبي يحيى وحسن حديثه ، يقول (٦) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٥٠ .

(٢) الصدر نفسه : ص ٨٣ .

(٣) الصدر نفسه : ص ١٣٢ .

(٤) الميم : أثر الحسن والجمال .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ٢١٧ .

(٦) الصدر نفسه : ص ٨٣ .

أَعَدَّ نَظْرًا إِلَى الزَّمَنِ النَّضِيرِ تَرَى الْقَدَّ الْوَحِيدَ بِلَا نَظِيرِ
وَمَا مَتَعَ الضُّحَى إِلَّا حَيَانَنَا بِأَمْتَعٍ مِنْ مُعَادَةِ الْبَشِيرِ

هذا مجمل ما ذكره ابن الأبار من صفات شكلية لهم ، وهو لا يكاد يذكر ، إذا ما قورن بما ذكره من صفات معنوية ، وكأنه قد أتى بذلك ليظهر مدوحيه ، بصورة الكمال . فإذا كانت معظم الصفات المعنوية متوافرة فيهم ، فإن ما يزيدهم ، عظمة وسها ، أسباغ صفات شكلية طيهم ، تريح النظر وتمتع البصر .

وفي عصر اشتد فيه الصراع بين النصرانية والإسلام ، وفي وقت خرج فيه كثير من أبناء الأندلس على أيدي أعداء لهم بالدين ، خروج المغلوب على أمره ، الذي لا أمل له بالعودة ، نجد ابن الأبار الذي كان واحداً من بين أولئك ، يركز على الصفات الدينية في مدوحيه ، فيسبغ عليهم صفة المدامنة والذود عن الدين ، ومعارضة الكفر والضلال المتمثل في النصارى ، وكأن هذه الصفة من أبرز ما يجب أن يتوافر في حاكم المسلمين في تلك الفترة . ومن قول ابن الأبار في ذلك (١) :

حَفِظَ الَّذِي شَرَعَ إِلَهُهُ حِفَاظَهُ بِالْبَيْضِ تَنْضَى وَالْأَسِنَّةَ تُشْرِعُ
وقوله أيضاً (٢) :

وَعَلَى الْقَائِمِ بِالتَّوْحِيدِ أَنْ يُقِمَّ التَّثْلِيثَ أَدْنَى مَقَامِهِ
ومن قوله كذلك (٣) :

هَنِيئًا لِأَمْرِ اللَّهِ أَنْ شَدَّ أَرْوَ بِالْأَبِي حَفْصٍ أُولَى النَّهْيِ وَالْأَمْرِ

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٦٢ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٨٣ .

وَأَنَّ قَامَ يَحْيَى الْمُرْتَضَى وَسَيْلُهُ لِإِظْهَارِهِ أَثْنَاءَ قَاصِمَةِ الظُّهْرِ

ولا تكاد قصيدة من قصائد ابن الأبار تخلو من هذه المعاني :

ومن الصفات التي يفترض وجودها ، فيمن أخذ طي نفسه حماسة
الدين وإيمانه : إقامة شعائر الله من صيام وصلاة وصدقة . وقد كانت كل هذه
الصفات متوافرة حقيقة في أبي زكريا ، وولده أبي يحيى أيضا (١) ، وقد عرف
أبو زكريا بالتقوى والقرب من الله ، حتى إنه بعد إتمامه بناء جامع القصبنة
بتونس سنة ٦٣٠ هـ ، صعد وأذن بنفسه (٢) . يقول ابن الأبار (٣) :
قيامه بالصيام السرور مرتبط فاليوم والليل أن كاره وأوراد
ويقول أيضا (٤) :

وَمَا أَحْيَا النَّدَى إِلَّا إِمَامٌ قَوْلُ كُلِّ صَالِحَةٍ فَعَمَلٌ

وقد حفظ ابن الأبار عادة من عادات الأمير أبي زكريا في شهر رمضان ،
وهي قيامه بتفطير بعض الصائمين ، كما يصنع كثير من الأتقياء في هذا الشهر
الفضيل ، لتزداد منزلتهم عند الله . وأشار ابن الأبار المحدث في البيت
نفسه ، إلى الحقيقة الدينية (٥) : وهي نيل الأمير الحفصي من الأجر كأجورهم :
تفطيره الصَّوَامَ عَدْلَ أَجُورِهِمْ وَلَهُ إِلَى تِلْكَ الْأَجُورِ أَجْرٌ

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون ٦ / ٦٢٠ .

(٢) انظر: تاريخ الدولتين ص ٢٦ .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ٥٥ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٠٨ .

(٥) لقد رآشار الشاعر في هذا البيت إلى قول الرسول الكريم : " مَنْ فَطَّرَ صَائِحًا
كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ " انظر : سند الإمام

أحمد ٤ / ١١٤ ، ١١٥ .

(٦) مخطوطة الديوان : ص ٩٠ .

وكثيرا ما يزاح ابن الأبار بين حريهم وعبادتهم ، فمن ذلك
قوله (١) :

فَمَا عَمُوا إِلَّا الصَّاجِدَ أَرْمَعًا وَلَا اسْتَشَمُّوا إِلَّا دُرُوعًا لَوْ قُصَا

ومن الصفات المرتبطة بطاعة الله والعبودية له : المدل ، الذي
يجمع الناس ويؤلف قلوبهم . ولما كانت هذه الصفة من أبرز صفات عمر بن الخطاب -
رضي الله عنه - ، وكان نسب بني حفص أيضا يعود إليه ، فإن ابن الأبار يرى
أن الأمير الحفصي قد بلغ بمدله ما بلغه عمر بن الخطاب ، مما جعله يأتسم
به ، لأنه لا فرق بينهما في المدل (٢) :

إِلَى الْمَدْلِ وَإِلَى حَسَنِ يَهْدِي وَيَهْدِي

فَنَأْتَمُّ بِالْفَارُوقِ مِنْهُ وَلَا فَرْقُ

وقد عرف أبو زكريا * بالزهد والتقشف ، على الرغم من عظم سلطانه
وقوته ، ولم يكن كغيره من حكام الموحدين الذين انكبوا على شهواتهم . يقول
ابن الأبار مقارنا بين حرص الأمير على الدين وحرصه على الدنيا ومشيرا إلى
زهد (٣) :

حَرِيصًا عَلَى الدِّينِ الْحَنِيفِ وَنَصْرَهُ

وَلَيْسَ عَلَى الدُّنْيَا بِمُسْتَبْطِنٍ حَرِيصًا

ويقول أيضا (٤) :

يَالَهُ مُعْتَزِمًا مُعْتَزِلًا عَيْشَةَ الْخَفْضِ وَذَاتِ الْكُورِي

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٧٠ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٩٣ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٧٠ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٧٧ .

وصفة الكمال ، لا بد من إسباغها على كل ما يتصل بالحفصيين -
وسنلاحظ هذا فيما بعد - ، لذا فإنه لكثرة الصفات الدينية التي أضيفها على
بني حفص في مدائحه ، لا يجد مخالفة في اعتبار صفات أبي زكريا كصفات الطلائكة :
وَأَنْتَ ابْنُ الطُّوكِ الصَّيْدِ لَكِنَّ خِلَالَكَ لِلْمَلَأَكَةِ الْكَرَامِ

ونحن بعد هذا نرى ، أن تركيز ابن الأبار على صفات بني حفص الدينية ، حتى رفعهم إلى مرتبة الطلائكة ، ما يشعربأنه وهو الفقيه المحمّد المَقْرِي* - ، كان يرى أن أهمّ صفة يجب أن يتّصف بها الحاكم ، هي قوّه من الله ، ومدافعتة عن دينه . وهذه قضية لم ينفرد بها ابن الأبار ، بل إن كُتِلّ المادحين في زمنه ، كانوا يركزون عليها . وقد رأينا من قبل ، كيف أن أبا الملا* المأمون ، قد مدح بمثل هذه الصفات الدينية ، مع أنه كان أول من أدخل النصارى إلى المضرب (٢) ، مما يشعربكلاسيكية هذه القضية . ولا نعني بكلامنا أن أبا زكريا لم يكن أهلاً لأن يمدح بمثل هذه الصفات . لا . فقد عرف الرجل بالصلاح والزهد والتقوى . ولكننا نقول : إن ابن الأبار ، وإن كان في تناوله لهذه القضية يفرف من واقع حقيقي ، مع شي* من الجالفة التي اعاد عليها الشعراء ، إلا أنه كان صائراً لشعراء عصره ، متأثراً بالظروف التي كانت تحيط به والمسلمين عامّة في الأندلس .

ومن الصفات التي يمتاز بها المرئي وبفاخر غيره ، كرم الأصل وشرفه ، وطهارة المرئى ، وابن الأبار في هذه القضية ، يجمع بين مدح الآباء والأجداد ، فصفات الأبناء هي موروثه من الآباء والأجداد ، وإن كرم الأصل فلا بد من زكاة وكرم الفرع ، والحفصيون كرام النسب انقياء كماء السحب (٣) .

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٢٦ .

(٢) أشرنا الى هذا عند حديثنا عن الحياة الأدبية في هذه الدراسة .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ٧٨ .

نَسَبَ أَبْهَرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى لَيْسَ مَاءُ الْمَزْنِ مِنْهُ أَطْهَرُ

صفة الكرم من الصفات التي توقف عندها ابن الأبار، فأكثر فيها القول . حتى إن قصيدة واحدة من قصائد مدحه ، لم تخل من الحديث عن كرم أبي زكريا ، خاصة ، ووطديه أحيانا . ويدو أنه في تركيزه على صفة الكرم ، كان متأثرا بوضعه الخاص ، كمفترب لا جي* ، بحاجة إلى البذل والمطام* والمطاف ، والظروف المحيطة بالامارة الحفصية . فهي إمارة ناشئة ، تحتاج إلى مزيد من السخا* على الناس لتقريبهم منها ، وعلى الجيش لتزاد قوته وتكثر انتصاراته .

ويعتبر التشبيه الأداة الرئيسية التي اعتمدها ابن الأبار في إظهار كرمهم ، فقد أكثر من تشبيههم بالفيث والبحر ، يقول (١) :

وَمِنْ سَاكِبَاتِ الْمَزْنِ فَيْضُ أَكْفِهِمْ فَرَدُّهُمْ تَرَى مَاءَ الْفَمَامِ وَأَعْدَبَا
وبالغ فيقول : انهما أشد كرمًا من البحر والسحب ، حتى إن السحاب لم يخل من كثرة عطاء الأمير (٢) :

وَأَنطِه استسقيت لا البحر زاخراً ولا المزن ، أَيْنَ الْمَزْنُ فَهِنَّ وَالْبَحْرُ !
ويقول (٣) :

وَمَا سَالَتْ يَدَاهُ نَدَاهُ إِلَّا تَبَيَّنَ فِي الْحَيَا مِنْهُ الْحَيَا*

والكرم في وقت الرخاء ، قد يكون أمراً عادياً لا غرابة فيه ، ولكن الكريم يظهر على حقيقته في أوقات المحل والشدة ، عندما يقل المطام* ، ويخل الفيث ، لأن كلاً من الناس يكون في أمس الحاجة لما عنده (٤) :

(١) مغلطة الديوان : ص ٣٣ ، وأزهار الرياض ٢/٢١٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٩٩ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٩ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٨٠ .

شكــر وتقدــير

يسرني أن أقدم جزيل شكري وعظيم امتناني ، وفاً واعترافاً بالفضل لأهله ، إلى أستاذي الدكتور محمود السمرة ، الذي رعى هذا البحث منذ أن كان فكرة ، إلى أن أصبح على ما هو عليه ، على الرغم من ضيق وقته وكثرة مسؤولياته . وقد نلت منه من التشجيع والرعاية والتوجيه ، ما أبعد عنسي مشقة البحث وعناءه قال أستاذي الفاضل أكرر شكري ، ودعائي إلى المولى العزيز أن يحفظه علماً شامخاً للعلم وأهله ، وأن يجزيه عني وعن العلم وأهله خير الجزاء .

وأشكر كذلك جميع الأخوة والأخوات الذين مددوا لي يد المــوــن والمساعدة أثناء إعداد هذه الدراسة وأخرجها بالصورة التي وصلت إليها .

بِأَذِلِّ وَالْفَيْتُ فِيهَا بِأَخْلٍ سَلَّةٌ شَهِيماً تَزْجِي الْمَبْرَأَ

وخاتم الطائي هو المثل الأعلى عند شعراء المدح ، لما عرف عنه من سخاء ، وقد كثرت روايات تشبيه المدح بخاتم ، وتفضيل المدح عليه أحياناً ، وهي مبالغة يقصد منها الشعراء إثارة مدحهم ، ورسم صورة مثالية لهم ، ليكثر المطاء ، فمن ذلك قول ابن الأثير (١) :

يَنْسَى بِأَقْدَامِهِ عَفْوٌ وَمِنْ حَجِّهِ (٢) وخاتم بأياديه وطيئته

ومن مظاهر كرم الأمير الحفصي ، أنه لا يرد سؤالاً ، وأنه يمطي دون حساب ، حتى فرغ بيت مال الدولة يقول (٣) :

حَسْبُ الْأَمَانِي أَنْ يَحْيِيَ الْمُرْتَضَى يُجْرِي عَلَى الْأَسْمَافِ كُلِّ سُؤَالَ ويقول أيضاً (٤) :

بَيْتُ النَّاسِ عَامِرَةٌ وَلَكِنَّ بَيْتُ الْمَالِ خَاسِرَةٌ طَلُولُ

وكثيراً ما يمزج الشاعر صفة الكرم بغيرها من الصفات ، كقوله (٥) :

كَالْفَيْتِ كَفّاً إِنْ حَيَا ، كَاللَّيْلِ قَدْ سَبَأَ إِنْ حَمَى ، كَالْبَدْرِ وَجْهًا إِنْ بَدَأَ

(١) مخطوطة الديوان : ص ٥ .

(٢) هو عمرو بن معد يكرب بن عبد الله . . من مدحج ، فارس اليمن وصاحب الشارات المذكورة ، كان يقال لكل فارس من العرب ، فارس بني فلان ، إلا عمراً ، فيقال له : فارس العرب جميعاً ، انظر في نسبه : جمهرة أنساب العرب ص ٤١١ ، وفي أخباره خزائن الأدب للبغدادي ٤٤٤/٢ وصلاً بعدها والأعلام ٥/٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٣) مخطوطة الديوان ص ١١٣ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٠٧ .

(٥) المصدر نفسه : ص ٦٩ .

وقطه (١) :

يا بَهِرَ عَلمِ وَجودٍ لا كَفاً لَـهُ مَرجانُهُ طىءُ أيدِينا وَلؤلؤُهُ

وواضح أن ابن الأثير ، قد استخدم ما تعارف عليه الشعراء من قبل من معان في الكرم ، كتشبيه المدح بالفيت والبهر ، والإنفاق فسي وقت الشدة ، والمقابلة بين المدح وأكثر العرب كرمًا ، وتفضيله عليه

وفي زمن عظم فيه شأن الثقافة ، فقد كان على ابن الأثير أن يمدح الأمير الحفصي بسمعة ثقافته وعمقها . وهو في ذلك لا يقول إلا الحقيقة ، لأننا سبق وأن ذكرنا أن الأمير أبا زكريا كان عالما شاعرا كاتباً متقدماً (٢) ، وفي ذلك يقول ابن الأثير شيراً إلى أدب أبي زكريا : شمره ونثره ، وذيع ذلك بين الناس ، مع فصاحته ولاغته التي لم يصل إليها غيره ، حتى من الأعراب أهل اللغة والفصاحة (٣) :

يَخْتالُ النَّثرُ بِـ	وَيْتِي النِّظْمُ بِـ
لروايته وَدَيْهَتِـ	ما تُنشئه أَوْ تُنشِئـ
وَرِسالُهُ وَقِصائـ	ما نَعْرِضُهُ إِنْ نَقَصـ
كالنَّثرِ وَالشَّمْرِ (٤) كَلِمـ	تَسري في العالَمِ شُرُـ
سَلَبَ الأَعْرابِ فَصاحتهمـ	في ماضي الدَّهرِ مَوْلـ

(١) مخطوطة الديوان : ص ٥٠

(٢) راجع الحياة الثقافية والأدبية في تونس في هذه الدراسة .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ٦٤

(٤) النثر : عنقود من النجوم في صورة السرطان ، والشمر : كوكب نير يطلع عند شدة الحر .

ويشير إلى خاصية فنية ، وجدت في أدب أدباء هذه الفترة ، وهي الصنعة البديعية ، ما يشير إلى أن البديع كان من الأمور المستحبة في الأدب ، بقوله (١) :

فِيهِ الْبَدِيعُ قَلْوَعًا الْبَدِيعُ رَأَى حَتْمًا عَلَى مِثْلِهِ خَتْمًا عَلَى فِيهِ

ولم يكن أبو زكرياء يقول الشعر فقط ، بل كان يتذوقه ، ويستمتع إليه ، ويرى ابن الأثير أن في ذلك شرفاً للشعر وطوراً منزلة ، يقول (٣) :

لَمْ يَشْرَفِ الشَّعْرُ إِلَّا حِينَ شَرَّفَهُ نَظْمًا لِعَالِيهِ أَوْ سَمْعًا لِعَالِيهِ

وقد كان أبو زكرياء بالإضافة ، إلى كونه أديبا ، عالما أيضا يقرأ على الشيوخ ويجالس أهل العلم دون تكبر ، وكذلك كان والده أبو يحيى (٤) ، وفي أبي يحيى يقول ابن الأثير (٥) :

وَلَا يَدْعُ اقْتِبَاسَ الْعِلْمِ وَقَتًّا فَهَاهُ هُوَ فِي شِعْرِ وَرِيٍّ

ويشير إلى عمق ثقافة أبي زكرياء الدينية واللغوية ، بقوله (٩)

إِلَيْهِ أَشَارَ ابْنُ الْحُسَيْنِ (٧) بِقَوْلِهِ : "عَلِمَ بِأَسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللَّفْظِ" (٨)

(١) مخطوطة الديوان : ص ٢٠٩ .

(٢) يعني بديع الزمان الهمداني .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ٢٠٩ .

(٤) انظر : تاريخ ابن خلدون ٦ / ٦٢٠ .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ٢١٩ .

(٦) المصدر نفسه : ص ٨٤ .

(٧) يقصد الشاعر بأبي الحسين (المتنبي) .

(٨) هذا صدر بيت للمتنبي في مدح سيف الدولة ، حيث يقول فيه :

عَلِمَ بِأَسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللَّفْظِ لَهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ وَالْكَتَبَ

انظر : الصرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ص ٣٣٦ .

وكثيرا ما يقرن الشاعر صفة العلم بالحلم ، وكأنهما في ملازمة دائمة ، وإذا كان الأمير الحفصي ، أكثر كرما من حاتم الطائي ، فإنه أيضا أكثر حلما من الأحنف بن قيس (١) ، وطما من الخليل بن أحمد (٢) :

إلى حلم تقاصر عنه قيس وطما ضلّ مدركه الخليل
 ومزج مألفا بين عدة صفات بقوله (٣) :

ولم يتركّن في العلم والحلم والندى لماضٍ وآتٍ يمدّ خطّا ولا شقصا
 ومن صفات الأمير الحفصي ، سداد الرأي وإصابته (٤) :

يرمي قيصي قاصيات مرامه من رأيه بسديده وصيبه

وبأتى الشاعر بصورة تحمل معنى لم نألفه من قبل ، وهي تشبيهه آرائه بمفاتيح تفتح آفاق الدنيا ، وهو معنى يشمر بقوة الأمير وعظمته ، يقول (٥) :

آراؤه كسنا مرآة خيـــــرة أضحت مفاتيح والآفاق أقفال

وسداد الرأي ، لا يصدر إلا عن عقل كبير واع ، لذا فقد أشار ابن الأبار إلى راحة عقل الأمير ، مكررا المعنى الذي تداوله الشعراء من قبل وهو تشبيه عقل المدحج بالجمال الراسخة ، يقول (٦) :

(١) هو الأحنف بن قيس التميمي ، أبو بحر ، سيد تميم ، وه يضرب المثل في الحلم ، توفي سنة ٧٢ هـ . انظر : تهذيب ابن عساكر ١٣/٧ والأعلام ٢٦٢/١

(٢) مخلوطة الديوان ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٧٠ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٢٢ .

(٥) المصدر نفسه : ١١٧ .

(٦) المصدر نفسه : ص ٤٧ .

وَمَا الرَّاسَخَاتُ الشَّامَخَاتُ أَنْوَفُهُمَا

بِأَرْجَحِ وَزَنًا مِنْ نُهَاهُ الرَّوَّاجِحِ

ومن صفات الأمير الحفصي أيضا ، الحزم . ومن مظاهر الحزم أنه يفعل ما يقول ، وكذلك لينه مع أهل الطاعة وشدة على أهل البغى والضلال (١) :

لَمْ يَزَلْ يَتَمَعُّ الْمَقَالَ فَمَالًا وَالْحَسَامَ الْهِنْدِيَّ إِنْ صَلَّ صَلَاةً وَيَقُولُ أَيْضًا (٢) :

يُخَافُ وَيُرْجَى بَيْنَ حِلْمٍ وَطُشَةٍ أَقَامَهُمَا فِيمَنْ أَطَاعَ وَمَنْ بَغَى

ومن صفاته كذلك ، المفوع عند المقدرة ، وهي صفة إذا اجتمعت مع الحزم ، كانت من الصفات الجيدة في الحاكم (٤) :

يُسْرِ سُرُورًا بِالْجَنَّةِ وَمَا جَنَنُوا لِيُسْرِفَ عَفْوًا كُلَّمَا أَسْرَفُوا هَفَّتُوا

وصفات اللين والسماح ، ما لم تقرن بالحزم وشدة اليأس في الحاكم ، فإنها قد تؤدي إلى نوع من الاستهتار والاستخفاف من قبل الرعية ، لذلك قالن الأباريقول (٥) :

بَيْنَ السَّمَاحِ وَبَيْنَ الْبَاسِ مَنَقَسَمٌ فَالْعَالَمُونَ عَلَى خَوْفٍ لَهُ وَرَجَا

(١) مخطوطة الديوان : ص ٢١٥ .

(٢) صلّ بيض الحديد : رنّ من مقارعة السيوف .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٨٤ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٢١٤ .

(٥) المصدر نفسه : ص ٣٥ .

ومن صفات الأمير أيضا : عمق التفكير والسكينة والوقار ، وهداية
الناس إلى كل خير ، والتواضع على الرغم من عظم شأنه (١) :
إِمامٌ عدلٌ تدانى من تواضعه . والنجم في مرتقاه لا يُدانيسه .
وصفة الكمال . كما ذكرنا . لا بد من إسباغها على كل ما يتصل بهم .
لذا وجدناه يقول (٢) :

أضفى له شرف الكمال صلماً هيهات ما في العالمين منازع
وهكذا نجد ابن الأبار . شأنه شأن كل مادح . قد عمل على
حشد معظم ما تعارف عليه الشعراء من صفات لأمره (٣) ، وهو وإن كان
ضالنا في كثير من الأحيان ، إلا أنه كان يستلهم صفات الأمير من واقعهم ،
فلقد عرف الأمير الحفصي بالتدين والعلم . . . وإن هذه الصفات لتبين القيم
التي كانت سائدة في تلك الفترة ، وهي في معظمها عربية إسلامية موروثية .
كما أن الظروف التي كانت تحيط بالناس في تلك الفترة ، كانت تفرض وجود مثل
تلك الصفات في الأمير ، فهو لا بد أن يكون قريبا من الله ، عاملا على رفيع
دينه ، في وقت ضف فيه الدين وتشتت أهله . ويجب أن يكون كريما أيضا
في أصله وماله ، فإذا كرم أصله حمدت سيرته . وإن أحوال الإمارة الناشئة
كانت تتطلب أميرا ينفق بكل سخاء ، لتجهيز الجيوش المহারية ، وتحسين
أحوال الناس لأنها كانت قد فسدت . وهو أيضا لا بد أن يكون عادلا حازما
. . . الخ . فابن الأبار في إسباغ الصفات السابقة على الأمير ، كان متأثرا
بمن سبقه ومن عاصره من الشعراء ، وموضع الخاص كشاعر بلاط مغرب عمن
وطئه ، والظروف التي كانت تحيط بالناس في تلك الفترة ، وما يتصف به
الأمير الحفصي من صفات حقيقية كان يلصقها الشاعر .

* * * * *

- (١) مخطوطة الديوان : ص ٢٠٨ .
(٢) المصدر نفسه : ص ١٧٧ .
(٣) هناك مجموعة من الصفات الحربية لم نذكرها وسنفرد لها حديثا خاصا .

لقد قدم ابن الأبار إلى تونس ، ولم يكن قد مضى وقت طويل على استبداد أبي زكرياء بالخلافة ، وانفضاله كلياً عن الموحدين في المغرب . وكان لا يزال يعمل على توطيد أركان خلافته .

ولما كان ابن الأبار بمدح حلوه في البلاط الحفصي قد أصبح ممن شمرائه البارزين ، فقد كان عليه الإشارة بالخلافة الحفصية وتمظيمها ، وإظهار قوتها ، والحث من شأن خصومها ، لأن شاعر البلاط لا بد من أن يبين موقفه من الخصم ، وأن يعمل عن ولائه لمدحه ، لأنه لسان الدولة الناطق وصاحب النظم الذي يطير في الاتفاق بمن الناس (١) .

ومعروف أن الخلافة الحفصية قامت في ظروف ضعف فيها الإسلام وكثرت المحن في المغرب والأندلس ، وإفريقية (تونس) . وقد كان حديث ابن الأبار في شمريه عن الخلافة الحفصية مرتبطاً كل الارتباط بالأحداث التي قامت الخلافة في ظلها . وهو يدور في معظمه حول نسب بني حفص وأهقيتهم في الخلافة ، وقوة الخلافة الحفصية ، ثم موقف ابن الأبار من الخلافة الموحديّة .

وتشير كتب التاريخ إلى أن نسب بني حفص ، يعود إلى الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني (٢) ، أحد القائمين بدعوة المهدي عبد المؤمن بن علي

(١) لقد كان شاعر المدح ، وخاصة من يثب في بلاط معين ، كأبي وسيلة إعلامية في أيامنا ، يقصر همه على كل ما يرضي المدح ، ويذبح محاسنه ، ويدافع عنه وعن كل ما يتصل به .

(٢) أنظر أخبار أبي حفص كاطة في : تاريخ ابن خلدون ٥٧٧/٦ ومما يمدحها .

والمشيدين لطقسه . وقد كان لهذا الشيخ قيمة عظيمة في دولة عبد المؤمن وأبنائه من بعده ، وهو الذي رفع راية الموحدين بالأندلس وأيد سلطانهم . وقد تولى أبنائه من بعده الرئاسة ، وتقلبوا في الإمارة بالمغرب والأندلس وأفريقية . وظل هذه الكتب سائرة بالنسب الحفصي ، لتصل به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(١) ، ومعنى هذا أن نسبهم يعود لشخصين عظيمين اتفقا في الاسم والرقعة ، وأبي عظمة وأي جلال أكثر من أن تنسب الدولة إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، الذي ملأ طهاق الأرض عدلا ، وإلى قبيلة قريش التي شرفت بميلاد ابنها الأكرم محمد عليه السلام .

وابن الأبار - المؤرخ الشهير - لم يكن ليفضل هذا النسب الطاهر ، وهو يتحدث في شعره . ذلك لأن الشعراء وخاصة في العصرين المرابطي والموحدي - كثيرا ما ركزوا على أصل محمد وحيهم ، وخاصة النسب القرشي ^(٢) ، يقول ^(٣) :
 في جمجمة ^(٤) عليا ورحسى عمر الفاروق لها ^(٥) قطب
 ويقول ^(٦) :

- أين أعراب الضواحي سننا* وغنا* من قريش البطحاح
- (١) لقد ورد نسب بني حفص في كتب التاريخ ابتداءً بأبي محمد أول أمراء الدولة كالتالي : " هو أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر ابن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى بن محمد . . . بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب " تاريخ ابن خلدون ٥٧٨/٦ ، وانظر : تاريخ الدولتين ص ٢٤ .
- (٢) أنظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص ١٠٤ ، ٥٠ ، ١٠١ .
- (٣) مخطوطة الديوان : ص ٥٧ .
- (٤) الجمجمة : رئيس القوم وسيدهم ، وكل بني أب لهم عز وشرف .
- (٥) يقصد الخلافة الحفصية .
- (٦) مخطوطة الديوان : ص ٤٤ .

والدعوة الحفزية في حقيقتها ليست سوى انطلاق من الدعوة المهدية
الموحدية . ولم يكن انفصالها عن الدولة الموحدية إلاّ عندما قام المأمون
بتفجير رسوم المهدي ، ولعننه على المنبر وقتل أشياخ الموحدين^(١) . ولأنّ أبا
حفص كان أحد القائمين بالدعوة المهدية ، فقد قام أبو زكريا^٥ انتصاراً لها ،
فأعلن تمرده وانفصاله عن الموحدين . يقول ابن الأبار^(٢) :

هِيَ الدَّعْوَةُ الْمَهْدِيَّةُ اسْتَخْلَصَ الْمَلِكُ
لَهَا الْقَائِمَ الْمَهْدِي فَكَانَ لَهَا خُلُوصاً
بِإِظْهَارِهَا وَصَّى أَبُو حَفْصٍ الرَّضَا
بِقِيَمِهِ فَوَفَّى دُونَهُمْ مَا بِهِ وَصَّيَ

ويقول أيضاً^(٣) :

وَإِيَالَةَ مَهْدِيَّةَ عَمْرِيَّةَ^(٤) أَوْدَى بِدَعْوَتِهَا الضَّلَالُ وَطَاحَا
فَالدَّوْلَةُ الْحَفْزِيَّةُ ، كَرِيحَةُ النَّسَبِ ، عَظِيمَةُ الْقَدْرِ ، مُحَقَّةٌ فِي الْخُرُوجِ عَلَى
الْمُوحِدِينَ^(٥) :

قَامَتْ بِالْحَقِّ خِلَافَتُهُ يَتَقَلَّدُهُ وَيَقْلُدُهُ
وَلَمْ يَسْتَوْلِ الْحَفْزِيُّونَ عَلَى الْخِلَافَةِ ظُلُمًا وَعَدْوَانًا ، بَلْ وَرَثُوهَا عَنْ آبَائِهِمْ
وَأَجْدَادِهِمْ ، فَأَبُو زَكْرِيَا^٥ ، كَانَتْ خِلَافَتُهُ بِعَدِّ وَالِدِهِ عَبْدِ الْوَاحِدِ الَّذِي كَانِ
الْناصِرُ قَدْ نَصَبَهُ عَلَى وِلَايَةِ افریقیة سنة ٦٠٣ هـ^(٦) :

(١) أنظر: تاريخ ابن خلدون ٥٩٤/٦ .

(٢) مخطوطة الديوان ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٤٠ .

(٤) إِيَالَةُ الْقَوْمِ : تَوَلَّى أُمُورَهُمْ .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ٦٣ .

(٦) المصدر نفسه : ص ٣٠ .

عَنْ عَدْرِ الْوَاحِدِ أَحْرَزَ مَا يَحْيَاهُ لِنَجْلِ إِبْسِنِ وَأَبِ
ونجد ابن الأبار صابرة لشعراء عصره ، ومن سبقه أيضا ، يحيط الخليفة
بالتأييد الإلهي ، وأن الله قد اختاره خليفة له في أرضه ، لقدرته على إعلانه
كلمته (١) :

لِلَّهِ مِنْهُ خَلِيفَةٌ فِي أَرْضِهِ عَرَفَ (٢) الْخَلَائِقَ هَدِيَّةً وَهُدَاهُ
وَلَا هُ أَمْرُ عِبَادِهِ وَتِلَاوَةٍ لَمَّا ارْتَضَاهُ لِحَطْمِ الْوَلَاةِ (٣)
اللَّهُ أَيَّدَ أَمْرَهُ بِمُؤَيَّدٍ قَوَّاهُ مَا يَخْفِيهِ مِنْ تَقْصَوَاهُ
ويقول (٤) :

خِلَافَةُ اللَّهِ فِيهِ قَسَرَّتْ وَأَمْرُهُ عِنْدَهُ أَطْمَأَنَّ

ولقد كان الشاعر مدركا أن النسب الطاهر والتأييد الإلهي سيؤدي إلى
إجماع البشر على مبايعة الأمير لأنه أهل للمكان الذي حله ، وأن التأييد
البشري ، يمطي الدولة قوة وثباتا ، لا لتفافهم حولها وحمائيتها من كل سوء .
وأنها تكون في مأمن من الثورة عليها ، وهذا يسمح للدولة التفرغ لما يسعد
الناس ويريحهم في حياتهم ، يقول (٥) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ٢٠٦ .

(٢) ، (٣) غير واضحتين في الأصل .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٤٩ .

(٥) المصدر نفسه : ص ٢٠٩ .

عَلِيٍّ خَلَفْتَهُ الْإِجْمَاعُ مُنْمَقِدٌ فَحَاضِرُ الْخَلْقِ طَوْعاً مِثْلُ بَادِيهِ
كَلَّ يَلْبَسِي نَدَاءَ الرَّشْدِ مِنْ أُمِّ كَمَا أَهَابَ بِنَسَادِيهِ مُنَادِيهِ
ويقول (١) :

عَنْ الْإِجْمَاعِ قَامَ قَلْبُنْ يَقُومُ لَخَرْقِهِ أَحَدُ
فَبُنُو حَذَفَ إِذَا مَحَقُونَ فِي الْخِلَافَةِ ، مُؤَيِّدُونَ مِنَ اللَّهِ ، الَّذِي رَأَى فِيهِمُ الْخَيْرَ
وَالصَّلَاحَ ، بِمَعْدِ اضْطِهَادِ دِينِهِ وَأَهْلِهِ ، وَهُمْ مُؤَيِّدُونَ أَيْضًا مِنَ النَّاسِ وَمَجْمُوعِ
عَلَى خِلَافَتِهِمْ .

وَأَمَّا كَانَ ابْنُ الْأَبَارِقْدِ وَضَعَ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْخِلَافَةِ ، مِنْ نَسَبِ
طَاهِرٍ ، وَأَحَقِّيَّةٍ فِي الْخِلَافَةِ ، وَتَأْيِيدِ الْإِلَهِيِّ ، وَإِجْمَاعِ بَشَرِيٍّ فَإِنَّهُ قَدْ أَكْثَرَ نَفْسِي
شَمَرَهُ أَيْضًا مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ قُوَّةِ الْخِلَافَةِ وَتَمَكُّنِهَا مِنَ الْحَمَرْدِينَ وَالْمُخَالَفِينَ . وَهُوَ
حَدِيثٌ ضَرُورِيٌّ ، لِأَنَّ الْخِلَافَةَ النَّاشِئَةَ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ قَوِيَّةً رَاسِخَةً الْقَوَاعِدُ ،
لِتَتِمَّكَنَ مِنَ مُوَاجَهَةِ مَا يَمْتَرِضُهَا مِنْ صَعَمَاتٍ مُخَاصَةِ الْخِلَافَةِ الْحَقِصِيَّةِ الَّتِي
انْفَصَلَتْ عَنِ الْخِلَافَةِ الرَّئِيسِيَّةِ فِي الْمَغْرِبِ ، وَالَّتِي كَثُرَتْ الثُّورَاتُ فِي وَجْهِهَا ،
وَالَّتِي كَانَ عَلَيْهَا تَوْسِيعُ نَفْوِهَا . وَحَدِيثُهُ عَنْ قُوَّتِهَا مُتَكَرِّرٌ يَحْمِلُ نَفْسَ الْمَعَانِي
تَقْرِيْبًا ، فَالْكَلِّ قَدْ أَطَاعَ الْخِلَافَةَ الَّتِي حَسَمَتْ كُلَّ خِلَافٍ ، وَأَوْدَتْ بِكُلِّ مُخَالَفٍ
لَهَا وَأَنَّهَا قَدْ مَحَتْ الضَّلَالُ وَرَفَعَتْ الْحَقَّ ، وَأَنَّ مِنْ يَمْتَصِّمُ بِهَا لَا يَخَافُ مِنْ
سُوءِ أَوْحَاشِيَّةٍ ، يَقُولُ (٢) :

سَنَا الصَّبَاحَ مِنْ سَنَاهَا الْوَاقِدِ شِيدَتْ مَبَانِيهَا عَلَى قَوَاعِدِ

(١) مخطوطة الديوان : ص ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٥٥ .

ويقول أيضا (١) :

خِلَافَتُهُ أَوْدَتْ بِكُلِّ مُخَالَفٍ فَلَا ثَائِرَ إِلَّا غَدَاً وَهَوْبَاءُ سُرُ
ومن قوله كذلك (٢) :

بِهَا نَسَخَ الرَّشْدُ الضَّلَالَةَ مَاحِيَا وَهَلْ تَثْبُتُ الظُّلُمَاءُ وَالصُّبْحُ بِأَهْرُ

ولكن كيف نوفق بين إجماع الناس على الخلافة الحفصية وبين وجود من يخالفها ويثور عليها ؟

إن ابن الأبار الذي أشار إلى إجماع الناس على الخلافة الحفصية ، هو نفسه الذي أشار إلى وجود مخالفين لها . وهو في ذلك غير مناقض لنفسه ، بل يشير إلى حقيقة واقعة . فهو شاعر واقفي يسجل كل ما يشاهده ويخص الدولة الحفصية ، وهذا ما سنلاحظه في بقية موضوعات شعره في بني حفص ، وإن كان كشمرا* عصره ، لا يتخلو عن الطالفة .

وكتب التاريخ أشارت إلى ما أشار إليه ابن الأبار من تأييد الناس للخلافة الحفصية ، وإجماعهم على قيامها وما يمتهم لها سواء أكان ذلك في الأندلس أو تونس ، بسبب ضعف الخلافة الموحدية وسوء الأحوال في الأندلس (٣) . وهي نفسها أشارت إلى الثورات التي اعترضت أبا زكريا ، كثورة الهرغي وأهل أوراس وغيرها (٤) وما تشير إليه كتب التاريخ أمر طبيعي لمعوس في كل زمان ومكان ، فالتأييد لن يكون مطلقا ، ولا بد من وجود مخالفين وناشرين ، ولكن القضية نسبية .

(١) مخطوطة الديوان : ص ٩٥ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) أنظر تفصيل ذلك في : تاريخ ابن خلدون ٥٩٤/٦ وما يمددها .

(٤) راجع حديثنا عن الحياة السياسية في تونس في هذه الدراسة .

وإذا كان ابن الأبار في كثير من مدحه لبني حفص يعرف من واقع
حقه بقي ، كان يعيشه ويلبسه ، فإنه كثيرا ما يعتمد على المبالغة التي كانت من
أبرز سمات الأدب في عصره . فالخلافة الحفصية ، كانت ثابتة القواعد ، قاضية
على كلّ ثائر . . . ولكنها لم تبصر الضرب ولم تسمع الأصم ، ولم تخضع لها
كلّ دول الدنيا ، يقول (١) :

قد بصّرت حتى الضرب وأسمعت حتى الأصم صماخه الأطر وشما
ويقول (٢) :

ودعوت دانت بطاعته الدنيا فمن مجمع البحرين (٣) للمسجد الأقصى
ولكنها مبالغة المادح المنتشي بانتصارات أميره ، وقوّة دولته ، في ظروف
كان الناس أحوح ما يكونون فيها إلى خلافة تحميهم وتميند لهم ما فقدوه
من عزة وكرامة .

ولم يكف ابن الأبار بحديثه عن قوّة الخلافة الحفصية ، وأحقية بني
حفص في توليها ، بل كان عليه أن يبيّن بكلّ جلاء موقفه السياسيّ المهاجم
للخلافة الموحدية ، بعد أن حلّ في بلاط من خرجوا على الموحدين ، وأصبح
من كبار رجال الدولة وشعرائها الناطقين باسمها (٤) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ٢٠٣ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٦٩ .

(٣) مجمع البحرين : عند طنجة في أقصى بلاد المغرب . تفسير ابن كثير
٩٢/٣ .

(٤) يبدو أن التمريض بالخلافة الموحدية وأصحابها ، كان من سمات أدب البلاط
الحفصي . فقد هجا ابن عميرة المعتضد الموحدى بعد موته بسواد لونسه ،
واعتماد جيشه على النصارى ، في أبيات مدح لأبي زكريا . أنظر الأبيات في :
اختصار القدح ص ٤٤ .

ولما كانت الخلافة الموحديّة ، قد أدخلت النصارى إلى المغرب ، وأقامت لهم الكنائس وأشركتهم في الحكم ، فقد استغل ابن الأبار هذه القضية في ذمّ الخليفة الموحديّ والتحريض عليه ، والدعوة للإطاحة بعرشه . لأنّه يرى أنّه ليس أهلاً للخلافة ، فالخلافة بحاجة إلى من يحيي الإسلام والمسلمين ، ويميد ما ضاع من أرضهم ، ولم يست بحاجة إلى شخص لا يؤمن بالله ، أو شخص أذلّ الإسلام وأهله وأطى من شأن الكفر وأهله . يقول ذاماً الخليفة الموحديّ (١) ، ومحرّضاً عليه (٢) :

سُتَنْصَرَأُ فِي عَمَى أَيْلَى الْأُذَانِ أَذَى
وَسُخِطَ أَبَاطِطُهَا بِالنَّاسِ رَاحِمِهِمْ
لَا وَزَرَ أَثْقَلَ مِنْ وَزْرِ تَحَطُّطِهِ
لَمْ يَثْنِ غَيّاً إِلَى رُشْدٍ أَعْتَقْتَهُ
أَدَا (٣) لَكِنْ عِلْمًا الْوَحْيِ يَحْزَنْهُمْ
إِذَا هُمْ هَمِينُوا أَصْفَى لَهُمْ طَرَبًا
وَالْحَالُ شَاهِدَةٌ أَنْ لَيْسَ مُتَقَدِّمًا
بَيْنَ الدُّخَانِ وَالْخَنَازِيرِ اسْتَقَرَّ السِّقَى

ويقول مهذّداً بالإطاحة بطه بمرآكش (٤) :

وَلَيْسَتْ لَهُ مَرَاكِشُ بِقَرَارَةٍ وَأَنْتَ وَمَا زَالَتْ مَظَاهِرُهُ حِمَصًا (٥)

(١) المقصود هنا الخليفة السّعيد .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٥١ .

(٣) أدال منه : غلبه عليه وأظفوه به .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٧١ .

(٥) حمص : هي اشبيلية . انظر: الرّوض الممطر ص ١٩٩ .

فهذه السخرية ، وهذا التصريح والتعديد ، إنما هو دليل على
ولا * ابن الأبار للخلافة الحفصية ، ومعارضته لكل خلافة سواها . وهو أيضا
بشرى وتمهيد لتحقيق أمل الأمير الحفصي ، الذي منذ استقلاله بأفريقية كان
يتطاول إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسي الدعوة (١) .

ويبدو أن ابن الأبار الذي أخلص للخلافة ، ونذر نفسه للذود عن
حياتها ، لم يكن يفضلها على الخلافة الموحدية فقط ، بل كان يراها
أفضل خلافة في المشرق والمغرب ، فهي الخلافة الإسلامية القوية في تلك
الفترة ، التي يجب على كل من في المشرق والمغرب إطاعتها ، والوقوف إلى
جانبها ، ويتبدى ذلك في بيته ، الذي يدعو فيه الأمير الحفصي إلى
المدول عن مراكش إلى المشرق (٢) :

وَأَصْرَفْ عَنَّاكَ عَنْ مَرَاكُشِ ثِقَةٍ بِالْفُجْجِ فِيهَا إِلَى مَرْمَدَانَ (٣)
وفي قوله أيضا (٤) :

سَتَجِيهُ عَقَبَ الْغَارِبِ شَامَهَا وَسَتَقْدِي يَمَنَ بِهِ وَعِـرَاقُ

* * * * *

(١) انظر : تاريخ ابن خلدون ٦/٦٠٢ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٥٣ .

(٣) بغداد : هي لفظة في بغداد . انظر : الرض الممطار ص ١٠٩ .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٩٥ .

وقد كان أبرز ما يميّز فترة حكم أبي زكريا الحفصي ، كثرة غزواته وفشواته . وهو أمر يتوجب على دولة فتية كدولة بني حفص ، بمعد أن خرج الحفصيون على الدولة الموحدية ، وبدأوا يطمعون على إضعافها ، إسقاطها .

ولم تكن الطريق مهددة خالية من العقبات في وجه الخليفة المستقلّ الخارج على خلافة حكمت المغرب والأندلس وإفريقية . ولم تكن البلاد الإفريقية ، مقرّ الخلافة ، في حالة هدوء وأمن ، فقد كان فيها أكبر حركة كانت قد أضعفت الخلافة الموحدية وأتعبتها ، وعاشت في إفريقية ، وهي حركة ابن غانيم . وثمة ثورات أخرى ظهرت بمعد إعلان الخلافة الحفصية كثورة أهل أوراس ، وثورة الهرغي وغيرهما من الثورات . وكان على الأمير الحفصي إخضاع الثائرين أولاً ، ثم الممل على بسط نفوذه ، وتوسيع رقعة خلافته ، باقتطاع بعض الأجزاء من الخلافة الموحدية في المغرب .

ومعنى هذا أنّ الظروف التي أحاطت بالخلافة الجديدة ، كانت تفرض عليها مزهدا من الفشوات لصدّ المتمردين والثائرين على الخلافة . وقد أكثر كتب التاريخ من الحديث عن فشوات أبي زكريا ، المؤسس الحقيقي للخلافة ، حتى صوّرت بالبطل الذي لا يهزم ، فلم تذكر أنّه هزم حتى ولو في معركة واحدة ، فالتصّر حليفه دائما ، وما من قوة تمثلّضه إلاّ وفشل وتغلّى .

وكان لتلك الانتصارات الباهرة ، والشخصية القيادية القوية الحكيمة ، في فترة ضعف فيها الخلافة في المغرب ، عبق الأثر في النفوس عامة ، إذ استطاعت القيادة بقوتها ، نقل الناس من حياة القلق والخوف إلى حياة الأمن والرخاء . وكان لتلك الانتصارات أيضا ، عظيم الأثر في نفوس شعراء البلاط على وجه الخصوص ، الذين وجدوا في تلك القيادة والانتصارات الباهرة ، سبلا ونهما يخرقون منه طادة شعراءهم . فمقب كل انتصار يجلس الخليفة على أريكته ، ويأخذ الشعراء بتحير قصائد المدح ورقمها إليه ، مهنئين ومحدثين عن قوته وقوة جيشه (١) .

(١) راجع ص ٨٠ من هذه الدراسة .

وكان على رأس المنشدين في هذه الانتصارات ، شاعر بارز من شعراء البلاط ، هو صاحبنا ابن الأبار ، الذي تشهد قصائده الشعرية على أنه قد سخر موهبته الشعرية للدولة الحفصية وأميرها المحب إلى نفسه أبي زكريا . وكأنه كان يعمل دأبا على تسجيل طعمة بطولية لشخصية أبي زكريا ، ودولته الفتية . فما من انتصار يحققه الأمير ، إلا ويقف ابن الأبار منشدا ومتغنيا ومشيدا . ولم يسجل ابن الأبار الانتصارات فقط ، بل سجل أيضا ، ذلك التسلل من المبايعات وإعلان الطاعة للأمير الحفصي ، لأنها في نظر الشاعر انتصار آخر ، دون رفع سيف فيه .

لقد رسم ابن الأبار في قصائد مدحه ، شخصية مثالية في قوتها وعظمتها للقائد أبي زكريا ، كما تحدث فيها عن قوة الجيش الحفصي ، ووسائله الحربية من سيوف ورمح ووسائل حارقة وخيل وأساطيل ، وسجل فتوحاتهم وجميعاتهم ونتائج معاركهم ، وسخر من أعدائهم وأكثر من هجائهم . وإن الدارس لمدائحه ، مضطرا للاطلاع على تاريخ بني حفص ، لأنها سجل تاريخي ، لطعمة البطولة الحفصية منذ استقلالهم عن الموحيدين ، وحتى موت المؤسس الحقيقي للخلافة سنة ٤٧٤ هـ .

وابن الأبار في مدائحه ، يكثر من الإشارة إلى هدف الحرب الحفصية ، وأنها قامت لإعلاء كلمة الله ومحقق الضلال وأهله ، لذا تجد الله وملائكته والناس أجمعين ، يقفون إلى جانبها ، يقول (١) :

حاط الهدى بجلاله وجهاده
فكبا لمعظم الضلال وطاحا

(١) مخطوطة الديوان : ص ٤٢ .

ويقول (١) :

كَفَاهُ اتِّصَافًا بِالْكَفَايَةِ أَنََّّهُ مِنْ اللَّهِ مُنْصَوِّرٌ ، وَلِلَّهِ فَاصِرٌ
ويقول كذلك (٢) :

لَهُ الْأَمْلَاقُ جُنْدٌ ، وَالنَّاسُ سِلَاحُكَ حَرْطُهُ مَسَدٌ

إنَّ حديث ابن الأثير ، عن الحرب الحفصية وهدفها ، وتأيد
السماء والأرض لها ، لا تُلان منه عن تأييدها ، وهو أمر يتوجَّب عليه كشاعر
بلاط . كما أنَّ حديثه من قوَّة القائد الحفصي وجيشه - كما سلاحظ فيمينا
بمقد - ، لمتبيان أنَّ الحرب الحفصية منتصرة لا محالة ، لجمعها بين الصفات
المادية . من قوَّة وشجاعة ، وبين التأييد الإلهي لها ، لهدفها عن
الضلال ومعاربتها له . وهذا يعكس أيضا نظرة ابن الأثير بخاصة نحو الحرب ،
ونظرة مجتمعه . فنظرة إسلامية نابعية من ثقافته الإسلامية كمحدث وفقه ،
يرى أنَّه لا بدَّ من الجمع بين القوى المادية والسموية ، من حيث الإغداد
المادي والتأييد الإلهي .

وقد أكثر ابن الأثير من الحديث عن أحوال إفريقية ، قبل إقطاعها
لأبي زكريا ، وكيف أنَّها كانت طيبة بالأعداء ، الذين عطاها على تخريبها .
فأصبحت وارفة الظلال بمقد تطهير الأمير لها ، يقول (٣) :

أَطَاعَتْكَ إِفْرِيقِيَّةٌ فَكَفَيْتَهَا
عُصَاةٌ عَلَى إِتْلَافِهَا أَيُّطَفُوا غَضَا
وَكَانَتْ غِيَاظًا بِالْعِدَى فَأَعَدَّتْهَا
رِيَاظًا يَرْفُ النَّوْرُ أَثْنَاهَا غَضَا

(١) مخطوطة الديوان : ص ٩٥ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٥٧ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٧١ .

فالبلاد الإفريقية ، كانت في حالة خوف واضطراب ، طيبة بالأعداء ، الذين
عطوا على إتلافها وتدميرها ، فكانت بحاجة إلى من يقف في وجههم . وكأنه
بهذه الإشارات يحاول إيجاد سبب حقيقي للحرب الحفصية ، وأنها قامت
لترجيح الناس وتسعدهم . ولقد أخذ أبو زكريا على عاتقه ، تحقيق الأمر
والصلاح لتلك البلاد ، فبدأ بفتوحاته التي كان لها نتائج مدوية .

وكان شعر ابن الأبار سجلاً تاريخياً لفتوحات أبي زكريا ، ومبايحاته
منذ انفصاله عن الموحدين ، فهو لم يغفل فتحاً أو مبايعة ، إلا وضمّنها
في قصيدة مدح ، مذكراً ومحدّراً وناصحاً الأعداء بأن يمتثلوا لما أصاب
غيرهم . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تتبع قصائد مدحه الحربي من
الناحية التاريخية ، لأنّ ناسخ الديوان ، لم يكن يشير إلى الفتح الذي كانت
القصيدة تقال فيه في مقدمتها عند تقديمه لها ، إلا في قصيدتين ، واحدة في
فتح تلصان ، والأخرى في فتح سبتة ، إلا أنّ الأحداث الواردة في بعض
قصائد مدحه ، تُعين الدارس أحياناً على معرفة الفتح الذي قيلت القصيدة
فيه . ولكن تظّل هناك مجموعة من قصائد مدحه الحربي ، يصعب على الدارس
تحديد الانتصار الذي قيلت القصيدة بالتهنئة فيه . وسنحاول فيما يلي
من صفحات ، تتبع فتوحات بني حفص كما وردت في شعره . فعن ابن الأبار
لم يكن بإفريقية ، منذ انفصال الأمير الحفصي سنة ٦٢٧هـ عن الموحدين ،
وحتى سقوط بلده ورحيله إلى تونس واستقراره فيها سنة ٦٣٧هـ ، إلا أنّنا
نجد في قصائده يسجل انتصارات الأمير وفتوحاته ، خلال هذه الفترة . ومن
الجدير بالذكر ، أنّ إشارات ابن الأبار للمبارك والانتصارات الحفصية التي لم
يشهد لها ولم يكن بتونس وقت حدوثها لا يخصّها بقصائد مستقلة عادة ، بل
تأتي مضمّنة في قصائد مدحه .

ولما كانت حركة يحيى بن غانية ، متميز من أقوى الحركات وأكثرها
عيشا وتخريبا في البلاد الأفريقية ، فقد كان على أبي زكريا * بداية وقبل كل
شي * ، تأمين البلاد من شروره ، فجهز جيشا كبيرا وتوجه لمحاربتها ، وظل
في مقارعتها وتشريده ومن تبعه من العرب ، إلى أن هلك سنة ٥٦٣ هـ ، فانقطع
عقبه وذكره (١) .

وقد أشار ابن الأبار إلى مهلك بني غانية في قصائد مدحه ، فحدثت
عن قوة ابن غانية ، ليمطي بذلك قيمة لفمائل أبي زكريا * وجيشه ، إذ لو لم
يكونوا على مستوى كبير من القوة ، لما استطاعوا السيطرة على ذلك المتمرد
الشجيرة ، يقول (٢) :

قَسَمَ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ تَمَرَّدُوا وَتَسَنَّنُوا (٣) صَرَخَ الشَّقَاقُ مَرَدًا
أَيْنَ ابْنِ غَانِيَةٍ وَأَيْنَ غَسَاوُهُ لَا طَاحِدَ إِلَّا وَأَصْبَحَ طُحَّادًا

وهشير في قصيدة أخرى إلى دهائه ، وإلى أن أحدا قبل الأمر
لم يتمكن منه بقوله (٤) :

مَحَاهُ وَكَانَ ذَا دَمِي طَاحِلًا بَأَيْتَرَمِنْ صَوَارِمٍ قَصِيرًا
وَكَمْ غَشِيَ الْوَفَى وَلَهُ وَثِيرٌ فَبَنَدَلٍ بِالزَّفِيرِ مِنَ الزَّيْثِيرِ

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون ٥٩٦/٦ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ٦٩ .

(٣) تسنم الشي * : ركه واعطاه .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ٨٧ .

ويقول كذلك (١) :

سَيُوفُ بَنِي أَبِي حَفْصٍ نَفْسُهُ وَقَادَتُهُ إِلَى سَوْءِ الْحَيَاةِ
وَلَوْلَا مَا لَسَقَرَهَا حُرُوسًا كَمَا اضْطَرَّتْ عَلَيْهِ لَظَى السَّمِيرِ (٢)

ومع أن ابن الأبار ، كان عفيف اللسان ، كريم الخلق ، فخلا شعره من الهجاء . إلا أننا نجدده وهو يتحدث عن أعداء الأمير في شعره ، يكثر من هجائهم والا ستخفاف بهم ، ويظهر عاطفته الحاقدة عليهم . ويمتد ابن الأبار في سخريته على الأسلوب الاستفهامي أحيانا ، وعلى السرد المادي في أحيان أخرى ، فمسن سخريته بابن غانية (٣) :

أَيِّنْ ابْنُ غَانِيَةٍ وَأَيِّنْ غَنَاءُ لَا ذَاكَ مَحْسُوسِ الْوَجْهِ وَلَا ذَا
أَذَى وَأَذَى فَسَادُهُ وَعِنَادُهُ فَكَفَى الْوَرَى مَا أَذَى مِنْهُ وَأَذَى

ويقول أيضا (٤) :

أَيِّنَ الْجَبَايِرُ اسْتَلَوْا إِلَى أَمَدٍ قَاسَتْ أَصْلَتَهُمْ عَوَالِيَهُ بِمَا صَالَسُوا
أَلَتْ خُورًا مَفَانِي آلِ غَانِيَةٍ بِهِ إِغَالَتُهُمْ (٥) ، لِلدَّهْرِ أَغْوَالٌ

(١) مخطوطة الديوان : ص ٨٧ .

(٢) ربما يكون الشاعر في هذا البيت يشير أيضا إلى وقائع أبي محمد عبيد الواحد بابن غانية ، بالإضافة إلى وقائع أبي زكريا . أنظر وقائع أبي محمد بابن غانية في : تاريخ ابن خلدون ٥٨٢/٦ وما بعدها .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ٧٦ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٧١ .

(٥) غاله غولا : أملكه .

وعاطفة الحقد والكراهة والشماتة ، واضحة بشكل جلي في الأبيات ، وهذا حال ابن الأبار دائما في هجائه وسخريته بأعداء الأمير .

ويبدو أن ابن الأبار ، لم يسجل ما آل إليه ابن غانية من سوء المصير ، إلا لتخليد القوة الحفصية ، وردع غيره من المتمردين ، لملهم يعتبرون بما وصل إليه ، على الرغم من عظم قوته ، واشتداد خطره . وكأنه يريد أن يقول : إنه لا طاقة لأحد على القوة الحفصية ، وإنه يحسن بمن تستول له نفسه الثورة والتمرد ، أن يلتزم الهدوء ، خوفا من أن يصير إلى ما صار إليه ابن غانية .

ومد تمكن الأمير الحفصي من ابن غانية ، نهضت عزائمه إلى تدعيم أرض المغرب ، فخرج من تونس ، يؤم بلاد زناتة (١) بالمغرب الأوسط ، وقد تم له إخضاعهم (٢) .

وفي سنة ٦٣٦ هـ ، توجه أبو زكريا إلى أهل أوراس ، وهم هوار ، بمد أن ظهر منهم الثقات في الطاعة ، ففك بهم قتلا وسبيا (٣) . وقد وردت إشارات في قصائد ابن الأبار لوقائع الأمير الحفصي في زناتة وهوار ، فمن ذلك قوله (٤) :
بحسبك في هوار زناتة وقائع هابتها سليم وعامر (٥)

(١) زناتة : هم أعاجم من أعاجم المغرب ، موطنهم المغرب الأوسط . انظر : تاريخ ابن خلدون ٦/٦٠ .

(٢) انظر في إخضاع أبي زكريا لزناتة ، المصدر نفسه ٦/٥٩٧ .

(٣) أخبار ذلك في : المصدر نفسه ٦/٥٩٨ .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ٩٥ .

(٥) يقصد هنا "بنو عامر بن زغبة" موطنهم في آخر موطن زغبة من المغرب الأوسط قبل تلمسان . انظر أخبارهم في : تاريخ ابن خلدون ٦/١٠٥ وما بعدها .

أما إخضاع القبائل المربية التي كانت تشكل صدر قلق وفوضى منذ أيام الموحدين ، وخاصة أن بعضها كان من أتباع يحيى بن غانية ^(١) ، فلم تفصل لنا كتب التاريخ ، القول في كيفية إخضاع الأمير الحفصي لها ، واكتفت بالإشارة إلى أنه بعد تمكن الأمير الحفصي من ابن غانية ، خطت ربح المرب من سليم وحلال ^(٢) ، وشرّد الكثير منهم ، وطاردهم الأمير الحفصي ، حتى تمكن من إخضاعهم ، وضمهم إلى صفه ، وإشراكهم معه في حروبه ، فكان منهم من اشترك معه في فتح تلمسان ^(٣) . ولم توضح المصادر التاريخية أيضا ، إلى أي زمن استمرت مقارعة الدولة الحفصية للقبائل المربية ، ومتى استطاعت إخضاعها ؟ وعلى الرغم من ذلك ، فإنه من المرجح أنه قد تم إخضاعها أو إخضاع معظمها قبل سنة ٦٤٠ هـ ، ذلك أن بعضا منها قد اشترك في فتح تلمسان الذي كان سنسنة ٦٤٠ هـ ، كما ذكر ابن خلدون .

وهناك قصيدة طويلة لابن الأبار ، بلغت ستة وثلاثين بيتا ، في مدح الأمير أبي يحيى مظلّمها ^(٤) :

أعدّ نظراً إلى الزمن النّضير
تري القدر الوحيد بلا نظير
تحدث فيها الشاعر بشكل سهب عن القبائل المربية ، وإخضاع الأمير لها ، كما تحدث فيها عن إخضاع ابن غانية والتمكّن منه . ويبدو أن القصيدة قليلة ، إشر تمكن أبي يحيى من بعض تلك القبائل التي أشار إليها في قصيدته ، وحلّول ضيفا على والده في تونس بعد هذا الانتصار ، كما أشار الشاعر ^(٥) . ويرجّح

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون : ٢١/٦ .

(٢) سليم وحلال : هم مجموعة يطلون من مصر ، نزلت إفريقية سنة ٤٤٣ هـ . انظر أخبارهم في : المصدر نفسه ٢٧/٦ وما يليها .

(٣) انظر : المصدر نفسه : ٦٠٨/٦ .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ٨٣ .

(٥) انظر ذلك في : المصدر نفسه ص ٨٥ .

أن يكون وقت انشادهما بين سنة ٦٣٧ هـ - ٦٤٠ هـ ، لأن هذه هي الفترة التي
 وجد فيها ابن الأبار في تونس . وهذا يعني أن محاربة الدولة الحفصية للقبائل
 المربية لم تنته بانتهاج ابن غانية ، بل - كما يبدو - استمرت بعض بطون تلك القبائل
 في التمرد والمصيان . وفي القصيدة ما يؤكد أن أبا يحيى كان يقف جنباً إلى
 جدب مع والده في معاركه ، وخاصة بمد أن ولّاه على بحاية ، لأن القصيدة - فهي
 مدح أبي يحيى بمد أن تم له إخضاع معظم تلك القبائل ، وسيأتي ما يدعم ذلك ،
 عندما يأتي الحديث عن إخضاعه لبعض القبائل التي كانت تعيش بين قسطنطينية
 و بحاية . ومن هنا كان تركيز ابن الأبار على صفات أبي يحيى المربية ، كتركيزه على
 صفات والده .

وإشارات ابن الأبار إلى مشاركة أبي يحيى لوالده في فتوحاته إشارات
 قيمة ، لأن كتب التاريخ قد ركزت على شخصية أبي زكريا في الفتوحات الحفصية ،
 وأغفلت دوره ، ووطي عهده أبي يحيى ، وهذه قيمة تاريخية لشعر ابن الأبار ،
 الذي نبه إلى بعض ما أغفلته كتب التاريخ .

وقد أشار الشاعر في قصيدته إلى بعض القبائل النائرة والمسالمة بشي
 من التفصيل ، لم نجده - كما أشرنا - في كتب التاريخ ، فعند ذلك قلنا مخاطباً بني
 زغبة ورياح الذين كانوا من أتباع يحيى بن غانية . وصفها لهم ، وبيّنا أنهم مهما
 تحصنوا . إلا أنه لا مفرّ لهم من الأمير الحفصي (١) :

وإن غرّ الفؤاة لدوى جبالٍ يرون بها نسوراً في وكسور
 فلمسوا في حصون بل سجونٍ وليسوا في قصور بل قبور

(١) مخطوطة الديوان : ص ٨٦ .

ويبدو وأنّ تمردهم لم يستمر طويلاً ، إذ عادتا فاستقامتا بعد ذلك .
وفي ذلك يقول ابن الأثير (١) :

ولولا أنّا ركدت ريباحاً لبات منه باليوم المسمى ريب
وزاغت زغبة ثم استقامت فقدّ عادت بمفوء من قدير
وعلى الرغم من طاعتها ، إلا أنه كما يبدو ، أنّ بعض بطون زغبة لم تعلن الطاعة
إلا بعد أن نالها القتل الكثير حتى ذلوا ولم يبقوا منهم سوى ، وفيهم يقول
الشاعر (٢) :

وربّ سؤد لبني سؤس مقود بالجرائر في جريـر (٣)
ومضهم أيضاً بنو يعقوب ، الذين أشار إليهم الشاعر في قصيدة أخرى بقوله (٤) :

أما بنو يعقوب قد أودى بهم من بأسه الإرهاب والإرهاق
عدّوا الوجود فواجئاً وفواجئاً وجدوا بها طعم الحام وذاقوا

وللشاعر قصيدة أخرى ، أشار فيها إلى عرب الممقل (٥) وقد مضى
إلى الحضرة الحفصية ، لمبايعة الأمير أبي زكرياء ، بلغت ستة وأربعين بيتاً ، بدأها
بالاشادة بالمبايعين ومدحهم ، يقول (٦) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٨٧ .

(٣) الجرائر : الذنوب والجريز : الخليلقان به .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٩٠ .

(٥) لقد ورد بيت في القصيدة بعد البيت الثالث يشير إلى أنّ القصيدة قيلت في

الممقل ، ولم نشته لعدم وضوحه . والممقل : من أوفر قبائل العرب ،
ومواطنهم قفار المغرب الأقصى ، وهم من عداة هلال . انظر : تاريخ ابن

خلدون ١١٨/٦ .

(٦) مخطوطة الديوان : ص ٢٤ ، ٢٥ .

هنيئاً (١) لوفد الفوب من صفوة المرب
 قدوم على الرعب المجير من الرعب
 ألم ترهم أفضوا إلى قاض الندي تلقاهم بالناظر الرحيم والرحيب
 بدور إذا ما قطب الجواشرقسوا تدور رحاهم من هلال على قطب
 ومن المرجح أن تكون المبايمة قد تمت بعد سنة ١٦٣٧هـ، أثناء وجود
 ابن الأبار في تونس، لأن القصيدة تهنئة مباشرة بوفد قد موا لمبايمة الأمير.
 وكان الأمير أبو زكريا*، قد تمكن من بجاية وقسنطينة (٢) سنة ١٦٢٦هـ
 وعقلاً بهاميه يحيى زكريا* على ثغربجاية سنة ١٦٣٣هـ، ثم عقد له البيعة من بعده
 سنة ١٦٣٨هـ، وخطب له على المنابر (٣).
 وقد أشار ابن الأبار إلى ولاية أبي يحيى على ثغربجاية، طالباً من
 الأمير بأن يخصه المستنصر بواحدة مثلها في قصيدة منها (٤):
 هذي بجاية قد سددت ثغورها بمبارك يضي الأهور مسدداً
 واخص محمد الأمير بامرة يرقى بها فوق الكواكب صمداً

(١) في الأصل "هياً".

(٢) وردت في: تاريخ ابن خلدون ٩٥٠/٦ هـ "قسنطينة"، وفي الروض الممطار
 ص ٤٨ "قسنطينة".

(٣) راجع في ذلك: تاريخ ابن خلدون ٦١٩/٦ هـ ٦٢٠.

(٤) مخطوطة الديوان: ص ٦٨.

ويبدو أنه خلال ولاية أبي يحيى على بجاية ، قد حدثت بينه وبين قبيلة سد ويكنش (١) التي كانت تمش بين قسطنطينة وجاية ، إحدى الممارك . وقد سجل ابن الأبار تلك الوقعة في قصيدة مدح فيها الأمير أبا يحيى ، بلغت خمسة وسبعين بيتاً وعرض فيها بقائد المعركة ، وأشار إلى ما أصابه من ذلّ وانكسار . ولم تشـر كتب التاريخ إلى هذه الحادثة أيضاً . يقول ابن الأبار (٢) :

أَعَنَّ سَدَ وَيَكْنَشَ تَنْبُو ظُبَاهُ وَنَ عَادَاتِهَا فَرَى الْفَرَى (٣)
ويكمل حديثه (٤) :

وَكَيْفَ رَجَا ابْنُ سَوَّاقٍ نَجَاةَ وَلَيْسَ لِمَا عَنَاهُ بِالنَّجَاةِ
أُحِيطَ بِهِ فَأَذَنَّ (عَنْ) (٥) صَفَارٍ يَذُمُّ عَوَاقِبَ الْمَرْغَى الْوَفَاةِ
وَالْحَفَّ فِي الْأَمَانِ عَلَى اهْتِدَاةٍ إِلَى اسْتِنْقَانِ مَعْشَرِهِ الْفَوَاةِ
وَهَانَ عَلَيْهِ أَنْ وَهَنْتَ قُسْوَاهُ لَيْسَ مِنْهُ بِالسَّبَبِ الْقَسْوَاةِ

ومن الحوادث التي سجلها ابن الأبار في شعره أيضاً ، أنه في سنة ٦٣٩ هـ ، حاول يعقوب بن يوسف الهرغي الثورة بطرابلس والاستبداد هو وجماعة ، ولكنهم باءوا بالفشل ، وتمكن السلطان منهم ، وقتلوا جميعاً ، ومثبرؤوسهم إلى باب السلطان ، ونصبت أشلائهم بأسوار طرابلس ، وأصبحوا عبرة للمعتبرين ، وأنشد الشعراء في التهئة بهم ، وقامت للبشائر سوق لكائناتهم (٦) . ومن الغريب

(١) لقد ذكرها الشاعر "سكودش" ويبدو أنه تصحيف من الناسخ . أنظر أخبار

هذه القبيلة في : تاريخ ابن خلدون ٣٠٣/٦ وما بعدها .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ٢١٧ .

(٣) الفرى : المٌختلق .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ٢١٨ .

(٥) زيادة ليعتقيم البيت .

(٦) تاريخ ابن خلدون : ٥٩٩/٦ .

أنا لم نجد لابن الأبار في ذلك ، غير مقطوعة يقول فيها (١) :
 وَصَابَةٌ قَطَفَتْ رُؤُوسَهُمُ الطُّبَا قَطَفَ الْبَنَانُ أَزَاهِرَ الْبُسْتَانِ
 فَتَبَيَّنَ رَوَاوُ مَا شَعَرُوا بِأَنَّ وَرَاءَهُمْ لِلْحَقِّ أَنْصَارًا عَلَى الْبُهْتَانِ
 فَانْظُرْ إِلَى مَا مَاتَهُمْ مُسَوَّدَةً كَاللَّيْلِ إِلَّا بَارِقَ الْأُسْتَنْبَانِ
 ولا نظن أن الشاعر اكتفى بهذه المقطوعة ولكن ربما تكون القصائد التي قالها
 في التهنئة بقتلهم غير واضحة ، بمعنى أنه لا توجد فيها إشارة تبين أنها
 قد قيلت في هذه الحادثة ، ككثير من قصائد مدحه الحربي .

على أن أكثر فتح توقف عنده ابن الأبار ، هو فتح تلحسان لمظمه
 وما ترتب عليه من نتائج (٢) . ففي سنة ٦٣٩ هـ ، نهض أبو زكريا الحفصي لفتح
 تلحسان وإخضاع يفراسين ، عندما علم باتصال الرشيد الموحد بـه ، وقصد
 تم له ذلك ، فماد إلى تونس ، " فبرر المين باستداد ملكه ، وبلغ وطره ، والإشراف
 على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه " (٣) .

وقد رفع ابن الأبار في هذا الفتح مجموعة قصائد تهنئة ، كان من
 أبرزها وأشهرها وأهمها ، قصيدته التي يقول فيها : (٤)
 لِمَنْ وَقَعَتْ بِالْمَغْرِبِ ضَمُصَمَتُ الشَّرْقَا
 أَرَأَيْتَ نَجْمَ الْوَارِقِينَ فَمَا يَرْقُصُ (٥)

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٤٤ وقد تكررت ص ١٦٣ ، وانظر الأبيات والحادثة
 في رحلة التجاني ص ٢٧٠ .

(٢) لقد كان من أبرز نتائج فتح تلحسان ، إقبال كثير من البلاد الأندلسية
 والبلاد المجاورة لتلحسان ، على مبايعة الأمير الحفصي ، واعتداد رقصة
 الدولة وإشرافها على الخلافة الموحدية في المغرب .

(٤) تاريخ ابن خلدون : ٦ / ٦١٠ .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ١٩٠ .

(٦) رَقَا الدَّمُعُ أَوِ الدَّمُ : جَفَّ وَانْقَطَعَ .

وَأَزْجَتْ مِنَ النِّقْعِ الْمِثَارَ سَحَابًا تَأَلَّقَ مَصْقُولُ الْحَدِيدِ بِهَا بَرْقًا
مُطَبِّقَةً عَرْضَ الْبَلَالِ وَطَوَّلَهَا سَاسًا فَلَا وَجْهَ إِلَّا وَاجْهَتُهُ وَلَا أَفْقًا

وقد بلغت هذه القصيدة ثمانية وسبعين بيتاً ، ويدعو أنها قد رفعت للأمير الحفصي ، فوزعوا من هذا الفتح العظيم ، وتختلف هذه القصيدة عن غيرها من قصائد مدحه الحربي ، في أن الشاعر قد ركز فيها على تعظيم الانتصار وتمجيده ، ولم يترصّص فيها لصفات الأمير الحفصي الحربية وغيرها ، إلا بعد البيت الرابع والستين ، بمكس بقية قصائده ، التي كان يركز فيها على صفات الأمير ، أكثر من تركيزه على المعركة نفسها ، كما أنها تتأزق بقوة ألقاها وضاحتها ، التي تتناسب مع الانتصار .

وقد دار معظم حديثه فيها عن الجيش الحفصي وقوته وما فعله بالأعداء ، وحدّد يوم المعركة ، وهو يوم السبت (١) ، وقام بهجاء يغمراًسن وجنده والاستخفاف بهم ، من ذلك قوله : (٢)

دَنَتْ غِمَارَاتُ الْمَوْتِ مِنْ يَغْمَرَأَسَنِ فَأَجْفَلَ كَالْخُرْقَاءِ يَمْقُفُ الْخُرْقَا (٣)
وَمِنْ حُبِّهِ يَوْمَ الْهَيْجَا سَلِيقَسَةً تَسْلِيهِ مِنْ بَيْنِ آسَادِهِ سَلْقَا (٤)
يَكُلُّ حَدِيثَهُ سَاغَرًا :

فَأَيُّنَ الَّذِي كَانَ أَدْمَى مِنْ زَعَامَةٍ لِمَقْهَرِهِ ، يَا شَدَّ مَا اجْتَنَبَ الصَّدَقَا

(١) انظر البيت في : مخطوطة الديوان ص ١٩١ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) الخرقاء : الناقة لا تتمهد مواضع قوائمها ، واعتسف الطريق : سار فيه على غير هدى ، والخرق : القفر أو المفازة الواسعة .

(٤) السلق : الذئب .

ويقول في هجاء جنده أيضا (١) :

لَمَعَرِي لَقَدْ هَانُوا وَكَانُوا أَعَزَّةَ
وَمَنْ ذَا يُقَاوِي السَّحَرِ وَالْبَيْضِ وَالزُّرْقَا
وَفَرُّوا وَكَانَ الْكَرْهُنَهُمْ سَجِيَّةَ
وَمَنْ ذَا يُطِيقُ الطَّمَنَ وَالضَّرْبَ وَالرَّشْقَا
بَأَرْجُلِهِمْ وَافُوا مَوَارِدَ حَيْنِهِمْ
فَبَعْدًا لَهُمْ بَعْدًا ، وَسُحْقًا لَهُمْ سُحْقًا

وقام بتهديد مدينة سلا وفاس وسبته ، وهو يتأمل بأن يقوم الأمير الحفصي بفتحها جميعا ، ويأمل أيضا بأن يكون هذا الانتصار فاتحة خير لا فتاح الأندلس . وأشار في قصيدته إلى كيفية إحاطة الجيش الحفصي بطلسان ، واستيلائه عليها ، والنييران التي اشتملت فيها . وركز في نهايتها على صفة لا بد من توافرها في القائد الناجح الواصل من نفسه وقوته ، وهي العفوع عن المضي بعد التمكّن منه ، وفي ذلك يقول ابن الأبار (٢) :

رَحَّ لِلْإِمَامِ الْمُتَمَضِّي بِقِيَادِهِمَا فَأَحْرَزَهَا عِلْقًا (٣) ، وَأَوْسَعَهَا عِتْقًا
وَأَسْرَفَ أَهْلُهَا مَعَاصِيَ أَوْبَقَتِهَا (٤) فَطَرَا زَادَ أَنْ أَفْضَى حَنَانًا وَأَنْ أَبْقَى

ومن القصائد التي رفعها ابن الأبار أيضا ، في التهنيء بهذا الانتصار ، قصيدة بلغت ثلاثة وأربعين بيتا ، مطلعها (٥) :

غَزَوْ عَلَى النَّصْرِ وَالتَّمَكُّنِ قَنَشُوهُ الْفَتْحُ غَايَتُهُ ، وَالنَّجْحُ مَبْدُوهُ

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٩١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٩٢ .

(٣) العلق : النفيس من كل شيء .

(٤) أوبقه : أهلكه ، والمواقات : الكباثر من المعاصي لأنها مهلكة .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ٤٢ .

وهي في معظمها تدور حول مدح الأمير الحفصي، وإن كان قد وصف الخيل
المحاربة فيها، وقام بهجاء يفرسان، وأشار إلى الحادثة التاريخية التي
ذكرها ابن خلدون (١)، وهي فرار يفرسان وعجزه عن حماية الأسوار (٢).

وفي قصيدة تهنئة بفتح سبته، عرج الشاعر على فتح تلسان فأشار
إلى حادثة تاريخية، وهي أن الأمير الحفصي قام بفتح تلسان، عندما
قدم عليه وفد استصرخوه على يفرسان واليها في تلك الفترة (٣)، فليكن
صريحهم، وقام يفتحها، وإنقاذها من الجور الذي لحق بأهلها، يقول (٤):
دَعَاكَ تِلْصَانٌ فَلَبِيتَ صَوْتَهَا مَجِيرًا، وَنَابَ الْجَوْرُ بِوَسْمِهَا عَصَا

لقد كان فتح تلسان، ذا أثر واضح على الدولة الحفصية،
وإشارة إلى قوتها، وامتداد طوكها، حتى أجاز ابن الأبار لنفسه، بيان
ينمت الخليفة الحفصي بأمر المؤمنين، مع أنه كان قد رفض هذا اللقب من
قبل (٥)، يقول ابن الأبار (٦):

-
- (١) انظر: تاريخ ابن خلدون ٦/٦٠٩.
(٢) انظر الأبيات في القصيدة ص ٦ من البيت (٣٥ - ٤٠).
(٣) انظر تاريخ ابن خلدون ٦/٦٠٨.
(٤) مخطوطة الديوان: ص ١٧١.
(٥) لقد ذكر ابن خلدون أن أبا زكرياء، بعد استبداده بالخلافة سنة
٦٣٤هـ، رفض قول أحد شمرائه عندما لقبه بأمر المؤمنين، وهو:
أَلَا صَبَلٌ بِالْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْتَ بِهَا أَحَقُّ الْفَالِغِينَ
انظر: تاريخ ابن خلدون ٦/٥٩٥.
(٦) مخطوطة الديوان: ص ١٤٨.

ثلاثة حبيتك في الأرميين نصر، وتحكين، وفتح مبين
لم يبق في أمرك من مريّة مها ظلام الشرك نور اليقين
أنت أمير المؤمنين السدي دولته يمن على المؤمنين
يحيى بن عبد الواحد المرتضى بن أبي حفص الدنيا ودين
فإن يكن خير طوك السورى فإن هذا العام أسنى السنين

وبعد هذا الانتصار نجد أن معظم البلاد الأندلسية (١)، تقدر
الطاعة والبيعة للأمير الحفصي، كاشبيلية، وشريش، وطريف، وجيان، وغيرها
من المدن التي اقتدت بهيمة من سبقها من المدن الأندلسية في الشرق كبلنسية
ومرسية. كذلك فقد قدمت الطاعة، مدن طنجة، وقصر ابن عبد الكريم، والمريّة،
وسجلماصة، ومكناسة (٢). وقد أشار ابن الأبار لكل ذلك وقام بتسجيله في
شعره في قصائد رفعها للأمير الحفصي مهنا ومادحا، فمن ذلك قوله في
قصيدة بلغت تسمة وثلاثين بيتا، مهنا بفتح سجلماصة وطنجة وجيان... (٣)
ألا هذه حجت تناسب طاعة سجلماصة في رفضها للمناصب
وما خالفت غرناطة رأي ربة (٤) لتشمل أنوار الهدى كل جانب

- (١) راجع في بيعات هذه المدن ص ٢١، ٢٢ من هذه الدراسة.
(٢) قدمت هذه المدن بيعاتها سنة ٤٣ هـ. انظر: الفارسية في مبادئ
الحفصية ص ١٠٩.
(٣) مخطوطة الديوان : ص ٢٣.
(٤) ربة : كورة من كور الأندلس في قبلي قرطبة. انظر: الروض الممطر
ص ٢٧٩.

- وَجَيَّانَ لَمْ تَبْرَحْ كَشَلْبَ (١) وَطَنْجَةَ جارية مَوْجِ الصَّبَا والجَنَاءِ سَبَابَ (٢)
لَتَسْمَدَ بِالرَّضْوَانِ بِيَمَاتِهَا (٣) الَّتِي كَفَى شَاهِدًا مِنْهَا بِتَأْمِيلِ (٤) غَائِبِ
ويقول في قصيدة أخرى بللفت واحداً وثلاثين بيتاً ، مطلعها (٥) :
حَقَّتْ بِحَضْرَتِكَ الْفَتْوحُ جَيُوشًا تَسْبِي طُوكَا أَرَّ (تُزِيلُ) (٦) عَرُوشًا
يقول فيها فهنثا بصايمة مكناسة ، وشريش ، وقصر ابن عبد الكريم (٧) :
لِلَّهِ حِمَصٌ وَفُوزُهَا بِسَمَادَةٍ هَكَاتِ الْجَزِيرَةِ نَحْوَهَا وَشَرِيشًا (٨)
أَمَّتْ إِمَامَ الْمَدَلِ خَالِعةً بِهِ مِنْ أَعْلَى التَّأْرِيشِ (٩) وَالتَّحْرِيشِ
وَالِيهِ خَفَّتْ وَالرَّجَاحَةُ فِي الْهَوَى أَنْ يَمَجَلَ الْآوِي لَهُ وَيَطِيشًا

- (١) شَلْبٌ : من بلاد الأندلس ، منها إلى بطليموس ثلاث مراحل . أنظر : الرض الممطار ص ٣٤٢ .
(٢) الجَنَاءُ : جمع جنوب ، وهي الجهة المقابلة للشمال .
(٣) في الأصل "بيماتها" .
(٤) في الأصل "تأميل" .
(٥) مخطوطة الديوان : ص ٢٠٣ .
(٦) ليست موجودة في الأصل .
(٧) مخطوطة الديوان : ص ٢٠٤ . وهناك بيت يشير إلى بيعة مكناسة وقصر ابن عبد الكريم لم نشته لعدم وضوحه .
(٨) شريش : من كور الأندلس على مقربة من البحر : أنظر : الرض الممطار ص ٣٤٠ .
(٩) أَرَّشَ بَيْنَهُمْ : أغرى بعضهم ببعض .

دار السلام دَعَتْ قَرَارَةَ طَلْعِهِ لَا تُؤْنَسَا عَرَفَتْ وَلَا تَرْشِيشًا (١)

وفي قصيدة ثالثة بلغت ثلاثين بيتا ، مطلعها (٢) :

هُوَ الْفَتْحُ بَعْدَ الْفَتْحِ يَا ثِي سَوَّافَا وَمَا وَلَجْتُ فِي سَمْعِ لُجَّةِ الْوُغْيَا
يقول ابن الأبار فيها مهنثا ببيعة المربة ، بعد أن مدح الأمير الحفصي بكثير
من الصفات الحربية (٣) :

وَحَطَّتْ بِكَ الْيَوْمَ الْمَرْبَّةُ رُحْلَهَا فَأَقْطَعْتَهَا رَغْدًا مِنَ الْمَنِّ أَهْمِفَا (٤)
لَقَدْ قَرَعْتَ لِلْفَوْزِ بَابًا مَفْتَحًا وَأَمَّتْ إِمَامًا لِلنَّجَاهِ مَلْفَا

وفي سبعة ، وبعد فتح تلمسان ، وببيعة كثير من مدن الأندلس ، نجد ابن
خلاص (٥) والي سبتة ، يولي وجهه نحو أبي زكريا ، وبياحه . وفي ذلك يقول ابن
الأبار ، من قصيدة بلغت ثلاثة وأربعين بيتا ، مبيّنا أن ابن خلاص ، عند ما
طلب من أهل سبتة مبايعة أبي زكريا ، قد نجا من عقاب محتم (٦) ، يقول (٧) :

(١) ترشيش : اسم آخر لتونس - أنظر : الروض المعطار ص ١٣٢ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٨٣ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٨٤ .

(٤) هيغ العام هيف : أحسب .

(٥) هو أبو طلي الحسن بن أحمد بن خلاص ، من أهل بلنسية ، اتصل بالرشيد
الموحد ، فترأى له في سبتة سنة ٦٣٧ هـ . واجتمع عنده كثير من أعلام
الأدب والشعر . وبعد موت الرشيد ، بايع أبا زكريا ، ومثله بهدية
مع ولده أبي القاسم وشاعر دولته إبراهيم بن سهل . أنظر : تاريخ ابن
خلدون ٦١٤/٦ ، ٦١٥ .

(٦) أنظر مبايعة أهل سبتة في المكان نفسه .

(٧) مخطوطة الديوان : ص ١٧٢ .

نجا ابن خلاص بالخلوص ولو شوى على ضده لا نفل جمعا ولا نفعا (١)
وحينئذ بالجمهور من أهل سبتة لهيعة رضوان رأوا عقدها فرضا
تولتهم فيها السمود (٢) فأحرزوا مكانهم رفعا وعيشهم خفصا

ولم تقم المدن السابقة ، بصاحبة الأمير الحفصي ، لولا بلوغ ولده
جلفا عظيما ، واطمئنانها إلى قدرته على إسماعها ، وإيمان كل سوء فعلها ،
يقول (٣) :

كذا الخلفاء الأكرمون طاسبوا تنال بهم إكرام عفو (٤) المطالب
مالك ألفت خطما بقياد حسبا إلى ملك في المرسامي الذوايب
به اعتصمت ما تخاف على القوى (٥) فليس مروعا سرينها بالنوايسب

وفي سنة ٦٤٥ هـ ، تحرك السعيد الموحدي من حضرته المراكشية
إلى جهة البلاد التونسية ، وهو يطعم في القضاء على أبي زكريا الحفصي ،
والاستيلاء على البلاد الأفريقية . وسار بجيش كبير والتقى بأبي يحيى بن محمد
الحق أمير بني مرين ، وعقد معه الصلح ، وأمدّه الأمير المريني بجنود فسي
حركته . وسار السعيد ، فلما كان على مقربة من تلمسان ، بعث إلى أبي يحيى
بممرآسن ، يأمره بلقائه . وبالدخول تحت لوائه ، فوصله جوابه الذي أطن لسه

(١) خلص خلوصا : صفا وزال عنه شوه . انفل : انهزم . جمع من الحرب :
انهزم . انفض الشيء : انكسر .

(٢) في الأصل " السعادة " وبها لا يستقيم البيت .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ٢٣ .

(٤) في الأصل " عفو إكرام " وبها لا يستقيم البيت .

(٥) النوى : الدار .

فيه ، أنه تحت طاعته ، غير أن لا يصل إليه ولا يلقاه ، لأجل ما كان معه من بني مرين أعدائه ، لكنه يبعث معه جطة وافرة من بني عبد الوادي إخوانه وجماعته ، يكونون تحت رايته . فأقسم السعيد ، أنه إن لم يصل بنفسه إليه ، وإلا نزل بمحلته عليه . ووقعت بينهما منازعة ومقاتلة ، كانت فيها نهاية السعيد ومقتلته مع ولده المنصور ، وانهزم جيشه ، ونهبت محلته ، وشرق أهله ، وكان ذلك سنة ٦٤٦هـ (١) .

وقد اعتبر ابن الأبار ، حادثة مقتل السعيد ، على يد يغمراسن الذي كان تحت طاعة أبي زكريا ، بعد تمكنه من تلسمان ، من أعظم الانتصارات للأمير الحفصي ، دون بذل أي شيء . وقال في مدحه يهفئه بهذا الحدث العظيم ، والنصر الكبير ، قصيدة طويلة ، بلغت تسعين بيتا ، مطلعها (٢) :

حَسْبُ الْوُجُودِ عَلَى التَّائِيدِ بِرَمَانَا فَتَحَ أَعَزَّ مِنَ التَّوْحِيدِ مَا هَانَا

وقد بدأها الشاعر بهجاء السعيد ، لتقريبه النصارى ، واعتماده عليهم فسي محاربة أهل ملته . واشتطت القصيدة على أكثر من حدث وغزوة قام بها الأمير الحفصي . وقد أشار في قصيدته إلى مقتل السعيد وولده المنصور ، على يد يغمراسن ، وبين ما أصاب جيشه من هزيمة منكرة . ويذكر الزركشي ، أن يغمراسن ، كان من جطة ما انتهبه من محلة السعيد ، مصحف عثمان بن عفان (٣) ونفي ذلك يقول ابن الأبار (٤) :

(١) انظر: البيان المصرب : ٣ / ٣٨٥ - ٣٨٨ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٥٠ .

(٣) انظر: تاريخ الدولتين ص ٣١ .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٥٣ .

إِنَّ إِيَّامَ ابْنِ فَارُوقِ الْهَدْيِ عَمْرٍ
أَوَّلَى بِمَصْحَفِ ذِي النُّورَيْنِ عَثَانِيًّا
ومما يؤكد أَنَّ القصيدة قيلت بين سنة ٥٦٤٥ - ٥٦٤٦ هـ ، أَنَّ الشاعر يطلب سبب
فيها من الأمير الحفصي ، المعفوعه ، ويستشفع بوليَّ عهده ، يقول (١) :
عَسَى وَعَلَى وَلِيِّ الْعَهْدِ يَشْفَعُ لِي
فَأَسْتَعِيدُ مِنَ التَّقْرِيبِ مَا بَانَ لِي
ومعروف أَنَّ الجفوة التي حصلت بين ابن الأبار وأبي زكريا كانت بين هاتين
السنتين .

ونعمود فنقول : إن القصائد السابقة التي أشرنا إليها ، لا تمثل ما
قاله ابن الأبار ، في تهنئة الأمير الحفصي بانتصاراته ، فهناك عدد من القصائد ،
لا يستطيع الباحث أن يتعرف على الفتح الذي قيلت فيه (٢) ، وسعد الفتوحات
السابقة ، اتسعت رقعة الدولة الحفصية ، وقوي أمرها ، وخاف الخليفة
الموحدي - كما ذكرنا - ، من اعتداد طك أبي زكريا ، وخاصة أنه كان يسمى
جامدا لإسقاط الخلافة الموحدية ، والاستيلاء على المغرب ، ولكن همل
أمله القدر لتحقيق حلمه ؟ يقول ابن عذارى : " إنه لما اتصل بالأمير
أبي زكريا ، عن أبي الحسن السعيد أنه يروم الحركة إليه ، والقدوم بمعيكره
إليه ، قاصدا من حضرته المراكشية إلى تلك البلاد الإفريقية ، خرج من حضرته
التونسية في سنة سبع وأربعين ، قاصدا أيضا إلى جهة البلاد الغربية " (٣)

(١) مخطوطة الديوان ص ١٥٣ .

(٢) انظر أمثلة على هذه القصائد في : المصدر نفسه ص ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ١٨٧ .

١٢٢ .

(٣) البيان المغرب : ٣/ ٣٩٣ .

ولكن القدر كان يسايره ، فما أن وصل قسطنطينة ، حتى أصيب بمرض كانت فيه نهايته ، وكان ذلك سنة ٦٤٧ هـ ، بعد ولاية استمرت اثنتين وعشرين سنة ، أمضاها في غزو متواصل ، حتى أضحت الدولة الحفصية بمد فتوحاته ، وامتداد ملكه ، أصلاً لموحدي الأندلس في بقا الحكم الاسلامي باسبانيا (١) .

وقد استمرت الدولة في قوتها زمن المستنصر ، حتى إن أهل مكنة ، خطبوا للمستنصر بمعرفة ، وكتبوا له بيمتهم سنة ٦٥٧ هـ (٢) وكنا نتوقع من ابن الأبار - شاعر بلاطهم - أن يخلد تلك البيمة ، بكثير من القصائد كما صنع من قبل . ولكننا - ولأ سباب أشرنا إليها - لم نجد له سوى إشارة عابرة إلى تلك البيمة ، في مناسبة برء الخليفة من مرض أصابه ، يقول (٣) :

إِنَّ الْبِشَائِرَ كُلَّهَا جُمِعَتْ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْأُمَمِ
فِي نَعْمَتَيْنِ جَسِيمَتَيْنِ هُمَا بَرَاءُ الْإِمَامِ وَبِيمَةِ الْحَرَمِ

وهكذا نرى كيف أن شعر ابن الأبار ، كان سجلاً تاريخياً لفتوح أبي زكريا ، وأنه قد أشار إلى بعض التفاصيل ، التي لم تصلنا في كتب التاريخ ، مما يمطي شعره قيمة تاريخية ، ويمطيها أيضاً قيمة جغرافية ، بسبب ذلك الحشد من أسماء المدن المفتوحة والمبايعة .

وابن الأبار في قصيدة مدحه الحربي - كما نبهنا - ، لا يتمرّض للفتوح الذي قيلت القصيدة بسببه فقط ، بل يضمّن القصيدة الواحدة حديثاً عن فتوحات سابقة ، يربط السابق باللاحق ، ويتفاضل بفتح يتبع ما سبق ، لتكون سلسلة

(١) : (٢) راجع ص ٢٣ من هذه الدراسة .

(٣) : مخطوطة الديوان : ص ١٤٣ ، ونسخ الطيب ١١٩/٤ .

فتوحات متصلة ، يبين فيها الشاعر ، عظمة مدوحه وقوته واعتداد طمكه . وقد تجلّى هذا في أكثر من قصيدة من قصائد التهنئة بالفتح فمن ذلك مثلاً ، قصيدة قالها مهثماً ببيعة أهل سبتة (١) ، تحدث فيها الشاعر عن فتح تلمسان من البيت (٩ - ٢٠) ، ثم تحدث عن بيعة أهل سبتة من البيت (٢٠ - ٢٤) ، وأشار في بيتين لاحقين إلى أطمه بأن الأمير الحفصي سيستولي على فاس ورباط الفتح .

لقد كان ابن الأبار شاعر دولة ، خلّد في شعره طحمة البطولية الحفصية ، بطولة أبي زكريا ، ورسم الحدود الجغرافية للدولة الحفصية في زمن أبي زكريا ، في قصيدة ترجّح أنها قيلت في فترة متأخرة ، بعد أن أخضع أبو زكريا كل الثافرين والتمرديين واتسعت رقعة دولته ، يقول (٢) :

فذلك تلمسان وطيانة (٣) إلى السى طرابلس ردعاً ، مجددة رعوا (٤)
بلاد سقت فيها الطفافة سموه كؤوس مناياها جزاء على الطفوى
هنيئاً إمام العدل إقبال دولة تهز لها الأيام أعطافها زهوا

(١) انظر هذه القصيدة في مخطوطة الديوان : ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢١٤ .

(٣) طيانة : مدينة في أحواز أشير في أرض المغرب . انظر: الروض الممطر ص ٥٤٧ .

(٤) رعاروا : كفّ وارتدع . وقد أشار ابن الأبار بهذا البيت إلى حدود الدولة الحفصية زمن أبي زكريا الحفصي ، وكيف أنها كانت تشمل طرابلس الغرب ، وتونس ، والقسم الشرقي من الجزائر الحالية . انظر حدود إفريقية في عهد بني حفص في : المصجب ص ٣٤٩ .

وإذا كانت الدولة الحفصية ، قد اعتبرت أعظم قوة إسلامية فسي
 مقرب العالم الإسلامي في تلك الفترة ، واستطاعت أن تعد نفوذها بشكل واسع
 في غضون سنوات قليلة ، فماذا كان موقفها من المد النصراني في الأندلس ؟
 وخاصة أن مجموعة من شعراء الأندلس ، قد حلوا في البلاط الحفصي ، ولم
 تفر عزائهم عن استمرار حب الأمير الحفصي لاستعادة الأندلس ، كما سنلاحظ
 في شعراء الأبار في الفصل القادم في شعره الوطني . فهل جربت الدولة
 الحفصية خوض بعض المعارك ، ضد نصارى الأندلس ، تلبية لنداء واستصراخ
 الأندلسيين الذين يعيشون في البلاط الحفصي ؟ وهل حققت أي انتصار
 عليهم ، قد يسمد تلك الطوب المحكومة ، طوب من أخرجوا من وطنهم مجبرين ؟
 لم نتحدث المصادر التاريخية التي وصلتنا عن أي معركة ، بين الدولة الحفصية
 ونصارى الأندلس ، زمن ابن الأبار . فعلى الرغم من أن ابن خلدون قد
 أسهب في الحديث عن كل ما يتصل بالدولة الحفصية تقريبا ، حتى كان أشمل
 مصدر تناول الدولة الحفصية ، إلا أنه لم يشر مطلقا إلى أن الدولة الحفصية
 قد خاضت أية حرب مع النصارى زمن ابن الأبار . وإذا ما نظرنا في شعراء
 الأبار ، فإننا نجد ما يخالف تلك الحقيقة ، إذ أن الشاعر أشار في قصيدتين
 من قصائده ، إلى أن الأمير الحفصي ، قد اشترك في الحرب مع النصارى ،
 وحقق عليهم بعض الانتصار ، وإلى أن بعض ملوك الروم ، قد خافوا الأمير
 الحفصي ، وأرسلوا رسلهم ينفون السلم منه . ففي قصيدة يبدو أنه قالها
 سنة ٦٤٠ هـ ، لأنه يقول فيها (١) :

تَفَاتِحُ الْأَعْوَامِ بِالْفَتْحِ خِدْمَةٌ وَيَسْبِقُ فِي مَرْضَاتِهِ الْمَجْزُ الصَّدْرُ

(١) مخطوطة الديوان : ص ٩٣ .

وَلَهُ حَوْلُ الْأَرْمِينِ قَدْ يَزُلُّ بِهِ جَالِباً بُشْرَى تُظَاهِرُهَا بُشْرَى
 يشير ابن الأبار إلى أنَّ الأساطيل الحفصية ، قد تمكّنت من الأساطيل النصرانية ،
 وقلّلت وأسرت منهم الكثير ، يقول (١) :
 سَمَتْ لَأَسَاطِيلِ النَّصَارَى فَحَقَّقُوا
 لتصويبها ، مستيقنين بها القهرا
 وراحت ليوث الروم فتحاً كواسرا
 فما وجدوا نصراً ولا عدواً حصصرا (٢)
 ويستمر الشاعر في تبيان ما أصابهم من قتل وأسر .
 وفي قصيدة أخرى ، أشار إلى أنَّ طوك الروم ، قد أرسلوا رسلهم ،
 ييغون عفو الأمير وسلمه ، لخوفهم من قوته ، يقول (٣) :
 وهذي طوك الروم تُشخِّصُ رسلها
 بسلمك تهفي للسّلامة سلماً
 وعلى الرغم من وضوح الإشارتين ، إلّا أنني أوجّح ما ذكرته الصادر
 التاريخية ، من أنَّ الأمير الحفصي لم يخض أيّة معركة مع النصاري في الأندلس .
 وقد يكون أبرز سبب لذلك ، انشغاله المتواصل بإخماد الثورات الداخلية ، وعطشه
 المستمر على بسط نفوذه وسلطانه . وقد لاحظنا كيف أنَّ أبا زكريا ، حتى وفاته ،
 قد بقي يعمد دائماً على توسيع رقعة دولته ، حتى قام سنة ٦٤٧ هـ ، لمواجهة
 السّعيد الموحدي ، ومحاولة الوصول إلى مراكش التي طالما طمع في الاستيلاء

(١) مخطوطة الديوان : ص ٩٣ .

(٢) حصر الهبي* حصرا : كسره .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٣٢ .

عليها . فانشغال أبي زكرياء إذاً ، بأوضاع دولته الناشئة ، قد حال بينه وبين تحقيق أمل كثير من الأندلسيين ، وهو محاولة العمل على استعادة وطنهم . هذا بالإضافة إلى أن الدولة الحفصية الناشئة ، لم تكن بقوة تماثل القوى النصرانية التي تجمعت وصمت استرداد الأندلس واستطاعت قهر دولة مرامية الأطراف هي الدولة الموحدية .

وقد نبأ في القول ، إذا ما افترضنا أن الاشتاتين السابقتين ، هما ضرب من الأمل الذي كان يرجوه الشاعر ، فابن الأبار شهد الانتصارات الحفصية الكثيرة المتتالية ، وكانت تلك الانتصارات ، تذكر الشاعر بوطنه ، فيقوم برسم تلك الانتصارات ، بأعداء كان الشاعر يرجو أن تحدث مثيلاتها فيهم . فالأساطيل الحفصية التي تمكنت من التمردين والثائرين ، قادرة على أن تفمسسل بالنصارى فعلها بغيرهم من أعداء الأمير الذين ضعفت قوتهم وعجزوا عن المقاومة ، فبعثوا له بإعلان الطاعة والمسالمة ، هؤلاء الأعداء ليسوا - كما يتصور الشاعر - أقل شأنًا من النصارى ، وبالتالي فإن الشاعر يرجو ويتخيل ويأمل (١) أن يرسل النصارى رسلهم ، طالبين عقد السلام مع الأمير الحفصي ، بمد الانتصارات المتلاحقة التي شاهدوها في غيرهم .

* * * * *

(١) انظر بعض الأبيات التي تخيل فيها الشاعر معركة مع النصارى في مخطوطة

تمتبر شخصية البطل القائد في قصائد ابن الأبار ، من
المناصر الأساسية ، يركز عليها ويهتم بها . وقد أكدت كتب التاريخ أن الأمير
الحفصي كان يخوض الحرب بنفسه ، ويخطط للمعركة ، ويديرها إلى أن يتحقق
الانتصار (١) .

ولقد عظم الشاعر جاهداً على رسم صورة مثالية لقائده أبي
زكريا ، ووليّ عهده أبي يحيى أيضاً ، في القوة والصفات الحربية ، من حنكة
وحسن تدبير وتخطيط ، وشجاعة وإقدام ، وحبّ للحرب وإمهال للأعداء دون
إهمال ، وغير ذلك من الصفات . وحديث ابن الأبار عن قوة الأمير الحفصي
والتركيز عليها ، يتناسب مع الأحوال الخاصة للإمارة الحفصية الفتيّة ، التي
هي أشدّ ما تكون بحاجة إلى قيادة تتصف بالقوة والحزم ، لتستطيع الوقوف أمام
الناظرين . ويتناسب أيضاً مع أحوال المسلمين عامّة في الأندلس وإفريقية .

إنّ الصفات التي حشدها الشاعر في قصائد مدحه لأبيه ،
لتجمل منه شخصية قيادية مثالية . وهو وإن كان كثيراً ما يميل إلى العبالفة
التي كانت الصفة البارزة في شعر المصّر الموحديّ ، إلّا أنّه كان يفرف من واقع
حقيقي . فقد تولى الأمير الحفصي البلاد الإفريقية ، وهي في غاية الفسوق
والاضطراب ، والخوف . ولكنه بحسن سياسته ، استطاع تجميع قلوبهم وقواهم ،
في وقت تفرقت فيه القلوب والقوى ، يقول (٢) :

وَسَاسَ الرِّعَايَا وَالنَّفُوسِ شَوَارِبَ تَنَازَرُ ضَفْنًا وَالْقُلُوبُ نَوَافِرُ
فِيهَا حَسَنٌ مَا صَارُوا إِلَيْهِ بِسْمِيهِ وَتَحْسَنُ بِالسَّمِيِّ الْكَرِيمِ الْحَائِرُ

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون ٥٩٥/٦ وما بعدها .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ٩٥ .

تصافى بما أولاه دَانٍ وناسِحٌ وَأَتَتْ (١) على سميائه بابرٍ وهاضِرٌ
ومن الصفات التي لا بدّ من توافرها في القائد الذي يفي النصر،
الحنكة وحسن التخطيط للمعارك، وهذه من صفات الأمير الحفصي، فجيّشه
لا يعتمد إلا على تدبيره، لأنه القائد الموجه، يقول (٢):
وَعَلَى تَدْبِيرِهِ اعْتَمَسَتْ فِي أَبَابِيلِ (٣) الْأَبَاطِيلِ
وكان تركيز ابن الأبار في شعره على قوة وشجاعة الأمير بمظاهرها
المختلفة، ويستعين في ذلك بكثير من الصور التي تبين مقصده. ويأتي
ابن الأبار الكاتب المؤلّف بصورة قريبة من عظه الكتابي، ليدل على شجاعة
الأمير الحفصي، يقول (٤):
إِذَا خَطَّتْ الْهَيْجَاءُ أَسْطَرَ جَيْشِهَا
خطا نحوها حتى يُقَوِّضَهَا مَحْسُورًا
ومن مظاهر شجاعته إقدامه على الحرب ضاحكا متبشرا، لمدم اكتراه بمدوه،
يقول (٥):
وَأَكْثَرُ مَا تَلَقَّاهُ جَذْلَانِ ضَاكِحًا إِذَا مَا بَكَى الْخَطِيءُ فِي كَفِّهِ دَمًا

-
- (١) أَتْ : كثر وعظم.
(٢) مخطوطة الديوان : ص ١١٠ .
(٣) الأبَابِيل : الجماعات.
(٤) مخطوطة الديوان : ص ٢١٤ .
(٥) المصدر نفسه : ص ١٣٢ .

ويقول (١) :

جَاشَهُ لَمَّا احْتَدَاهُ جَيْشُهُ صَارَ إِرْسَا (٢) مَوْقِفًا مِنْ أَحَدٍ

ويأتي الشاعر بصورة لم نألفها من قبل ، ليبيّن فيها قوّة الأمير ، فيشبهه قوته بريح الشّمال التي صا دفت سحباً كثيفة ، فذهبت بها وسيّرتها معها (٣) :

وَكَأَنَّمَا عَزَمَاتُهُ وَعِدَاتُهُ عَصَفَ الشَّامَالِ وَقَدْ لَقِينَ سَحَابًا

وقد أخبّ الأمير الحفصيّ الحرب ، حتى أصبح غير قادر على المعيش بين الناس ، وما ذلك إلّا لأنّه اعتاد على قيادة جيشه في غزواته الملاحقة ، يقول (٤) :

أَلِفَ الْإِمَامُ لِقُودَهَا غَبَرَ الْفَلَاحِ ظُهُ رَوَاحٍ نَحْوَهَا وَكُـ

ويقول (٥) :

ظَلَمَ يَصِيرُ مَعَاشُهُ وَرِيَاشُهُ (٦) أَلِفَ الْفَلَاحِ فَيَرَى الْأَنْيَسَ وَحُوشًا

والقائد المحنك يعمل على إيهال عدوه واستمهالته أولاً ، لعلّه يرجع عن غيّه ، فإنّ عاد يكون قد كسب المعركة دون قتال ، وإلّا فانه لا يهبطه بل يستعرّ في ملاحقته (٧) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ٦١ .

(٢) الإرس : الأصل .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٧ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٨٩ .

(٥) المصدر نفسه : ص ٢٠٤ .

(٦) الرياش : المال أو المعاش .

(٧) مخطوطة الديوان : ص ١١٦ .

فيه أناة وإمهال به شرفاً وليس منه مع الإمهال إهمال

لقد أتى ابن الأثير ، بكثير من الصفات التي ما توافرت في قلائد
إلا وتحقق له النصر ، وهي كلها تقريباً وإن اختلفت في ألفاظها ، إلا أنها
تؤكد على معنى واحد ، هو القوة والشجاعة . وركز الشاعر في كل قصائده تقريباً
على ذلّة الناس والطوك جميعاً للأمير الحفصي ، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه ،
من أنه كان يرى الأمير الحفصي خير الطوك في المشرق والمغرب ، يقول (١) :
هذي الممالك والطوك لأمره تنقاد طيعة كما تنساق
ويقول (٢) :

يا طوك الزمان شرقاً وغرباً هكذا هكذا وإلا فلا لا

* * * * *

وإذا كان ابن الأثير ، قد تحدث عن قائد الفتوحات الحفصية في قصائد
مدحه ، فأصبح عليه فيها كل صفة حميدة ، فإنه قد تحدث أيضاً عن الجيش الحفصي
الذي يعتبر الأداة الرئيسية في الحرب ، والذي يعتبر مكملاً للقيادة الحكيمة
الشجاعة . وممّظم حديثه في قصائده ، يدور حول كثرة الجيش الحفصي وقوته
وصبره وطاعته ، وممّظم هذه الأمور سبق وأن طرقها شعراء الحرب من قبل .
أما الصفة الأولى التي لا بدّ من توافرها في أيّ جيش ، فهي طاعة
القائد والامتثال لأمره . فإن أمر الجيش لا أقدم بكل شجاعة ، وإن أمره
بالرجوع رجع . وهذا هو حال الجيش الحفصي ، يقول (٣) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٩٥ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢١٦ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٠٧ .

هُمْ الْقَوْمُ قَامُوا بِأَمْرِ الْإِسْلَامِ وَمَا نَكَلُوا مِنْ دِفَاعِ النَّكَالِ (١)
والجيش الحفصي ، كثير في عدده ، حتى إن البحار والفضاء ، يضيقان بسبه ،
يقول (٢) :

كَدَائِبُ لَا يُحِيطُ بِهَا كِتَابٌ يَضِيقُ بِرَحْبِهِ عَنْهَا الْفَضَاءُ
ويقل (٣) :

وَحَسِبَهَا إِذَا يَفْزُو بِحَاراً زَوَاخِرُ الْخَيْلِ بِهَا حَطَبِي

وتعتبر القوة أبرز سمة توقف عندها الشاعر . هذه الكلمة التي كان الناس
يستخدمونها ، لمشاهدتها حقيقة قائمة ، في وقت لم يرفيه المسلم الأندلسي
سمى الهيت والضربات الملاحقة . وكأن ابن الأبار ، وإن كان في ذلك يجاري
غيره من الشعراء إلا أنه كما يبدو وكأن يركز على ما تفقر إليه نفسه ونفوس أبناء
وطنه ، الذين ضاعت بلادهم وكثرت مصائبهم .

ويمتد الشاعر مقارنة بين الجنود الحفصيين وغيرهم من جنود الأعداء ،
للتأكيد على إقلالهم وقوتهم . فهم قد شعروا بالحرب ، في حين تراجع
أعداؤهم خوفاً ، وهم لا يهاجمون ، بل يهاجمون الأعداء في عقر دارهم ،
يقول (٤) :

هُمْ شَمَرُوا إِذَا أَسْلَبَتْ أَعْدَادُهُمْ
شَتَّانَ مَا الْإِسْبَالُ وَالتَّشْمِيرُ

(١) نكل عن الأمير : جبن . والنكال : المقاب أو النازلة .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ٨ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٢١٧ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٩٠ .

في عقرها زاروا المداة لمقرها
فارتاح زوار وطاح ——— زور
لا يعمرون الذ عريوم كرهية
والموت من كراتهم مذعور ———

وإذا كان الأمير الحفصي ، كالأسد في شجاعته ، فإن جنوده لا يختلفون عنه في هذه الصفة ، يقول (١) :

فمن أسد مهجة ضوار على جرد مطهمة عتاق
وهم كقائدهم أيضا ، كالجبال الراسية ، إذا حي الوطيس واشتدت المقارعة ،
يقول (٢) :

جبال رواس إذا ما القراع قضى بانتساف رواسي الجبال

ولقد حفظ ابن الأبار في شعره ، صورة للجيش الحفصي ، بعد تجهيزه للمعركة ، واستعداد له للانطلاق . فقد كان الجيش ، قبل انطلاقه للمعركة ، يخرج إلى منطقة واسعة ، فيصطف فيها الجنود على شكل سطور منتظمة ، يحيطون الرايات الحفصية ، ويتقدمهم الأمير أبو زكريا ، متخذا مكانه وسطهم . ويسد القائد بالسير ، والجيش تحيط به ، في موكب يبعث الهيبة في النفوس . إنهم جيوش تكاد الأرض تتزلزل من تحتها ، تسير بكل وقار واطمئنان وثقة ، والناس الذين خرجوا لوداعها ، يحيطون بها من كل جهة ، طوحين لها بأيديهم ،

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٩٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٠٧ .

وداعين لها بكلّ نصر وتأيد . إنها عادة ، تمبّر عن مدى التفاف الناس حول قائدهم ، ومدى ثقتهم وارتباطهم ببعض ، يقول ابن الأثير (١) :

جَرَّ الكُتَّابَ رافعاً رايته	فتكافأ المرفوع والمجسور
مِنْ كُلِّ مَثَلَةٍ الخَطِيءِ رَجَاجَةٍ (٢)	ترتج منها الأرض وهي وقور
ملأت مناديج البلا فكأنها	طرس عليه من الصفوف سطور
وتكاثفت أم تلوح فمندها	يخفي صمود وسطها وحسود
وكانهم وكأن سبق خيلهم	وسط المجاج ضراغم وصقور

ومن الأمور الأخرى التي حفظها ابن الأثير في شعره ، لون الراية الحفصية ، فهي راية حمراء ، ولم تصف الهزيمة ، يقول (٣) :

فإن وعدت قد ما مناجزة العدي فرايته الحمراءً منجزة الوعد

ونعتمد ما ذكر ابن الأثير من صفات في الجيش الحفصي ، بصفحة يقف انتصار الجيش أو عده عليها . إنها صفة الصبر عند اشتداد المعركة . هذه الصفة التي تعتبر محصلة لكل ما ذكر ، فلا قيمة للطاعة والكثرة والقوة إذا لم يصبر الجندي على هول ما يرى وينال ، يقول (٤) :

تواصوا بصبرهم في الجلال وأودوا بخصمهم في الجidal

(١) مخطوطة الديوان : ص ٨٩ .

(٢) ليست واضحة في الأصل .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ٩٧ .

(٤) الصدر نفسه : ص ١٠٦ .

هذه هي المعاني التي أسبغها الشاعر على الجيش الحفصي في قصائده . وهم وإن كان يكثر من الحديث عن قوة مدوحه في كل قصيدة تقريباً ، فإن حديثه عن الجيش أقل بكثير ذلك لأن المعنى في قصائده هو المدح وليس الجيش وما جاء من حديث عن الجيش ، ليس الأصايرة لما اعتاد الشعراء تضمينه في قصائد مدحهم الحربي ، وهو أيضاً تكميل لتلك الشخصية القيادية المثالية ، شخصية أبي زكرياء ، ومع أن جهده كان منصباً على القائد ، إلا أنه قد وفق فيما أسبغه على الجيش الحفصي من صفات .

* * * * *

وقد اعتاد الشعراء في قصائد مدحهم الحربي ، التوقف عند الأدوات الحربية التي يستخدمها الجيش في حربه ، يصفونها ويتحدثون عنها كل بطريقة . ويدون من خلال شعر ابن الأبار ، أن الأدوات التي استخدمها الجيش الحفصي ، لا تختلف في شيء عما ألفت الجيوش استخدامه من قبل . فقه استخدم الجيش الحفصي قوات برية قوامها الخيل والإبل ، وقوات بحرية قوامها السفن الحربية . أما أدوات الفتك والقتل ، فهي السيوف والرماح بالإضافة إلى بعض وسائل الدمار الحارقة .

ومع أن الباحث في شعر ابن الأبار ، يؤكد أن الإبل قد استخدمت إلى جانب الخيل في الحرب ، إذ وردت أكثر من إشارة تدل على ذلك ، كقوله (١) :
كَانَ الْأَرْضَ مِنْهَا (٢) فِي بَحَارٍ زَوَاخِرٍ فِي ارْتِجَاجٍ وَاصْطَفَاقٍ
تَمْرَجُ بِالْمَضَارِبِ وَالْمَانِي وَتَطْفَحُ بِالْمَذَاكِ (٣) وَالنِّيَاقِ

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٩٦ .

(٢) أي الجيوش .

(٣) المذاكي : الخيل .

إلا أن الشاعر لم يتوقف عند وصفها وتعظيمها ، كما تمنع عند حديثه عن الخيل ، حتى ليخيل للباحث أن الخيل كانت الأداة الرئيسية في الحرب الحفصية . ولا عجب في ذلك ، فالخيول حتى وقت ابن الأبار ، ومنذ زمن بعيد ، كانت تعتبر أبرز أداة من أدوات الحرب ، والشاعر في حديثه عن الخيل الحفصية يكثر من الإشادة بقوتها وسرعتها ونشاطها وفماظها بالأعداء ، وتمتهر صفة السرعة والقوة والنشاط من الصفات التي ركز عليها الشاعر في حديثه عن الخيل ، وهي صفات تقليدية في معظمها ، لا بد من توافرها في خيول الحرب . ومعظم تشبيهاته لها بالظباء في السرعة ، والرياح في القوة والسرعة ، فمن ذلك قوله (١) :

وله الجياد بدت ظباء في الوغى

وعدت لتقطع العدا رياحاً

ويقول مهدياً ومبيناً أثرها على الأعداء والمسلمين (٢) :

سَبَّحُوكُمْ وَتَصَدُّكُمْ خَيْسُولٌ	مِنَ الْأَسْطُولِ ضَمَّرَهَا الْجَرَاءُ
صَاحَ تَشْبَهُ الْإِهَالِ جَرِيًّا	بِأَيَّةٍ مَا يَجْلَتْهَا الْهَنْسَاءُ
نَوَاعِبُ (٣) أَوْ نَوَاعٍ لِلْأَعَادِي	بِمَا عَقَلَتْهُ قَتْلًا أَوْ سَبِيًّا
يُسْرِبُهَا الْهُدَى وَيَقْرَعِينَا	وَلَكِنَّ الضَّلَالِ بِهِنَا يُسْبِيًّا

ويكثر ابن الأبار من الربط بين الأداتين الرئيسيتين في الحرب الحفصية وهما الخيول والسفن . فالسفن تسبح في الماء ، والخيول لشدة جريها تظهر وكأنها تسبح ، يقول (٤) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٧ .

(٣) نعب الفراب : صاح ، وسير نعب : سريع .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ٩٤ .

أَوَاظِلُ فَتَحَ مَا لَهِنَّ أَوَاخِرُ تَرَامَتْ بِهَا جُرْدٌ وَفَلَكَ مَوَاخِرُ
سَوَابِحٍ إِلَّا أَنْ بَعْضُ حَوَامِلُ وَمَعْضَا مِنْ الرِّكْضِ الْحَثِيثِ ضَوَامِرُ

وإشارات ابن الأبار إلى السفن الحربية ، لا تقلّ عن إشاراتِه
إلى الخيول . فما من قصيدة تقريباً ، من قصائده الحربية ، تخلو من الإشارة
إليها ، ذلك لأنّها أداة رئيسيّة في حربهم . وهو يشبّـهها بالطيور أحياناً ،
والأفاعي أحياناً أخرى . ويبيّن أثرها على الأعداء والمسلمين ، كما
كان يصنع عند حديثه عن الخيول ، يقول (١) :

وَمَنَاتُ الْمَاءِ صَاظِلَةٌ كَالْأَفَاعِي الْأَفَاعِيْلُ
عَلَّتِ الطَّحَ الْأَجَاجَ فَمَا شَتَّتَ مِنْ تَغْمِيرِ تَغْمِيْلُ
لَمْ تَدَعْ يَوْمًا أَعَادِيَهُمَا دُونَ تَمْقِيرِ وَتَمْقِيْلُ
ظَلَّ رَحْمَهُمْ قَدْ رَمَتْ بِهِم وَسَطَ سَجِيْنٍ (٢) بِسَجِيْلُ

أما الرِّمَاحَ والسِّبُوقَ ، فهما الأداةان الرئيسيتان في القتل ، والاشارة
إليهما كثيرة في شعره ، فمن ذلك قوله (٣) :

فَطَرِيرُ (٤) هَنْدٍ يَأْتِيَهُمْ عَقْلِلُ وَصَحِيحُ خَطِيَّاتِهِمْ مَكْسِلُ
وَقَوْلُهُ (٥) :

فَتَضْرِبُ بِالْبَيْضِ ذَاتَ الْيَمِينِ وَتَطْعُنُ بِالسُّعْرِ ذَاتَ الشِّمَالِ

(١) مخطوطة الديوان : ص ١١٠ .

(٢) سجين : السجن أو واد في جهنم .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ٩٠ .

(٤) الطرير : ذو المنظر والهيئة الحسننة .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ١٠٧ .

وقد وردت إشارة من ابن الأبار تفيد أن الجيش الحفصي قد استخدم في حربه بعض المواد الحارقة ، كأداة من أدوات الك . وهذا ما أكدته كتب التاريخ من أن الجيش الحفصي قد استخدم النار في حربه ، وخاصة في فتح تلمسان (١) . يقول ابن الأبار عند حديثه عن فتح تلمسان (٢) :

لألسنة النيران فيها بلاغة وإن هي لم تفهم حروفاً ولا نطقاً

هذه هي الأدوات الرئيسية ، في الحرب الحفصية كما وردت في شعر ابن الأبار . وهو في حديثه عنها يربط فيما بينها عادة ، ولا يتحدث عنها بشكل مفرد إلا نادراً . فهو مثلاً يتحدث عن الجنود وهم على ظهور الخيل ، ويشيد بهم وقوتهم ، ثم يتوقف عند الخيل فيعظمها ويفتخر بها وصفاتها (٣) .

لقد حفظ ابن الأبار في شعره ، مظهرها عسكرياً من مظاهر الدولة الحفصية يشتمل حديثاً عن الجيش وتنظيمه ، ووسائل الحرب وأدواته . وهو في حديثه يحاول أن يصل إلى المثالية ، في كل شيء يتصل بالجيش الحفصي ، كما صنع عند حديثه عن القائد الحفصي ، ليتفق ذلك مع الدور الإعلامي في قصائده .

* * * * *

(١) انظر: الروض المعطار ص ١٣٥ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٩٣ .

(٣) انظر مثلاً على ذلك في : المصدر نفسه ص ١٩٦ .

ويتحدث شمر^١ الحرب عادة عن المعركة ، محاولين تصوير جوها من مقارعة بالسيوف ، وطمع بالرمح ، وقتل وأسر ، وغبار كثيف ، وصهيل خيل ، وغير ذلك . مما يجعل القارى يشمر وكأنه في المعركة ، يشاهد كل ما يحدث فيها . كما أنهم يلجأون عادة إلى تبيان نتائج المعركة على الطرفين المتحاربين . وقبل أن نتحدث عن هذه الظاهرة في شمر ابن الأبار نتساءل : هل عرف ابن الأبار الحرب ، فخاض غمارها ، سواء في وطنه أم مع الأمير الحفصي في تونس ؟

لم تتركب التاريخ والتراجم ، إلى أن ابن الأبار ، قد عرف الحرب ، سواء في وطنه الذي كان مهدداً بالاستيلاء عليه في أية لحظة ، أم مع الأمير الحفصي ، الذي كثرت غزواته وكان يقودها بنفسه .

أما في شمره ، فقد وردت إشارتان ، بيّن فيهما ابن الأبار أنه شجاع ويخوض الحروب . الأولى في إحدى مقدماته الفرعية في قصيدة مدح لأبي زكرياء ، يقول (١) :

وإنني لمقدام إذا الحرب سمرت لظاها ومجزاع من البين إذ ينوى

والثانية ، في قصيدة صوّر فيها ما أصاب أهل بلنسية في الحرب التي دارت بينهم وبين النصارى ، وفي أثناء وصفه لقدوم أهل بلده لمبايعة الأمير الحفصي بعد سقوط بلنسية ، يقول (٢) :

وقد أسارت مني مساورة (٣) الردى حرباً حروباً معنسات لواقح

(١) مخطوطة الديوان : ص ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٦ .

(٣) أسأر : أبقي من الأبرقية . والمساورة : الواثبة والمصارعة .

على حين دأرت بالمنايا كرواسها

فمن بين صبح هناك وضاح

يحدث من أحداثها بفرائب لها نسبة معروفة في الصحاح

ويبدو أنه أتى بهذه الصورة في البيت الأول ، ليس على وجه الحقيقة ، بل لكي ترقّ محبوبته له ، فلا تظلم بهجرها ومعدّها . وسنلاحظ تكرار هذه الصورة عند الحديث عن غزله . أما أبياته في تصوير ما أصابه وأهل بلده من ويلات عند سقوط بلده ، فهي لا تعدو الوصف العام ، الذي ربما لجأ إليه الشاعر ، لكي يرقّ الأمير الحفصي لحالهم . يدلّ على ذلك الأبيات اللاحقة للأبيات السابقة في القصيدة (١) .

لقد كان ابن الأثير وهو في بلده ، يعلم أن الجهاد فرض عين على كل قادر . وقد صرح بذلك في أثناء رثائه لشيخه الكلاعي (٢) ، ولكن طبيعة حياته - كما يبدو - ، خلقت منه شخصية سياسية غير محاربة . فمنذ شبابه عمل عند حكام بلده ، حتى أصبح سياسياً بارزاً ، يشاركهم تخطيطهم وإعدادهم للوقوف في وجه الأعداء ، فإذا ما داهم البلاد خطر ، أرسل به على رأس وفد إلى أمير تونس ، لنجدة بلده والوقوف إلى جانبه . ومن المرجح أنه كان يرى ، أنه يعطيه السياسي ، يقدم خدمة لبلده ، تحفيه خوض الممارك . فهو إذاً ليس كشيخه الكلاعي الذي استشهد في ساحة المعركة .

(١) نتحدث عن هذه القصيدة عند حديثنا عن شعره الوطني .

(٢) سنشير لذلك عند الحديث عن رثائه لشيخه .

وفي تونس تولى ما كان قد تولاه في بلده ، وأصبح شاعرا مقدما ،
من شعراء البلاط ، ولكنه - كما يبدو من شعره - كان شاعرا مادحا وليست
مادحا محاربا كالمتنبي مثلا ، الذي كان يخوض الممارك مع الأمير الحمداني ،
فيصف حقيقة ما كان يراه .

لذا فإن وصف ابن الأبار للممارك الحفصية وأجوائها ، سيعتمد
على ما يسمعه بعد عودة الجيش ظافرا ، أو على خياله ومحصوله من الترات
الشعري . من هنا فقد خلا شعره من وصف دقيق لما كان يجري في تلك
الممارك ، واقتصر على إشارات عابرة ، اختلطت بغيرها من موضوعات القصيدة ،
دون التوقف عندها ، كما كان يصنع مثلا عند حديثه عن الجيش وقوته واستعداده
للانطلاق ، أو عند حديثه عن الخيول . ذلك لأنه قريب من هاتين الأداتين ،
بמיד من الممركة وأجوائها .

أما نتائج الممارك الحفصية ، فهي الانتصار ، الذي يمتد نتيجة
طبيعية ، بسبب توافر القوى المادية ، والتأييد الإلهي . والانتصار يعني
إلحاق مزيد من القتل والأسر والدمار بالأعداء ، وأرضهم . فالجيش الحفصية
لا يحل بأرض الأعداء ، إلا ويتركها كالأطلال ، بعد تمكنه من أهلها ، يقول (١) :

مُؤَيَّدٌ كَلَّمَا حَلَّتْ كَنَائِسُهُ بِسَاحَةِ آذَنَ الْإِعَارُ تَرَحُّالُ

ومن قوله يصف ما حل بالأعداء من قتل (٢) :

تَمَرُّ بِهِمْ صَرَعُ لَمَصَفِ انتِقَامِهِ وَكَمْ صَابَرُوا عَيْشًا أَمْرٌ مِنَ الْمَفْصِ (٣)

(١) مخطوطة الديوان : ص ١١٧ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٦٦ .

(٣) المفص : شجرة البلوط .

والاشارات في قصائده لما لحق بالأعداء من ويلات كثيرة ، وكلها تقريبا تحمل المعاني نفسها ، كالقتل والأسر والخراب واستباحة الأموال . وهي متناثرة في قصائده ، وقد يشار إليها أكثر من مرة في القصيدة الواحدة .

* * * * *

لقد تحدث ابن الأبار عن الخلافة الحفصية ، فأشار إلى قوتها وشيأتها ، حتى أصبح عليها صفة الكمال . وتحدث عن قوة بني حفص وكثرة حروبهم وانتصاراتهم . وتحدث عن كثير من صفاتهم كالكرم والتدين ولا يغفل ابن الأبار ، وهو يتحدث عن كل ذلك في قصائد مدحه ، من أن يتحدث عن الحالة التي وصل إليها الناس في ظل بني حفص ، كنتيجة طهيمة لكل ما تقدم . فهم أقوياء ، يحمون من يحكمونهم ، وينشرون الأمان بينهم . وهم كرماء لا يخلون عليهم بشيء ، حتى إنه ليندر أن تجد فقيرا سائلا (١) ، وهم على صلة بهم لئلا يفهم بعيدون عن الظلم ، يحطمون الفساد والضلال ، وينشرون الخير والصلاح . ولقد كان لكل ذلك أكبر الأثر في تجلّي عصرهم من بين العصور ، وشعور الناس بسعادة لم يحظوا بها من قبل ، فأحبوهم وأخلصوا لهم ، وأصبحوا على استعداد من أجل بذل أرواحهم وخميصة في سبيلهم .

ولقد أحسن ابن الأبار ، عندما أشار إلى حب الناس لهم والتفافهم حولهم ، لأن في ذلك مدحا للدولة وتأكيذا على قوتها وشيأتها . لأن الحاكم إن لم يكن محبوبا من قبل شعبه ، فإنه وإن استمر في حكمه بأسلوب أوبأخسر ، فإنه سيؤول إلى السقوط . أما إذا كان محبوبا ، فإن ذلك يعطيه وضعية الدولة قوة وشيئا ، لأن قوة الدولة من قوة الشعب .

(١) راجع حديثنا عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تونس . في هذه الدراسة .

وحدث ابن الأثير ، عن سعادة الحياة في ظلهم كثير في شعره ،
وهو في معظمه يحمل المعاني نفسها ، فقد طابت الحياة وسعدت ، وأصاب
الناس بمض الثراء ، ولذت الحياة حتى أصبحت كالغسل ، يقول (١) :
سراً بأمرك إيماناً وإيماناً
فكل دهرك أحراراً وأعواناً
ويقول أيضاً (٢) :

ورغد عيشها (٣) الراضى	لا كبد ولا تكسير
وجرت نيلها أرجاء	صاها وهي تتنهد
بدلتها حلا طعم الـ	سحابة تشبهها شهبان

وسعد هذا ، قبل تستكثر على الناس حبهم للأمر الحفصي وشكرهم
لـ ؟

إن الناس لم يتسوا ، ما كانوا فيه من تعب وقلق وخوف وقهر ، فحصل
مجيء الأمر الحفصي ، وما أصابهم من هذا ، وسعادة في ظلمة ، لذا فقد أحبوا
الأمر ، ولا أدل على ذلك من هذا المشهد ، الذي صور الشاعر لهم ، وقصد
الثقوا حول الأمر في أحد الأعياد ، معززين موقنين ، وداعين له بالسعادة
والظهور ، يقول (٤) :

قد رفقه التميز والتوقير إذ	قد حقه التهيل والتكبير
تصفو عليه من السكينة سرور	جيب الظهارة فوقها زمهرير
والناس من دأج له ومؤمنين	لا زائلة سعادة وظهير

(١) مخطوطة الديوان ، ص ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(٣) أي الدولة الحفصية .

(٤) مخطوطة الديوان ، ص ٩٠ ، ٩١ .

ومعد هذه الدراسة المفصلة لمدائحه ، نخلص إلى ما يلي :

- ١ - حشد الشاعر كثيراً من المعاني الحميدة الإسلامية ، التي نبه إليها نقاد العرب في مدائحه .
- ٢ - برزت المعاني الدينية بشكل واضح ، وخاصة في مهاجمة النصارى وتهديدهم وتبيان عاطفته الحاقدة عليهم .
- ٣ - ظهر عنصر الجالفة بشكل واضح ، بالإضافة إلى الصفة الانفعالية .
- ٤ - أفصح الشاعر عن موقفه السياسي ، المؤيد للخلافة الحفصية ، ولجأ إلى عنصر الإقناع في إثبات أحقية بني حفص في الخلافة ، ومهاجمة الدولة الموحدية .
- ٥ - أرخ الشاعر لكثير من الفتوحات الحفصية ، وضمن قصائده الحميدة ، ما اعتاد الشعراء تضمينه في قصائدهم الحميدة ، من مهاجمة للأعداء ، ووصف لجيش مدوحه وقوته وأدواته ، وآثار الممارك على الطرفين .
- ٦ - ركز الشاعر على شخصية مدوحه الحميدة بشكل بارز .
- ٧ - طول نفس الشاعر في مدائحه ، حتى إنه أغاد عهد أصحاب المطبوعات من المدائح وتخليد المواقع الحميدة من أمثال أبي تمام والمتنبي .
- ٨ - قارن الشاعر بين ما كانت عليه البلاد الإفريقية ، وأحوال أهلها قبل خلافة الأمير الحفصي ، وما أصبحت عليه هي وأهلها بمعد ذلك .

ويستمر الشاعر في قصيدته ، متوقفاً عند جمال البستان ، بأشجاره وأزهاره
وأنهاره . وقد حفظ الشاعر في هذه القصيدة ، وقصائده الأخرى في البستان ،
أسماء مجموعة كبيرة من الأزهار والأشجار ، التي كانت موجودة في زمنه عامّة ،
وفي بستان أبي فهر بشكل خاص ، منها : الآس ، والنصرين ، والياسمين ،
والريحان ، والسوسن ، والبنفسج ، والخرجس ، والمرار ، والنارنج ، والخوخ ،
والرمان ، المنّاب ، والجوز ، والنخل ، والطلح ، وإن كثرتها وتنوعها ،
ليدلّ دلالة واضحة على عظم البستان وشدة جماله ،

وقد رسم الشاعر في قصيدته ، صورة جميلة ، أثبت بها ليدلّ على
اتساع البستان ، فقال (١) :

والريح تركض سيقاً من خيلها	في روضة رُحبت لها هيدانها
حرباً عهدت أزاهراً ومزاهراً	أو زارها لا صارماً وسنانها
وكانما هاب الفدير محبوبها	فاحتاج مقداما ولع جبانها
يُدي موهماً الثبات وإنما	يخفي جباناً يصحب الرجفانها
واها له ليس الدّلاص (٢) كأنما	يخشى من القصب اللدان طمانها

والقارىء لهذه الأبيات ، يشمر وكأنه في حرب حقيقية ، فيها خيل ، ورمح
ودروع ومقدام ، وجبان ، لولا ورود بعض الألفاظ التي أبانت قصد الشاعر .
وقد اعتمد على التشخيص - كحاله في معظم وصفه - ، فأثار الريح بخيلها فسي
روضة واسعة اتخذت ساحة قتال ، وأخاف الفدير بمحبوبها ، ويمن آثار ذلك
الخوف إنه مشهد جميل استمدّه الشاعر من البيئة الحربية التي كانت
تحيط به .

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) الدّلاص : الدرع اللين .

ولم يقتصر حديث ابن الأبار في قصيدته ، على وصف البستان بما فيه من مناظر طبيعية جميلة ، بل نجده يصف القصور الحفصية ، فيضفي عليها كل جمال . فمن ذلك هذه الصورة التي بيّن فيها اختلاله بأحد قصورهم حتى حسبه من الجنة ، ويشير إلى المادة التي بنيت منها بعض أجزائه ، فيقول (١) :

يا صنماً بهرت محاسنه النهى فما ذواعب إذ رسا أركانها
لما بنوا شرفاته من فضّة جملوا أديم قبابه عقيانها (٢)
إني لأحسبه من الفردوس منذ أبصرته للمتقين مكانها

ويستمر الشاعر في قصيدته مركزاً على البستان ، إلى البيت الثالث والثلاثين ، ثم ينتقل بعد ذلك لمدح الأمير بما هو معروف من الصفات .

وفي قصيدة طويلة ، بلغت خمسة وخمسين بيتاً ، بدأها الشاعر بمقدمة غزلية (١ - ١٥) ، تحدث فيها الشاعر عن البستان وجماله ، فتراه كالصك وقد اتبنته يد الملا والمجد ، وهو متسع كبير . وقد غرس بأشجار وأزهار مختلفة ، يقول بعد انتقاله من المقدمة الغزلية (٣) :

ولا تكلفوا بالند (٤) والصك بعدها
تراب أبي فهر هو الصك والنند

-
- (١) مخطوطة الديوان : ص ١٥٦ .
(٢) العقيان : الذهب المتكاثف في مناجمه .
(٣) مخطوطة الديوان : ص ٥٩ .
(٤) الند : ضرب من النبات يتغير بموده .

جَنَابٌ عَزِيزٌ غَطَّهَ الْمَجْدُ وَالْمَلَأُ
رَحِيبُ الْمَفَاتِي لَا نَضِيقُ بِوَفْدِهِ
وَحَفَّ بِأَعْنَابٍ وَنَخْلٍ نَوَاعِمُ
وَلَا حَ لَنَا خَوْخٌ كَمَا خَجَلُ الْخَسَدِ
وَجَوَزَ لَهُ بَيْضُ لَبٍّ وَإِنْ صَفَا
وَعَنْ جَنَى الْمَنَابِ غَضٌّ كَأَنَّمَا
فَتَلَكَ عُرُوشُ الْمَاسْمِينِ وَزَهْرُهُ
وَأَلْقَى عَصَاهُ وَسَطَهُ الْيُمْنُ وَالسَّيْمُ
طَوَّأَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ كَلَّهْمُ وَفَسَدُ
تَكَادُ فَرُوحًا بِالنَّوَاسِمِ نَفَقَسَدُ
وَمَانَعُ وَمَا نَ كَمَا كَعَبُ النَّهْبَسَدُ
عَلَى مَتْنِهِ جَوْنٌ مِنَ الْقَشْرِ مَسْجُودُ
تَلَا حَظٌ فِي أَفْنَانِهِ حَدَقٌ رَمَدُ (١)
كَزْهَرِ نَجُومٍ وَسَطُ أَفْلاكِهَا تَبَدُّو

وفي القصيدة نفسها ، يتحدثنا ابن الأبار ، عن إحدى جلسات الأمير أبي زكريا ، مع شعرائه في البستان . وقد انصب حديث الشاعر على تصوير جمال المنظر الذي جلسوا فيه ، وعلى السَّعادة التي كانت تغمرهم ، والمزاج الذي كان بينهم . ثم وصف أنواع الأطعمة التي قدَّمت لهم ، من لحم طير مختلف ، وعجل توقف الشاعر عند وصفه (٢) ، وفواكه متنوعة ، يقول (٣) :

حَوَالِي قَبَابٍ فَجَرَ الْمَاءُ وَسَطَهَا
وَمَرَّ كَأَيْمٍ فِي مَذَانِبِ مَرْمَرٍ
فَأَنْحَى (٤) عَلَى حَرِّ الصَّيْفِ لَهُ بَرْدُ
يَلْجُ قَسِيًّا (٥) مِثْلَ مَا جَلَجَلَ الرَّعْدُ

(١) رعدت الميمن : انتفخت .

(٢) لم نذكر الأبيات في وصف المجل لعدم وضوحها .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ٦٠ .

(٤) أنحى : أقبل أو مال إلى ناحية .

(٥) قسب الماء : اشتد جريه وسع خريه .

وخاض حُشَى بحرٍ هنالك طافح كما قدَّ بالمضربِ الرَّهيفِ الظُّبا سُرْدُ (١)
تطلَّعَ منها كلُّ حسناءٍ جسمها لجين ، ولكنَّ من نضارٍ (٢) لها بُسْرُ
تناهتَ جمالاً وجلالاً فأصبحت تندُّ على الأوصافِ إنَّ ما لها قدَّ

في هذا المكان الجميل ، وعلى أنغام المياه الجارية ، كان تناوُلهم لطعامهم
فرحين :

جنينا بها الإِسماد من مفرسِ المنى
وحفَّ بنا أثناءُها الرَّفُّ والرَّفْسُ
وذابَ لنا فيها النَّمِيمُ فلا تَرى سوى داعٍ هزلاً وشيخه الجَدُّ
أقانبِ شتى من فواكه شُففت بأطعمةٍ يعين بها الشُّكرُ والحمدُ

ولا شكَّ أنَّ هذه الجلسة ، كانت واحدة من جلسات كثيرة . وهي أيضاً ، تؤكد
ما ذهبنا إليه في بداية حديثنا ، من اهتمام الدَّولة الحفصية بـ"أدبها" ، وتقريبهم
واغداق كل خير طيهم . فالأمير الحفصيُّ ، لا يجد في أوقات سعادته وراحته ،
أجمل من الاستمتاع بجمال الطبيعة وشعراء البلاط ، يحيطون به ويتبارون في
مدحه . وقد غلت القصيدة السابقة من المدح التقليدي ، واقتصرت على
جمال البستان ، ووصف تلك الجلسة مع السلطان .

وفي قصيدة طويلة بلغت أربعة وسبعين بيتاً ، بدأها الشاعر بمدح
الخليفة إلى البيت الثامن والعشرين ، انتقل بمدحها لرسم صورة بديعة متكاملة
لتلك القصور مجتمعة وما يحيط بها بقوله (٣) :

-
- (١) السُّرْدُ : اسم جامع للدُّروع ، والمضرب : القاطع ، والمرهيف : الرقيق .
(٢) النضار : الخالص من كل شيء .
(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

صَانِمًا ضَلَّتْ الْأَمْلاكُ صَلَافَهَا لَا الْقَصْدُ وَافِيَهَا وَصْفًا وَلَا الشَّرْفُ
كَأَنَّ رَأْدَ الضُّحَى (١) مَا يَفَارِ لَهَا

عَنِ الْفَزَالَةِ هَيْمَانَ بِهَا كَلْبُفُ
حَيْثُ الْقُصُورُ عَلَيْهَا الْحُسْنُ مُقْتَصِرٌ

فَوْقَ الْبَحِيرَةِ مِنْهَا الْبَحْرُ مُفْتَسِرٌ
وَالزَّمَرُ مَنْشَقَةٌ عَنْهُ كَمَا ثَمَسَهُ
خَضِرٌ خَمَجًا ظَلَمًا زُرْقٌ جَدَاوِلَهَا
فَالْحُسْنُ مُؤَلَّفٌ فِيهَا وَمُخْتَلِفٌ
دُوحٌ وَظِلٌّ يَلْدُ الْمِشْرِ بَيْنَهُمَا
هَذَا يَرْفُ كَمَا تَهْوَى وَنَا يَسْرِفُ (٢)
يَجْرِي النَّسِيمُ عَلَى أَرْجَائِهَا دَيْفًا

وَلَوْ أَنَّ أَرْجَ يَشْفَى بِهِ الدُّنْيَا
خَاكُ الرَّيْحِ بِهَا مِنْ صَوْنِهِ حَبْرًا
كَأَنَّهَا الْحُلُّ الْأَفْوَافُ وَالصَّافُ
تَظَلُّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ جَارِيَةً
يَرُوقُ مَنْرَجٌ مِنْهَا وَمُطَطِّفٌ
وَأَضْحَتْ إِلَى غَرْفِ الرِّضْوَانِ دَامِئَةً

تِلْكَ الْمَعَارِبُ وَالْأَبْيَاتُ وَالْفَتَسِرُفُ
تَلْهِيكَ عَنْ زَخْرَفِ الدِّينِ زَخَارِفَهَا

وَعَنْ أَغْنَانِي الْفَوَانِي وَرَقَهَا الْهَيْتُفُ
يَا حَبِذَا الْمَجْلِسُ الْوَضَاحُ جَنَسِيهِ

كَأَنَّهُ عِلْمٌ (٣) يَسْمُوهُ شَفِيفٌ

(١) رَأْدَ الضُّحَى : انبسطت شمسُه وارتفع نهاره .

(٢) وَرَفَ الظِّلُّ : اتسع واتمدد .

(٣) الْمَلَمَ : سَيِّدُ الْقَوْمِ .

يَمِدُّهُ لِلْفَرَاتِ الْمَذْبِ مَطْرِدٌ خَضِرُ الْبَحَارِ إِذَا قَيْسَتْ بِهِ نَطْفُفٌ
 وَهَبْتُ الْقَهَّةَ الْمَلِيًّا شَامِخَةً
 بِأَنْفِهَا يَزِدُّ هَيْجَهَا الْمَرْ وَالْأَنْسُفُفُ
 حَقَّتْ بِحَافَاتِهَا الْأَشْجَارُ تَكْلُوهَا
 كَمَا تَقُومُ عَلَى سَادَاتِهَا الْوَصْفُفُ
 كَأَنَّ مِنْ وَشِي صَنَمَاءَ لَهَا شَيْئَةٌ ظَلَمِيُونَ بِضُلُحِ زَانِهَا شَفْشُفُفُ
 قَمِيهْدُهُ لِلْمَلَا قَامَتْ عَلَى عَمْدٍ مَصْفُوفَةٌ مَحْشُهَا يَزُورُ بَيْنَ بَصْفُفُ
 كَأَنَّهُنَّ الْمَذَارِي الْفَيْدِ نَاضِيَةٌ
 شَفُوفُهَا عَنْ قَدُودِ كَلَّهَا هَيْسُفُفُ
 مَطَالِحُ لِلنَّجُومِ السَّمْدِ يَكْفُفُهَا
 قَصْرُ الْإِمَارَةِ ، نَعَمُ الْقَصْرِ وَالْكَسْفُفُ
 مَا خَلَدَ بِفَدَادٍ أَوْ زَمْرًا أَنْدَلَسُ (١)
 وَالْمَلِكُ مَقْبَلٌ فِيهَا وَمَوْطِلُفُفُ
 وَأَيْنَ أَيَّوَانُ كَسْرَى (٢) مِنْ سِرَارَتِهَا (٣)
 وَكَالَا كَالِيلُ فِي هَامَاتِهَا الشَّسْفُفُفُ
 تَحَدَّثُوا بِرَحْمَةٍ عَنْهَا وَلَوْ عَرَفُوا
 جَانِي الْمَرْتَضَى يَحْيَى لَمَا حَسَرَفُوا (٤)

-
- (١) الزمراة : مدينة في غربي قرطبة وهي عظيمة في جانتها ، وهي مدينة فوق مدينة
 يمجز الواصفون عن وصفها . انظر : الروض الممطار . ص ٢٩٥ .
 (٢) ايوان كسرى : موجود بالمراق بالمدينة التي كان يقرئها طوك بني ساسان .
 انظر : الصدر نفسه ص ٦٩ .
 (٣) السرارة : وسط الشيء وأفضله .
 (٤) حرف : هذى .

لقد اعتمد ابن الأثير ، على مزيد من الصور والتشبيهات ، فسي
تصوير جمال تلك القصور ، وسعادة العيش فيها ، واصفا لها ولبعض ما يحيط
بها من مناظر طبيعية ، تزيدها حسنا وجمالا . ولم ينس الشاعر أن يشير
الى ما احتوته تلك القصور ، من محاريب وغرف . وقد أضفى على القبة كسل
جمال ، وأشار الى الممد التي قامت عليها . ولكي يؤيد من تصوير جمال تلك
القصور ، قام بمقابلتها بأثرين عظيمين ، أحدهما في الشرق ، وهو " ايسوان
كسرى " ، والآخر في المغرب ، وهو " زهرا " الأندلس . وكأنه يريد أن يقول :
انه لا قدرة لقوة مشرقية أو مغربية ترك أثرا عظيما من هذا الأثر .

انها صورة أخرى من صور الاشادة والتعظيم بالدولة الحفصية
وأصحابها . وانه لتخليد من الشاعر في قصائده ، لجلال الدولة وعظمتها ،
أضافه ابن الأثير ، الى قصائد مدحه الحربي ، التي خلّد فيها قوة الدولة ،
واحتداد نفوذها .

ج - الرثاسا :

الرثاسا : هو نذب للصبى ، وتمداد لمحاسنه ، بشى* من الأسس واللوعة . بالإضافة إلى أنه مشاركة وجدانية ، لأهل الفقيد ، ومواساتهم في محتهم . وهو ظاهرة اجتماعية ، وجد في الشمر المربي منذ أقدم عصوره ، وسيظل موجوداً ، ما دام الإنسان كائناً اجتماعياً ، له علاقات ، وروابطه مع الآخرين (١) . ويدل عادة على حب الرثاسا للفقيد ، وإخلاصه ووفائه له بعد موته .

ولقد أدرك ابن الأبار ، وهو في البلاط الحفصي ، وفاة اثنين من أمراء البلاط . الأول : الأمير زكرياء (ت سنة ٦٤٦ هـ) ، والثاني والده يحيى (ت سنة ٦٤٧ هـ) . وكان على ابن الأبار ، الذي أكثر من إعلان ولائه لهم في قصائد مدحه ، أن يقول شيئاً في رثائهما ، كرمز للوفا الذي بينهم . يقول في اثنا* رثاء لأبي يحيى (٢) :

ألا نحن أبناء الوفا ، فمن يخن

مهود قريب (٣) المملوات فما خننا
مالفعل فقد كان وفياً ظهين ، وخلف في رثائهما ثلاث قصائد (٤) ،

(١) انظر : الشمر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص ٢٩٤ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٥٩ .

(٣) القريح : الكرم أو السيد .

(٤) هناك قصيدة قصيرة في الرثاسا ، ربما تكون في رثاء أبي زكرياء أو ولده ، لأن منهجها قريب من منهجه في قصائد رثاء لهما . ولم ترد أية إشارة تبين هوية الفقيد ، وهي غير واضحة . انظرها في : المصدر نفسه

واحدة في أبي يحيى (١) ، واثنان في والده (٢) ، منها واحدة في رثاء أبي زكريا ، وتهنئة ولده المستنصر بالخلافة . وترك أيضا مقطوعتين في رثاء من يتصل بهم ، واحدة في إحدى نساء القصر ، لا نعرف من هي وما صلتها بهم (٣) ، وأخرى في ابنة صغيرة من بناتهم ، لا نعرف ابنة أي منهم أيضا (٤) .

(١) انظرها في : مخطوطة الديوان : ص ١٥٧ - ١٦١ . وقد جاء فيها أنها في شخص اسمه " محمد " ، ولم استطع أن أثبت من هو محمد ، وبعد دراستها ، فإني أرجح أنها في رثاء أبي يحيى لعدة أسباب منها : أن منهج القصيدة ومعالجتها لا يختلف في شيء عن منهج قصائد رثاء أبي زكريا . كذلك فإنا لم نعث على أية قصيدة في رثاء أبي يحيى ، ولا معنى ، أن لا يقول ابن الأبار شيئا في رثاءه ، لأنه شاعر دولتهم ، ولأن أبا زكريا قد حزن حزنا شديدا عليه ، ولا نظن أن ابن الأبار يخل بقصيدة رثاءه وموااساة ، تكون مشاركة منه للأمير الحفصي في مصابه ، هذا بالإضافة إلى أن في القصيدة ما يشير إلى أن الفقيه مات فسي شبابه . أما البيت الذي أشار إلى أن الفقيه هو محمد ، فإنا نرجح للأسباب السابقة ، أن الناسخ قد وقع في خطأ ، لأننا لو وضعنا كلمة (أبو يحيى) بدلا من محمد لاستقام الوزن ، يقول :

مذمما لدينا سارعنا محمد ولم يمتلق منها ببسرى ولا يطسى

(٢) انظر : مخطوطة الديوان : ص ١٢٦ - ١٢٩ ، ص ١٧٨ .

(٣) انظر : مخطوطة الديوان : ص ٢٧٠ .

(٤) انظر : المصدر نفسه : ص ١٨ .

وابن الأبار في رثاء لهني حفص ، يسائر الشمراء ، والنقاد العرب ،
 فيما يجب توافره في قصيدة الرثاء . فقصيدته الرثائية ، تشتغل على الإشادة
 بالفقيد ، وإظهار الأسى واللوعة والتسليف ، والتحصير ، واستمظام الحدث ،
 فمن ذلك قوله من قصيدة في رثاء أبي زكريا (١) :

عندي نزاع ليس منه نزع	للبدو حجب ليس منه طلوع
مجياً تقضى بالخسوف سطوع	ولم يورق قلب الخسوف سطوع
سرعان ما فجع الزمان بفصم	والدهر بالعلق النفوس فجموع
رطوى معاهد ذكره وهيسود	حتى كأن ما وفي الأسبوع
يا ليت لو دام يحملي بهر	أبدا شروق للضحى ومجموع
لهني عليه مودعاً لا يقضى	لذهابه حتى الحساب رجوع
كم واقع الجيش المرحوم دونه	لو أن شيئاً للحام دقوع

فهو يعلن من قنائه الأمير ، مستخدماً في ذلك صورة طالما أسفها
 عليه في حياته ، وهي تشبيهه بالبحر . ولكن شتان ما بين الاثنين . قال الفقيد
 سطع ثم أصيب بالخسوف الأبدى . يمكن البدر الذي يغيب ثم يظهر وهكذا .
 ولكنها الحياة التي لا ترحم ، والتي لا تنقذ إلا على النفوس الجيدة .
 يخرج الشاعر انفعالاته بالألم والحسرة ، والحنان الفقيد لن يعود
 إلى الأبد . وصل بمقلده إلى حقيقة ثابتة ، وهي أنه إذا جاء أي نفس أجلها
 قلن تتأخر لحظة ولن تنقذ . وأن القوة المادية الدنيوية مهما عظمت ، إلا
 أنها أمجز من أن تقف في وجه الموت . فهو إذاً عارح بين عقله وعاطفته .
 المعظم الحادك وأقره في نفسه . يستمر الشاعر في قصيدته بقوله (٢) :

(١) انظر: مخطوطة الديوان ، ص ١٧٨ .

(٢) المكان نفسه .

إِنْ تَخَلُّ مِنْهُ مُنَازِلٌ وَمَطَالِبُ
لَوْ رَمَتْ أَنْ أَنْصَاهُ هَاجَ تَذَكُّرِي
وَكَفَى شَهِيداً بِالْهُوَادِ وَالْهُوَى
لَنْ يَبْرَحَ السَّهْبُ الْمَرْحَ مَقْتِي
لَمْ أَشْهَدْ الْأَعْيَادَ صُرُوراً بِهَا
وَالْهَدْيَ فِي تِلْكَ الشَّاعِرِ قَدْ سَسَتْ

قَلْبَ حَدَائِدٍ ، وَالْجَمَارُ دُمُوعُ
وَجَدَيْتُ سُلُوكِي مَتَى أَسْمَعْتَهُ
فَاحْكَمْ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مُضَاعُوعُ

إنَّها مجموعة عواطف مختلطة ، تصوّر عظم الحدث وأثمه في النفوس
فلا نوم ولا راحة ولا هنا . وهي تأكيد طين الوفاة والإخلاص ، وعدم النسيان .
وواضح أن موسيقى القصيدة ، ذات أثر فيّين فيها . كما أن الشاعر انطلق
مستجيباً لما في نفسه من عواطف الحزن ، فجاءت ألفاظه واضحة لا تكلّف
فيها .

لقد اعتبر النقاد ، أن من أصعب الرثاء ، الجمع بين التمجيز والتهنئة ،
لأنه جمع بين ضدين في آن واحد . واعتبروا الإجابة في ذلك من علامات
التفوق والظهور (١) .

وقد ترك ابن الأثير قصيدة من هذا اللون ، في رثاء أبي زكرياء ، وتهنئة
ولده المستنصر بالخلافة . ويدّو في قصيدته أنه سار على خطى أبي تمام في
رثاءه للمحتصم وتهنئة الواثق بالخلافة (٢) . وقد أجاد ابن الأثير إجابة واضحة .

(١) أنظر : المصداق ١٥٥/٢ .

(٢) سنشير إلى ذلك بالتفصيل عند الحديث عن خصائصه الفنية في الشمر .

وهي في معانيها لا تختلف عن قصيدته السابقة ، فقد بدأها بالتأوه والتحسر ،
وتصوير عظم الحساب ، بشي* من الانفعال والتأثر ، وتحدث عما أصابه وأصاب
الموجودات عامة من ألم وكس ، وهي طويلة بلغت ثمانية وخمسين بيتاً ،
يقول (١) :

بمضي ثلاثاً سلوة الأيَّام أودى الحمام بناصر الإسلام
وتفاضت الأَجْفَانُ حمراً موعها فمن القلوب هي الخدود دأمي
ما راعهم إلا نمي وجوده من حيث لا أمن من الأعوام
ظلو التفتة لقلت شرب مدام ولو استممت لقلت سرب حمام
بالله لو قتلوا عليه نفوسهم أسفاً ، لما وفوا قضا* نـمام
ويستمر بانفعاله قائلاً (٢) :

ما للنجوم طوالها ، ما للجيا ل رواسياً ، ما للبحار طوام
لَمْ لَمْ تَفَرْ ، لَمْ لَمْ تَزَلْ ، لَمْ لَمْ تَفُضْ من شدة الحسنة سولت والالام
من شدة الحسنة سولت والالام

ويبين سوء حاله ، بعد رحيل الأمير عنه ، بقوله (٣) :

واهاً وآهاً لو شفى تردادها من زفرة مشبهة كضرام
لا تحسبوني صاحباً من حمزة للحزن ، فيها المالمون نـدام
أمن الوفاء وفاته وحياتنا ؟ أف لكفار يد الإنمام

ويحدد الشاعر مكان موت أبي زكريا* ، بقوله (٤) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٢٦ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٢٧ .

(٤) المكان نفسه .

في بؤنة^(١) بانت حياة المرتضى

يحيى ، وقيد إلى الثوى^(٢) بزمَام

ويستمر الشاعر في رثائه ، حتى يحتلّ الرثاء أكثر من ثلثي القصيدة ، ثم ينتقل بعد ذلك لتهنئة المستنصر بالخلافة ، وقد أحسن الشاعر في انتقاله ، إذ يقول^(٣) :

قسماً به ، لولا إمارة نجله	لفدا الهدى نثراً بنفير نظمام
أفراه كوشف بالذي هو كاشن	فاعاه ^(٤) من جوهر معشمام
وأقامه للناس يجمعهم طمس	سلطانه وراه خير قسمنوام
دمعتهم دهم الخطوب فشدما	جلى دجاها منه بدر تممام

ويأخذ بمدح المستنصر بالقوة والشجاعة ويشر الناس بالخليفة الجديد ، الذي سيقتني أثر والده وأجداده ، حتى نهاية القصيدة .

أما قصيدته في رثاء أبي يحيى ، التي مطلعها^(٥) :

أما إنه الأقصى ومنزله الأدنى فأنى وقد طوى بأوتته أنسى

فهي لا تختلف في منهجها ومعانيها عن قصيدته في أبي زكريا ، ففيها توجع وتحسر ، وإشادة وتمريض بالأيام التي سلبته في شبابه ، ويؤكد فيها أن الأمير تعلق بما هو باق ، وتخلّى عما هو زائل .

(١) بؤنة : من بلاد إفريقية ، وفيها دفن ملك إفريقية الأمير أبو زكريا ، انظر :

الروض المعطار ص ١١٥ .

(٢) ثوى : هلك ، وثوى بالمكان : استقر .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٢٨ .

(٤) اعتمام الرجل : أخذ الميعة ، والميعة من كل شيء : خياره .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ١٥٧ .

وهكذا يتبين لنا أن رثاء ابن الأبار لبني حفص ، اتسم بالتركيز على تصوير حاله ، وما أصابه من ألم ، وتعظيم الصاب له ، وقد تجسست في قصائده مشاعر ، وعواطفه " وتوجست الاله وصالحه ، وظلعت أعصابه ربواطفه ، ومثل هذا اللون ، يمكن أن يعطي الهمد الحقيقي للرثاء النبوي يجب أن يكون فيه إحساس بصاب . . . وتمبير عن علق الحسرة والحزن ، وتنفيس عن اللوعة والفصّة ، اللتين يتحسرج بهما فؤاد المكموم ، تقترح بهما أحشائه (١) ، ونراه في رثاء بني حفص ، يغفل كثيرا من معاني الإشادة والمدح ، فهو لم يتمرّض إلا لصفة واحدة تقرّبا بشكل مباشر ، وهي القسوة ، وأقل ما سوى ذلك ، بمكس ما سنلاحظه في رثائه لشيخه الكلاعي ، إذ سيصغ عليه الكثير من الصفات التقليدية ، كالمام والتدين . . . وكأنه اكتفى بما كان قد أسفه عليهم من صفات في قصائد مدحه . ورأى أن عليه بعد أن ذهبوا أن يتيمن ما أصابه من ألم وحزن ، كدليل على وفائه وإخلاصه .

لقد أضاف ابن الأبار بقصائد رثائه ، ما ذهبنا إليه ، من أنّه قد أحبّ الحفصيين وأخلص لهم .

(١) الشمر في عهد المرابطين والموحدين ص ٢٩٨ .

فإن الدارس يستطيع تسجيل الملاحظات التالية حول شعر ابن الأبار في البلاط الحفصي :

١ - أن الشاعر كان واقفياً في شعره ، صوّراً ما كان يراه ويلبسه حقيقة قائمة ، وإن كان في كثير من الأحيان يصبغ إلى المجالفة التي كانت من أيسر سمات المصريين ، فالمعاني التي أسبغها على مدوحه ، كانت متوافرة فيه كما أن الموضوعات التي طرقها في شعره ، كانت وليدة الحياة ، التي كان يحياها في البلاط . فالفتوحات الحفصية كثيرة ، والأمر الحفصي كثير الغزو ، والجيش الحفصي قوي في جنده وأدواته ، وحياة الناس سعيدة في ظل الحفصيين الخ . كل ذلك أدّى إلى تنوّع شعر الشاعر بتنوّع الظروف والأسباب التي كانت تحيط به في البلاط الحفصي .

٢ - أن ابن الأبار - كأبي شاعر بلاط - كان همه في شعره على الرغم من حبه للأمر الحفصي وأعجابه به ، إرضاء أميره والتقرب إليه ، وارتفاع منزلته عنده ، وخاصة أن البلاط الحفصي ، كان يفتن بالشمسراء والأدباء .

٣ - أن شعره كان سجلاً لتاريخ بني حفص ، زمن أبي زكريا ، ما يعطيه قيمة تاريخية ، وخاصة أنه أشار إلى بعض ما لم تشر إليه كتب التاريخ . كما أن له قيمة جغرافية ، بسبب ذلك الحشد الكبير من أسماء المدن التي ذكرها ، وقيمة حضارية لتوقفه عند أبرز أثر من آثارهم الحضارية ، وهو بستان أبي فهر . هذا بالإضافة إلى حفظه لبعض الماديات فسي تلك الفترة ، وبعض المظاهر المسكوية للدولة الحفصية .

- ٤ - أنه أظهر في شعره موقفه السياسي المؤيد للدولة التي أصبح شاعرها ، والمخالف لكلّ خلافة سواها في المشرق والمغرب ، وخاصة الخلافة الموحديّة ، وهو أمر يتوجّب عليه كشاعر بلاط .
- ٥ - أن شعره يمثّلنا صورة عن نمط ونوع الأدب الذي كان يطرق فني البلاط الحفصيّ والموضوعات التي كان يتناولها الشعراء في البلاط ، كما يؤكّد ازدهار الحياة الأدبية في ظلّ بني حفص .
- ٦ - أن الشاعر أكّد ما ذكرته كتب التاريخ والتراجم ، في دخول ما يتصلّ بحياته في البلاط الحفصيّ ، وسماواتها إلى أن حصلت الجفوة بينه وبين أبي زكرياء ، ثم عودتها إلى ما كانت عليه بعد مزيد من الاعتذار والاستعطاف ، وإشارته إلى سوءها في أواخر أيامه .
- ٧ - أن شعره في البلاط ، يؤكّد ما قلناه ، من حبّ ابن الأثير وإخلاصه لأبي زكرياء بشكل خاص ، وقد جاء - كما لاحظنا - مترابط الأجزاء ، متكاثر الجوانب ، تحدّث فيه الشاعر عمّا يتصل بالدولة وما يتصل به أيضاً . فقد تحدّث عن قوّة الخلافة الحفصيّة ، وأحقّية بني حفص في قيامها . وقد وفقّ في ذلك توفيقاً كبيراً . وتحدّث عن فتوحات بني حفص وصفاتهم المثالية المتناسبة مع عصرهم ، عصر الصراع والحروب ، الذي هو بحاجة إلى قوّة تهبط ، ويد تنفق بسخاء ، ودين يحسّ على النهوض في وجه العدو

وطيحي أن من يتصف بمثل صفاتهم ، سيكفل حبّ الناس وطاقاتهم ، لأنّ حياتهم في ظلهم ستكون سعيدة رغدة .

وإذا كان ابن الأبار ، قد أكثر من الإشادة بأبائهم ، ما اتسمت به الدّولة الحفصيّة ، وهو كثرة الفتوحات ، فإنه لم ينس أن يتحدث عن عظم الحضارة الحفصيّة وأشهر آثارها ، وبخاصّة بستان أبي فهر ، وما فيه من قصور ومناظر جميلة ، ثمّ إنه - وهو المحلب المخلص - كان عليه أن يظهر استمراريّة حبّه لهم بعد وفاتهم ، فكان أن صدر عنه بعض القصائد المكيّة في رثائهم .

ولا مناص من القول : إنه بعد الاستمرار السابق ، لما قاله ابن الأبار في بني حفص ، يسوغ لنا أن نطلق عليه شاعر الدّولة والبلات الحفصيّة . ولكنّ الذي يؤلم النفس ، ويدهي القلب ، أن تكون نهائية هذا الوفيّ ، طوى أيدي من أخلص لهم وأحبهم . وكأنهم لم يجسدوا ، ما يكافئونه به طوى وفاته ، إلّا القتل قمصا بالرماح !!

إنها وصمة عار في جبين دولتهم ، وفي جبين المستنصر بخاصّة ، ستظلّ ماثلة على مؤّ الزمن .

الفصل الرابع

أفراض شعريه

- ١ - المدح .
- ٢ - الشعر الوطني .
- ٣ - الفزل .
- ٤ - الوصف .
- ٥ - الرثاء .
- ٦ - الزمعه .
- ٧ - أغراض أخرى .

١ - الممدوح

يعتبر فن الممدوح من أبرز الفنون الشعرية عند ابن الأبار. وقد
أشرنا في فصل سابق إلى أن مدائحه كلها تقريبا كانت في أمراء بني حفص.
فهل قصر ابن الأبار شعره في الممدوح على بني حفص، أم أنه مدح غيرهم من
الأمراء والولاة، الذين كان قد اتصل بهم، قبل رحيله إلى تونس؟

لقد اتصل ابن الأبار، بأمراء بلده منذ أيام شبابه، وبدأ اتصاله
بأبي عبد الله الموحدي أمير بلده، ثم اتصل بولده أبي زيد، وأخيرا كان
اتصاله بأبي جميل زيان. ولأن ابن الأبار أكثر من مدح بأمراء بني حفص،
فإن الباحث ينتظر أن يجد مثل تلك المدائح، أو أقل منها، فيمن كان قد
اتصل بهم من أمراء بلده. ولكننا للأسف لم نجد له أي شيء في أبي عبد الله
الموحدي، ووجدنا قصيدة لا تتعدى الأبيات في ولده أبي زيد، وقصيدة
في أبي جميل زيان آخر أمراء بلنسية. وقصيدتين في أبي الحسين، يحيى
ابن أحمد الخزرجي والي شاطبة.

هذا كل ما وصلنا من مدائحه في غير الحفصيين، وهذا بالتالي
يدعونا إلى الافتراض، أنه ربما قال غير تلك القصائد، وخاصة في أبي زيد
وزيان بن مردنيش. فقد بلغ من وفائه لأبي زيد أنه لحق به إلى أرض الروم عند
مفادته بلنسية. فهل يعقل أن يكون كل ما قاله فيه من المدائح، تلك المقطوعة
فقط؟؟ وهل يعقل أيضا أن يترك لنا في زيان، الذي كان ابن الأبار،
من كبار كتابه ووزرائه، قصيدة واحدة؟ على الرغم من ذهبنا، إلى أنه ربما
كان زيان منشغلا بالحروب والظروف المحيطة بإمارة بلنسية. إلا أن القصيدة
التي وصلت في مدحه، وقوسها في منهجها من شعره في بني حفص، تُنبئ أنه
لا يمكن أن يكون قد اقتصر عليها.

هذا تساؤل أقمناه ، راجين أن تكشف لنا الأيام عن بعض أشعاره التي ضاعت وربما انتهت بانتهائه ،

أما المقطوعة التي شركها في أبي زيد ، فقد نظمها ، عندما تمكن هذا الأمير من إخضاع قلعة بيران (١) . لحكم إمارته ، وهي مزيج من التهنية بالنصر ، ومدح عمله ، والتنويه بقوته وقوة جيشه ، الذي استطاع أن يخضعها على الرغم من قوتها . وهذه المقطوعة ، ليست كالقصائد التي كان يرفقها للحفصيين في مناسبات انتصارهم . وهذا يدعونا إلى الافتراض ، أن القصيدة ربما كانت طويلة ، ولكن الحميري كمادته (٢) ؛ اكتفى بالاستشهاد بهذه الأبيات ، التي تشير إلى إخضاع الحصن ، وأغفل ما تبقى من القصيدة . يقول ابن الأبار (٣) :

للهِ قلعةٌ بيرانٍ وعزَّتْها — على الأُعاصيرِ في ماضي الأُفاسيرِ
عنتٌ ودانت على حُكمِ المنى فرقا —
من سَطو مرهوبٍ ألقى السَّطو محسذور — ولو أصرت على الإعراضِ ثانية
لأصبحت بين تخريبٍ وتد ميسر — مدَّت إليك ، أبا زيد ، بطاعتهم
يبدأ مغافة صولٍ منك مشهور —

(١) بيران : حصن من حصون الأندلس . انظر : الروض المعمار ص ١٢١ .

(٢) دليل ذلك أن الحميري أيضا ، استشهد ببعض الأبيات من قصيدة طويلة لابن الأبار ، في مدح الأمير الحفصي عندما تمكن من تلمسان . انظر : الروض المعمار ص ١٣٦ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٢١ .

وَأَكَّدَتْ فِي الرَّضَى وَالصَّفْحِ رَغْبَتَهَا
كَمَا تَقْدِّمُ تَأْيِيدَ الْمُقَادِيمِ
فَجَدْتَ جُودَكَ بِالنَّمِيِّ بِمَا سَأَلْتِ
مِنْ الْأَمَانِ لَهَا طَلْقَ الْأَسَارِ

وتعتبر قصيدته في أبي جميل زيان التي بلغت ثلاثة وأربعين بيتاً ،
من قصائده التي تتفق كثيراً مع منهجه في مدائحه لبني حفص . فقد ركّز فيها
على قوّة مدوحيه وشجاعته ومدافعته عن دين الله بمعارفته النصارى ، الذين
كانوا يتحينون الفرصة للاستيلاء على بلنسية ، كل ذلك انطلاقاً من تدينه
وقربه من الله ، فهو كثير الصلاة والصوم . . . وكما أشرنا سابقاً ، فإنه لا يسدّ
أن يكون مدوح ابن الأبار وخاصة إذا كان أميراً محارباً ، على درجة كبيرة
من التدين ، لأن زمانه كان يشهد صراعاً عنيفاً بين عقيدتين .

ومجمل الأمر ، أن الصفات التي أسبغها على بني حفص ، وأسبغ
مبيلاتهما تقريباً على زيان . ولولم يذكر اسم مدوحيه ، لظن الناظر فيها
أنها في بني حفص .

يقول فيها مادحاً زيان بالقوّة والشجاعة ، وصوّراً جبن الأعداء
بهمهم ، بقوله (١) :

وَتَشَبَّهَ يَوْمَ الرُّوعِ فِي حَوْمَةِ الْوَفَى كَأَنَّكَ شُهْلَانٌ (٢) بِهَا أَوْ مُتَالِعٌ (٣)

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٨٠ .

(٢) شهلان : جبل باليمن . انظر : الروض الممطار ص ١٥١ .

(٣) متالع : جبل بناحية البحرين . انظر : معجم البلدان ٥/٥٢٠ .

وَتَفَزُّو المِدَى فِي عَقْرَهَا مَتَابَعًا وَحَسْبُكَ غَزْوٌ فِي المِدَى مَتَابَعٌ
وَمَا هُمْ وَلَا الْبِلْدَانُ إِلَّا وَدَائِعٌ وَعَمَّا قَرِيبٍ تَسْتَرِدُّ الْوَدَائِعُ
تَقْدُّكَ الرُّعْبَ الَّذِي مَا لَهُمْ بِهِ قَرَارٌ وَلَا فِي الْجَيْشِ مِنْهُمْ مَطَا مَعُ
وَلَا نَوَا بِأَطْنِ الرَّاسِيَّاتِ تَوْقَمًا لَمَّا سَوْفَ يَفْشَاهُمْ وَمَا حَمٌّ وَقَعَ

ولقد كثرت وقائمه في النصارى (١)، الذين أقضوا ضاجع المسلمين

فألقاهم وجعلهم يبيتون على بساط الأرق، بعد أن كان المسلمون، يعيشون
في خوف ورعب، ولكن الحال تبدلت، بسبب قوة الأمير زيان، يقول (٢) :

أَبْرَجُوا النِّصَارَى فِي زَمَانِكَ نَصْرَةً وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ لَمَعَرَى الْوَقَائِعِ
فَأَعَيْنَهُمْ بَعْدَ الْهَجُوعِ سَوَاهِدٌ وَأَعَيْنَنَا بَعْدَ السَّهَادِ هَوَاجِعُ
وَكَيْفَ يَرُومُ الرُّومُ طُولَ تَحْتِيعٍ وَأَنْتَ رِدَاها وَالْمَوَاضِي الْقَوَاطِعُ

وإذا كان جند بني حفص أشد أقوياء بكثرتهم وشجاعتهم وأنهم
يطيرون أميرهم، ويذلون أرواحهم رخصيصاً في سبيله، فإن جند زيان،
لا يختلفون عنهم في شيء. ويأتي ابن الأبار بصورة بديعة جميلة، ليبين حبهم
لزيان والتفافهم حوله، بقوله (٣) :

(١) إن ما جاء في قصيدة ابن الأبار من كثرة وقائع الأمير زيان في النصارى
وانتصاره وتمكنه منهم، لا يتفق مع الحقيقة التاريخية. فالمصادر التاريخية
لم تذكر لنا أنه انتصر مرة واحدة عليهم، وإن كان قد بذل قصارى جهده في
المحافظة على إمارته، ورد الأعداء عنها. ولا ندري إن كانت هذه القصيدة
قلت بعد انتصار حقه زيان على النصارى، لم يصل إلينا في كتب التاريخ
حتى الآن، أم أنها قصيدة حماسية تهدف إلى زرع الثقة بالنفس لمواجهة
الأعداء.

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٨١.

(٣) المكان نفسه.

إِذَا وَقَفُوا قُلْتَ : الْمَهْضَابُ الْفَوَارُ وَإِنْ زَحَفُوا قُلْتَ : الرِّيحُ الزَّعَازِعُ
تَحَفُّ بِزَيَّانِ الْأَمِيرِ كَأَنَّـهُ فَوَادٌ ، وَهَمَّ فَوْقَ الْفَوَادِ أَضَالِعُ

وكما حفظ ابن الأبار ، لون الراية الحفصية ، فقد حفظ أيضا لون راية
زيّان ، يقول (١) :

لرأيتهُ السَّوداءُ في كلّ مشهدٍ قيام بنصر الحقّ أبهى ناصعٍ
وكما قلنا : فإنّ مدح أمراء هذه الفترة بأداء الشعائر الدينية ،
والذود عن الشريعة ، يعتبر من أهم أسس المدح ، وفي ذلك يقول ابن الأبار (٢) :
صلاةٌ وصومٌ واحتسابٌ وخشيعةٌ وعدلٌ وإحسانٌ لها الفوز سابعٌ
وفي كلّ حالٍ ما تزال موفّقاً تواصلٌ في مراضته وتقاطيعٌ
وإذا كان ابن الأبار في مدحه لزيّان ، يقترب في منهجه من مدحه
لهبني حفص ، فإننا نجد في مدحه لأبي الحسين ، يختلف قليلا ، ذلك لأنّ
المناسبة تختلف عن مناسبة مدحه لزيّان وهي حفص . فمدحه له - كما يبدو -
كان من أجل التكبّب الاتي ، إثر حمية حلّت به ، وهي : سمرقة ماله فبني
أثناء عودته من أرض الروم ، عند لحاقه بأبي زيد ، كما صرح بذلك في قصيدته (٣) .
فهو إذا قد مدحه ليمطيه ، ويقبل عشرته . أو ربما مدحه بمدح أن أعطاه وأقال
عشرته ، كنوع من الشكر والامتنان لوقوفه إلى جانبه في هذه المحنة المؤقتة . ومن

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٨٠ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) انظر الأبيات في : مخطوطة الديوان ص ١٢٠ ، ١٢١ ، من البيت

• (١٤ - ٧) •

مما فقد جاء مدحه له متفقا مع المحنة التي ألقت به ، لذا نراه يشير إلى
أن أبا الحسين ، قد شمر عن ساعده للوقوف إلى جانب الشاعر ، وممارسة
الأيام والليالي التي حاولت تنقيص عيشه ، يقول (١) :

أما إنَّ الليالي غالبات	ولو يقرى بنصر الفرقدان (٢)
إذا لم ألقها بملا ابن عيسى	وحسبي من حسام أو سنبلان
فلست من الإياب على يمين	ولست من الذهاب على أمان
فإنَّ أبا الحسين ينال منها	نال الفخر من قلب الجبلان
ينهبها متى نهدت لحربي	ويأخذ لي الأمان من الزمان

ولقد ركز ابن الأبار أيضا بشكل واضح في قصيدته ، على الاشادة
بكرمه وعظيم جوده ، وخاصة في أوقات الشدة ، التي يظهر فيها الإنسان على
حقيقته . وتركيزه على صفة الكرم يتفق مع حاله ، بحد أن ذهب ماله وساءت
حالته ، يقول (٣) :

من شام برق جبينه في أزمة	أثرى بفتح سطحه الهطلال
يقول كذلك (٤)	

إنَّ ابن عيسى من طعت ضامه	ونخامه في الرّوع والإحمال
لا زال دافع كلَّ خطب واقسع	وشمال (٥) من أضفى بغير شمال

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٦٢ .

(٢) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالي يهتدى به ، وقمره نجم آخر
ماثل له أو أصغر منه ، وهما فرقدان .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٢١ .

(٤) المكان نفسه .

(٥) الشمال : الطجا والفيث .

٢ - الشعر الوطني

ليس الشعر الوطني غرضاً جديداً في الأدب الأندلسي ، فقد أحبّ الأندلسيون بلادهم وتعلقوا بها ، وقالوا القصائد الكثيرة في وصفها ، وبيان عاطفتهم نحوها . وإذا كانت عاطفتهم الصادقة ، قد برزت نحو وطنهم وهمم بقربه ، ينعمون بجماله وسحره ، فإن تلك العاطفة ، ستأجج إذا ما أصابه سوء ، أو ابتعدوا عنه لسبب أو لآخر ، فيكون تمبيرهم عن عواطفهم المتأججة عادة ، بحنين وطوعة وشكوى ، تذكيرين أيام ليهوم وسعادتهم .

ولقد ألت بعد سقوط الخلافة الأموية وتناثرها على شكل دويلات صغيرة في أوائل القرن الخامس الهجري ، بعض الظروف السياسية ، التي أدت إلى انزال الكوارث ببعض المدن الأندلسية ، وكانت أولى تلك الكوارث سقوط مدينة بريشتر ^(١) سنة ٤٥٦ هـ ، ثم أعقبتها مدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ^(٢) واحتلت بلنسية سنة ٤٧٨ هـ ، ثم استميدت سنة ٤٩٥ هـ ^(٣) . وكانت لتلك الكوارث التي حلّت بالمدن الأندلسية ، أعق الأثر في نفوس أديائها ، فقاموا برثائها وتصوير ما أصابها ، وظهروا يسمي برثاء المدن .

وفي القرن السابع الهجري - زمن شاعرنا - ، كانت الأندلس تفيض ببقية أنفاسها . وكثرت عليها الاعتداءات ، وأحدثت بها الهزلات والمخاطر

(١) بريشتر: حصن على نهر مخرجة من أمهات مدن الثغر الفاتكة في الحصانة

والامتناع . انظر : الروي المصطار ص ٩٠ .

(٢) طليطلة : هي مركز لجميع بلاد الأندلس ، لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل .

انظر : الروي المصطار ص ٣٩٣ .

(٣) انظر : الشعر في عهد المرابطين والموحدين ص ٣٠٧ .

من كل صوب ، وأخذت مدنها تسقط تباعا ، وأهلها يجبرون على تركها . وقد كان
للنكبة التي حلت بالأندلس أعظم الأثر في أدب أدباء تلك الفترة ، إذ صوّروا
في أدبهم ما أصابها من دمار وتخريب ، وما أصاب أهلها من قتل ونزوح وتشريد^(١) .

وكان ابن الأبار ، على رأس أولئك الشعراء ، الذين أحبوا وطنهم ،
حباً لا مراة فيه ولا زيف . وقد تبدى ذلك الحب ، منذ شموه بالخطر المحقق
ببلده ، فكتب قصيدته الهزلية ، التي لا تقل في شهرتها عن قصيدته السينية ،
ومعها صرخا أمير تونس الحفصي . كذلك فقد كان على رأس الوفد الذي
أرسله زيّان بن مردنيش صرخا للأمير الحفصي ، فألقى بين يديه قصيدته
السينية المؤثرة .

ولكن هل كان ابن الأبار يفهم مصطلح الوطن ؟ وهل استخدمه

في شعره ؟

نعم لقد فهم ابن الأبار مصطلح الوطن كما نفهمه هذه الأيام ، واستخدمه
في شعره ، فمن ذلك قوله^(٢) :

فمليّ ظنّك البواكي إنني	أخرجت عن وطني ولست بمجرم
ويقول أيضا ^(٣)	
إلى أوطانه من المعيد ^(٤)	فظلّ كأنه غنّ يميّد

(١) انظر بعض الأشعار التي تصوّر ذلك في : الشعر في عهد المرابطين

ص ٣٠٧ - ٣٢٦ ، وأشعار لابن عميرة في كتاب : أبو المطرف أحمد بن

عميرة ص ٢٣٠ - ٢٣٤ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٣ .

(٤) المعيد : السيد أو المريض أو المشغوف عشقا .

وسقط رأسه ذكر اشتياقاً فذاب فؤاده وهو الحديسد

فابن الأبار - كما نرى - جسد مفهوم الوطن في شعره ، بمعنى سقط رأسه - وهي بلنسية - ، والبلاد التي تلحق بها بلنسية وهي الأندلس . فالأندلس هي وطنه الكبير ، وبلنسية وطنه الصغير ، وما سواهما من البلاد الإسلامية يخرج من هذه الدائرة . وما يدل على أنه لا يقصد بالوطن بلنسية فقط ، ذكره لبقية البلاد الأندلسية التي سقطت ، وراثته لها إلى جانب بلنسية .

ونستطيع تقسيم قصائد ابن الأبار الوطنية إلى قسمين بارزين :
القسم الأول : ما قاله قبل السقوط وعند وقوعه . ويمثل هذا القسم ، قصيدته الهزمية والسينية ، وقصيدة ثالثة قالها عندما قام بحمل البهجة وأهل بلنسية إلى الأمير الحفصي (١) . والقسم الثاني : ما قاله بعد السقوط ، أثناء إقامته في تونس ، ويقسم القسم الأول ، بامتزاج الاستصراخ بالمديح ، ويحتل المدح جزءاً كبيراً من القصيدة . كذلك تغلب عليه الحماسة وشدة التهميل وتصوير المحنة ، وهجاء الأعداء ، وروز الناحية الدينية ، والحث على الرجاء الوطن السليب ، والتحرر واللوعة ، إلى غير ذلك مما يثير المدح ، فيدفعه إلى إغاثة من التجأ إليه .

والناظر في القصيدتين : الهزمية والسينية ، يلحظ مدى توافقهما في منهجهما ، وفي المماني والموضوعات التي طرقها الشاعر فيهما . فكل منهما تبدأ بدعوة صريحة لإغاثة الأندلس وإنقاذها (٢) :

(١) انظر القصيدة في : مخطوطة الديوان ص ٤٤ - ٤٨ .

(٢) أزهار الرهاض : ٢٠٧/٣ .

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مُنْجَاتِهَا دَرَسًا
ويقول مفتتحاً قصيدته الهزلية (١) :

نَادَتْكَ أَنْدَلُسُ قَلْبًا نَدَاءً مِمَّا وَاجْمَلْ طَوَاغِيثَ الصَّلَيبِ فِدَاءً مِمَّا
والأمير الحفصي هو أفضل من يستفاد به ، ولن يستطيع فتح الأندلس وإعادتها
غيره (٢) :

يَا أَيُّهَا الطُّوكُ الْخَصُورُ أَنْتَ لَهَا عَلِيًّا تَوَسَّعَ أَعْدَاءُ الْهُدَى تَمَسًّا
وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَنْبَاءُ أَنَّكَ مَنْ يُحْيِي بِقَتْلِ طُوكِ الصَّفَرِ أَنْدَلُسًا
ويقول في الهزلية (٣) :

طُوكُ الْجَزِيرَةُ لَا بَقَاءَ لَهَا إِذَا لَمْ يَضْمَنْ الْفَتْحُ الْقَرِيبُ بَقَاءَ مِمَّا
رَشَّ أَيْهَا الْمَوْتِ الرَّحِيمُ جَنَاحَهَا وَاعْقَدْ بِأَرْشِيَةِ النَّجَاةِ رِشَاءَ مِمَّا

ويصور الشاعر في القصيدتين ، حالة الأندلس عامّة ، ولنسيئة
بشكل خاص ، وما أصابها من دمار ، وما أصاب أهلها من تشرد وذلّ وقتل ، راعيا
منقط رأسه ، الذي قضى فيه أجمل أيام زمانه وناديا حظ بلاده ، وحظ أهلها السي
يقول (٤) :
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلِهَا جُزْأً (٥) لِلْحَادِثَاتِ وَأَعْسَ جَدَّهَا تَمَسًّا

(١) نفح الطيب : ٤٧٩/٤ .

(٢) أزهار الرباعي : ٢١٠/٣ .

(٣) نفح الطيب : ٤٧٩/٤ .

(٤) أزهار الرباعي : ٢٠٧/٣ .

(٥) الجزر : ما يصلح لأن يذبح من الشاء .

في كلِّ شارقةٍ إمامٍ بائقةٍ يعمودُ مأتمها عندَ العدى عرساً
وكلِّ غاربةٍ إهجا ف نائبةٍ تثني الأمانَ حذاراً والسُرورَ أسي
تقاسمَ الرومَ لا نالتَ مقاسمهم ولا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسيةٍ منها وقرطيسيةٍ ما ينسفُ النفسَ أو ما ينزفُ النفسا
مدائنَ حلَّها الإِشراكُ مبتسماً جذلانَ وارثحلَ الإيمانِ مبتثسماً
وصيرتها الموادي المايثات بها

يستوحشُ الطرفُ منها ضِعْفَ ما أنسا

ويكمل حديثه متحسراً (١) :

لهفي عليها إلى استرجاعِ فائتها مدارساً للمشا نبي أصبحت دُرساً
وأرسماً تمنمت أيدِي الربيع لها ما شئتَ من خَلعٍ موشيةٍ وكساً
كانت حدائقُ للأحداقِ موفقةً فصوحُ النَّضْرِ من أدواحها وهسا
وحالاً ما حولها من منظرٍ عجيبٍ يستجلسُ الركبُ أو يستركبُ الجلوساً

سرعانَ ما عاثَ جيشُ الكفرِ وأحرباً عيثَ الرُّبُي في مغانبها التي كبساً
وابتزبتتها ما تحيَّفتها تحيَّفَ الأسدُ الضاري لما افترسا
فأين عيشُ جنيناهُ بها خضرا وأين غُضنُ جنيناهُ بها سلساً
محا محاسنها طاغُ أُنَّيح لها ما نامَ عن هضمها حيناً ولا نَفساً
ورجَّ أرجاءها لما أحاطَ بها ففادَرَ الشَّمُّ من أعلامها غُفساً

ويقول في قصيدته الهمزية ، واصفاً سوءَ ما وصل إليه أهل بلده (١) :

(١) نفح الطيب : ٤ / ٤٧٩ .

دُفموا لأبكار الخطوب وعونها
فهمُ الفداة يُصابرون عناهما
وتنكرت لهم الليالي فاقتضت
سراهما وقضتهم خضراهما
ويكمل قوله ثالمما (١) :

إيه بلنسية وفي ذكراك رسا
يُحري الشؤون (٢) دماهما لاماها
كيف السبيلُ إلى احتلال مهاد

شَبَّ الأعاجمُ دونها هيجاهما
والى رُسٍ وأباطحٍ لَتَقْرَسَن
حلل الربيع صيفها وشتاهما
طاب المعمرس والمقيلُ خلاهما
وتطلعت غررُ المني أثناهما
بأبي مدارس كالطلول دوارس
نسخت نواقيس الصليب نداهما
ومصانع كسف الضلال صباحها
فيخاله الرائي إليه مساهما
راحت بها الورقاء تُسمع شدوها

وغدت ترجع نوحها وكاهما

فهو يمزج الوصف بالحنين والحسرة ، فيصور ما كانت عليه قبيل السقوط وما
صارت إليه فيما بعد .

وإذا كان ابن الأبار ، قد التجأ إلى الأمير الحفصي ، حاشا إيتاه
على استمادة وطنه وإنقاذه ، فإننا نجد مجسدة المأساة تجسيدا أكثر
شمولية ، حينما يطلب من عامة المسلمين أن يهبطوا ويسترجموا وطنه ، ليقينه
أنه إذا احتدي على شبر واحد من أرض المسلمين ، فعلى كل مسلم النهوض
لاسترجاعه ، يقول (٣) :

(١) نفح الطيب : ٤ / ٤٨٠ .

(٢) شؤون الصين : مجاريها الدمعية .

(٣) نفح الطيب : ٤ / ٤٨١ .

هَبَّوْلَهَا يَا مُمْشِرَ التَّوْحِيدِ قَدْ أَنْ الْهَيْبُ وَأَحْرُزُوا عَلَيْهَا
هِيَ نَكْتَةُ الْمَحْيَا فَحَمِيهَا بِهَا تَجِدُوا سَنَاهَا فِي غَدٍ وَسَنَاهَا
أَطْوَا الْجَزِيرَةَ نَصْرَةً إِنْ الْعَدَى تُبْقِي عَلَى أَقْطَارِهَا اسْتِيلَاهَا
نُقِصَتْ بِأَهْلِ الشَّرْكَ مِنْ أَطْرَافِهَا فَاسْتَحْفَظُوا بِالْمُؤْمِنِينَ نَمَاهَا
حَاشَاكُمْ أَنْ تُضْمَرُوا الْفَاءُهَا فِي أَزْمَةٍ أَوْ تُضْمَرُوا إِقْصَاهَا
خَوْضُوا إِلَيْهَا بِحَرَمِهَا يُصْبِحَ لَكُمْ رَهْوًا وَجْهًا نَحْوَهَا بَيْدَاهَا
دَارُ الْجِهَادِ فَلَا تَفْتَكُمُ سَاحَةُ سَاوَتْ بِهَا أَحْيَاؤُهَا شَهْدَاهَا

وفي البيت الرابع : "نُقِصَتْ بِأَهْلِ الشَّرْكَ مِنْ أَطْرَافِهَا" ، مما يشير إلى أن القصيدة قيلت قبيل السقوط ، في أثناء محاصرة النصارى لبلنسية ، وليس كما ذكر المقرئ ، من أنها قيلت بعد سقوط بلنسية (١) .

وفي القصيدتين ما يؤكد - ما ذهبنا إليه - ، أن الحرب في الأندلس ، كانت صليبية بحثة ، وأنها كانت تهدف إلى إزالة كل المعالم الإسلامية ، واستبدالها بمعالم نصرانية (٢) :

يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعَدَى بَيْمًا وَلِلنَّدَاهِ غَدَا أَثْنَاهَا جَرَسًا
ويشير الشاعر إلى الحقيقة المرة ، وهي أن ضياع الأندلس لم يكن ليحدث ، لو كانت الأمة الإسلامية هناك ، متحدة الكلمة والهدف ، مرفوعة الرؤية . ولكنها انقسمت على نفسها ، فذهبت قوتها ، وتفرقت قلوبها ، فخلا الجو للعدو ، فانقضَّ عليها وحقق ما كان يتمنى (٣) :

(١) انظر : نفح الطيب : ٤٧٩/٤ .

(٢) أزهار الرياض : ٢٠٧/٣ .

(٣) المكان نفسه .

خَلَّاهُ الْجَوْفُ فَاحْتَدَّتْ يَدَاهُ إِلَى إِدْرَاكِ مَا لَمْ تَطَّأَرْ جَلَاهُ مُخْتَلِسًا
وَأَكْثَرَ الزَّعْمَ بِالتَّثْلِيثِ مُنْفَرِدًا وَلَوْ رَأَى رَأْيَةَ التَّوْحِيدِ مَا نَبَسَا

أما ما جاء في القصيدتين من مدح ، فهولا ، يختلف في معانيه وموضوعاته ، عما أطلنا الحديث فيه في الفصل السابق . ومع أن الشاعر قد نجح في تحقيق هدفه ، وهو إغاثة بلنسية ، إلا أن الدارس لهما يشعر أن محور الماطفة كان يمتري الشاعر في قصيدته من حين لآخر ، وأن عاطفته فيها كانت أقل صدقا وروزا منها في مقطوعات حنينه لوطنه . ونحن إذ نقول ذلك لا ننفي عن الشاعر صدق إحساسه وشموه نحو بلده ، الذي كان يواجه مصيره المحتوم ، والذي أحبه الشاعر حباً عظيماً . ولكن إغراق الشاعر في المحسنات البديعية ، وتكلفه في استخدامها ، كان يهدد أحيانا عاطفته ويؤدي بها . وقد نجد المذراة لشاعر في ذلك ، وهو أن الهدف من نظم القصيدتين ، كان إغاثة بلنسية ، وإغاثتها في محتتها . لذا فعلى الشاعر أن يستخدم من الأدوات ما يحقق هدفه ، وقد كانت المحسنات البديعية والمبالغة . . . من الأمور الشائعة في عصره ، بل المحببة في الأدب . أما صدق الخياط فقد كانت عاطفته أكثر صدقا ووضوحا في مقطوعات حنينه وهو في تونس ، منها في قصيدته ، لأن نفس الشاعر كانت في تونس ، قد اكثرت بنار الفريسة والبعد ، وبشغفت من العودة إلى ما كانت عليه ، فجاءت مقطوعات حنينه ، صورة صادقة لشوقه ومعاناته .

وقد حوّقت كتب التراجم والتاريخ ، عند هاتين القصيدتين وأكثر من الإشادة بهما ، وخاصة القصيدة السينية ، التي ارتبط اسم ابن الأبار الشاعر بها . فقد قال ابن سعيد بحققها : " وعارضها كثير من الشعراء " . . . وأقري

الناس بحفظها ، إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم^(١) وقال الحَقْرِي :
 " السنيّة الفريدة ، التي فضحت من باراها ، وكبا دونها من جاراها " (٢) .
 وقال في مكان آخر : " وهي من غرر القصائد الطنّانة " (٣) . ويدّو أن القصيدة
 أعجبت الأمير الحفصيّ بشكل كبير ، فهزّت منه عطف ارتياح ، وحركت من جنانه
 أخفض جناح ، ولشففه بها ، وحسن موقعها منه ، أمر شمرا* حضرته بمجاوبتها ،
 فجأوبها غير واحد (٤) . ونحن نقسّئال : ما السرّ في معارضة الشمرا* لها وهجّزهم
 عن الوصول إلى مستواها ؟ ولماذا أغري الناس بحفظها إغراء بني تغلب بقصيدة
 عمرو بن كلثوم ؟ ثمّ لماذا طلب الأمير الحفصيّ من شمرا* حضرته فجأوبتها ؟

يبدو لي أن ارتباط القصيدة بمناسبة أليمة عظيمة ، وحادث جليل ،
 وهو سقوط بلنسية ، وإنشادها في حضرة أبي زكريا* الحفصيّ - أعظم قوّة في
 القمّال الأفريقي في تلك الفترة - واستحسانه لها وتأثره بها ، بالإضافة
 إلى تركيز الشاعر على الناحية الدينيّة ، التي هي كافية ، لأن تهزّ المسلم
 أسفا وحسرة ، وتبكيه ألما وحزنا ، سواء في ذلك العصر ، أم في أيّ عصر آخر .
 بالإضافة إلى حسن سرد الشاعر للقضايا المطروقة ، من تصوير لحالة البلاد ،
 وما حلّ بها من خراب ، وما نزل بأهلها من ذلّ وقتل وتشريد ، والتذكير

(١) القدح المملّى : ص ١٩١ . ويقصد هنا قصيدة عمرو بن كلثوم التي مطلعها :
 ألا كُبيّ بصحنك فاصبحينا ولا تُبقي خمور الأندرينا
 أنظر القصيدة كاملة في : شرح القصائد المشرقة للتبريزي ، ص ٤٢١ -

(٢) نفح الطيب : ٤٥٧/٤

(٣) أزهار الرياض : ٢٠٧/٣

(٤) نفح الطيب : ٤٦٠/٤

والتنبيه ، بما ينتظر الإسلام وأهله من ضياع وتحرق ، وتجسيد المأساة تجسيدا عاما ، يهتم كل من يوحد الله . إضافة إلى براعة الشاعر ، في استخدام ما يرضي أذواق أبناء العصر ، من زخرف وتنميق لفظي ، استفلّه الشاعر في تشكيل المنصر الموسيقي المؤثر في القصيدة ، هو السرفي نجاح القصيدة والإكثار من الإشادة بها .

وإذا كانت القصيدتان : الهزمية والسينية ، تتناقان في أسلوبهما وموضوعاتهما ، لكونهما قيلتا في الحدث والاستصراح ، فإن قصيدته الثالثة ، تختلف عنهما قليلا . فقد انقسمت القصيدة إلى قسمين بارزين : قسم مهد فيه الشاعر لقصيدته بمدح بسيط للأمر الحفصي ، وبين أن الأمير هو خير من يتوجه إليه . ثم انتقل في القسم نفسه ، فتحدث بشكل مؤثرا عما واجه أهل بلده من ويلات في بلد هم بمد سقوطه ، ووصف بشكل حزين أهل بلده الذين أجبروا على مفارقة بلدهم ، وخاصة أولئك الأطفال الذين لم يركبوا البحر من قبل . وقد احتل هذا القسم أربعة وعشرين بيتا من القصيدة ، صور فيه الشاعر المأساة التي لحقت به وأهل بلده . ثم انتقل منه إلى القسم الثاني ، فأطن في بدايته أن تلك الجموع المهاجرة ، قد توجهت لصايعة الأمير الحفصي لأنه أهل لذلك ، وتستمر القصيدة بمد ذلك بمدح الأمير بما هو معروف من الصفات . يقول ابن الأبار فيها (١) :

تصابر (٢) ضراء النواصب والنوى وطوي عليها الكشح خنيقة كاشح (٣)

(١) مخطوطة الديوان : ص ٤٦ .

(٢) يقصد الصبية الذين ذكرهم في بيت سابق والجموع المهاجرة .

(٣) الكشح : الوشاح . والكاشح : العدو والمبغض .

تَكَادُ عَلَيْهَا النَّفْسُ تَذْهَبُ خَسِرَةً إِذَا لَمَعَتْهَا الْفَيْنُ وَسَطَ الضَّحَاضِحِ
حُلَا مَا لِأَبْصَارِ الْأَعْدَى جَلَاؤُهَا ظَوَاعِنَ عَنْ تِلْكَ الرَّبَى وَالْأَبَاطِحِ
كَأَنَّ حَمَامًا مَا دَلَا فِي خُدِّ وَرْهَهَا وَلَا نَطَقَ إِلَّا بِالْذُّمِّ وَالسُّوْافِحِ
وَأَشْرَقَ مَا تَبَدَّدَ وَعِيُونًا إِذَا بَدَا سَنَّا بَرْقَ مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ لَا مَسْجِحِ
نَجْنٍ جَنَانِي رَقَّةً لِأَجْنَسَةِ ثَوَتْ فِي بَطُونِ الْغُشَاتِ السُّوَابِحِ

ويصف سير السفن التي حطتهم الجامعة الأمير الحفصي ،
فيقول (١) :

تُؤمُّ إِمَامًا لَمْ تَزَلْ بِسَمُودِهِ تَسِيرُ بِنَاسِيرِ النَّوَاجِي النَّوَاجِحِ

فالقصيدة - كما نرى - قصيدة مناسبة رهيبة ، وهي جلا * أهل بلنسية
عن وطنهم . وابن الأبار الذي كُفِّ قَبِيلِ السَّقُوطِ باستصراخ الأمير الحفصي ،
وطلب عونه ، هو نفسه المكلف بمعد السَّقُوطِ ، يحمل أبنا * بلده إلى تونس ،
لكي يستقروا فيها . ومن هنا كان عليه أن يَصَوِّرَ حالة أبنا * بلده وقد أُجْبِرُوا
على الرحيل ، وهاطفته الشفقة الحزينة نحوهم ، ونحو الأطفال بخاصة ،
لينجح في مهمته ، ويضمن التأثير في نفس المدح ، ليعطف عليهم ، ويؤمن
لهم عيشهم .

إن هذه القصيدة ، تبين بكل جلا * ، إحساس الشاعر وشعوره
الجماعي ، ووطنيته الحقة ، التي تفرض عليه مشاركة أبنا * بلده في صابهم ،
والوقوف إلى جانبهم ، وتقديم كل عون لهم . ويد وأن اطمئنان الأمير هُجَّان
إلى قدرة الشاعر على القيام بمثل هذه المهمات أحسن قيام ، هو الذي دفعه
إلى اختياره من بين رجاله لتأدية هذه المهمة .

(١) مخطوطة الديوان : ص ٤٦ .

لقد سقطت بلنسية ، وغادرها ابن الأبار إلى تونس ، واستقر فـ في
البلاط الحفصي ، وسمدت حياته نوعاً ما . ولكن هل أخذ إلى الراحة والنميمة ،
ونسي سقط رأسه ؟ .

لم ينس ابن الأبار مسقط رأسه ولا وطنه الأندلس ، الذي شهد فيه
المأساة ، رغم استقراره في البلاط الحفصي ، وبقي في تذكرو وشوق دائم لـه .
وهو حتى في قصائد مدحه للحفصيين ، يتذكر وطنه ويحن إليه ، ويحثهم
على طرد المدوم منه .

ونستطيع تقسيم ما قاله ابن الأبار في وطنه بعد سقوطه وهو في
تونس إلى قسمين : الأول : جاء مختلطاً بـ قصائد المدح ، وهو حث وطلب
مباشر من بني حفص ، لاسترجاع وطنه . وهذا القسم يعتبر احتداداً لقصيدتي
ابن الأبار السينية والهمزية ، وفيه دلالة على أن الشاعر استمر في موقفه
المدافع عن وطنه بـ كلمته . وقد وردت دعوتـه لـ نقاد الأندلس في معظم قصائد
مدحه لبني حفص .

ويقسم هذا القسم بالقصر تقريباً ، فهو وضات تذكيرية بنواجب الأمر
الحفصي ، نحو جزء مقتطع من أرض الإسلام . يقول في إحدى قصائد مدحه (١)
وَمِنْ قَبْلُ مَا اسْتَقْتَكِ أَنْدَلُسَ فَلَمْ تَجِدِي جُودَكَ الْفَيَاضَ غِيْضاً وَلَا بَرْضاً (٢)
وَلَا بُدَّ أَنْ تَتْنِي الْأَعْنَةَ نَحْوَهَا لِيَتَمَنَعَ أَسَدُ الْكُفْرِ اثْنَاهَا رِيْضاً
ويمتاز ابن الأبار في تلك الإشارات المباشرة ، بإحساسه الجماعي ، نحو الأندلس
عامّة ، وليس نحو مسقط رأسه فقط .

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٧٢ .

(٢) الفيض والبرص : القليل .

ولم تكن كلَّ إشاراته في قصائد مدحه ، قائمة على الحثِّ واستنهاض
النهم ، فقد يتوقف الشاعر عند إحدى البلاد الأندلسية يمين شوقه إليها ،
ويُقارن بين أيامه فيها ، وأيامه بعد رحيله عنها بأسى وحسرة . فمن ذلك
تذكره لأيامه في إشبيلية ، تلك المدينة التي أكثر من زيارته لها ، يقول (١) :

يَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ صَبَاها مَاشِيــــر
وَأَسْأَلُ (عَنْ) (٢) حَمَصِ النَّمَامِ أَوْ اسْتَقْصِي
لَوْ كُنْتُ مَوْفُورَ الْجَنَاحِ لَطَارَيْتُ إِلَيْهَا ، وَلَكِنْ خَصَّةُ الْبَيْنِ بِالْقَصْرِ
فَشَتَّانَ مَا أَيَّامِي السَّوْدُ أَوْجَهَا بِجَشْيٍ ، وَمَا لِي لَا تَلِيَّ الْبَيْضَ فِي حَمَصِ

أما القسم الثاني من شعره الوطني في تونس ، فهو تلك المجموعة المستقلة من
قصائده ومقطوعاته ، التي بث فيها آلامه وحنينه لوطنه ، بعد رحيله عنه ،
ليقينه أنه لن يراه ثانية ، وقد بلغت ست عشرة قصيدة ومقطوعة ، اشتطت على
مائة وثلاثين بيتاً ،

وتتسم قصائد ومقطوعات هذا القسم بالقصر تقريفاً ، وهي تفيض بالألم
واللوعة ، كما أنها مستقلة الموضوع ، غير مضمّنة في قصيدة مدح ، وهي مزيج
من الوصف والحنين والشكوى والألم كحادثة في معظمها ، تدلّ على يأس الشاعر
من العودة إلى وطنه ، وعلى طغيان تعزّية نفسه ومواساتها ، وهي قريبة الممانسي ،
واضحة الأسلوب ، صادقة الماطفة .

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) زيادة ليستقيم البيت .

ويدو افتتان الشاعر في قصائد حبيته بالرّصافة ، حيث الأشجار الكثيفة ، والّوى والبطح المخضرة ، تجري المياه المذبة فيما بينها ، عاكسة أشعة الشمس الذهبية . في هذا المكان السّاحر كان لهوا بن الأتار مع أصحابه ، يقول (١) :

ما للهوى إلا الرّصافة مآربُ بعد الغدير فكيف يصفو مشربُ
كانا مراداً للتّصميم ومسورداً إذ كتّ بينهما أجيُّ وأذْهبُ
ساعات حسن ظورك أوقاتها

ساعات أنس ردها مستصمبُ
أجري لأذيال الهواة الهوى يقتادني دلّ الحسان فأصحبُ
بين الأباطح والّوى متصرّف ومع الصّباة والصّبا متقلّبُ
كانت مآفن بل نفائس أصبحت سلوة ، وكذا النفائس تسلّبُ
أين المذائب (٢) ، لا أزال تأسفُ

تجري عليها من دُمعي مذنبُ
من كلّ بسام الحباب (٣) كأنّه

ثغر الحبيب وريقه المستمبذُ
يقتادنا أقدامنا وجيادنا لجناحه وهو النّضير الممشبُ
أصبحتُ فيك معدّلاً ومعدّلاً وكذا المحبّ ممذّل وممبذُ

(١) مخطوطة الديوان : ص ١١ ، ١٢٠ .

(٢) المذنبُ : سيل الماء .

(٣) الحباب : الفقايع التي طوى وجه الماء .

ويقول أيضا تذكرا أيام صباه وشبابه وما فيها من متعة (١) :

يَقْرُبُ مِنِّي أَنْ أُرَوِّعَ مَفايِنَا بِسَاحَاتِهَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ
إِذْ المِيشُ غَضٌّ وَلِشَبَّابَةٍ لَدُنْهُ وَصَافِرُ وَجْهِ الأُنْسِ لَيْسَ يَحْجُبُ
فَكُلُّ صَبَاحٍ فِي الشَّرْقِ مَقْضٍ (٢) وَكُلُّ أَصِيلٍ فِي الْغُرُوبِ مَذْهَبُ
وَمَا أُرِي (٣) إِلَّا الرِّصَافَةَ لَوْ دَنَيْتُ

وَهَلْ لِلْهَوَى إِلَّا الرِّصَافَةُ مَذْهَبُ؟!

إنها لحظات تذكّر سريّة ، لأيام شبابه وسعادته ، تمرّ في خياله ، فيرتيمش
لذكراها ، ويمعظم انفعاله ، فيسجلها لتظلّ هذه الصورة المحبّبة البعيدة ،
ماثلة لميئته ثابتة في ذهنه .

ويؤكد الشاعر بين الفينة والأخرى ، عزمه على عدم نسيان تلك
الأيام ، وأنّ شوقه وحنينه ، سيزداد يوماً بعد يوم (٤) :

تِلْكَ المَفَانِي إِنْ حُجِبَ كَأَهْلِهَا عَنِّي ، فَوَجَدِي سَافِرًا لَا يَحْجُبُ
وَلَمَ مَرِي مَا أَنْفَقْتُ مِنْ عَمْرِى بِهَا وَجَنَيْتُ مِنْ ثَمَرَاتِ عَيْشٍ يَمُوتُ
لَا ظَلَمَ عَلَى السَّلْوَ صَابِنَسِي وَالشَّوْقُ فِي كُلِّ المَوَاطِنِ أَغْلَبُ
وَمِنْ قَوْلِهِ كَذَلِكَ (٥) :

وَجَدِي بِهَا وَمِيشٍ فِي حَدَائِقِهَا وَجَدَ الَّذِي أُرْقَتْ عَيْنَاهُ بِالْوَسْنِ

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٥ .

(٢) المفضّض : ما يقضّ به مدرّ الأرض .

(٣) أُرِي : أتمنى .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٢ .

(٥) المصدر نفسه : ص ١٦٠ .

أَيَّامَ نَسَحَبُ أَبْرَاداً وَأَرْدِئِنَّةَ مِنْ الْمُغَافِرِ مَصُونَاتٍ عَنِ الدَّرَنِ
كَأَنَّ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ مُجَالِسَةٍ وَمِنْ مُوَانِسَةٍ بِالصَّحْبِ لَمْ يَكُنْ
كَأَنَّا لَمْ نَصِلْ تِلْكَ الْأَصَافِلَ فِي شَحَذِ الْقَرَائِحِ بِالْآدَابِ وَالْفُطُنِ

وقد تمرّ بالشاعر ساعات شدة وألم ، فيخلو إلى نفسه بيتاً شكواه
ويعرض مأساته ، ويبين سوء حاله . فالمصائب كثيرة ، والوطن بعيد ، فلا صديق
ولا أليف ، فتكثر الدموع ، ويطول السهر ، ويضنى الجسم ، فيشتد شوق الشاعر ،
ويتمنى العودة إلى وطنه ، لتخلد نفسه إلى الراحة في ريوحه . ولا يجد الشاعر
في وحشته وشدة ، غير ريشته ، فيحطها ليمبرعاً في نفسه ، بأسلوب رقيق
هزين ، يوهم القارىء أن دموعه حقيقة كانت تنسكب مدرارة عند نظمه لأبياته ،
يقول (١) :

أَيَا أَسْفِي عَلَى عَدَمِ الْهَجْوِ وَقَدْ انْأَحَبَّةَ وَالرَّبِّعِ
وَسَلَّطِي مَرْقَتَهُ يَدُ الرِّزَايَا لِيَنْظِمَ بِمَعْدَا شَطِ الدَّيْعِ
إِلَى مَنْ أَشْتَكِي صَنْعَ اللَّيَالِي بِنَا ، وَتَفَرَّقَ الْحَيِّ الْجَمِيعِ
وَرَوَّعَنِي الْمَمِيدُ (٢) وَكَانَ جَلْدَا فَيَا لِلَّهِ لِلصَّبِّ الْمَسْرُوعِ
فَهَا أَنَا ذَا كَمَا شَاءَتْ عِدَاتِي بِمَعْدِ الصَّيْتِ فِي الْأَسْفَرِ الْبَدِيعِ

وإذا كان الشاعر يبتّ حنينه وشكواه بمقطوعات قصيرة عادة ، فإنه قد
يخلط بين الحنين والشكوى ورثاء بلده ، ومهاجمة عدوه في قصيدة واحدة ، فمن
ذلك هذه القصيدة التي يقول فيها (٣) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٨٣ .

(٢) يقصد هنا بالمعيد : القلب .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

وَطَنَ عَلَى الدَّاعِبِينَ : الدَّمْعَ وَالشَّجْنَ
 يَا نَادِبَ الدَّاهِبِينَ : الْأَهْلَ وَالْوَطَنَ
 وَأَسْكُنْ إِلَى الصَّبْرِ فِي إِيَّامِهَا نَوْمًا
 أَوْدَتْ عَلَى عَقَبِ السُّكُونِ بِالسُّكُونِ
 كَزَعَزِ الرِّيحِ صَلَكَ الرِّيحَ عَاصِفُهَا ظَمَّ يَدْعَ مَنْ جَنَى فِيهِ وَلَا غُصْنَ
 هَذَا فَوَّادِي كَالْبَرْقِ الْخَفِيقِ أَسْفَى
 وَهَذِهِ أَدْمَعِي كَالْمَارِضِ الْهَيْتَنِ
 بِرَاحَتِي رَأَتْ الْأَشْجَانَ أَهْلَهَا وَإِنْ غَدَا الْجِسْمُ وَهَذَا لَيْسَ يَحِطُّنِي
 وَاهَاً وَآهًا يَمُوتُ الصَّبْرُ بَيْنَهُمَا
 مَوْتَ الْمَحَامِدِ بَيْنَ الْبُخْلِ وَالْجَبْنِ

صورة المد والقاتمة ، ماثلة في ذهن الشاعر . إنهم أعداء الدين ،
 يميّتون كلَّ حقد وكره للمسلمين ، كانوا السبب في إخراجهم من ديارهم ، ليد وقوا
 المذاب والويلات ، بمد أن كانوا هانئين في أرضهم حين أحببتهم (١)
 زَرْقًا أَسْتَتَهُمْ مِنْ جَنَسِ أَعْيُنِهِمْ شَتَقَ فِي قِتَالِ الْفُرْسِ وَالسَّنَسَنِ
 قَدْ أَلْهَسُوا خَيْلَهُمْ أَمْثَالَ مَا أَدْرَعُوا
 وَاسْتَقْبَلُونَا حُصُونًا فِي زُرَى حَصْنِ
 هُمْ أَخْرَجُونَا مِنَ الْوَطَانِ عَنْ حَنْقٍ
 وَزَحْزَحُونَا عَنِ الْجَبَرَانِ مِنْ ضَفْنِ
 فَكَمْ لَقِينَا عَلَى الْأَصَارِ مِنْ فَنَدٍ (٢) وَكَمْ تَرَكْنَا لَدَى الْكَفَّارِ مِنْ فَنَدٍ

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٦٠ .

(٢) الفند : الكذب أو ضعف الرأي .

والنفس الحزين والشعور بالضعف والمجز ، وثّ ذلك نفثا مكيًا
مؤلمًا ، عند الحسبة أو بمدّها ، ليس من صفات النفس داءًا ، فقد تثور أحيانًا ،
ساخطة على قدرها ورافضة ما حلّ بها (١) :

أَبِينْ واشتياقَ وارتياعَ لَقَدْ حُمِلْتُ ما لَا يَسْتَطَاعُ

وقد يتجه الشاعر في شكواه ، صوب الليالي فيخاطبها ساخطًا :
لماذا المحن والخطوب ؟ ولماذا الفدر والظلم ؟ ولماذا العمل الدائب على
تفريق الأهل والأحباب ؟ أمي عادة متأصلة فيها ؟ وجيب الشاعر إجابة من اكوى
بنار الهمد عن الوطن ، إجابة من دهمته الخطوب المتلاحقة . . . نعم ، إنها
إن تنكرت لأحد ، فلن يستطيع الهرب ، وستلاحقه حتى تنال منه (٢) :

رويد الليالي كم تُصرُّ على الفدر أتجهلُ إِتلافَ النَّفائسِ أم تُدري ؟
تدبُّ بفجع الخِلِّ بالخِلِّ داءيساً وتسرى لشت الشلِّ في السرِّ والجهرِ
وما أنشبت في ضيفم الغابِ نابها

فأقلتها يوماً ، ولا ظبية الخــــدرِ
فيا ليتها والهجر مودٍ بوصلها كفنا سرور الوصلِ أو حزن الهجرِ
لقد أشكلتني حلّة (٣) طمعتُ بها

ولكن أقامت بمدّها لوحة الصــــدرِ
لقد كان ابن الأبار بحق ، من أبرز شعراء الوطن في زمنه ، ودليل
ذلك ما خلفه من تراث شعريّ يشهد له بذلك . وقد تهدّت عاطفته نحو وطنه

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٨٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٩٣ .

(٣) الحُلّة : السلاح .

منذ أن أحسَّ بقرب حلول النهاية ، فبحث بقصيدته الهزلية للأمير الحفصيّ
ستصرخا وداعيا إلى الوقوف إلى جانبهم في هذه المحنة والمأساة ، التي - إن
وقعت - ستفرق جمعهم وتذيقهم ألوانا من الذلّ والمعاناة . ولم يكف بذلك ،
بل ذهب على رأس وفد إلى تونس ، وألقى بين يديّ أميرها ، قصيدة عصماء
حشد لها جميع طاقاته ، ليؤثر في الأمير لإمدادهم بالساعدة ، ونجح في
ذلك ، ولكنّ القدر حلّ بهم ، فأضاع مدينتهم ، تلك التي كان ابن الأبرار
يمتثلها قطعة منه . . . تلك التي طالما تغنى بوصف مفااتها في شعره .

وحمل الشاعر أهل بلده صوب تونس ، وقدّم بيعة بلده للأمير تونس . .
وبدأت حياة الفرية عن الوطن . ولما كان ابن الأبرار ، قد عرف دور الكلمة وأثرها
في النفوس ، فقد كان عليه - وهو المحبّ لوطنه - ، أن يذكر الأمير بواجبه في
معظم قصائد مدحه ، من أجل استرجاع الأندلس عامّة .

وكان أحيانا يهمل إلى نفسه ، إثر قسوة أو محنة ، فيتذكر أيام
سمادته في بلده ، فيثور أحيانا على القدر الذي مزق شطه ، ويستسلم
أحيانا أخرى . وفي كلتا الحالتين ، يبتّ زفراته وشكواه وسخطه ، يثبها بنغمته
حزينة ، تؤثر في النفس حتى تكاد تهكها .

لقد كان ابن الأبرار ، شاعر جماعة ، لا شاعر ذات فقط ، وقد تجلّت
في أشعاره عاطفته الشفافة نحو وطنه وأبنائه ، سواء في حاجتهم لمعدّتهم ،
أو عندما رافقهم إلى تونس ، وقد خرجوا خروج المفلوب على أمره ، القاطن
من الصودة ، فآلمه المنظر وأثار انفعالاته ، فمبّر عنه أروع تمبير ، في قصيدة
المدح التي قدّمها للأمير عند تقديم البيعة له . وكان ابن الأبرار في قصائده
الوطنية ، باستثناء القصائد الرسمية التي أنشدها أمام الأمير الحفصيّ ،

يصدر بسهولة ويسر ، ودون تكلف وتور ، فجاءت قصائده سهلة مؤثرة . وقبله
استطاع الشاعر في قصائده تلك ، أن يصور بكل صدق الحالات المتباينة ،
التي تمر بالنفس البشرية ، فقد نبأس أحيانا ، وتثور في أحيان أخرى ،
وقد تهرب من هذا وذاك ، فتطوف بالخيال البعيد ، فتذكره تأسيسية
على ما ضاع . وقد تمر بالخيال صورة المد والقاتل الفاصب ، فتثور عليه
نعلنة سخطها ونقمتها . إنها حقيقة واقعة ، تمتري النفس البشرية ،
عامة ، وليست خاصة بأحد .

لقد أكد ابن الأبار بقصائده تلك ، أنه جزء لا يتجزأ من مجتمعه ،
يشاركه أفراحه وأتراحه ، ويصور كل ذلك بدقة وأمانة . واستطاع أن يتجسد
في وطنه وأمته ، مما يبيح لنا ضمه إلى قائمة شعراء الوطن في الأندلس .

٣ - الفهرست

قد يتساءل مُسائل فيقول : هل ترك لنا ابن الأَبَّار شيئاً من
الفرل في شعره ؟ وإذا كان قد ترك شيئاً ، فهل يتفق ذلك مع ما نعرفه عنه ،
وهو العالم المحدث الفقيه ؟

ربما يدهش الباحث ، عند ما ينظر في شعر ابن الأَبَّار ، فيجد أن
الرجل قد خلف مجموعة من القصائد والمقطوعات الفرلّية المفردة ، بلغت
في مجموعها ستاً وعشرين قصيدة ومقطوعة ، احتوت على مائتين واثنين وستين بيتاً ،
بالإضافة إلى المقطوعات التي وردت في المصادر المختلفة ، ولم ترد في الديوان ،
والإضافة أيضاً إلى أشعاره الفرلّية في مقدمات قصائد مدحه .

وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف نعلّل ورود هذا الحشد الكبير من
الشعر الفرلّي في شعره ، وهو الرجل الذي نشأ في أحضان الدين ، ونهل من
التراث الديني على أيدي كبار علماء عصره ، الشيء الكثير ، حتى كان لتلك
الثقافة الدينية ، أثرها البارز في معظم إنتاجه العلمي فيما بعد ؟

لقد كانت نشأة ابن الأَبَّار في بلد يعتبر من أجمل بلاد الأندلس ،
فما كادت عيناه ترها النور ، إلا وقد سُحرتا بجمال تلك الطبيعة . وابن الأَبَّار
لا يختلف عن غيره من بني الإنسان ، فإنّ ما يُكمل سمادته ، ويتم بهجة نفسه
في صباه ، أن يضمّ إلى تلك الطبيعة السّاحرة ، والنفس الخالية من كل همّ ،
والأصحاب الذين تلذّ نفوسهم بالحديث في كل ما يمرّ ويسعد ، سحراً وجمالاً آخر
هو سحر وجمال من يحب ، فتكل فرحته وسمادته .

وقد رأينا بشكل واضح في مقطوعاته وقصائده حنينه ، تشوقه لأيام
لهو وسمادته في صباه ، وهو في بلنسية ، وأشار إلى الحسان اللواتي كنّ

يفرینه باللحاق بهن فقال : " يقادني دلّ الحسان فأصحب* (١) من
هنا فقد كان معظم ما خلّقه من تراث غزليّ ، قد قاله في صباه . فانظر إليه
وقد سلّم قلبه للفواني اللواتي سحرن لهنّ بجمالهنّ ، تاركا للحبّ أن يصنع به
ما يشاء (٢) :

من شدّة الشوق وهو مساء ^١	ما بال دمي يموت نارا
له دوين الحمى طيبا ^٢	لا عيش للصّب مذ ترا ^٣
كيف وقد عتّني الطّرا ^٣	يقول قوم تمزّ عنهما
فليصنع الحبّ ما يشاء ^٤	وهبت للفا ^٤ قلب ^٤

هذا هو ابن الأبار في صباه ، يحترق بنار الحبّ ، ويذلّم قلبه
للفواني ، اللواتي استطعن أن يصدنه بسحرهنّ وجمالهنّ ، فإذا كان جمال
الطبيعة قد سحره وأسمد نفسه ، فإنّ ما يضاعف تلك السّعادة سحرهنّ
وجمالهنّ .

ويبدو أنّ ساعات ابن الأبار في صباه وشبابه كانت متقلّبة ، فهي جدّية
أحيانا ، يُقبل فيها على العلم وأهله ، ومعيده عن الجدّ في أحيان أخرى .
فقد تذهب نفسه مذها آخر في بعض الأحيان ، فيرى أنّ العيش هو الحبّ . . .
حبّ كلّ ما يتصل به . . . العيش عنده مفارقة عادة تتبدّى له كالقوالة في
جمالها ورشاقتها ، وكالبدر في إشراقه ، فيجلس إلى جانبها سعيداً ، يقطف
ثمار ذلك الحبّ المتأجّج في نفسه . وهو معذور في ذلك ، إذ أنه لا يستطيع

(١) ذكر البيت ص ٢٨٧ من هذه الدراسة .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ٢٠ .

(٣) الطّرا : جمع الطّويّ وهو اللّين .

إنسان أن يردّ النظرات الفاترة الصادرة من عينيّ تلك الفتاة يقول (١) :

هَلْ المِيشُ إِلَّا أَنْ أَغَارِلُ غَادَةً يُحَاسِنُ مَرَاها الفزالة والبسدر
وَأُسْكُنُ مِنْهَا قَاطِفًا شَمْرَ المُنَى إِلَى سَكَنٍ كَالرَّيْمِ لَمْ يَرْمِ الفِكْرُ

ويقول (٢) :

لَقَدْ نَظَرْتُ ظَمِ أَجْدٌ أَقْوَى عَلَى غَضَبِ النُّهَى مِنْ فَاتِرِ الأَجْفَانِ

وإذا كان هذا هو مذهب ابن الأبار في صباه وشبابه ، فهسّل
استمرّ على مذهبه ذلك ، بحد أن أطلّ على الحياة فماش أحزان نفسه
وأحزان بلده ؟

لقد ظلّ ابن الأبار في حنين دائم لحياة صباه وشبابه في بلده ،
وقد رأيناه وهو يندب بلده ، يتشوّق إلى الأيام التي قضاها هناك . ولكنّ
طبيعة الظروف التي أحاطت به ، جعلته - كما يبدو - ينطلق انطلاقاً الجدد
في حياته ، الجدد الذي قد يُعَمِّد له كرامته وكرامة أهل بلده . لذا فإنّنا
نرجح أنّه بعد خروجه من بلده ، بعد أن شهد مأساته وتفرّق الأحبة
والأصحاب ، وتشتّت شطبهم ولم يبق شيئا من الشمر الغزليّ ، سوى ما جاء
في مقدمات مدحه . وقد كانت فترة خروجه من بلده ، فترة نضوجه المقلبيّ
والمليّ ، ما يفرض عليه أن يكون متّزنا في سير حياته ، وأهلاً لأن يقوم بدوره
نحو بلده وأهله ، لذا فإنّ ما سنتحدّث عنه من شمر غزليّ له ، إنّما يمثّل
جزءاً من حياته في صباه وشبابه ، قبل خروجه من وطنه .

(١) مخطوطة الديوان : ص ٩٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٤٤ .

وعند ما يفرض الحديث عن غزل ابن الأبار ، فإنه يخطر بالذهن
السؤال التالي : هل أحبّ ابن الأبار في حياته ؟ وإذا كان قد أحبّ ، فمن
تكون تلك المحبوبة ؟

إنّ الإجابة عن هذا التساؤل ، ليست سهلة ، فنحن لا نستطيع أن
نجزم بحبّ ابن الأبار ، أو ننفي عنه ذلك ، لأنّ ما وصلنا من تاريخ حياته ،
لا يُسمعنا في الإجابة عن هذا التساؤل ، كما أنّ من ينظر في شعره ،
لا يستطيع تحديد فيما إذا كان قد أحبّ امرأة معينة . فهو لم يذكر لنا اسم
محبوبة بمينها ، بل على عادة كثير من الشعراء ، الذين لا يؤدون التصريح
بأسماء محبوباتهم ، استخدم أكثر من اسم في شعره . فمن الأسماء التي
استخدمها : خود ، ونمى ، وحسن ، وقتل ، وعذرة ، وأمانة كما
أنّ المحبوبة تارة من بني هلال ، وتارة من بني سليم ، وثالثة من بني وائل ،
وأخرى من بني أسد وحسبنا أن نقول : إنّنا وإن كنّا لا نستطيع الجزم
بحبّ ابن الأبار ، إلّا أننا نرى أنّ ما جاء به في شعره ، من حسرة وألم
وعذاب وشوق ، وحنين ومكاء ، إنّما يدلّ على صدق عاطفته . ولولم يكن
صادق الماطفة فيما يقول ، لسرعان ما تحوّل عن ذلك دون وعي منه ، لأنّ
المتكفّل لا يستطيع الاستمرار في تكلفه ، ولا بدّ أن يظهر على حقيقته .
وابن الأبار رقيق في غزله ، وقد خلفنا بعض القصائد الرقيقة ، التي بثّ فيها
حبّه وشوقه وأحزانه وآلامه ، وهي قصائد عذبة ، سهلة غنائية ، نرجح أنّها
لا تصدر إلّا عن عاشق خمر الحبّ وجربّه ، فالتدّ بقرب حبيبه تارة وعانى
واكتوى بنار الهجران تارة أخرى ، فمن ذلك هذه القصيدة (١) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

مَهْلًا أُمَامَةً كَمْ يَطُولُ نَوَاكِ وَالْقَلْبُ قَدْ هَجَرَ الْحَسَانَ سَوَاكِ
يَهْوَاكِ دُونَ الْفَانِيَاتِ وَعِنْدَهُ أَنَّ الْمَوْفِقَ مَنْ غَدَا يَهْـ____سَوَاكِ
وَمَرَاكِ مَاطِلَةٌ لَهُ بَضْمِـ____رِهِ وَإِنَّ اللَّيَالِي بَاعَدَتْ مَشْـ____سَوَاكِ
يَا هَذِهِ نَفْسِي لَدَيْكَ رَهْدَةً فَهَبِي لَهَا يَا هَذِهِ رُحْمَـ____سَاكِ
مُتْنِي عَلَى بَرَشْفَةٍ تُشْفِي الصَّدَى إِنَّ الصَّدَى يُشْفِيهِ رَشْفَ لَمَاكِ
إِيَّاكَ أَنْ تَدْعِي الضَّنِّي يَفْتَالَنِّي

وَمِنْ الْجَفَاءِ مَقَاتِلِي إِيـ____سَاكِ
وَاللَّهِ لَوْ أَبْصَرْتَنِي تَحْتَ الدُّجَى مَطْلًا أَشْكُو أَلِيمَ نَـ____سَوَاكِ
لَصَبَا فَوَادِكُ لِي وَرَقًا فَمَا قَسَا وَسَخَتْ بِمَا شُؤْنَهَا عَيْنَـ____سَاكِ
لَمْ أَسْأَلْ حَبِيبَكَ فَاعْطِنِي بِعَمْدِ النَّسْوَى

يَا لَيْتَ شَمْرِي مَا الَّذِي أَسْـ____سَلَاكِ
سَهَرَ الْكَفِيبُ وَنَعَتْ عَنْهُ خَلِيبَةٌ فَهَنَّاكِ فِي لَيْلِ التَّمَامِ كَـ____سَرَاكِ

وهذه القصيدة ، ليست إلا واحدة من مجموعة قصائد عذبة غنائية رقيقة ، نظمها الشاعر ليث ما في نفسه من حبٍّ وشوق (١) .

ولكن هل تخصص ابن الأبار بنوع معين من الفزل ، أم أنه طرّق أنواعه المختلفة ؟ ثم هل له شيء من الفزل الماجن اللاهي ؟ .

إن من ينظر في شعر ابن الأبار الفزلي ، يلاحظ أنه قد اختصّ بنوع معين من الفزل ، وهو الفزل العذري ، الذي يشكو فيه هجر أحبّته وصدودهم ، ويكي لفراقهم ، ويتألم من شدة شوقه إليهم ، حتى إن الشكوى

(١) انظر بعض هذه القصائد في : مخطوطة الديوان ، ص ١٠٣ ، ١٠٥ ،

والصدود ، وقسوة قلب المحبوب ، كانت من أكثر السمات البارزة في شعره . وهو وإن كان عذوباً في حبّه ، إلّا أنّه قد بيّن لنا بعض الصفات الحسيّة لمحبهته ، التي تمينا في معرفة ذوق ابن الأبار في الجمال الأنثويّ بشكل خاص ، وذوق من عاصروهم في تلك الفترة بشكل عام .

وبالإضافة إلى الغزل المذريّ ، وجدنا له غزلاً تقليدياً افتتح به مقدّمات قصائد مدحه ، كمدخل للموضوع الذي يريد أن يطرقه في قصيدته . وهذا النوع من الغزل ، ليس شرطاً أن يكون غزلاً مجرداً . لذا فإننا نرى أنّ شكواه وألمه ودموعه التي كثرت في بعض هذه المقدّمات ، ليست شكوى من الحسب والآله بل ربما تكون تعبيراً عن الحياة السعيدة ، التي كان يحياها في وطنه ، ثم ما لبثت أن قارقتها بمد نزوحه ، ذلك لأنّه كان يمزج أحياناً بين الحنين للوطن ، والأحبة معا في غزله .

أمّا الغزل بالمذكر ، فيبدو أنّ ابن الأبار ، لم يطرقه إلّا من قبيل مجازاة من سبقه من الشعراء ، وسאיعة لمن عاصره ، ولم يتخصّص به ، فكلّ ما وجدناه له في هذا الأمر ، مقطوعة من بيتين ، ذكرها ابن سميّد بقوله :
وله في غلام (١) :

مَنْ عَذِرِي مِنْ بَابِلِيّ طَرْفُهُ	وَلَمَعْرُهُ مَا حَلَّ يَوْمًا بِأَبِييَلا (٢)
أَعْتَدُهُ خُوطًا (٣) لَعِيشِي نَاعِمًا	فَيَمُودُ خَطِيًّا لِقَتْلِي ذَابِلًا

(١) اختصار القدح : ص ١٩٣ ، والمغرب : ٣١٢/٢ .

(٢) بابل : بالعراق ، يقال إنّهُ أقدم بناه بني بعد الطوفان . انظر : الروض المعطار ص ٧٣ .

(٣) الخسوط من الرجال : الخفيف الحسن الخلق ، وكذلك الفصن الناعم .

وهذا النوع من الفزل ، لا يتعارض مع ما نعرفه عن ابن الأبار من تدين ، لأن كثيراً من العلماء الأندلسيين ، قد طرّقوا هذا النوع من الفزل ، دون أن يتخصّصوا فيه .

ولم نجد لابن الأبار شيئاً من الفزل ، الما جن ، كفزل امرئ القيس وغيره من الشعراء ، وهذا يتفق مع نشأته الأولى ، وثقافته الدينية ، وشخصيته العلمية ، وإن كنا قد ظفّرنا ببيتين يشير فيهما إلى نوع من العلاقة الجسدية الشكلية ، بينه وبين محبوبته ، يقول (١) :

وَلَمْ أَدْرِ فِي مَصْرِي بِمَا قَدَّمَا أَرْمَانِي فِي النَّحْرِ أَقْطِفُ أَمْ تُدْهِمُ
وَقَوْلُ مَصْمَا عَلَى تَقْبِيلِ صَاحِبَتِهِ (٢) :

وَلِي عَزْمٌ عَلَى تَقْبِيلِ فِيهَا سَأُضِيهِ وَإِنْ أَنْفَ الْقَبِيلِ

وهذان البيتان ، لا يتعارضان مع مذهبه العام في الحب ، وهو المذرية الكاطبة ، المذرية التي تمنعه من من محبته والنيل منها ، حتى لو سمحت هي له بذلك ، لأنها - كما أرى - قد صدرا في غمرة انفعاله ، وتأجج الحب في نفسه ، دون وهي سبق منه .

وقد حفظ ابن الأبار في قصائده الفرطية ، بعض الصفات التي أسبغها على محبوبته ، والتي بمجموعها تبين لنا ذوقه في الجمال الأنثوي . وقد حاول وصف كل جزء من جسمها ، حتى إنه يتبدى وكأنه يحاول رسمها ، وإخراج صورة مثالية لها كما صنع عند وصفه لعمد وجهه .

(١) مخطوطة الديوان : ص ٢٢٠ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٠٤ .

ويعتبر التشبيه من الأدوات الرئيسية التي اعتمدها في حديثه عن صفاتها . وقد أكثر من تشبيهها بالفضالة في حسنها وجمالها ، والبدر والشمس والصبح في الإشراق ونضارة الوجه ، ومقضب البان في الاعتدال ، وحسن القوام ، وتشبيه نهودها بالتفاح تارة ، والرمان تارة أخرى .

ولمّا كانت الطبيعة تمثل جزءاً مهماً في حياته ، لأنّه أحبّها وعاش بين أحضانها ، لذا نجده يكثر من استمارة بعض صفاتها ، فيسبغها على محبوبته ، ليزيدها جمالا ورونقا ، فمن ذلك ، هذه الصورة الجميلة التي يشبّه فيها المحبوبة بريحانة من رياحين البستان ، اكتست بأوراق جميلة ، ليست طبيعياً ، بل من وشي صنم . يقصد بذلك الحلل التي تلبسها محبوبته . يقول (١) :

ريحانة البستان إلا أنّها من وشي صنم لها أوراق
طوا حظها من النرجس وأناطها من السوسان (٢) :

طئن رنت بلوا حظ من نرجس
فلقد عطت بأناط السوسان
وهي كالريحانة أيضا في تنثيها وطيب رائحتها (٣) :

إنما أنتم رياحين لنا تنثي لنا وتذكوا أرجا (٤)
ويقول أيضا مستخدما الياسمين وشقائق النعمان في إضافة الجمال على محبوبته (٥) :

بأبي التي قرنت معاسن خدّها
بالياسمين شقائق النعمان

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٩٤ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٤٥ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٣٧ .

(٤) ذكت الرائحة : طابست .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ١٤٥ .

أما صفات جسد المحبوبة ، فهي ذات شعر أسود فاحم كالليل ، ووجه مستدير كاليد في إشراقه ، والشَّس في بهائها ، يقول (١) :

كَأَنَّ أَسْنَى اللَّيَالِي فِي تَرَائِبِهَا مَاتَلًا لِأَحْسَنَاءِ وَهِيَ مِطْطَالٌ (٢)
ويقول أيضا (٢) :

قَدْ أَخْجَلَ الشَّسَّ أَنَّ الشَّسَّ عَارِيَّةٌ (٣)

وَمَذَّ تَطَلَّمَتْ لَمْ يَفْرَبْ مُحِيًّا كَـ

وما يزيد في جمالها خدَّان محمَّران ، وخال جميل (٤) :

مَرْقُومُ الْخَدِّ مَوْرِدُهُ يَكْسُونِي السَّقْمُ مَجْمُورُهُ

وإذا كان الوجه مستديرا مشرقا ، والخدود محمَّرة ، فإن الميرون مكحولة كميون المها ، ذات جفون فولا ذبَّة فائرة ، تصرع كل من تنظر إليه (٥) :

لَكِنَّهَا حَدَقَ الْمِهَا خَبَّاتَ لَهْ مِنْ سَحَرِهَا مَا جَدَّ فِي تَخْيِيْبِهِ (٦)
ويقول أيضا (٧) :

فَوْلَا ذَا مَا سَلَّتْ طَيَّ جَفُونِهَا تَرَكَ الْفُؤَادَ لَمَّا بِهِ أَفْـلَاذَا

(١) مخطوطة الديوان : ص ١١٧ .

(٢) المِطْطَال : الطويل .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٠١ .

(٤) المارية : ما تمطيه غيرك وتسترده .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ٢١ .

(٦) التخييب : الخداع .

(٧) مخطوطة الديوان : ص ٧٥ .

وهي أيضا فقيّة الثّغر ، ممسولة الرّيق (١) :
 ممسولة الرّيق ، لم أنكر وقد وصفت
 أن قيل في قدّها الميَال عَسَّال (٢)
 أما عنقها فهو كمنق الفزال (٣) :
 أغازل كلّ شموع (٤) جموع لوجه الفزالة جيد الفزال
 صدرها واسع فيه ثديان ثامدان كالتفاح (٥) :
 تفاحتان بخنوط بهان باتتا ما البان ما يثمر التفاح
 وإذا كان الخصر دقيقا ، فإنّ ما يبرز جماله ذلك الردف العظيم (٦) :
 أردفت في هجري كركك غظظة

وشبيهه خصرك رقّة جثماني
 ومما يزيد من جمال تلك المحاسن الجسديّة ، طيب رائحتها التي تشبه المسك ،
 وكثرة دلالها وفتجها ، وسحر حسننها ، حتى إنّها في غنى عن الحلويّ والحلل ،
 وهي نتيجة لما سبق ممجبة بنفسها تحشي بأناة ولطف ودلال . وإذا كان ابن
 الأبار قد أسبغ صفة الكمال على معظم ما وصف ، فليس غريبا إذاً ، أن تكون محبته
 كلمة الوصف ، يقول (٧) :

فتاة يفوت الوصف ممجّب حسننها فلا غرو أن تزمو دلالاً وممجّبا

(١) مخطوطة الديوان : ص ١١٧ .

(٢) عسل الرّيح : اضطراب واهتزاز للهيئة .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٠٥ .

(٤) شمع يشمع : لمب ومزج .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ٤١ .

(٦) المصدر نفسه : ص ١٤٤ .

(٧) المصدر نفسه : ص ٣٢ .

هذه هي محبته ، وهذه صفاتها التي جعلته يُتيمّم في حبّها ، لا يستطيع سلوان ذلك الحب .

وقد أدرك ابن الأبار في قصائده الفزليّة ، دور الميرون في الحبّ ، فأكثر من الحديث عن الحافظ جيسمته الفخاكة ، التي تصرع كلّ صعب ، حتّى إنّ قصيدة واحدة لم تخل من ذلك ، يقول (١) :

لَمْ تَرَمْ إِلَّا أَقْصَدْتَ لِحَظَاتِهَا مَجْرَى دَمِ الصَّبِّ الْمُتَيَّمِّ صَائِلًا
ويقول أيضا (٢) :

كَالصَّعْدَةِ السَّمَرَاءِ لَكِنْ فَضَّلْتُ عَوْضَ السَّنَانِ بِمَقْلَةٍ كَحِمْزٍ
وكما قلنا : فإنّ مذهب ابن الأبار الفزليّ ، هو المذهب العذريّ . وأصحاب هذا المذهب يقنعون بالقليل من محبّاتهم ، بنظرة أو كلمة عذبة ، وحتّى مجرد رؤيا في المنام . يقول ابن الأبار في صاحبته (٤) :

حَمَلْتُ بِرَاحَتِهَا شَبِيهَةَ خَدِّهَا تَفَاحَةً لَبَسَتْ حُلَا الصَّهْبِ
وَرَمَتْ إِلَى جِهَتِي بِهَا بِلًّا أَوْ مَسَاتٍ

وَجَلَّتْ يَدَا مَخْضُومَةٍ بِدَمَائِي
فَقَنَمْتُ مِنْهَا بِالزَّهْمِيدِ تَعَلُّلًا وَالْحَبُّ يَقْنَعُ فِيهِ بِالْأَيْمَانِ
ولأنه عذريّ في حبّه ، لذا وجدناه يتّصف بالمفّة والحيا . يقول صوّرا نفسه وقد عاد عن ديار المحبوبة ولم يتمكّن من رؤيتها (٥) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٩ .

(٣) الصّعدة : الرج .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٠ .

(٥) المصدر نفسه : ص ١٥ .

وَمَا ذَاكَ جُبْنًا بَلْ حَيَاءٌ وَهَفَاةٌ مِنْ الْحَيِّ أَنْ يَدْرُوا بِمَنْ شَفَقَنِي حَبًّا
وَلَمْ يَفْعَلْ ابْنُ الْأَبَارِ ذَلِكَ ، إِلَّا لِأَنَّ مَذْهَبَهُ فِي الْحَبِّ هُوَ الْكُفْمَانُ ، كُفْمَانُ عِلَاقَتِهِ
بِمَحَبَّتِهِ ، وَعَدَمُ الْبُحْ بِهَا . وَمَعَ أَنَّهُ حَرِيصٌ عَلَى ذَلِكَ ، إِلَّا أَنْ دُمُوعَهُ وَجَرَّاحَتَهُ
تَفْضَحُ تِلْكَ الْعِلَاقَةَ ، يَقُولُ (١) :

وَمَا الْحَبُّ إِلَّا مَا طَوَّيْتُ جَوَانِحِي عَلَيْهِ فَأَبَدَتْهُ الْمَدَامُ سَجْمًا
وَيَقُولُ أَيْضًا (٢) :

وَلَا ذَنْبٌ إِلَّا أَنْ كُفِّتُ عِلَاقَتِي فَبَاحَتْهُ نَجْلُ الْكُفْمِ تَكْلِيمًا

وَيَكْثُرُ ابْنُ الْأَبَارِ فِي شَمْرِهِ ، مِنْ الْحَدِيثِ عَنْ عِلَاقَتِهِ بِمَحَبَّتِهِ ، وَعَنْ
مَدَى حَبِّ كُلِّ مِنْهُمَا لِلآخَرِ ، وَمَعَالِطَتِهَا لَهُ . فَهُوَ مُحِبٌّ لَهَا ، سَلَّمَهَا عَنَانَ نَفْسِهِ ،
وَلَمْ يَتَّصِلْ بِأَنْشٍ غَيْرِهَا ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى نَجْمَانِهَا ، يَقُولُ (٣) :

هَذَا عِنَانِي فِي يَدَيْكَ وَإِنَّمَا فَازَتْ يَدَايَ بَأَنَّ طَلَكْتَ عِنَانِي
وَيَقُولُ أَيْضًا (٤) :

لَا تَشْتَغَوْنِي إِنْ ذَلَلْتُ لِمَرْمَاهَا فَهَوَى الْفَوَانِي أَصْلَ كُلِّ هَوَانٍ
وَمِنْ صَوْرَةِ الْجَمِيلَةِ فِي التَّأْكِيدِ عَلَى حُبِّهِ لَهَا قَوْلُهُ (٥) :

أَنَا فِي هَوَاهَا مِثْلُهَا فِي حُسْنِهَا تَالَلَهُ مَا لِي فِي الْعِلَاقَةِ ثَمَانٍ

(١) ، (٢) مخطوطة الديوان : ص ١٣١ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٤٤ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٤٥ .

(٥) المكان نفسه .

وسبب شدة حبه لها ، ومثانة علاقته بها ، فانه غير قادر على نسيانها ، يقول (١) :

ما أعجب الدهر يرجو أن ينسيني هواك ولا والله أنسيك
وكيف أنسى عهداً بالحمى سلفت لا صبر لي عند ذكراها وذكرك
ولكن كيف كانت علاقة تلك المحبوبة ، برجل سَلِمَ عنان نفسه إليها ،
فأحبها حباً لا مثيل له ؟ لقد كانت علاقتها به ، علاقة هجران ، ورهيل ،
واخلاف للوعود ، وما ذلك إلا لقسوة قلبها ، الذي لا يعرف الرحمة في الحب ،
يقول (٢) :

فما عبثت بما ألقى ولا رقت لما أجند
وطس الرغم من قسوتها ، إلا أنه دائم المصل على إرضائها . فهو إذاً متقلب
بين أمرين : المصل على إرضائها والخوف من غضبها . وهذا يبين الحالة
النفسية القلقة ، التي كانت تفرضها عليه محبته ، بهجرانها وقسوتها ، يقول (٣) :

أراعُ لذكراها فأرعد خيفة كما زعزت غصناً بهبتها الصبا
ويقول أيضاً (٤) :

أخشاك غصبي كما أرجوك راضية وكم أراجيك يا هذي وأخشاك
وأها لهيمان يلقي الأسد ضاربة يوم النزال ونحو حين يلقيك
شاكي السلاح (٥) ويشكو من محبة
غزلاً ، فاعجب لشاك قد غدا شاكي

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٥٦ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٣٢ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٠٢ .

(٥) شاكي السلاح : أي ذو وحدة وقوة في سلاحه .

وهي لم تكف بالقسوة والهجر ، بل نراها ترحل عنه لتزيد في تمذيب قلبه .
ولقد أكثر ابن الأبار في شعره الفزلي ، من تصويرها بعد رحيلها ، بأبيات
تفيض باللوعة والألم والحسرة ، وهو باستمرار يمزج ذلك باستمطاف محبوبته ،
لعل قلبها يرق له ، بسبب ما يقاسيه من عذاب وألم . وأسلوب الحوار من
الأساليب الرئيسية ، في استمطاف ابن الأبار وحنينه . وقد أحسن ابن الأبار في
تصوير نفسه وحاله ، فما من قارئ لتلك الأشعار إلا ويشاركه في احساسه وشموزه ،
وكانه يعيش نفس الحالة التي كان يعيشها الشاعر ، ذلك لأنه يعلم قسوة قلب المحبومة
وحسبها للهجر والجفا . وهي ايضا تدل على صدق عاطفته فيما يقول ، وتتسم
بالسهولة والموسيقى الحزينة ، التي تكشف عن نفسية مجرحة متألمة ، وان كانت
كل أشعار ابن الأبار الفزلية ، بميدة عن الإغراب والتعقيد ، يقول (١) :
وَكُنْتُ أَقُولُ هَجَرْتُكُمْ فَنَائِي فَمَاذَا بَعْدَ بَيْنِكُمْ أَقُولُ ؟
مَحَالٌّ أَنْ يُقِيمَ لَدَيَّ قَلْبِي وَقَدْ حَطَّتْ قِيَابُكُمْ الْحُمُومُ^٢
ويكمل حديثه مستمطفا وصورا حاله :

خُذْ وَابْيَدِي فَمَا بِي مِنْ حَرَاكِ وَكَيْفَ وَقَدْ تَحَيَّفَنِي النَّحْمُومُ^٣
وَأَحْيَوَهَا حُشَاةُ مَسْتَهَامِ تَغْلُغُلُ فِي جَوَانِحِ الْفَلَيْمِ^٤
إِذَا لَمْ تَنْحَوِ الشَّتَاقَ عَطْفًا فَمَنْ ذَا اسْتَنْمِلُ وَاسْتَقِيْلُ^(٢)
لَقَدْ قَعَدَ الضَّنْبِي فِي هَوَاكُم فَقَامَ بِهِ عَلَى تَلْفِي الدَّلِيلِ^٥
ويقول أيضا صيغنا حالته عندما أصرت محبوبته على الرحيل (٣) :
بِمَنْ إِلَهٌ مَا لَقِيْتَهُ عَيْنِي غَدَاةً تَحْمَلَتْ تِلْكَ الْحُمُومُ^٦

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٠٣ .

(٢) يقال : استقاله عشرته : سأل أن يصنع عنه .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٠٤ .

هَجَرْتُمْ ثُمَّ أَرْزَمْتُمْ فِرَاقًا قَمِيسَ إِلَى وَصَالِكُمْ وَصَلِيلًا
وَلَمْ يَكُ فِي حِسَابِي أَنْ تَجْفُرُوا كَمَا جُرْتُمْ طَيًّا وَأَنْ تَحِلَّ لَنَا
وَبَشَّتُ ابْنَ الْأَبَارِ ، عَلَى صَدَقِ مَلَاقَتِهِ بِهَا وَصَانَتَهَا ، فَعَلَى الرِّغْمِ مِنْ طَوْلِ الْفِرَاقِ ،
فَإِنَّهُ لَمْ يَبْيَأْسْ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ ، وَظَلَّ دَائِمَ الْبَكَاءِ وَالْأَرْقِ ، يَقُولُ (١) :
لَا وَلَا اسْتَدْرَجْنَا الْبَيَّاسَ إِلَى سَلَوَةِ عَرْبِهَا مُسْتَدْرَجًا
وَلَطِينُ أَنْكَرْتُمْ مَا نَدَّعَيْتُ فَاسْأَلُوا عَنَّا الْحَمَامَ الْهَزْجَا
هَلْ يَكِي إِلَّا بِكَيْنَا مَعَهُ وَصَلَكَا فِي الْأَسَى مَا نَهَجَا
لَمْ يَكُنْ لِلنَّوْمِ فِي أَحْدَاقِنَا دُونَ إِذْنِ مَنْكُمُ أَنْ يَلْجَا
مُدَّةَ أَبْصَارِنَا شَاخِصَّة نَحْوَكُمْ تَبْكِي زَمَانًا دَرْجَا

وفي البعد يكثر الحنين والشوق ، وابن الأبار الذي أذاب قلوب سامعيه في حنينه إلى وطنه ، لا يعدم أن يصنع مثل ذلك في حنينه وتشوقه إلى أحبائه . ومن مقطوعاته المؤثرة في الحنين إلى أحبائه ، هذه المقطوعة التي يمين فيها كيف أن جوانحه قد اضطربت ، وازدادت زفراته ، حتى إنَّ الريح التي تهب على أحبائه ، فيجسبونها ريح السموم ، ما هي إلا أنفاسه الحارة ، التي ملأها الشوق إليهم (٢) :

يَا أَهْلَ وَدِّي كَمْ أَرُومُ تَدَانِيَا مِنْكُمْ ، وَدَارَكُمْ تَمِينُ وَتَسْرُحُ
إِنْ كَانَ جَسْمِي شَطَطًا مِنْ مَثَاكُمُ فَالْقَلْبُ ثَاوٍ بَيْنَكُمْ لَا يَسْرُحُ
هَذَا الْجَوَانِحُ بِالْجَوَى مَطْوَةٌ مَا أَمِيلُ لَكُمْ وَمَا أَجْنَسُحُ
لَا تَحْسَبُوا الرِّيحَ السَّمُومَ هِيَ النَّفْسِي
مَيِّتٌ طَيْكُمُ فِي الْهَوَا جَرْتُمْ تَلْفَسُحُ

(١) مخطوطة الديوان : ص ٣٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٩ .

أنفاسي الصَّعداء^(١) تَلْكُمُ هَاجِهَا

شوقَ إليكم بالفؤادِ مَسْرُوحِ

وفي الحنين تتذكر الأيام الجميلة ، واللحظات السعيدة ، فمن ذلك قوله (٢) :
وَكَمْ لَيْلٍ قَطَعْنَاهَا بِكَاطِمَةٍ^(٣) نَجْوَى وَشَكْوَى بِمَا يَلْقَاهُ مُضْنُكَ
ويقول أيها (٤) :

سَلَامٌ عَلَى رَوْحِ السَّلَامِ فَكَمْ لَنَا مَقِيلًا بِهَا مَا كَانَ أُنْدَى وَأَطْيَسًا
ولقد كان لتلك الأيام السعيدة ، التي قضاها مع أحبائه ، بالغ الأثر في نفسه ،
حتى إن دموعه قد تساقطت غزيرة على جمال تلك الأيام ، يقول (٥) :

بَكَيْتُ عَلَى تِلْكَ الْحَقَائِبِ حَقِيَّةَ وَحَقٍّ لِمِئِنِّي أَنْ تَسْحَ وَتَسْكِبَا
نَزَاعًا لَخُودٍ أَشْرَبَ الْقَلْبَ حَبًّا فَبَاتَ عَلَى جَمْرِ الْفَضَا^(٦) مَقْلَبَا

والمحب المذري ، لا يستطيع الاستغناء عن الرسل ، الذين
ينقلون إليه كل ما يدور عند محبته . ولم يحدثنا ابن الأبار عن رسله إلى
محبته ، ولكن أتت منه مجرد إشارة للرسل ، فبين أن رسله قد يحظى بلقاء
المحبة ، في حين يحظى هو بالصدود والهجران ، يقول (٧) :

وَلَوْ أَنَّ حَظِّي الرُّسُولُ بِوَصْلِهَا وَلَقَائِهَا ، وَحَظِّيْتُ بِالْهَجْرَانِ

(١) في الأصل "الصعداء" وما لا يستقيم البيت .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٠١ .

(٣) كاظمة : مكان في طريق البحرين ، بينها وبين البصرة مرحلتان ، وقد أكثر
الشعراء من ذكرها . انظر : معجم البلدان ٤ / ٤٣١ .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ٣٢ .

(٥) المكان نفسه .

(٦) الفضا : شجر جمعه شديد الالتهاب ، لا ينطفئ بسرعة .

(٧) مخطوطة الديوان : ص ١٤٥ .

والحديث عن العذال ، لم يخل منه شعر الفزل منذ القديم وحتى
أيامنا هذه . وقد تحدث ابن الأبار عنهم ، فأشار إلى أن بعضهم ، يحاول
تعتيقه لإيماده عنها ، وبعضهم ينقل لها الأخبار الكاذبة . ويبدو أن عذال
ابن الأبار من الذكور والإناث ، حتى إن بعضهن تحاول إيماده عن محبوبته ،
بتفضيل غيرها عليها ، يقول (١) .

كُتبت مسراك فيها خوف عاذلة ، وعاذل ، فأذاع الصك مسراك
وقد كذب ابن الأبار كل مزاعم عذاله ، ولجأ في بعض الأحيان إلى
معاتبة صاحبه ، لا ستماعها إلى أقاويلهم الكاذبة ، لأن العلاقة التي بينهما
يجب أن تكون أكثر عمقا ، بحيث لا تسمح للوشاة التفريق بينهما . وتبدو الحسرة
والألم في عتابه ، ليكون في ذلك بعض الأثر على نفس صاحبه التي هجرته ،
وابتعدت عنه دون سبب ، وردت رسوله إليها ، مع أنه لا داعي للهجر والمعتاب ،
يقول (٣) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٠٩ .

ويلجأ المحبّ في معاتبته ، إلى التأكيد على قوّة حبه ، فيها هو ابن الأبار ، يشبه حبه في قوّة وثباته ، بحبّ جميل بثينه ، يقول (١) :

تَمَكَّنَ مِنْ صَامِعِهَا الْمَذُولُ فَقَالَ : فَأَنْتَ تَدْرِي مَا يَقُولُ ؟
وَقَدَّرَ أَنْنِي أَسْلُوهُمَا وَهَلْ يَسْلُو بَشِينَتُهُ جَمِيعًا ؟
مِمَّا زِلْتُ مِنَ تَصْدِيقِ وَاشٍ يُخْبِرُ كَاذِبًا أَنِّي مَلُوسٌ^٢
وَمَا مَتَعَ الضُّحَى فَصَبَا فَوَادِي لِفَيْرِكُمْ وَلَا جَنَحَ الْأَصْيَلِ^٣

والمحبّ المذوّب ، يجعل صاحبه عادة في حراسة دائمة ليؤكّد على حصانتها وعظم قيمتها بين أهلها وفي حبيّها . وابن الأبار في هذه القضية ، التي لم تفارق قصائد غزله ، مقلد لكثير ممن سبقه من الشعراء ، يقول (٢) :

تَظَلَّلْتُهَا خَضِرَ الْقَنَايِلِ^(٣) وَالْقَنَا وَتَكَلَّمْتُ زَرْقَ الْأَسْنَةِ وَالظَّبَّاءِ
ويقول أيضا (٤) :

إِذَا زُرْتُهَا لَا قِيْتُ حَبِيبًا مِنَ الْقَنَا

ومضى الظبّا تحمي البراقع والحجباء

ونجد ابن الأبار ، يحبّ أعرابيّة بدويّة ، لها قدرة على قتل النفوس والفتك بها . ولا ننتقل إلى حبّ أرابيّة ، ليس جديدا ، فقد وجدنا غيره من

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٠٣ .

(٢) الصدر نفسه : ص ٤٩ .

(٣) القنابل : مفرد ما قنبلة وهي الجماعة من الناس أو الخيل .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٥ .

الشمرأه يسلكون هذا المسلك ، كالمخني ، الذي فضل البدويات على الحضريات (١) ،
يقول ابن الأثير (٢) :

يَدَوْتُ وَلَكِنْ مَا جَفَوْتُ وَرَيْمًا	تجافى عن الآداب مَنْ سَكَنَ الْبَدَا
وَطَلَّتْ أَعْرَابِيَّةٌ دَارَهَا الْفَلَا	تصيفُ على نجدٍ ، وتشتو على حَزْوَى (٣)
مُؤَدَّةٌ سَبَى النُّفُوسَ وَقَتْلَهَا	وما عَرَضَتْ جَيْشًا وَلَا عَرَفَتْ غَزَا

وابن الأثير - كما ذكرنا - ، من كبار مؤرخي عصره ، وقد كان لذلك
الأثر الكبير في شعره ، فمن ذلك هذه الأبيات الغزلية التي ضمَّها عدَّة شخصيات
اشتهرت كل منها بأمر معيَّن . فمحبوبته لها ملك النعمان (٤) ، وعزة تبَّع (٥)
ولميينها صولة وقوة على قلوب الرجال كصولة بسطام (٦) ، وهي حكيمة

(١) انظر: يتيمة الدهر للشمالبي ١/١٧٧ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(٣) حَزْوَى : موضع بنجد في ديار تميم . انظر: معجم البلدان ٢/٢٥٥ .

(٤) هو على الأرجح النعمان بن المنذر ، أبو قابوس . انظر ترجمته في :

المعارف لابن قتيبة ص ٦٤٩ - ٦٥٠ .

(٥) هو حسان بن أسعد الحميري ، من أعظم ثابمة اليمن في الجاهلية
وأكثرهم غارات . انظر : التيجان لابن منبه ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، والأعلام

٢/١٨٧ .

(٦) هو بسطام بن قيس بن سمود الشيباني ، سيّد شيان ، ومن أشهر

فرسان العرب في الجاهلية ، يضرب المثل بفروسيته ، انظر : الكامل لابن

الأثير ١/٦١٤ ، والأعلام ٢/٢٤٠ .

كالاكثم (١) ، وصفة الحكمة في المحبوبة من الصفات التي لم نألف استخدامها عند شعراء الفزل من قبل . أما حاله هو ، فوجدته كالخنساء (٢) ، ورقته في حبته كعروة (٣) وهيامه كغيلان (٤) ، وحزته من شدة ما عانى في حبته كحزن متم (٥) ، يقول (٦) :

لَهَا مُلْكٌ نَعْمَانٌ وَعِزَّةٌ تَبَّعَ وَصُولَةُ بُسْطَامٍ وَحِكْمَةُ أَكْثَمِ
طَلِي وَجَدُ خَنْسَاءَ وَرَقَّةٌ عُسْرُوه وَهَيَامُ غِيلَانَ وَحَزْنُ مَتَمِّ

(١) هو أكثم بن صيفي بن رياح التميمي ، حكيم العرب في الجاهلية .
انظر: الاصابة لابن حجر العسقلاني ١١٣/١ .

(٢) مني تحاضرين عذرة بن الحارث من بني سليم ، ومن أشهر شواعر العرب .
اشتهرت برثاء أخويها صخر ومعاوية . انظر : خزنة الأدب للبغدادي .
٤٣٣/١ - ٤٣٩ .

(٣) هو عروة بن حزام ، من بني عذرة ، ومن تميمي العرب . انظر : فوات
الوفيات ٣٣/٢ .

(٤) هو ذو الرمة ، غيلان بن عقبة ، شاعر من فحول الطبقة الثانية من عصره ، أكثر شعره تشبيهاً وكاء . انظر : وفيات الأعيان ٤٠٤/١ ،
والأعلام ٤١٩/٥ .

(٥) هو متم بن نويرة التميمي ، شاعر فحل ، اشتهر برثاء لأخيه مالك .
انظر : خزنة الأدب للبغدادي ٢٤/٢ .

(٦) مخطوطة الديوان : ص ١٤٢ .

فيا رَبِّ إِنْ كَانَتْ لِقَاتِي قِيَضَتْ فَلَا تَسْأَلْنِيهَا ^(١) فِي الْقِيَامَةِ عَنْ بَدَنِي

وهناك سؤال يخطر بذهن الباحث وهو: هل حاول ابن الأبنس أن يتتبع خطى من سبقه من الشعراء في الفزل؟ يبدو من خلال شعره الفزلي، أنه اطلع على معظم تراث العرب الفزلي، واستفاد من ذلك بشكل واضح، وحاول في بعض الأحيان تقليد بعضهم، فقد حاول تقليد امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة، إذ كانا يقصان طينا في شعرهما الفزلي، بعض ما يدور بينهما وبين محبتيهما، بأسلوب قصصي يعتمد على الحوار. وما هو يقص علينا بعض ما جرى بينه وبين صاحبتة في إحدى الليالي بعد أن هجرته عما كاملا، فحاول الاقتراب من خائها، لعله يطفئ نار شوقه. ولكنها طوى الرغم من طول هجرها، إلا أنها سارت إلى الدخول في خائها، طالبة منه أن يكف عن مثل هذه الأعمال، ومحدرة له من شباب حبيها. وإذا كان امرؤ القيس، وعمر بن أبي ربيعة، كل منهما كان ينال من محبته ما يشاء بعد زيارتهما، فإن شاعرنا أطاع محبته، وعاد بعد أن طلبت منه ذلك، وقد قضى بعض ما ربه، كرهية المحبوبة، والتلذذ بمنظرهما، يقول (٢):

وَرَبِّ مَدِّ بِيْضَاءَ عِنْدِي لِلَّيْلِ تَحَلَّطْتُ فِيهَا الْهَجْرَ حَوْلًا مَحْسَبًا
تَرَاثَ لَنَا وَهْنًا ^(٣) إِذَا خَرِيدَةٌ ^(٤) تُسَايِرُهُ كَالْبَدْرِ قَارَنَ كَوَكَبًا
وَجَارَتْ بِنَا مَدْعُورَةٌ مِنْ شِمَارِنَا كَجَارِيَةٍ بِالرَّمْلِ تَتَّبِعُ رِيسًا ^(٥)

(١) في الأصل (تسألها)، وبها لا يستقيم البيت.

(٢) مخطوطة الديوان: ص ٣٢.

(٣) وحن وهنا: دخل في الليل.

(٤) الخريدة: البكر من النساء، أو اللؤلؤة التي لم تثقب.

(٥) الررب: القطيع من بقر الوحش أو الفزلان.

- وما طمعت أنا قنائس لحظها
فقلت لصحبي : وثقا بحفاظهم
وأقبلت أستقري خطاها مقبلا
وقد جعلت تشتد نحوها
كما أو مات بالكف أن كف وأنكفي
فأبت وقد قضيت بمض ما رسي
- (١) ورب مهاة تنقض الليث أغلبها
(٢) بقربي التصابي لا تريموه مرقبا
مجر المشى للبرود ومسحبها
لتخني نورا ط تلاأ ما خبا
فسمر شباب الحي ماضية الشهبها
وإن كنت من نجواي لم أقتض ما ربا

هذا موغل ابن الأبار ، وهذا مذهبه في الحساب .

(١) المرقب : موضع المراقبة .

(٢) البرود من الشباب : ما لم يكن دقيقا ، والمسحب : مكان السحب .

٤ - الوصف

احتلّ الوصف في شعر ابن الأبار ، منزلة كبيرة ، حتى إنّ قصيدة من قصائده ، لم تخل من الوصف تقرّيباً ، مهما كان موضوعها . وقد ذكرنا أنّه قام بتسجيل كلّ معارك بني حفص وانتصار التهم في قصائد مدحه . وهو خلال ذلك يضيف الأرواح الحربيّة من خيل وسفن ، ويصف القائد الحفصيّ والجيش الحفصيّ وقد وصف حياة الناس عند بني حفص ، وتوقّف عند أهم أثر من آثارهم ، وهو بستان أبي فهر ، فوصفه بما فيه من جمال طبيعيّ ، ووصف جلسات الأرباب مع أمراء بني حفص في ذلك البستان ، كذلك فقد صوّر حياته عند بني حفص ، في حالتي الشدّة والرخاء .

ولمّا كان ابن الأبار قد عاصر أهم حدث في حياته ، وهو سقوط بلده ، لذا فقد وصف جمال وطنه في قصائده الوطنيّة ، ووصف أيضاً الدمار والتخريب الذي لحق ببلده ، ومعالجة أبناء بلده وما لحقهم من قتل ونزول وتشريد .

وفي غزله أيضاً ، لاحظنا كيف أنّه قد توقّف عند معظم صفات محبوبته ، وأنّه كان حريصاً على رسم صورة مثاليّة لجمالها .

على أنّ أكثر جوانب الوصف دروانا عند ابن الأبار - أعني الوصف غير المضمّن في موضوعات أخرى - هو وصف الطبيعة ، تلك التي طكت عليه جوارحه وأحاسيسه ، لأنّه نشأ في أجمل بلد من بلاد الأندلس ، ولأنّه بممه مفادرتة لبلده ، ظلّ على اتصال بالطبيعة ، فقد كانت له جلسات مع الأمير الحفصيّ في بقعة تمتاز بمفخرة من مفاخر الحفصيين ، وهي بستان أبي فهر .

وقد احتوى ديوانه في وصف الطبيعة ، على اثنتين وثلاثين قصيدة ومقطوعة ، اشتطت على مائة وستة وخمسين بيتا . وتتسم مقطوعاته بالقصر ، فكثير منها لم يزد على بيتين أو ثلاثة أبيات . وقد وصف في تلك القصائد والمقطوعات ، معظم ما كانت تقع عليه عينه ، من مظاهر جمالية في الطبيعة ، سواء أكانت ساكنة أم متحركة .

لقد كانت الطبيعة جزءا أساسيا في حياة ابن الأبار ، من هنسا فقد تناولها بكل ما فيها . . . تناول تلك الرياض بما فيها من جمال ، بما فيها من أزهار وطيور ومياه وأشجار ، ما زجا بينها ، ومخرجا لها بأبهى صورة وأحلاها . فمن ذلك هذه الأبيات ، التي وصف فيها روضة من الرياض ، بما فيها من أزهار منتشرة على نهر عذب جار ، والشمس قد أرسلت أشعتها عليه ، ولكن أفياء الأشجار حتمته من تلك الشمس . وعنصر الحياة بارز في هذه الأبيات ، كما أبان الشاعر فيها قدرته على مزج عناصر طبيعية متنوعة مع بعضها ، وإخراجها بصورة تنهض بالروعة والجمال ، لما فيها من خيال وتشبيه ، يقول (١) :

سقى لروض رُدَّتْهُ رَأْدُ الضُّحَى	وَحَمَامَةٌ طَرِبًا يَبْغِي الْبُلْبُلَ لَا
شَتَّى مَحَاسِنُهُ فَمَنْ زَهَرَ عَلَى	نَهْرٍ تَسْلَلُ كَالْحَبَابِ تَسْلَلُ لَا
غَرِبَتْ بِهِ شَمْسُ الظَّهِيرَةِ لَا تَنْسِي	إِحْرَاقَ صَفْحَتِهِ لِهَيْبَا شَمْسِ لَا
حَتَّى كَسَاهُ الدَّوْحُ مِنْ أَفْيَائِهِ	بِرْدًا تَمْزِقُ بِالْأَصَاغِلِ هَلْهَلَا (٢)
وَكَاثِمًا لَمَعَ الظَّلَالُ بِعَيْنَيْهِ	قَطَعَ الدَّمَاءُ جَمْدَنَ حِينَ تَحَلَّلَا

(١) أزهار الرياض : ٢٢٣/٣ ، والوافي بالوفيات : ٣٥٨/٣ .

(٢) الهلhel : الثوب الضميف النسيج ، أوبهت المنكبوت .

أما الرصافة التي عشقها الشاعر ، وأكثر من حنينه لها ، فله فيها هذه الأبيات الرقيقة الجميلة ، التي صور فيها الأشجار الطتفة ، والأشجار الجارية بقوله (١) :

أبستان الرصافة لا	مويت سواك بستاننا
تخال الدح مجتمعا	به شيئا وشباننا
وقد لبست مفارقنا	من الأنداء تيجاننا
تجول به جدا وله	خفى النهر أزماننا
فحسبها إذا انسابت	أراقم (٢) ، زرن ثماننا

ومن أبياته الرقيقة أيضا قوله في حديقة ياسمين (٣) :

حديقة ياسمين لا	تهيم بغيرها الحديق
إذا جفن الفمام بكى	تبسم ثمرها اليق (٤)
كأطراف الأمله سا	ل في أثنائها الشفق

وهذه الرياض والبساتين التي وصفها ، وهذا الجمال وهذه الخضرة ، لم تكن لتوجد لولا وجود المياه . . . المياه التي تهمت في كل كائن الحياة والنضارة والجمال . وإذا كان ابن الأثير قد تضرع لها في وصفه للرياض والبساتين ، ما زجا بمنها ومن جوانب الطبيعة الجمالية الأخرى ، فإننا نجد يفرده المقطوعات في وصف الأنهار والأودية والفدران ، كظهر جمالي

(١) اختصار القدح : ص ١٩٣ .

(٢) الأراقم : ذكور الحيات ولغبتها .

(٣) نفع الطيب : ٥٩١/٢ ، واختصار القدح : ص ١٩١ ورايات المهرزين : ص ١١٤ .

(٤) اليقق : شديد البياض .

بارزا في الطَّيْمَة ، فمن ذلك هذه الأبيات التي وصف فيها نهرا بقوله (١) :

يصفُ السَّمَاءَ صَفَاءً	فحصاهُ ليس يذِي احتجاب
وكأنَّما هو رَقَّةٌ	من خالصِ الورقِ المُذَاب
غازلتُ في شطَيْبِهِ آب	سكارَ المُنَى ، عصرَ الشَّبَاب
والظِّلُّ يَدُوفُ قَبْلَهُ	كالخَالِ في خَدِّ الكَمَّاب
لا بَلَّ أَدَارَ عَلَيْهِ خَمُوفُ	فَ الشَّمْسِ مِنْهُ كَالنَّقَاب

فهو بكثرة تشبيهاته ، يبعث فيه الحياة والحركة . فهو كالسَّمَاءِ في صفائه ، والظِّلُّ فوق مياهه ، كخال في صفحة خد ، بل إنه كالنقاب الذي حمى صفحة ذلك الخد من أشعة الشمس ، وهذه الصورة ، كثيرا ما استخدمها ابن الأثير وأحسن فيها .

وانظر لهذه الأبيات ، التي صور فيها حالة النهر وقد ظللت حمرة الشفق ، والنساء تلعب بمياهه ، وظلال الأشجار تغيّر ألوانه من زرقة إلى سواد . وتلاحظ أن للألوان قيمة كبيرة وهو قادر على توزيعها واستخدامها ، وهو يستخدم ذلك ليعمّث الحركة والحياة فيما يصف ، وكأنه رسام بسارع ، يقول (٢) :

ونهر كما ذابت سبائك فضّة	حكى بمعانيه انمطاق الأرقام
إذا الشفق استولى عليه احمراره	تبدي خضياً مثل دامي الصّوارم
وطليمه في دكة بمد زرقاة	ظلال لأدواح عليه نواعم
كما انفجر الفجر المظلل على الدجس	
ومن دونه في الأفق سحرم الضامم	

(١) أزهار الرياض : ٢٢٣/٣ ، ٢٢٤ ، والوافي بالوفيات : ٣٥٧/٣ .

(٢) شرح شواهد التلخيص : ١٦٧/١ ، وأزهار الرياض : ٢٢٣/٣ .

ومما يتصل بوصف الأنهار والجداول ، وصف الدواليب . ومن يديع
وصف ابن الأبار للدواليب هذه الأبيات ، التي أسبغ فيها الحركة والتشخيص
على الدواليب ، وكأنه كائن بشري ، يقول (١) :

يا حبذا بحديقة دولا ب سكنت إلى حركاته الألباب
غلى ولم يطوب ، وسقى وهو لـم
يشرب ، ومنه اللحن والأكـواب
لو يدعي لطف الهواء أو الهوى

ما كنت في تصديقه ترتبـاب
فكأن ما ترتب ما جنـ وكأنه ما بكسى أو ابـ
ومن تشبيهاته له أيضا (٢) :

فكأنه وهو الطليق مقيـد
للماء فيه تصمد وتحدـر
أبدا على وردٍ وليس بنافـع
كالماشق الحران يرتشف اللـمى

خضرا ولا يرويه ريق أشنـاب
هامت به الأحداق لما نادى منه الحداق ساقيا لا يشـرب

ولم يصف ابن الأبار الرياض بما فيها من أشجار وأزهار وطيور ومياه
فقط ، بل توقف عند وصف بعض الورد بمقطوعات مفردة ، كالخيري والورد الأبيض
والسوسان ، الذي أكثر بشكل كبير من وصفه .

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٣ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٤ .

وقد وصف الخبيري واستهزأه ، ولكنه لم يهتم بالشكل الخارجي فقط ، بل عني بمرض خصائصه وأثره في نفسه ، وأضاف عليه عنصر التشخيص عند ما وصفه بالأديب ، وعطّل حبه له بقوله : " ولا غرو أن يهوى الأديب أديب " ، يقول (١) :

لك الخير أتممتي بخيري روضة	لأنفاسه عند الهجوع هيبوب
أليس أديب التور يجعل ليلته	نهاراً فيذكو تحته ويطيب
ويطوي مع الإصباح منشور تشبسه	كما بان عن ربح المحب حبس
أهمم به عن نسبة أديبته	ولا غرو أن يهوى الأديب أديب

وكان أكثر ما وصفه ابن الأبار من الورد ، السوسان . فقد قال في وصفه أكثر من مقطوعة . وهو في وصفه له ، يعتمد كما اعتمد من قبل ، على الحركة والتشخيص والألوان ، حتى ليخيل لك ، وكأن الورد كائن حي . كما أنه بوصفه ، يخرجها وكأنها مرسومة على لوحة زيتية رائعة ، فمن ذلك قوله (٢) :

يا حسنبا سوسنة	تصبو إليها الجندق
وتحفة من فضة	على نضار تطبق
وربما تفتح ثبات	عن المبير تعب

ولم يتوقف عند أزهاره فقط ، بل نجده يصف لنا ساقه الجميل أيضا ، يقول (٣) :

لم أدر والسوسان قد أوفى على ساقٍ يحمل من الزهرجد (٤) أغيد
أو ذاهل من فضة صبوكسة أم أنحل تومي إليك بلا يد

(١) مخطوطة الديوان : ص ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٩٨ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٥٣ .

(٤) الزهرجد : حجر كريم يشبه الزمرد ، وهو ذو ألوان كثيرة .

وله في نفس الممنى (١) :

لله سوسن روض
من الفضارة أغيد
خامة من لجين
في قامة من زرجند

ومن الأمور الأخرى التي وصفها ابن الأبار ، خسوف القمر والأشراط
الأنوسية ، وعض النجوم والطيور والشموع والسيوف (٢) ، وهي من الموضوعات
التي عرفها وطرقها شعرا* عصره في وصفهم . فمن قوله في وصف خسوف القمر (٣) :

ألم تر للخسوف وكيف أودى
ببدر التّم لماع الضياء
كمرأة جلاها العنقل حتى
أنارت ثم ردت في عشاء

وقد شاع أيضا بين أدباء الأندلس زمن ابن الأبار ، نوع من الفطائر ،
يُضاف إليه الجبن ويقلى بالزيت ، ويسمى بالمجبنات فمن ذلك هذه الأبيات
للشاعر يصف فيها المجبنات ، وكيف أنها كانت تقدم في الصباح . وقد اعتمد على
التشبيهات في بحث الحياة فيها ، وأحسن في وصفها ، يقول (٤) :

بنفسي مطجات للصدور
لها سقان من نار ونور
حوامل وهي أبكار عذارى
تزق على الأكف مع البكور
كبرد الطل حين تذاق طمما
وفي أحشائها وهج الحرور

(١) مخطوطة الديوان : ص ٥٣ .

(٢) انظر مقطوعات للشاعر في الموضوعات السابقة في : درة المجال لابن
القاضي ٢٠٩/١ ، ونفع الطيب ٥٩١/٢ ، ٥٩٢ ، ومخطوطة الديوان :

ص ٣٨ ، ٢١٠ ، ١٥٩ ، ٢٠٢ .

(٣) درة المجال : ٢٠٨/١ .

(٤) أزهار الرهاض : ٢٢١/٣ .

لها حالان بين فم وكف
تضرب كالأهلة في لهة
إذا وافك رائحة السفسور
وتطلع في يمين كالبدور

وهكذا نجد أن الشاعر قد تفاعل تفاعلاً واضحاً مع بيئته ، حتى كان شعره الوصفي ، صورة صادقة لتلك الطبيعة الساحرة ، فوصف عناصرها الساكنة ، كالنجوم والقمر ، والمتحركة كالأنهار والطيور والنسائم . . . ، وأتى بكثير من الصور والتشبيهات التي تدل على صدق العاطفة والتأثر بالجمال . وهو في وصفه يعمد إلى الأتيان بالصورة المتكاملة المشكّلة من أكثر من صورة جزئية . كذلك فقد كان عنصر التشخيص والحركة من أبرز العناصر التي اعتمدها في وصفه . ولم يفتل ما للألوان من أثر في الوصف . ويمد هادة إلى إضافة الحياة على ما يصف من أنهار وأشجار وأزهار . . . ، فقد كان يحادثها وكأنه يحادث إنساناً آخر . ولم يكف بالتمهيد الشكلي عن مظاهر طبيعة بلاده ، بل عن أحاسيسه وعواطفه التي أثارها في نفسه هذه الموضوعات الطبيعية ، فسجل تلك التجارب النفسية ، بأسلوب سهل جميل بعيد عن التكلف ، يعصاب انسياباً ، استطاع أن يثير في القارئ الأحاسيس والشاعر نفسها التي كانت تدور في نفسه ، عند نظمه لتلك المقطوعات ، وما ذلك إلا لقدرته ومراعاته في فن الوصف .

٥ - الرشاش

من الموضوعات التي طرقها ابن الأثير في شعره فن الرثاء ، وهو غير مكثر في هذا الفن . فكل ما وصلنا من رثائها ستثنا القصائد التي رثى فيها أمر بني حفص ، والمقطوعة التي قالها في رثاء إحدى نساء القصر ، التي لا تصرف من هي ، والمقطوعة الأخرى التي هي في ابنة صغيرة من بناتهم لا تصرف من هي أيضا . أقول : كل ما وصلنا هو قصيدتان ومقطوعة . قصيدة في رثاء شيخه الكلاعي ، وأخرى في رثاء أم صديق له ، ومقطوعة في رثاء طفيل صغير .

فابن الأثير إذا ، لم يخلف لنا شيئا في أي من أهله أو أقاربه . لم يخلف ولو قصيدة واحدة في رثاء والده ، الذي كان محباً له ومعجبا به ، لأنه والده الذي يحنوا عليه أولا ، ولأنه أستاذ الأثر وصاحب الفضل في توجيهه الوجهة الملحية التي سلكها ابن الأثير فيما بعد ، فأصبح من مشاهير علماء عصره . وقد يكون الشاعر رثى والده ، بل إننا نفترض منه ذلك ، ولكن ربما ضاعت قصائد رثائه في والده ، كما ضاعت بعض أشعاره .

ولكن الباحث يجد نفسه أمام أمر آخر ، وهو أن ابن الأثير قد أورد في إحدى مقطوعاته الرثائية بيتاً أشار فيه إلى أن الرثاء ليس إلا عادة اعتادها الأدباء من قبله ، يقول (١) :

لَوْ عَقَلْنَا عَقْلًا عَنْهُ أَلَسْنَا لَكُنَّا سَنَةً فِي شَرَعِ الْأَدَبِ

(١) مخطوطة الديوان : ص ٢٧ .

فهل - يا ثري - كان ابن الأبار من الذين لا يؤمنون بهذا الفن ، وأنه سلّكه
 تحشياً مع من سبقه ومن عاصره من الشعراء ؟ لا يستطيع الباحث أن يجزم
 بذلك . ولكن إذا ما استبعدنا القصائد التي قالها ابن الأبار في رثاء بني حنظل
 فإننا نستطيع أن ندخل القصيدتين اللتين قالهما في شيخه وأم صديقه ، تحت
 موضوعات أخرى ، فقصيدته في شيخه الكلاعي ، التي بلغت من الشهرة وزيوع
 الصيت ، ما بلغت قصيدته السينية ، هي نوع من الشعر الوطني والتأريخ
 والوصف الممزوج بالمحاطفة الدينية . فهي وإن كان موضوعها الرثاء ، إلا أنها
 قصيدة وطنية بالدرجة الأولى ، حاول الشاعر فيها أن يبين شعوره وعاطفته ،
 نحو أولئك النفر الذين استشهدوا في موقعة أنيثة ، دفاعاً عن بلدهم
 ودينهم ، وأن يستحث الناس للدفاع والذود عن وطنهم اقتداءً بأولئك الشهداء ،
 وأن يحبب لهم الموت والتضحية . وهي قريبة جداً من شعره الذي صدر عنه
 في رثاء بلده بعد سقوطه . وتكاد أيضاً تكون نوعاً فريداً لم نألفه من قبل ،
 وهو رثاء الملوك . إذ من المعروف أنّ الكلاعي ، كان من كبار علماء الأندلس
 في زمانه .

أما قصيدته الثانية ، فهي في رثاء أم الخطيب أبي عبد الله بن قاسم ،
 وهي أيضاً نوع من الثناء على ولدها والمواساة له ، لأنّ الأبيات التي هي في صلب
 رثاء أم الخطيب ، لا تكاد تذكر . وكذلك فإنّ مقطوعاته في رثاء المرأة ، التي هي
 من نساء القصر ، والطفلة الصغيرة ، وكذلك الطفل ، لا يكاد الدارس يخرج منها
 بشيء في باب الرثاء . وربما يكون السبب ، كما يرى النقاد ، أنّ رثاء النساء
 والأطفال ، من الأمور التي تكاد تكون ممجزة وصعبة على الشاعر ، لأنه لا يجد

(١) لم نعثر على ترجمة له .

ما يقوله فيهم^(١) . فالقضاء التي من الممكن اعتبارها في صلب فنّ الرثاء هي قصائده في رثاء من مات من أمراء بني حفص . ومن هنا فإننا لا نستطيع تحديد منهج عام ، سا ر عليه ابن الأبار في قصائد رثائه . فهو كثير اللوحسة والبكاء في رثائه للحفصيين ، لا يتمرض للثنا عليهم ، أو الاشارة بآثرهم ، أو الحديث عن تدبيرهم وتقواهم ، في حين نجده في رثاء شيخه ومن سقطوا معه ، يخلط ما بين التأريخ للمعركة والوصف ، والمدح بالعلم والشجاعة والتدين . . . ، وتعظيم الحدث والإشادة باوطئك الذين قدّموا أرواحهم رخيصة في سبيل بلدهم .

لقد وقعت معركة أنبشة - كما أشرنا سنة ٦٣٤ هـ ، بين المسلمين والنصارى ، وكانت تمهيدا لسقوط بلنسية فيما بعد . وكان من بين المجاهدين الذين أبلوا بلاء كبيرا في المعركة ، العلامة أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي ، فسقط شهيدا فيها ، بعد دفاع مستميت ، وسقط معه مجموعة من جنده المسلمين . فكان على ابن الأبار ، وفاء لشيخه ، وانطلاقا من حسّه الوطني الذي تبدّى بشكل كبير - كما لاحظنا - بعد سقوط بلده ، ومفاد رثه له كان عليه أن يسجل هذه الموقعة ، ويؤرخ لها ، ويشيد بالجند الذين سقطوا إلى جانب شيخه . وعلى الرغم من أنّ القصيدة بلغت مائة بيت ، إلا أنّها تقسم إلى قسمين بارزين : قسم تحدّث فيه عن شهداء المسلمين ، ووصف حالهم . وقسم تحدّث فيه عن شيخه الكلاعي .

وإذا كان ابن الأبار قد حدّد لنا من قبل ، يوم معركة تلسان ومكانها ، فإننا نجده أيضا يحدّد لنا مكان المعركة ، التي استشهد فيها شيخه وأصحابه من المجاهدين ، واليوم الذي حدث فيه ، يقول^(٢) :

(١) انظر: الممّدة ١٥٤/١ .

(٢) الذيل والتكلمة: السفر الرابع ص ٩١ .

سَقَى اللَّهُ أَشْلًا بِسَفْحٍ أَنْيَشَةٍ سَوَافِحُ تُزْجِيهَا ثِقَالُ الْفَمَائِمِ
أَضَاعَهُمْ يَوْمَ الْخَمِيسِ حِفَاطُهُمْ وَكَرَّهُمْ فِي الْمَازِقِ الْمَلَاحِمِ

ويبدأ ابن الأبار قصيدته بوصف للشهداء ، مصبفا عليهم كل صفة حميدة ، وممليا من شأنهم ، ومازجا ذلك بمناطفة دينية ، ومبشرا بما سيجدونه من ثواب عند الله ، جزاء على حسن صنيعهم . وكأنه كان يبغي من تصويرهم بهذه الصورة الجميلة ، تحبيب الموت والاستشهاد إلى الناس في سبيل الدفاع عن وطنهم ، لينالوا ما نال هؤلاء الشهداء ، يقول (١) :

أَلَمَّا بِأَشْلَاءِ الْعُلَاوِ الْمَكَارِمِ تَقَدُّ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالصَّنْوَارِمِ
وَعُوجَا عَلَيْهِمَا مَرِيًّا وَهَفَاوَةً مَصَارِعُ غَصَّتْ بِالطَّلَسِ وَالْجَمَاجِمِ
نَحْيِي وَجُوهَهَا فِي الْجَنَانِ وَجِيهَةً

بِمَا لَقِيَتْ حَمْرًا وَجُوهَ الْمَلَا حِمِمِ
وَأَجْسَادَ إِيْمَانٍ كَسَاهَا نَجِيمُهَا

(٢) مجاسد من حوك الظبا واللهذا ذم
مُكْرَمَةٌ حَتَّى عَنِ الدَّفْنِ فِي الشَّرَى

وَمَا يُكْرَمُ الرَّحْمَنُ غَيْرَ الْأَكْـمَارِمِ
هَمُّ الْقَوْمِ رَاحُوا لِلشَّهَادَةِ فَاغْتَدُوا

وَمَا لَهُمْ فِي فَوْزِهِمْ مِنْ مَقَامٍ
تَسَاقَوْا كُؤُوسَ الْمَوْتِ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى

فَطَالَتْ بِهِمْ مِيلَ الْفُصُونِ النَّوَاعِمِ

(١) الذيل والتكملة : السفر الرابع ص ٩٠ .

(٢) اللهم : كل شيء قاطع من سنان أو سيف أو ناب .

مضوا في سبيل الله قدما كأنما يطيرون من أقدامهم بقوادم
يرون جوار الله أكبر منفسهم كذاك جوار الله أسنى المنانهم

وفي وقت ثكالبت فيه النصرانية على الإسلام ، فإننا نجد الشاعر ،
يمتدح الجهاد فريضة ، لا تختلف عن غيرها من الفرائض . ولما كان أولئك الجند
يمصرفون هذه الحقيقة ، فقد توجهوا نحو المعركة طامعين ، يقول (١) :

مواقف أبرار قضا من جهادهم حقوقا عليهم كالفرض اللوازم

ولا ينسى ابن الأبار أن يتحدث عن تدبيرهم وتقواهم الذي كان سببا
في خروجهم الى المعركة ويؤمن أيضا أن تلك المعركة لعظمها وخطورتها ، قد
فرضت حتى على شيوخ الأمة الخروج من أجل حماية بلادهم ، يقول (٢) :

أصبوا وكانوا في المباداة أسوة شبابا وشيئا بالمواشي! لفواشهم
ويا رب صوام الهواجر واصل هنالك صروم الحياة بصارم
ويصف ما أصابهم من ضرب وطعن بقوله (٣) :

تغلغل فيها كل أسمر نابيل فجدل منها كل أبيض ناعس
فما مل ربح دق في صدر عامل وقائم سيف قد في رأس قائم
وأناس كهؤلاء ، قد موأرواحهم رخيصة في سبيل دينهم وبلادهم ،
ألا يستحقون من الشاعر البكا ؟ يقول ابن الأبار بأكيا شاكيا ، ومؤكدا عدم
سلوانهم (٤) :

(١) الذيل والتكلمة : السفر الرابع ص ٩١ .

(٢) المكان نفسه .

(٣) المكان نفسه .

(٤) المكان نفسه .

بميشك طارحني الحديث عن النبي

أرجع فيها بالدُّموع السَّواجِم
أبيت لها تحت الظلام كأنني
رمي نضال أولديع أراقم
وأصحب من سامي البكا غير سائم
فأعقد بالنجم المشرق ناظري
فيغرب عني ساهراً غير نائم
ومن لي بسلوان يحل مفقراً
بجاث من الأرزاء حولي جائم

ثم ينتقل الشاعر ، إلى القسم الثاني من القصيدة ، وهو وصف لحال شيخه عند استشهاد ، وإشارة ومغظية ورثائه له ، وهو في رثائه له ، لا يختلف كثيراً عن رثائه لغيره ، إذ يتضمن رثاؤه له ، إشارة به وحلمه وتقواه ، مع التركيز على شجاعته .

يقول ابن الأثير في رثائه (٢) :

ويا أسفي للمعلم أقوت ربوعه
وأصبح مهدود الذرى والدعائم
قضى حامل الآداب من آل يعرب
وحامي هدى المختار من آل هاشم
خبا الكوكب الوقار إن متع الضحى
لنخبط في ليل من الجهل فاحشم
وخانت ساعي السامعين حديثه
كما شاء يوم الحادث العتاقم

(١) غير بارح : غير مفارق للأسى .

(٢) الذيل والتكلمة : السفر الرابع ص ٩١ ، ٩٢ .

فَأَيُّ بَهَاةٍ غَارَ لَيْسَ بِطَالِيعٍ وَأَيُّ سَنَاةٍ غَابَ لَيْسَ بِقَسَادٍ
 سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَلْحَ بِهَئَا
 مُحِيًّا سَلِيمَانَ بْنِ مُوسَى بْنِ سَالِمٍ
 وَهَلْ فِي حَيَاتِي شَعَثَةٌ بَعْدَ مَوْتِهِ
 وَقَدْ أَسْلَمْتَنِي لِلدَّوَاهِي الدَّوَاهِي
 فَهَا أَنَا ذَا فِي خَوْفٍ دَهْرٍ مُحَارِبٍ
 وَكُنْتُ بِهِ مِنْ أَمْنٍ دَهْرٍ مُسَالِمٍ
 أَغْوِ الْمَرْزَةَ الْقَمَسَاءَ كَهَلَا وَيَا فَمَا
 وَأَكْفَاهُ مَا بَيْنَ رَأْسٍ وَرَاغِسٍ
 تَفَرَّدَ بِالْمَلِيَاءِ عِلْمًا وَسُودًا
 وَحَسِبَكَ مِنْ عَالٍ عَلَى الشَّهْبِ عَالِمٍ

ويركز بشكل خاص ، على شجاعته وإقدامه ، وفعاثته بالأعداء في المعركة
 وكيف أنه أبى إلا أن يعيش عزيزا ، وعندما لم يتحقق له ذلك ، اختار الشهادة
 على حياة الذل . ولقد أبى الكلامي حياة الذل ، فلبى نداء الجهاد ليجسد
 حقيقته وأمنيته ، ويفوز بجنان عرضها السموات والأرض ، يقول (١) :

أَتَاهُ رَدَاهُ مَقْبَلًا غَيْرَ مَدْبُورٍ لِيَحْظِيَ بِإِقْبَالٍ مِنَ اللَّهِ دَائِمٍ
 إِمَامًا لِدِينٍ أَوْ قَوَامًا لِدَوْلَةٍ تُولَّى وَلَمْ تَلْحَقْهُ لُومَةٌ لَا تَمِ
 وَيَكُلُّ حَدِيثَهُ بِقَوْلِهِ :
 وَيَا أَيُّهَا الْمُخْتَوِّمُ بِالْفَوْزِ سَمِعِهِ أَلَا إِنَّمَا الْأَعْمَالُ حُسْنُ الْخَوَاتِمِ

(١) الذيل والتكلمة : السفر الرابع ص ٩٤ .

تبوّأت جنات النّعيم ولمّ شسرل° نزيل الثّريا قلبها والنّماثلسم
ولم تألّ عيشاً راضياً وشهادة ترى ما عداها في عداد الماتسم
لمعرك ما يُبلي بلاؤك في المعدي وقد جرّت الأبطال ذيل الهزائم
وتالله لا ينسى مقامك في الوغى سوى جاهد نور الغزاة كاتسم
لقيت الردى في الرّوع جذلان باسماً

فبوركت من جذلان في الرّوع باسم
وحمت على الفردوس حتى وردتسه

ففتز بأشوات الحن فوز غانسم

وينهي ابن الأبار قصيدته ، هيّنا أنّ هذه القصيدة ، ليست إلاّ وفاة
لشيخه ومن سقطوا معه . وإن كانت عزّة نفسه بادية في نهاية القصيدة ، فهو
يأنف أن يتقدّم عليه أحد في رثائه .

وطى الرّغم من أنّنا لا نشكّ في صدق عاطفة الشاعر ، نحو شيخه
واطّك النّفر الذين سقطوا دفاعاً عن كرامة الشاعر وأهل بلده ، إلاّ أنّ تركيز ابن
الأبار على المحسّنات البديعيّة ، وإغراقه في استخدامها ، كان يفسد عليه
عاطفته أحياناً ، فتهدو فائرة غير متناسبة . مع الموقف الذي قيلت فيه ، كحالته
في قصيدته الهزبيّة والسينيّة . وقد برزت الماطفة الدينيّة بشكل واضح في
القصيدة ، وهذا يتفق مع الموقف الذي قيلت فيه . وأعود فأقول : إنّ الباحث
يستطيع أن يلحقها بجملّة قصائد ابن الأبار الوطنيّة ، التي قالها فيما بعد فهو ليست
قصيدة رثاء في شيخه فقط ، بل هي تعظيم وإشادة بكلّ المجاهدين الذين
سقطوا في المعركة . وما يدعّم ذلك ، أنّه لم يبدأ برثاء شيخه مباشرة ، بل
بدأ بالإشادة بالمجاهدين وتعظيمهم أولاً ، وقد استغرق ذلك تسعة وأربعين
بيتاً ، انتقل بعدها لرثاء شيخه المجاهد والإشادة به ، وكأنّه قد جعل القصيدة
منصفة بين المجاهدين وشيخه . والقصيدة - فيما أرى - تمثّل بداية حسّ وشمو

ابن الأبار نحو وطنه ، ذلك الحس الذي نما وترعرع فيما بعد ، بعد سقوط بلده ومخروجه منه .

أما قصيدته الثانية ، التي هي في رثاء أم صديقه ، الخطيب أبي عبد الله بن قاسم ، فهي نعت جديد ، لم نألفه في قصائد رثائه السابقة ، إن بدأها الشاعر ، بمقدمة خلط فيها بين الموعظة والحكمة وحديث عام عن الموت ، يقول فيها (١) :

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ النُّفُوسَ فَرَائِسَ	تُرْجَى لِإِسْنَادِ الْعَنَايَا الْهَوَاجِسِ
فَأَيْنَ التَّوَخُّيَ لِلسَّامَةِ فِي غَدٍ	وَأَيْنَ التَّوَقِّيَ لِلدَّوَاهِي الدَّوَاهِمِ
نَسِيرُ إِلَى الْأَجْدَاثِ رُكْضًا وَمَالَنَا	مِنَ الزَّادِ الْأُمُوقَاتِ الْمَآثِمِ
فَأَطُولُ عَمْرَ الْعَرِّ خُطْفَةً بَارِقٍ	وَأُحْلَى مَنَى الْإِنْسَانِ أَحْلَامُ نَاهِقِمْ

أما ما يتصل بموضوع الرثاء ، فإن الأبيات في القصيدة ، لا تزيد على أربعة أبيات ، ابتدأها بالسقيا لقرها ، بقوله (٢) :

سَقَى اللَّهَ قَبْرًا أَوْدَعَ الْهَرَّ وَالتَّقَى	كَمَا تَوَدَّعَ الْأَزْهَارُ طَيِّبَ الْكُمَامِ
وَبَشَّمَهَا الرِّضْوَانَ أَمَّا كَرِيمَةً	لَا وَحْدَ مَخْصُوصٍ يَفْسِرُ الْمَكَامِ
تَخَلَّتْ عَنِ الدُّنْيَا وَخَلَّتْ مَسَاعِيًا	لَهَا طَيْبَ أَنْفَاسِ الرِّيحِ النَّوَاسِمِ
فَإِنْ وَكَفَتْ سَحْمُ الْغَمَائِمِ بِمَدَّهَا	فَقَدْ هَتَفَتْ بِالنَّوْحِ وَرَقُ الْحَمَائِمِ

والقصيدة في معظمها مدح وإشادة بولدها : بملحه وحلمه وزهده . . .

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٤١ .

٦ - الزهد

الزهد : هو التوجه نحو عبادة الله ، دون الاهتمام بزخارف الدنيا ،
وذمها واحتقارها ، ورفع شأن الآخرة ومن يميل لها . وهناك عدة عوامل قد
تدفع الانسان للزهد في الدنيا ، والتسك بالآخرة ، منها : البيئة الخاصة
التي ينشأ فيها ، والثقافة التي يتلقاها منذ صغره وفيما بعد ، ثم طبيعته
المصر الاجتماعية ومدى إقبال الناس أو بعمدهم عن الحياة وزخارفها ، وكذلك
الظروف الخاصة المتقلبة ، التي تحيط بالشخصية خلال مسيرتها الحياتية .

وإذا ما نظرنا إلى ابن الأبار ، وجدنا أن أسبابا كثيرة كانت تعمد
الطريق أمامه ، ليفرف من نبع هذا الفن . فقد نشأ في بيت والد عالم حافظ ،
تلقى الشاعر أول علومه الدينية على يديه ، ثم أخذ يعمق تلك الثقافة - الثقافة
الدينية - على أيدي معظم علماء عصره المشهورين بتقواهم وزهدهم ، وعلى
رأسهم شيخه الكلاعي ، الذي صحبه أكثر من عشرين عاما ، وغيره من المتصوفة ،
وعلماء الحديث فهو قريب من كل ما يقربه إلى الله ، بعيد عن كل
ما يبعده عن ذلك . كذلك فإن الظروف التي أحاطت بالشاعر منذ سقوط بلده ،
وتقلب حياته بشكل واضح في الأندلس وتونس ، كانت تترك آثارا واضحة في نفس
ابن الأبار ، قد يجد فيها مخرجا بالتجاء إلى الله . ولا ننسى أثر العصر ،
فقد كثرت الأشعار الزهدية والدينية ، في زمن شاعرنا بشكل كبير ، مما لفت
أنظار الباحثين (١) .

(١) انظر : الشعر في عهد المرابطين والموحدين ص ٢٥٧ وما بعدها .

ونتيجة للأسباب السابقة ، فقد كنا نتوقع من ابن الأبار مزيدا من أشتار
الزهد ، ولكننا لم نمثّر في ديوانه في هذا المجال ، إلا على ثلاث قصائد ،
اشتطت على اثنين وخصين بيتا ، وخص مقطوعات احتوت على خمس وعشرين بيتا ،
وهي نسبة قليلة جدا ، لا تزيد عن قصيدة من قصائد مدحه . هذا بالإضافة
إلى رسالته الوعظية الزهدية ، التي اشتطت على كثير من أشتار الزهد (١) ،
ولكنها - كما قلنا - نوع من الشعر الصنوع الذي يخلو من العاطفة الصادقة ،
ما يدفعنا إلى اخراج مثل هذا الشعر ، من دائرة شعر الزهد الصادق ، الذي
يمبر عن مماناة حقيقة .

ومن هنا فإننا نرجح ، أن ديوان ابن الأبار لم يضم كل أشتار
الزهد التي نظمها في حياته . وما يدعم هذا الترجيح ، أننا وجدنا ببعض
المقطوعات والقصائد الزهدية في المصادر المختلفة ، لم نمثّر لها على ذكر في
الديوان . ولا ندري إن كان الشاعر ، قد جمع أشتاره الزهدية في ديوان خاص ،
لم يصلنا حتى الآن ، كما كان يصنع كثير من شعراء زمانه ، أم أن أشتار زهد
قد ضاعت ، كما ضاع معظم شعره .

لقد تقلّب ابن الأبار ، في مناصب عديدة ، وعاش معظم حياته بالقرب من
ذوي السلطان والجاه ، فمأش مع أمير بلده أبي زيد وأخلص له ، وعاش مع زبسان ،
ولكنه ما لبث أن تركه بعد سقوط بلده ، وتوجّه إلى بلاط الحفصيين فسي
تونس ، وهناك مرّت به بعض المحن والصاعب ، التي هذبت نفسه ، وزادت من
تجاربه .

(١) راجع هذه الرسالة في حديثنا عن آثار ابن الأبار في هذه الدراسة .

ولقد أيقن شاعرنا بمد أن خير الحياة ، وهبته بناها بمد
سقوط بلده ، ومد أن شاب شمر رأسه ، وشمر بقرب حلول الأجل ، أقول :
أيقن أن الدنيا وما طيها لا قيمة لها ، وأن التوجه إلى الله ، والتصك بما
أمر ، والا فتقارله ، هو الفنى بعينه ، يقول (١) :

رجوت الله في الأيواء لما بلوت الناس من ساء ولا همي
فمن يك سائلاً عني فأنسي غنيت بالافتقار إلى الهمي

ونراه بمد الذي صاده طوال حياته ، قد سلّم زمام نفسه لله ، ورضي
بقدره ، لأنه لا فائدة من السخط على قضاء الله ، لأن ما كبه الله عليك من خير
أو شر ، ستلقاه ولا مهرب من ذلك ، يقول (٢) :

أما إنه قد خط في اللوح ما خطا
فلا تمتدّد للدهر جوراً ولا قسطاً
ولا تسخط الأقدار وأرض بما جرى

عليك به ، إن الرضى يفضل السخطا
والبيتان السابقان ، فهما إشارة إلى اطمئنان نض الشاعر والتجاء إلى الله
وتسليمه كل أموره إليه ، بمد الذي واجهه في حياته . ولقد كان ابن الأبيسار ،
يسخط في بعض الأحيان ما يواجهه ، ولكنه أيقن بمد مرور مجموعة من المصاعب
عليه ، أن لا فائدة من السخط ، وأن الرضى بما كتب الله ، فيه سمادة وراحة
نفسية لا مثيل لها .

(١) نفع الطيب : ٥٩٤/٢ .

(٢) أزهار الرياض : ٢٢٢/٣ .

وانظر إليه وهو يسائل نفسه ، متمجّبا ومحاولا نفث غبار الدنيا
عن نفسه ، متوجّها إلى الله ، بمد أن خبر الحياة وجربها ، فوصل إلى أن الله
هو القادر المتحكم ، النافع الضار ، إن أعطى فلا رادّ لمعطائه ، وإن منع فلا
يجبره أحد على المعطاء ، يقول (١) :

الإمّ في حلّ وفي بـطـ	تخبط جهلاً أيّما خبـطـ
دع الوري وأرجّ إليه الوري	فإنّه ذو القصر والبسـطـ
ليس لما يطمّيه من مانعٍ	ولا لما يمنع من مُطـطـبي

إذا فقد أصبح ابن الأبار مطمئناً إلى قضاء الله ، مدركاً أن العيش
في ظلال رحمته سعادة ، وأن البعد عنه شقاوة وتعماسة . والمقطوعات السابقة ،
توحي لنا مرة أخرى ، أن ابن الأبار ، قال الكثير من مظهرها في أواخر حياته ،
محاولة مند في تمزية نفسه ، لما أصابه في حياته ، وما وصل إليه حاله في أواخر
حياته .

ويستطيع الناظر فيما تبقى لنا من أثمار زهد ، أن يقسمها إلى
أقسام ثلاثة : قسم تحدث فيه عن الحياة ، فذاتها وذم كل من يتمسك بها ، لأن
نهايتها الموت . وهو في هذا القسم ، لم يكف بذمها ، بل إن أثماره ، تتضمن
دعوة صريحة ، لترك الدنيا وعدم الاهتمام بها . وقسم حاول فيه المقابلة بين
اثنين من بني البشر ، واحد بعيد عن الله ، لا يهتمّ بما أمر ، والآخو قريب منه ،
أضنى نفسه بكثرة عبادته له . أما القسم الأخير ، فهو تشوّق إلى المصلّى الذي
يتمتبر بيت الزاهد ، وكل ما في وجوده ، وتشوّق أيضا إلى قبر الرسول و صلى
الله عليه وسلم - وتبيان مدى حبه له . وكمدخل للتعريض بالدنيا ومن يتمسك بها ،

(١) الرحلة المغربية : ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، وأزهار الرياض : ٣ / ٢٢٢ .

نجد ابن الأبار يتسائل مستغفراً حتمياً عن سبب التذاذ الناس بالدنيا ، مع أن الموت نهايتهم ، يقول (١) :

بأنفسنا للموت شغل وقبضها ففيم انبساط خادع وفســــــــــــراغ
وطالما أن الموت هو النهاية ، فالحياة إذاً لا قيمة لها ، وطى الإنسان أن يتمسك
بالآخرة الباقية الثابتة . ولقد أكثر ابن الأبار من ذم الدنيا والتمريض بها ،
والدعوة إلى المطل الصالح ، وعدم اتباع أهل الشر الذين يتخبطون في جهلهم ،
يقول (٢) :

نموت طوى الدنيا فنحيا بلا دين هوى لهوان قادنا وتوهيــــــــــــن
وهل هي إلا للمساكين ويحننا ساكين فيها يرتمون إلى حين
فما بالنال نتقي الله ربنا وندعوه في تحسين عقي وتحسين
ومن قله كذلك ، ينهى عن التمسك بالدنيا ، ويتحسر على أولئك الذين تعلقوا بها ،
واغترّوا بزخارفها الكاذبة (٣) :

ولا تمترج على أعراض فانية توطيك هجراً ، إذا أطميتها ولما
يا حسرتي خلق الإنسان من عجل
ففارل الأمل المكذب والطمــــــــــــس
آه لمرمر مكارل بقاء له يفرق الدهر منه كل ما جمــــــــــــس
ونراه يتقمص شخصية الواعظ المرشد ، فيدعو إلى المطل الصالح ، والإعداد لما
بعد الموت ، من أجل نيل السعادة ، يقول (٤) :

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٨٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٦٤ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٨٢ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٢٢ .

دُنْيَاكَ لِلْأُخْرَى سَهِيلٌ سَاهِلٌ^١ فاعطُ لها إِنْ الموفق^(١) عاملٌ^٢
واحرصْ طوًى نيلِ السَّامَةِ جَاهِدًا^٣
بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى فَنَعَمَ النَّاسُ^٤ لـ
وَأَعَدَّ زَادًا لِلرَّحِيلِ فَإِنَّهَا^٥ أَيَّامُ عَمْرِكَ لَوْ عَقَلْتَ مَرَا حـ^٦
وَيَمِزُجُ فِي أَحْيَانٍ أُخْرَى بَيْنَ السَّخَرِيَّةِ وَالْحِكْمَةِ فِي ذِمَّةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يَتَمَسَّكَ
بِهَا ، فيقول (٢) :

قُصَارَاكَ جَهْلًا فِي حَيَاةٍ قَصِيرَةٍ^٧ أَمَّا نِطْوَالٌ ، يَبْشُرُ مَا تَتَسَرَّعُ زَوْدُ^٨
تَجَرَّدَ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ إِنَّمَا^٩ خَرَجْتَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنْتَ مُجَرَّدُ^{١٠}
وَإِذَا كَانَ ابْنُ الْأَبَارِقِ ذِمَّةَ الدُّنْيَا ، وَدَعَا لِلْعَمَلِ لِمَا بَعْدَهَا ، فَإِنَّا نَجِدُهُ
يُحَذِّرُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ تَسْكُو بِهَا ، مِنْ أَنَّهُمْ مَهْمَا طَالَتْ حَيَاتُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَيَلَا قُونَ
صَيْرَهُمْ ، وَلَا نَجَاةَ لَهُمْ ، يقول (٣) :

مَنْ بِالنَّجَاةِ لَذَاهِلٍ نَصَبَتْ لَهُ^{١١} مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا الْخُؤُونُ حَبَائِلُ^{١٢}
مَنْ بِالْخَلَاصِ الْخَابِطِ فِي جَهْلِهِ^{١٣} فِي لُجَّةٍ رَحُبَتْ وَشَطَّ السَّاحِلُ^{١٤}

ويعرض ابن الأبار ، صورتين متقابلتين في زهد ، صورة البعيد عن
الله ، وصورة القريب منه . ليبيِّن الفارق بينهما في عطيتهما في الدنيا ، ثم النتيجة
العادلة ، ولكل منهما في الآخرة . وكأنه يريد أن يقول للإنسان : اعط ما شئت
في هذه الحياة ، فإنَّ الله لا يضيع مثقال ذرَّة ، وسيجزى كل إنسان حسب
عمله . فمن قوله مشيرًا إلى صورة البعيد عن الله ، وكيف أن الدنيا قد بهرتسه

(١) في الأصل (إلى الموفق) وسها لا يستقيم البيت وزنا ومعنى .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ٢٥ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٢٢ .

بزخارفها ، وأنسته جنات عدن ، حتى إنه مع أن الموت قد اقترب منه لكبره ، إلا أنه يرفض كل هداية ، ويتشوق إلى أيام لهوه وصباه ، يقول (١) :

يا فوز من هو في المباداة جامدٌ وخسار من هو للزهادة جاهلٌ
تلهيه عن عدن (و) (٢) عن أنهارها
بعمد الأشد (٣) خطايل وجسدايل

ويشوقه كهلاً إلى عهد الصبا برق لموع أو حمام هــادل
لله مجهول على رفض الهدى قلّه من الإقلاع شغل شاغل
ويرسم مقابل هذه الصورة ، صورة من هو قريب من الله . وهو باتيانه بهاتين الصورتين ، يشير إلى الحقيقة الإسلامية ، وهي أن من أراد الآخرة ، فلا بد من أن يعمل لها ، ولا بد من أن يتصف بمثل صفات من ذكر ، حتى يفوز بالجنة . ويد وتأثر ابن الأبار بالقرآن الكريم في هاتين الصورتين المتقابلتين ، لأن القرآن الكريم أكثر من آتيان بالصورتين المتقابلتين ، يقول (٤) :

قد فاز بالمليا فذكر سافر
واستاز بالتقوى فقلب واجب
قل للمناجي في الدنيا جيده
يتلو كتاب الله في أوراده
أبشور فرد من الجنان فإنها
يسرائر الحسنى ود مع سائل
من خوف خالقه وجسم ناهل
وطيه من غل الصيام غلائل (٥)
فرحاً به وهو الحزين الثاقل
للناسكين ساكن ومنازل

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٢٢ .

(٢) زيادة ليستقيم وزن البيت .

(٣) الأشد : الاكتمال .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٥) الفلايل : جمع الفلالة وهي : ثوب رقيق .

ولم يكف ابن الأبار بالموظفة والدعوة إلى التجرد من الدنيا والتوجه .
بالمبادأة لله للفوز بالآخرة . بل نجده يصور حبه وشوقه للصلى ، ما يدل
على صلاحه وتقواه ، ومدى ارتباطه بخالقه (١) .

وما يتصل بأشعار الزهد ، نوع من الشعر شاع في هذا العصر وكثير ،
وهو النبوءات ، ويقصد بها قصائد مدحه عليه السلام والتبرك بآثاره ، وخاصة
نمله عليه السلام ، وكذلك قصائد التشوق إلى ضريحه عليه السلام (٢) . وهذا
النوع من الشعر لم نعرفه الأندلس ، إلا في القرن السابع لأسباب غير واضحة ،
باستثناء التشوق إلى ضريح النبي عليه السلام والديار الحجازية ، فقد عرف منذ
زمن بعيد في الأندلس (٣) .

وقد شارك ابن الأبار شعراء عصره في هذا الموضوع فقال بمسح
القصائد ، التي يمين فيها مدى حبه وشوقه . فمن ذلك هذه الأبيات ، التي
يتشوق فيها إلى قبر الرسول عليه السلام ، يقول (٤) :

لو عن لي عون من المقدار	لهجرت للدار الكريمة داري
وحللت أطيّب طينة من طينة	جاراً لمن أوصى بحفظ الجار
حيث استبان الحق للأبصار	لما استثار حقائق الأنصار
يا زائرين القبر قبر محمد	بشرى لكم بالسبق في الزوار
أدوا السلام سلتم ورد	أرجو الإجارة من وور النار

(١) انظر الأبيات في : مخطوطة الديوان : ص ٨٨ .

(٢) لقد ذكر المقرئ في أزهار الرياض مجموعة كبيرة من الأشعار في هذا الغرض ،

انظر : أزهار الرياض ٢٢٥ / ٣ - ٢٨٢ .

(٣) انظر : الشعر في عهد المرابطين والموحدين ص ٢٦٩ .

(٤) أزهار الرياض : ٢٢٥ / ٣ ، ونفع الطيب ٥٩٣ / ٢ .

وله أيضا قصيدتان في التشوق إلى نمل المصطفى عليه السلام ، وقد أشار فيهما إلى شدة شوقه وحبته للنمل وتميزه وتوقيره له (١).

وكما لاحظنا ، فإن ابن الأبار يمرض أشمار زهده ، بأسلوب سهل بسيط ، بعيد عن التكلف ، يقرب من النثر أحيانا ، ويستوحي كل أفكاره من ثقافته الدينية العميقة ، المرتكزة على القرآن الكريم والسنة الشريفة . وهو يتقن أحيانا ، دور الواعظ المنقذ ، الذي يحاول تبليغ الطريق الصحيح للناس . وإن هذه الأشمار لتمتيز ثمره بجاربه الحياتية ، إذ يدنو أنه كلما كانت تتراكم عليه المحن والمصائب ، يخلو إلى نفسه ، محاولا موااساة نفسها وتبليغها ، عن طريق تحقيق الدنيا ، وما فيها من متاع زائل ، وتبليغ أن نهايتها الموت ، لذا فإن على نفسه أن تعمل لما هو ثابت ملاق .

ولقد كانت أشمار ابن الأبار تلك ، نابعة من قلب صادق خشي الله ، يدل على ذلك النغمة الحزينة التي تسود معظم أشمار زهده ، وسيرته الحياتية النقية ، البعيدة عن كل سوء وفحش .

(١) أنظر: أزهار الرياض ٣/ ٢٢٤ .

٧ - أغراض أخـرى

لقد طرق ابن الأبار ، بالإضافة لما ذكر له من أغراض شمريّة ، بعض الأغراض الأخرى ، التي تدلّ على أنه لم يهتم بها اهتماما كبيرا ، فمعضها جاء في قصائد مدحه . كالفخر ، ومعضها ضمّه في معظم أشعاره ، وخاصّة الرثائية والزهدية كالحكمة ، ومعضها كان مجرد مشاركة لشعراء عصره كالألفـاز والأحاجي ، وكان الهجاء أقلّ غرض قال فيه ابن الأبار .

أما بالنسبة لفخوه ، فلم نجد له شيئاً يذكر في الفخر بنفسه ، ووجدنا له مجموعة أبيات في قصيدة مدح ، جاءت بعد المقدمة الغزليّة ، افتخر فيها بقومه . وهي تشير إلى معرفة الرجل بتاريخ قومه معرفه كاطة . يقول مادحها قومه بالنبوغ في قول الشّمر والنّثر والسّود والمجد (١) :

وَأَلْسِنَا أَسْيَافُنَا فِي مَضَائِبِهَا
وَكَمْ سَوْدٍ بِنَا تَرَدَّدَ مَحْضُهُ (٢)
وَهُمْ أَهْلُ كَرَمٍ وَشَجَاعَةٍ (٣) :

يَمَانُونَ فِي أَيْمَانِهِمْ لَمُتَقَى الْعُلَا سَمَاحٍ إِذَا مَرَّوْا ، هَاسٍ إِذَا كَرَّوْا
ويَقُولُ (٤) :

و طال على حُمِ السَّيَا اَزْدِ حَامِهِم
أَمَّا نَبَاتُهُمْ أَنَّ مَوْرِدَهَا مُسَرُّ

(١) مخطوطة الديوان : ص ٩٨ .

(٢) المحض : الخالص من كل شئ .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ٩٨ .

(٤) المكان نفسه .

يَمْدُونَ غَيْرَ الْقَتْلِ غِصَاً^(١) عَلَيْهِمْ فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا بِمَعْرَكَةٍ قَبِيْرٌ

وقد افتخر أيضا بمررتهم الخالصة النقية ، وأنهم أهل عزّ وشرف ، وكانوا سادة في الجاهلية والاسلام ، وكان لهم عظيم الأثر في نصرة الدين الاسلامي واعلاء شأنه ، وذلك بالوقوف إلى جانب الرسول عليه السلام في معاركه وفتوحاته^(٢) .

وكانت لابن الأبار ، بعض المشاركة في غرض طرده شمرا* عصره ، تنذرا وتسليّة ، وهو الألفاظ والأحاجي . وهو نوع صنوع متكلف ، يخلو من الماطفة ، لا يربطه بالشمر سوى عطية النظم فقط . فمن ذلك قوله معيّاً بأسماء الطيبر ، كتب بها إلى شيخه أبي الربيع بن سالم^(٣) :

إِنْ شِئْتَ يَا ذَهْرُ حَارِبٍ أَوْ شِئْتَ يَا ذَهْرُ سَالِسَمٍ
فَصَارِمِي وَمَجَنِّي أَبُو الرَّبِيعِ ابْنُ سَالِسَمٍ

أما الهجاء فلم نعثله على شيء يذكر ، سوى ما ذكر من الخصام الذي جرى بينه وبين عليّ بن لب بن شلبون البلسي^(٤) ، فقد قيل بأنّـه قد حجا ابن الأبار ، فقال^(٥) :

لَا تَعْجِبُوا الْخِصْرَةَ عَمْتُ جَمِيٍّ عَنِ الْخَلْقِ صَادِرَةٌ عَنِ الْأَبَّارِ
أُولَئِكَ فَأَرَأَى خَلْقَهُ وَحَقِيقَةَ وَالْفَأْرُ مَجْبُولٌ عَلَى الْإِضْرَارِ

(١) قصصه قصصا : حقّره واستصغره .

(٢) انظر الأبيات في : مخطوطة الديوان ص ٩٨ .

(٣) الذيل والتكلمة : السفر الرابع ص ٨٩ .

(٤) أنظر ترجمته في : المصدر نفسه ، سفر (٥) قسم (١) ص ٢٧٤ .

(٥) المكان نفسه .

فقال ابن الأبار مجاباً (١) :

قُلْ لاَ بِنَ شَلْبُونِ مَقَالَ تَنْزُهُ غَيْرِي يُجَارِيكَ الْهَجَا فَجَارُ
"إِنَّا اقْتَسَمْنَا خَطَّتَيْنَا بَيْنَنَا" فَحَطَّتْ بَرَّةً وَاحْتَمَلَتْ فَجَارُ (٢)

ومع أننا نرى أن ابن الأبار كغيره من الناس ، كان له مجموعة من الخصوم والحساد ، سواء في بلده أو في تونس ، إلا أنه لم يستخدم شمره كسلاح في وجوه أعدائه ، وهذا يتفق مع صفاته وتديته .

هذه هي الموضوعات الشعرية التي تناولها ابن الأبار ، بالإضافة إلى ما كنا قد ذكرناه عند حديثنا عن شمره في بلاط بني حفص ، من اعتذار واستمطاف وشكوى . وقد جاءت - كما لاحظنا - طيبة لحاجات نفسه ، وصورة الأحداث الخاصة والعامة التي كانت تحيط بالشاعر ، وهي في مجموعها لا تخرج في شيء مما طرقة شمره صره من أغراض .

-
- (١) الذيل والتكملة : سفر (٥) قسم (١) ص ٢٧٤ .
(٢) البيت للنايفة الذبياني ، وهو من قصيدة في الهجا . وقوله : "إِنَّا اقْتَسَمْنَا خَطَّتَيْنَا" مثل ، أي كانت لي ولك خطتان ، فأخذت أنا البرة ، وأخذت أنت الفاجرة . وفجار : اسم معرفة من الفجور : أنظر ديوان النايفة ص ٥٥ .

الفصل الخامس

الخصائص العامة لشعر ابن الأثير

- ١ - دوره الوظيفي .
- ٢ - خصائصه الفنية :
 - بناء القصيدة
 - الأسلوب
 - المعاني
 - الأخيلة والصور
 - الموسيقى الشعرية
 - الاحتذاء والتقليد
 - الصدق
- ٣ - قيمته وآراء النقاد فيه .

١ - دوره الوظيفي

بعد الدراسة الموضوعية لشعر ابن الأبار في فصلين سابقين ، يجدر بنا أن نتوقف عند بعض القضايا ، في محاولة للكشف عن سمات شعر ابن الأبار وتقييمه . ومن ذلك : الدور الوظيفي الذي اضطلع به شعره ، سواء في الأندلس أو في تونس ، ومدى مشاركته ونجاحه في تصوير الأحداث التي كانت تحيط بسسه . فهل كان الشاعر ملتزما بتصوير ما يدور حوله من أحداث ؟ وهل كان يهدف إلى مجرد التصوير والتأريخ ، أم أنه كان على يقين من أن الشعر أسعى من أن يستخدم كوسيلة تأريخ وتسجيل فقط ؟ ثم هل ارتبطت قصائده بقضايا ذاتية فقط ، أم أنها حملت همومه وهموم الجماعة التي ينتمي إليها ؟

إن نظرة لما تركه ابن الأبار من شعر ، تبين بكل جلاء ، أن قصائده منذ أن كان في الأندلس ، قد ارتبطت بحوادث بارزة في زمنه ، مما أضفى عليها سمة الواقعية والمشاركة بما يجري حوله . فنحن إذا استثنينا قصائده التي قالها في الأندلس متفردا ووصفا الطبيعة من حوله ، تلك القصائد التي كانت استجابة لانفعالات نفسه بالطبيعة الساحرة من ناحية ، وبالجمال الإنساني من ناحية أخرى ، فكانت تصويرا واقعيا صادقا ، ونقلا أميناً لانفعالات نفسه نحو تلك الطبيعة إذا استثنينا تلك القصائد والمقطوعات ، فإن ما تبقى من شعره في الأندلس ، يدل دلالة أكيدة على أن الشاعر قد سخر طاقته الشعرية لخدمة وطنه وأمه ، فكان شعره صورة لما كان يعيشه وأبناء أمته صباح مساء .

فقصيدته في رثاء شيخه الكلاعي ومن استشهدوا معه في وقعة أنيشة ، هي تسجيل لتلك الوقعة المظيمة التي كانت تشمر بقرب حلول النتيجة الرهيبة على بلنسية بخاصة ، والأندلس بعمامة . وهي قبل أن تكون قصيدة رثاء عادي ، كانت

قصيدة هادفة ، تبغي تمجيد البطولة ، وتمجيد الإنسان المناضل عن حمى وطنه المستباح وهي قصيدة تحبب الموت وتزيّن الدفاع عن الأرض . . . هي تخليد لأولئك الأبطال الذين سقطوا دفاعاً عن وطنهم ، وعلى رأسهم ذلك الشيخ الذي لم يمنعه سنّه من القيام بواجبه ، فحمل السلاح في وجه أولئك الذين كانوا قد تمكنوا من السيطرة على معظم أجزاء وطنه إنّها معركة حياة أو موت إنّها معركة فرضت على شيوخ الأمة النهوض لمواجهة الأعداء وصدهم . . . هي قصيدة حاولت دفع أبناء الأمة إلى الاقتداء ، وتأكيد روح التضحية التي تمثّلت في أولئك النفر وعلى رأسهم شيخ عالم جليل . . . هي قصيدة لا يكاد كتاب من كتب التاريخ والتراجم ، يشهد عن وقعة أنيسة ، إلا ويستشهد بها أو ببعض أبياتها ، دلالة على دورها وقيمتها ^(١) . فهي إذاً على الرغم من أنّها كانت تعبيراً عن محبة الشاعر ووفائه لأستاذه ، إلّا أنّها كانت تحمل في طياتها دوراً وظيفياً ، اتضحت أبعادها وارتسمت خطوطه عند اشتداد محاصرة بلنسية ، وبعد سقوطها ورحيل الشّاعر عنها ومكوثه في تونس . إنّ دور يؤكد التزام الشّاعر بقضايا أمته ووطنه إنّ دور الشاعر الذي عرف دور الكلمة ، فرفعها سلاحاً قوياً في وجه أعدائه ، وحاول بها أن يجمع الشمل ، ويوحّد القوى ، ويثير القاصي والداني من أبناء الأمة الإسلامية ، للوقوف إلى جانبهم في محنتهم .

إنّ قصيدة ابن الأبار في رثاء شيخه - كما ذكرنا - تمثّل بدايعة حبس وطني ، تبلور وتممّق ، وازداد التصاقاً بالشاعر ، عند سقوط بلنسية وبعد

(١) من المصادر التي استشهدت بقصيدة ابن الأبار هذه أو بجزء كبير من

أبياتها : برنامج شيوخ الرعيني ص ٧١ ، والذيل والتكلمة ٩٠ / ٤ - ٩٥ ،

ونفح الطيب ٤٧٣ / ٤ ، والروض الممطار ص ٤١ ، والاحاطة ٣٠٣ / ٤ - ٣٠٩ ،

وزهر الأفتان من حديقة أبي النون للسلاوي ٣٠٩ / ١ .

رحيله عنها . إنها أول ثمرة شمريّة (١) من ثمراته التي جسد فيها الشاعر الموقف بالكلمة . . جسد موقفه من الأحداث التي تحيط به وأبناء أمته ووطنه ، بكلمة الطعنة المعبرة الهادفة .

وكان حصار بلنسية الذي يُنذر بالخطر ، بعد تلك المعركة التي أثارت أحاسيس الشاعر ، وكشفت عن موقفه تجاه تلك المحنة الرهيبة التي تتعرض لها بلنسية والأندلس عظمى ، وخشي الشاعر لحاق بلده بغيرها من البلاد الأندلسية ، ووقعها في قبضة من فرقوا الأمة وشردها وأزاقوها من الولايات ما تمجز الأعلام عن وصفه ، فشحن همته ، وجمع طاقاته ، ونظم قصيدته الهزمية التي استصرخ فيها أمير تونس - أعظم قوة إسلامية في الشمال الأفريقي في تلك الفترة - ، وقد صور فيها الأخطار التي تحيط ببلده وما ينتظر أهلها راثيا لها ولهم ، وما دحا الأمير بما يحرك نفسه ، ويدفعه إلى إعانة أهل بلنسية ليغثوا أمام عدوهم . واشتد الحصار والمقاومة ، وساء حال البلد وأهلها ، فنهض الشاعر ، وتوجه نحو أمير تونس على رأس وفد من أهل بلنسية ، وأنشد بين يديه قصيدة مشابهة لقصيدته التي كان قد بمث

(١) لقد سبق أن أشرنا إلى قصيدة ابن الأبار في مدح زيان ، ولم نستطع تحديد مناسبتها أو زمن انشادها ، وقد بدت فيها كما بينا عاطفة ابن الأبار نحو أعدائه وموقفه من الأحداث التي تحيط به ، ولمدح القدرة على تحديد وقت انشادها وعدم وجود قصائد أخرى في زيان ، اعتبرنا قصيدته في رثاء شيخه القصيدة الأولى التي ظهر فيها حب ابن الأبار الوطني ، وإن كنا نظن أن شموه الوطني قد ظهر في قصائد سابقة قالها أثناء مقارعة زيان للنصارى ومدافعتة لحصن بلنسية ، ولكنها لم تصل إلينا .

بها ، وهي قصيدته السينية التي كان لها عظيم الأثر في نض الأمير الحفصي ، فاستجاب لطلبه ، وصمت بقوة عظيمة ، ولكثها وصلت بعد فوات الأوان . إذاً فالقصيدتان الهزمية والسينية ، هما تأكيد لموقف الشاعر من وطنه ، واستمرار والتزام بما كان قد أخذه على نفسه منذ استشهاد شيخه الكلاعي ومن معه فسي معركة أنيسة .

ووقع ما لم يكن منه بد ، وسقطت بلنسية ، وأصبح الناس أمام المأساة التي سبق وأن تجرع مرها غيرهم من أبناء الأندلس ، وأمام الحقيقة المفجعة التي تفرض عليهم ترك بلدهم . . . فالحادث جلل ، والمصيبة أعظم . من أن يتصورها عقل . ولكن من الذي سيقف إلى جانب أولئك الحيارى ، يأخذ بأيديهم ويوصلهم إلى مكان يشعرون فيه بالراحة والسكينة ، بعد الهلع الذي ذهب بقلوبهم وقطع أوصالهم ؟ وأين سترسو بهم سفينة الأمان ؟

بيد وأن الأمير زيان لم يجد بين رجاله أقدر من ابن الأبار ، الذي سبق وأن كلفه بمهمة خطيرة قبل سقوط بلنسية ، وفي أثناء حصارها ، وهي طلب العون من الأمير الحفصي ، فحقق ما أرسل من أجله ، فقام بتكليفه بمهمة أخرى بعد سقوط بلنسية ، وهي حمل البيعة وأهل بلنسية إلى الأمير الحفصي ، لكي يستقروا هناك .

وقد نهض ابن الأبار من جديد لتأدية دوره ، فحمل أبناء بلده قاصداً الأمير الحفصي ، وقد ألقى بين يديه قصيدة مدح أخرى ، ركز فيها الشاعر على تصوير حالة أهل بلده وسوء ما وصلوا إليه بعد فقدهم بلدهم ، ليضمن التأثير في نض المدح ، ويتحقق الهدف ، وهو قبول البيعة واستقرار أبناء بلده في تونس . وقد نجح الشاعر في مهمته كما نجح من قبل . فابن الأبار - كما نرى - قال أربع قصائد كبيرة في مواقف فاجعة مؤثرة ، منذ أن أحس بالخطر الحقيقي المحقق ببلنسية وعند سقوطها ، مؤدياً بها دوراً وظيفياً تجاه أمته ووطنه .

وهذا الدور الوظيفي الوطني ، الذي اضطلع به شمر ابن الأبار في الأندلس ، لم يتوقف ، ولم يجف ينبوعه ، بعد سقوط بلنسية ، ورحيل الشاعر عنها ، بل ازداد عمقا والتصاقا به . وقد عبّر الشاعر عنه أصدق تعبير فـ في الوضات الاستصراحيّة التي ظلت ملازمة لقصائد مدحه في الأمير التونسي ، منبها ومذكرا لما كان قد نبّه إليه في قصائده الأولى قبيل السقوط ، وداعيا إلى استرجاع وطنه السليب ، مستخدما في ذلك أكثر من أداة ، من تصوير لما فعله المسلمون ببلده ، وحجاء له مع تبيان عاطفته الحاقدة عليه وتهديده له ، وارتقاب اليوم الذي سيثار فيه منه ، وتركيز على الناحية الدينيّة في حدث المدح واستنهاض همته ، وتبيان أن لا قدرة لأحد على استرجاعها سوى الأمير الحفصي كل هذه الأدوات بقيت عناصر أساسيّة في قصيدة المدح عند ابن الأبار وهو في تونس مما يؤكد التزام الشاعر بما أخذه على نفسه ، منذ استشهاد شيخه الكلاعي .

ولم يقتصر التزام ابن الأبار بمهده على الحث والاستصراح ، بل أنه كشاعر محب لوطنه ، حريص على التحسّك به ، سيكيه دما إذا ما اضطر إلى مفارقتها ، واستند به الوجد ، وآلم به الشوق ، وهذا يمثل التعاطف الحقيقي مع الأرض وأهلها . ولهذا كان شمر الذي قاله شوقا وحنينا لوطنه "صورة حقيقيّة ، وواقعا إنسانيا ، وخفقة وجدانية من خفقات الإحساس . فالشاعر لا يكي نفسه ولا يندب حظه ، وإنما يكي الفرقة ويندب الفرية ، ويسكب الدّم معمد التفريق والتمزق . . . فالبكاء لم يكن فرديا ذاتيا . . . وإنما هو بكاء الإحساس بتفريق الجماعة ، وفقدان الترابط ومعثرة الوحدة . . . فكان على الشاعر أن يشارك الأهل فرقتهم ، وبشاطر الأصحاب تمزقهم ، ولا بدّ أن تكون الصورة إليه موحية لاستحضار الواقع القديم ، واستدكار الأيام الخوالي ، التي كان فيها الأهل مجتمعين ، تشدّ بينهم الأواصر ، ويوحّد قلوبهم التعاطف ، ولا بدّ أيضا أن يعود الإنسان في

مواضع الاستحضار والاستدكار إلى أيام الشباب وقوته ، والصبا وملاعبه ، والبهجة وسرّاتها ، وما كان يطوي هذه الحياة من مواقف تشير الاعتزاز وتبث على التأسى . . ومن خلال المقارنة الجادة ، بين واقع ضائع وتشرّد واقع ، وماضٍ مزدهر ، وقديم موحد ، تأتلق لمحات الإحساس بالحرارة ، وتتصاعد ومضات الشعور بالأسمى ، وفي هذا التلاقي والاحتدام القاسي ، تشتدّ خفقات الالتزام بالمقارنة وتنطلق قدرات التعبير عن الصورة الحقيقية ، التي تلمسها الشاعر بصدق ، ووقف عند مراكز التأثير فيها ، ومن هنا كان التعبير أليما وتدقق العبرات غزيرا ، ومجال إظهار الحسرة مقبولا ، لأنّ الصورة في النفس أصبحت قاسية ، وإدراك ما تؤدّيه من أوجاع مفطرة في التباعد . ولا غرابة في ذلك إذا لسنّا في هذا النوع الأدبيّ من تصاعد المواطن ، وتفجّر المشاعر ، ما عجزت عنه الأنواع الأدبيّة الأخرى^(١) .

هذا هو الدور الوظيفي الذي اضطلع به شمر ابن الأبار ، تجاه الوطن والأحداث التي كانت تلم به ، منذ شعوره ببداية المأساة ، ومرورا بحياة الفريسة والتشتت ، وانتهاء بمفارقة الشاعر للحياة . وهذا الدور - فيما أرى - هو الدور الرئيسي الذي كان يؤمن به الشاعر ، وهو دور يتفق مع شخصيّة ابن الأبار الجديّة ، التي صبغت بالعلويّة والتفكير منذ صغرها . ويتفق أيضا مع مركزه الاجتماعي ومكانته السياسيّة . وإنّ قصائده التي قالها في مدح الأمير الحفصي ، تعتبر استكمالا لهذا الدور ، ووسيلة لتحقيق ما تطمح إليه نفس الشاعر ، من تحرير الوطن ، واستعادة الحقوق ، وطرد المفتصبين . ذلك أنّ الشاعر - كما ذكرنا - بالتجاء إلى أكبر قوة إسلامية في تلك الفترة ، كان يطمح ويرجو وبحث الأمير الحفصي لا استعادة وطنه . فالوطن بالنسبة للشاعر - كما تبدى ذلك من شعره - ، يطك عليه كل إحساساته . . . لا يعرف الراحة والسعادة ، مهما تعددت أسبابها وتلوّنت مظاهرها ، وهو يعمد عنه ، يذكره في كل مناسبة ، ويستخدم من الأدوات ما يدفع كل من يستمع إلى

(١) الأدب والالتزام لنوري القيسي : ص ٤٨ ، ٤٩ .

شمره ، مشاركته في مأساته ومحاولة تقديم يد العون له . . . يذكره في قصائد مدحه ، ويسرّخ بمفتصبه ، ويتوعددهم ويسخر منهم . . . ويذكره في خلواته تذكرنا تأسسها لما وصل إليه وأبناء بلده .

وإذا كان هذا هو الدور الرئيسي لشمر ابن الأبار ، فإن شمره في تونس ، في مدح الأمير الحفصي قد اضطلع بدور كان يعتبره الشاعر مكيلاً لدوره في الرئيس ، وهو خدمة الدولة الحفصية وأمرائها ، بل إن شمره في البلاط الحفصي ، قام مقام أجهزة الإعلام في أيامنا هذه . وقد تبين لنا في الفصل الذي تحدثنا فيه عن شمره في البلاط الحفصي ، كيف أن قصائده ، كانت صدراً رئيسياً لفتوحات الأمير الحفصي . ويرى نوري القيسي " أن قيام قصيدة المديح في أحداثها ووقائعها مقام جهاز الإعلام ، لتسجيلها للأحداث ، قد أعطاه أهمية كبيرة وقيمة تاريخية ووثائقية . حتى أصبحت هذه القصائد رديفاً للخبر التاريخي ، وسجلاً للوقائع الدقيقة ، ووثيقة من وثائق إسناد الخبر وصحته " (١)

" على أننا حين نستعرض شمر شاعر في أحداث أو أوضاع معينة ، ينبغي أن نتذكر ، أننا ننحرف بالشعر عن مهمته الأصلية ، إذا كنا نرى فيه مجرد مصدر للمعلومات عن تلك الأحداث والأوضاع . ذلك أننا نتناظر من الشاعر ، فوق ما قد يتضمنه شمره من معلومات عن حدث أو وضع ، أن يصور لنا بفته الشعري ، الأصداء التي يتركها ذلك الحدث أو الوضع في نفسه ونفوس أبناء الجماعة التي ينتمي إليها ، لكي يكون الشعر معبراً عن أحاسيس الشاعر وجماعته ، على مستوى فني مؤثر . والشعر بذلك تتمثل فيه " مواقف " ويتعدى مهمة السرد والنقل " (٢) .

(١) الأديب والالتزام : ص ٧٩ .

(٢) صدى الغزو الصليبي : ص ١٣٩ .

ولذا فإن ابن الأبار لم يكن بقصائد مدحه ، يقصد التأريخ والتسجيل
لوقائع الأمير الحفصي فقط ، فذلك شأن كتب التاريخ . ولكنه بقصائد مدحه
كان يربط ما بين عدة موضوعات في نسيج يحقق له الهدف الذي نظم قصيدته
من أجله ، وهو تمجيد الانتصار وتعظيمه ، والإعلاء من شأن قائده ، وشيئنا
بالجيش وأدواته ، وسأخرا من العدو ، ومهددا ومتوعدا له ، ومثيرا الحماسة
والشجاعة في النفوس ، ومبشرا القائد والجيش بانتصارات لاحقة ، تطفى على كل
ما سبقها من انتصارات وأمجاد ، ولا ينسى الشاعر ، تبين أثر ذلك الانتصار في
النفوس ، والآثار الإيجابية الناتجة عنه ، وما وصل اليه الناس من هير وسعادة وأمان ،
بعد أن ساء حالهم ، فعدوا أقواتهم ، وخافوا على نفوسهم . ومن هنا كان التركيز
على شخصية البطل - وهو الأمير الحفصي - ، ذلك البطل الذي كان الناس
بأص الحاجة لأمثاله ، في وقت ضعفت فيه الأمة الإسلامية ، وتمزق شطها . وقد
أسبغ الشاعر عليه كل ما ورثه من معان سامية ، كالكرم ، والشجاعة والعدل
كل تلك الصفات التي كان معظمها حقيقة متوافرة في الأمير الحفصي ، وإن كان
الشاعر قد بالغ في كثير منها ليرسم لأمره صورة مثالية ، ليحبب الناس به ، ويهيب
أعداءه الموحدين ، ومن وقف إلى جانبهم ، والنصارى على حد سواء . ومن هنا
أيضا كان حديثه عن الجيش الحفصي وأدواته الحربية ، التي لم تختلف صورتها
في المثالية عن صورة الأمير الحفصي .

إن الصورة المثالية التي حرص الشاعر على إسباغها على كل ما يتصل
بالأمير الحفصي والسخرية والاستهزاء بأعدائه ، وتهديد يدهم وتوعدهم ، ومحاولة
إثبات أحقية الحفصيين بالخلافة ، معتمدا بذلك على أكثر من أداة ، تدلّ دلالة
أكيدة على أن الشاعر - بصفته شاعرا بلاط - كان يؤدي بشمعه دورا وظيفيا بحتا ،
وهو خدمة الدولة الحفصية والإعلاء من شأنها وشأن أصحابها ، ونشر محاسنها ،
والوقوف في وجه أعدائها . وإن ما يؤكد ذلك أنه حتى في قصائده في بستان أبي

فهر ، قد عمل جاهدا على إبراز أثر عظيم من آثار الدولة الحفصية ، متوقفا عند كل جزئية من جزئياته ، وضميا عليه المثالية أيضا ، حتى إن إيوان كسرى وزهرا الأندلس ، لا قيمة لهما إذا ما ذكر ذلك البستان .

ولا شك أن القصائد التي كان ينظمها ابن الأبار وغيره من شعراء الدولة الحفصية ، كانت تؤدي دورها الاعلامي الوظيفي على أكمل وجه . ولولم يكن الأمير الحفصي مدركا لقيمة مثل تلك القصائد ، لما أكثر من الشعراء في بلاطه ، ولما أغدق عليهم الكثير من أمواله ، ولما قرّبهم منهم وأحاطهم في أحسن مكان .

وخلاصة الأمر : فإن شعراء الأبار ، باستثناء جزء قليل منه ، كان يرمي إلى غاية وظيفية ، انحصرت هذه الغاية في هدفين بارزين : أولهما : تصوير ما أدم بوطله وأتمه ميّنا غموره وشعوره ينتهي إليهم ، تجاه تلك القضية ، وحاشا وستنجدا بكل من يرى فيه الخير لتحقيق هذا الهدف ، وهذا هو الهدف الرئيسي لشعره ، الذي اضطلع به منذ الإشارات الأولى للقضية ، وحتى مفارقة الشاعر للحياة وثانيهما : خدمة الدولة الحفصية وأمرائها ، بحيث جعل من شعره جهاز إعلام ، يثبت من خلاله معاصر الدولة وأمجادها ، ويدافع عنها ويقف في وجه أعدائها ، وهذا الهدف غير منفصل عن الأول . كما ذكرنا . بل يعتبر مكملا له ، ووسيلة لتحقيقه .

٢ - خصائصه الفنيّة

امتاز شعر ابن الأبار بمجموعة من الخصائص الفنيّة ، التي برز فيها تأثره بشكل واضح ، بالمصر الذي عاش فيه ، وثقافته ، والقدما . وستناول فيما يلي من صفحات تلك السمات بشيء من التفصيل ، في محاولة لتقييم شعر ابن الأبار ، وهذه السمات هي : بناء القصيدة ، والأسلوب ، والمعاني ، والأخيلة والصور ، والموسيقى الشعرية ، والاحتذاء ، والتقليد ، والصدق .

بناء القصيدة :

يتضح أسلوب ابن الأبار في بناء قصيدته ، بدراسة مجموعة من القضايا وهي : مقدّمة القصيدة ، وحسن التخلّص ، والخاتمة ، وطول القصيدة ووحدتها .

فبالنسبة لمقدّمة القصيدة ، فقد سار ابن الأبار في جزء من قصائد مدحه ، على الطريقة التقليديّة لبناء القصيدة العربيّة ، وهي افتتاحها بمقدّمة غزليّة ، ثم الانتقال إلى الموضوع الرئيسي وهو المدح . وقد بلغ عدد القصائد التي افتتحها بمقدّمات غزليّة إحدى وعشرين قصيدة ، وهي نسبة قليلة ، لا تساوي ربع قصائد مدحه . أما القسم الأكبر من قصائد مدحه ، فقد اهتم فيه عن النهج التقليدي .

ويكاد الشاعر في مقدّماته الغزليّة ، يسير وفق نظام قريب من الثبات ، إن يتحدّث فيها عن بعض صفات محبوبته ، وخاصة الحسيّة منها ، وشدة شوقه لها ، وكثرة دموعه ، وقسوة قلبها ومدّها عنه . ويغلب على مقدّماته الغزليّة التكلف والصناعة ، وإن كان بعضها رقيقاً لا يخلو من العاطفة (١) . كذلك فإن

(١) أنظر: مخطوطة الديوان ص ٦٢ .

المقدمة الفرزلية ، تحتلّ ثلث قصيدة المدح تقريبا ، وطولها أو قصرها ، يعتمد على طول أو قصر قصيدة المدح ، فكما طالت القصيدة ، كلما طالت المقدمة الفرزلية لتساوي ثلث القصيدة . وهي ظاهرة طفئة للنظر ، مشعرة بالتكلف والصناعة .

ويلحظ الدّارس أيضا ، أنّ قصائده التي بدأها بمقدمات تقليديّة هي قصائد مدح عاديّة ، نظمها الشاعر في أوقات السّلم ، بمعنى أنها لم تنظم تهنئة بانتصار أو فتح أو بيعة ،

ومع أنّ الشاعر كان حريصا على ثبات طول مقدمات قصائده وعدم طغيانها على الموضوع الرئيسي وهو المدح ، فإننا نجده يخالف ذلك في إحدى قصائده التي افتتحها بالفرزل ، ثم انتقل فيما بعد إلى الفخر بنفسه وقومه ، واختتم قصيدته بمدح أبي زكريا ، بأبيات قليلة ، لا تزيد على عشرة أبيات ، مع أنّ القصيدة بلغت خمسين بيتا (١) . أما القسم الأكبر من مدائحه ، فقد اعتمد فيها عن المقدمة الفرزليّة ، ويدّو أن ذلك كان لسببين بارزين :

١ - أن جزءا كبيرا من قصائد ابن الأبار ، كانت ترفع إلى الأمراء الحفصيين ، تهنئة بفتح أو مبايعة . ومواقف مثل هذه ، ليست بحاجة إلى مقدمات تقليديّة ، غير متصلة بالموضوع ، لأنّ شدّة انفعال الشاعر وفرحتّه بالنصر ، كانت تفرض عليه البدء مباشرة بتهنئة من حقق الانتصار والاشادة به .

٢ - أنّ ابن الأبار ، قد اعتمد عن المقدمة الفرزليّة في معظم مدائحه ، اقتداءً بالمتنبي ، ذلك أنّ ابن الأبار قد احتذى حذو المتنبي ، وتأثر به في أكثر من قضية كما سنبيّن فيما بعد .

(١) انظر القصيدة في : مخطوطة الديوان ص ٩٧ .

وتقسم قصائده التي ابتعد فيها عن المقدمة التقليدية الى قسمين :
 أولهما : قسم ابتعد فيه الشاعر عن أيّة مقدمة ، وكان يبدأ قصيدته بمـ
 يتناسب وموضوعه مباشرة ، وقد أشرنا لكثير منها في دراستنا الموضوعيّة (١) .
 وثانيهما : قسم كان يلجأ فيه إلى بعض المقدمات ، كمجموعة من قصائده ، كان
 يفتتحها مشيدا بالإمارة والبيعة الحفصيّة ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مدح
 الأمير (٢) . ومثل هذه المقدمات ذات صلة قويّة بالموضوع ، لأنّها مدح وإشادة
 بالخليفة نفسه . ومن هذا القسم مجموعة من قصائده التي نظمها بعد أن
 حصلت الجفوة بينه وبين أبي زكريا (٣) ، فقد قدم لها بمقدمات تحدث فيها
 عن سوء حاله وما وصل إليه ، شاكيا بأكيا . ومعروف أن الغرض من هذه
 المقدمات ، التأثير في نفس المدح ، لكي يرقّ ويصفح عنه . ومن ذلك أيضا ،
 قصيدته في رثاء صديقه الخطيب أبي عبدالله بن قاسم ، التي قدّم لها
 بمقدمة خلط فيها بين الموعظة والحكمة وحديث عام عن الموت .

ومما يتصل بالحديث عن مقدمة القصيدة ، الحديث عن مطلعها ، لأن
 للمطلع قيمة كبيرة ، لأنّه أول ما يقرع السمع . فإذا كان جيّدا ، جعل السامع
 يتشوّق لما بعده من أبيات ، ويصفي إليها ويلتذ بسماعها ، وإن كان سيّئا ،
 أدى إلى نفور السامع والإعراض ، حتى لو كانت الأبيات التالية له جيدة فـ
 سبّكها .

(١) أنظر أمثلة على هذه المطالع في : مخطوطة الديوان ص ١١٤ ، ١٢٢ ،

١٥٠ ، ٢٤٠ ، ٩٤٠ ، ١٨٤٠ ، ١٩٠٠ ، ٢٠٣٠ ، وغيرها .

(٢) أنظر أمثلة على ذلك في : مخطوطة الديوان ص ٥٠ ، ٣٨ ، ٨١٠ .

(٣) أنظر أمثلة على ذلك في : مخطوطة الديوان ص ٦٤ ، ١٢٣٠ .

وقد اشترط النقاد في المطالع الجيدة ، الأسلوب الواضح ، والمعنى الظاهر ، والترابط في المعنى بين شطريّ المطلع ، واستخدام الألفاظ المناسبة ، ومناسبة المطلع لفرض القصيدة وموضوعها ، وهو ما يسمى ببراعة الاستهلال ومن شؤوظهم أيضا التصريح لجمال الموسيقى (١) .

والناظر في مطالع قصائد ابن الأبار على اختلاف موضوعاتها ، يلحظ أن الشاعر قد وفق توفيقا كبيرا في مطالع قصائده ، من حيث وضوح الأسلوب ، وظهور المعنى ، واستخدام الألفاظ المناسبة للموضوع المتحدث عنه ، ومناسبة المطلع لفرض القصيدة ، وكأن المطلع يحمل عنوان القصيدة ، ويدل على الموضوع الذي ستحدث عنه الأبيات التي تليه . وهذه مجموعة من مطالع قصائده تبين ذلك بكل وضوح . يقول في افتتاح قصيدته السينية في استصراخ الأمير الحفصي (٢) :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السَّيْلَ إلى منجاتها درسا

فمنذ الكلمة الأولى " أدرك " يشمر السامع أن الشاعر في خطر ، وأنه يستنجس ويستصرخ لا نقاذ ، ما هو فيه ، ثم يحدد اسم الذي أهدق به الخطر ، وهو وطنه الأندلس ، الذي يعتبر نفسه جزءا لا يتجزأ منه ، ثم يحدد أداة النجدة وهي " الخيل " . ولكي يضمن السرعة في الإنقاذ قال : " إن السَّيْلَ إلى منجاتها درسا " فقد باتت إذا على حافة الهاوية ، ولا بد من السرعة فسي النجدة ، وهذا الشطر يلحج إلى ما سيتحدث عنه الشاعر عن أحوال الأندلس ،

(١) انظر : خزانة الأدب ص ٣ ، ١٠ ، ٤٤٧ ، والمقدمة : ٢١٧/١ - ٢٣٢ .

وتقد الشعر : ص ٥١ .

(٢) أزهار الريح : ٢٠٧/٣ .

وما أصابها من دمار وتخريب ، وما أصاب أهلها من قتل وذل وتشريد . ويقول في مطلع قصيدة رثى فيها الأمير الحفصي (١) :

بينني ثلاثاً سلوة الأيام أودى الحمام بناصر الإسلام

فهو منذ البداية ، قد حدد موضعه وهو الرثاء ، رثاء عظيم نصر الإسلام وأعلى من شأنه ، وهو أيضاً بما استخدمه من ألفاظ ، قد بين عاطفته تجاه ذلك الفقيد " بينني ثلاثاً سلوة الأيام " ، وهي عاطفة مشبوبة بالحزن والأسى واللوعة . ويقول في تهنئة الأمير الحفصي بعد مرضه (٢) :

نفوسُ العالمين لك الفداء فكيف ألام يهلك اشتكاه
ويقول أيضاً مستمطفاً ومعتذراً للأمير الحفصي (٣) :

لمشري برضاك أن يتحكماً لا المال استثنى عليه ولا الدما
والأمثلة طى ذلك كثيرة ، وحسبنا ما قد منا .

أما التصريح الذي اشترطه النقاد في مطلع القصيدة ، فلم يجد عنه ابن الأبار في أية قصيدة ، وعودة إلى ما ذكرنا من مطالع قصائده توضح ذلك . وإن كان ابن الأبار قد أمطه في بعض مقطوعاته ، كقوله (٤) :

لله عهد للرصافة السلف يصف الشبية وهي في ريعانها

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٢٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٨٠ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٣٤ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٢١٠ .

ويبدو أن الشاعر كان حريصاً على التصريح ، لأنه يشكل أداة بارزة لإحداث الموسيقى . ويرى قدامة أن الفحول والنجدين من الشعراء يتوخون التصريح في قصائدهم ، وربما كانوا يصرعون أبياتاً أخرى من القصيدة بمد البيت الأول ، وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره ^(١) . وكثيراً ما صرّع ابن الأبار غير البيت الأول في القصيدة ^(٢) .

ومما يتصل بالقصائد ذات المقدمات ، ما أطلق عليه النقاد "حسن التخلّص" ، وهو أن ينتقل الشاعر بالسامع أو القارئ من المقدمة إلى الموضوع الرئيسي ، دون أن يشعر بذلك ، لشدة الالتئام والتسجيم بين المعنى الأول والثاني . وقد اعتبر الشعراء والنقاد هذا الأمر ، من الأمور الجيدة والمحبة في القصيدة ، والدالة على قدرة الشاعر ومراعاة ^(٣) . وقد أحسن ابن الأبار وأجاد في انتقاله من المقدمات إلى الموضوعات الرئيسية ، وهو حريص على ذلك كل الحرص ، من ذلك قوله منتظلاً من الفزل إلى المدح ^(٤) :

وَمِنْ عَجَبٍ قَسَاوَتُهُمَا	وَمِنْ أَدِيمِهَا الْغِيَا
سَأَعْتَمِدُ الْأَمِيرَ وَهَمَلْتُ	سِوَى رَحْمَاءٍ مَعْتَمِدُ
وَأَقْصِدُ فِيهِ أَشْرَافَ الْمَدَى	حَدَائِحِ لَسْتُ أَقْصِبُ

ومن قوله أيضاً ^(٥) :

أَمَا إِنَّ اللَّيَالِي غَالِبَاتٌ طَوِيْفَرِي بِنَصْرِ الْفَرَقْدَانِ

(١) انظر: نقد المفضل ص ٥١ .

(٢) انظر: مخطوطة الديوان ص ١١٩ ، ١٥١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ وغيرها .

(٣) انظر: خزانة الأدب ص ١٨٥ وما بعدها ، والمقدمة ١/٢٣٤ .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ٥٧ .

(٥) المصدر نفسه : ص ١٦٤ .

إِذَا لَمْ أَلْقِهَا بَعْلًا ابْنَ عَيْسَى وَحَسْبِي مِنْ حَسَامٍ أَوْ سَنَانٍ
فَلَسْتُ مِنَ الْإِيَابِ عَلَى يَقِينٍ وَلَسْتُ مِنَ الذَّهَابِ عَلَى أَمَانٍ
فَإِنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ يَنَالُ مِنْهَا مَنَالُ الذَّعْرِ مِنْ قَلْبِ الْجَبَّانِ

ومع أن ابن الأبار كان موفقاً في كل انتقالاته ، بحيث يبدأ بموضوعه الرئيسي دون أن يشمر القارىء بذلك ، إلا أننا نجد في إحدى قصائده يستخدم أسلوب الجاهليين في الانتقال ، إذ كانوا يستخدمون بعض العبارات للتنبيه على انتقالهم مثل " دع ذا " و " عدّ عن ذا " (١) يقول منتقلاً من الفزل إلى وصف أساطيل بني حفص (٢) :

دَعْ أَسَالِيبَ النَّسِيبِ وَخُذْ فِي أَسَاطِيرِ الْأَسَاطِيلِ
أَخَوَاتِ الْخَيْلِ سَابِحَةَ ذَاتِ تَزْيِينٍ وَتَزْيِينِ (٣)

ولم يكن اهتمام ابن الأبار بخاتمة القصيدة أقلّ من اهتمامه بمطلعها وهو بذلك يَفْقُ مع النقاد العرب الذين يرون أن الخاتمة يجب أن تكون ذات صلة قوية بموضوع القصيدة ، لأنها آخر ما يبقى في الأسماع وربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال ، بل إنهم يرون أن يكون آخر بيت في القصيدة أجود بيت فيها (٤) . وهذه بعض الأمثلة على حسن الخاتمة عند ابن الأبار . يقول في خاتمة قصيدة في رثاء أبي زكرياء الحفصي بعد أن أكدّ فيما سبقها من أبيات ، شدة حزنه وطوعته ، وكأه المستمر على الأمير (٥) :

(١) انظر : المعدة ١/ ٢٣٩ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٠٩ .

(٣) يقال : تزايل بمعنى احتشم ، وامرأة متزايلة إذا كانت تستر وجهها حياءً .

(٤) انظر : هزارة الأدب ص ٥٦٢ .

(٥) مخطوطة الديوان : ص ١٧٩ .

وحديث سلواني متى أسمعته فاحكم عليه بأنه موضوع
ويقول مختتما إحدى قصائد حنينه وشوقه لوطنه (١) :

نأوا حقاً ولا أدري أيقضس تلاقٍ أو يباح لنا اجتماع
ومن قوله مختتما إحدى قصائد غزله ، بعد أن بيّن فيها شدة حبه وشوقه ،
وقسوة قلب المحبّة وهجرها (٢) :

فإن مت شوقاً أو فنيّت صباية خذا بدمي ذاك البنان المغضبا

أما خاتمة قصائد مدحه ، فقد التزم الشاعر في قسم منها ، بالخاتمة
الدعائية التقليدية ، وهو بذلك يجاري شعراء عصره ، ومن سبقه من الشعراء ،
مخاصّة شعراء العصر المباسي الذين جعلوا هذه الخاتمة لازمة لقصائد
مدحهم (٣) . ومن الأمثلة على الخاتمة الدعائية قوله (٤) :

ودم رحمة للعالمين وعصمة عدوك مصروع وأسك صارع
وقوله (٥) :

دام للدين ولدنيا حمى خالد الطك خلود الزمن
وقوله (٦) :

ودم للدين والدنيا أميراً وما غير المهند من وزير

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٨٣ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٣ .

(٣) انظر عن الخاتمة الدعائية : المدة ٢٤١/١ .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٨١ .

(٥) المصدر نفسه : ص ١٤٦ .

(٦) المصدر نفسه : ص ٨٧ .

إذا فلا بُد من الوحدة والتماسك بين أبيات القصيدة ومعانيها وأجزائها ، حتى تبدو وعلا فنيا متكاملة مترابطة .

وإذا نظرنا في قصائد ابن الأبار ، وجدنا أن قصائده التي افتتحها بمقدمات غزليّة تقليديّة ، لا وحدة بين جزئي الفزل والمدح فيها ، على الرغم من حرصه على ما سمي "بحسن التخلّص" . فلا رابط بين معاني الفزل والمدح ، ولكنه تقليد محض ، وإن كانت تلك المقدمات - كما أشرنا - ربما تكون متناسبة ونفسية الشاعر وحاله ، بعد أن ائتمد عن وطنه ، فأكثر فيها من الشكوى والتحسّر والبكاء .

أما بقية قصائده ، التي ائتمد فيها عن المقدمة التقليديّة ، سواء في المدح أو غيره من أغراضه ، فإنها مترابطة الأجزاء ، متحدة المعاني ، متكاملة البناء ، على الرغم من اعتواء القصيدة الواحدة على أكثر من فكرة ، وأكثر من عاطفة . ونستطيع أن نأخذ مثلاً على ذلك قصيدته الهزمية (١) ، التي استصرخ فيها الأمير الحفصي ، فهي مشتتة على المدح والوصف والثناء والهجاء . وقد بدأها الشاعر باستنهاض همّة الأمير الحفصي وهشّه على استرجاع الأندلس ، وإنقاذها مما هي فيه ، مشيراً إلى أنه لا منقذ لها سواه . ولكي يكون التأثير كبيراً ، والأمل محققاً ، يأخذ الشاعر بتصوير حال أهل بلده بعد سقوط بلادهم بمحاطفة حزينة مؤثرة ، وقبل أن يكمل حديثه ، يعمود فيستحث همّة الأمير معتمداً ناحية مؤثرة أخرى ، وهي الناحية الدينيّة " فاستبق للدين الحنيف ذمّاً " (٢) . ويستمر الشاعر في استخدام عناصر التأثير ، فيأخذ بثناء بلده ، مصوراً ما أصابه ، ومقارناً بين حاله قبل سقوطه وبعد ذلك . وهو في أثناء هذه المقارنة

(١) راجع مكان وجود القصيدة وجزءاً منها ص ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ من ريجينه. الدراسة .

(٢) الذمّا : بقية الروح في المذبح .

بتعرض لمحتلّي بلده ، فيذمّهم ويعلن سخطه عليهم . فإذا ما اطعنا الشاعر إلى أنه استخدم ما يلين القلب ، ويحرك النفس ، عاد من جديد ليحدث الأُمير الحفصي إلى ما كان قد طلبه منه في بداية قصيدته ، مشيراً إلى قوّة الأُمير ، ومبيناً أنه لا قيمة ولا وجود لقوّة النصارى أمام الجيش الحفصي . ويرى الشاعر أن الأمر لا يخصّ الأُمير بمفرده ، فيذكره بالواجب الدّيني الذي يقع على عاتق الأُمير والمسلمين عامّة ، فيستنهيهم ، معلناً أنهم والأُمير الحفصي أهل لاستعادة وطنه . وتطعن نفس الشاعر إلى أنه استخدم من أساليب التأشير ، ما يحقق هدفه ومطلبه ، فنراه يستبشر بنصر الأُمير ، ويهني الأندلس بهكذا النصر القريب ، ويصف قوّة الأُمير وقوّة جيشه ، ويمدحهم جميعاً ، معلناً أن من يتصف بمثل صفات الأُمير وجيشه ، يعتمد عليه ، لأنّه أهل لتحقيق ما يطلب منه .

فالقصيدة على الرغم من أنّها تناولت موضوعات ومواطف مختلفة ، إلا أنّها انتظمت في عاطفة رئيسيّة واحدة ، هي حبّ الأندلس والدعوة لانعقادها ، وقد تفرّع عن هذه القضية ، مدح ورثاء ووصف ومجاء ، وقد استطاع الشاعر أن يؤلّف ما بين هذه الموضوعات والمواطف المتباينة في عمل فني متكامل .

الأسلوب :

يُعرّف الأسلوب بأوسع معانيه بأنه عفة من صفات الشخصية (١) ومعنى هذا أن كل كاتب لا بد أن يكون معروفًا " بأسلوبه الخاص وطريقته الشخصية والفكرة التي هي من ذاته ، لن تسمح لنفسها بأن تتشكل في قالب أسلوب لرجل آخر ، وحتى لو قلّد الكاتب العظيم غيره ، فإنه نظرا لمزاجه الخاص لا بد أن يدخل نفسه فيما قلّد فيه" (٢).

وإذا كان لكل كاتب أسلوبه الخاص الذي يميّزه عن غيره ، فإن اختلاف الموضوعات المتناولة ، لها أثرها الواضح أيضا في الألفاظ والأساليب على حد سواء. فالألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل فيها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق فنها ، فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام النعماء ، وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك" (٣). فالألفاظ والأساليب بالنسبة للشعراء مرتبطة بموضوعات الشعر مختلفة باختلافها ، فلفظ أسلوب يمتاز بالركة واللين والسهولة في غير ابتذال ، ولرثاء أسلوب رقيق لين ، وللمديح والهجاء أسلوب جزل شديد التأثير (٤).

(١) انظر: النقد الأدبي لأحمد أمين ص ١١٣.

(٢) المرجع نفسه : ص ١١٤.

(٣) المثل السائر لابن الأثير ص ٦٥.

(٤) انظر: الأسلوب لأحمد الشايب ص ٧٧ - ٨٣.

ولا يتوقف الاختلاف في الألفاظ والأساليب على الكاتب نفسه فقط ، أو على الموضوعات التي يتناولها ، بل إنَّ العصر الذي يمشي فيه الشاعر ، لا بدَّ وأن يترك آثارا واضحة في أسلوبه وألفاظه .

إذاً غالد أرس لأسلوب أيّة شخصيّة ، لا بدَّ وأن يضع كلّ هذه الأمور نصب عينيه ، ليتبيّن ألفاظها وأساليبها ، التي ميّزتها عن غيرها من الشخصيّات الأخرى ، إما بأثر ذاتي في الشخصيّة نفسها ، أو بيئي يتّصل بالعصر الذي عاشت فيه ، أو موضوعي يتّصل باختلاف الأساليب والألفاظ باختلاف الموضوعات .

وابن الأبار الشاعر لا يختلف عن غيره من الشعراء ، فقد كان لأسلوبه الخاص المميز الذي أصبح لاصقا به ، وكانت له ألفاظه الخاصّة التي كوّنها وشكل منها أنماطا تعبيرية ، جعلته يختلف فيها عن غيره .

والدّ أرس لشعر ابن الأبار ، يلحظ أن يميل فيه إلى السهولة ، بحيث أن المثقّف الحادي لا يصعب عليه فهم شعره . فأسلوبه سهل واضح ، يعمد فيه من كلّ ما غرب من الألفاظ وخشن ، لولا البديع والمحسنات اللفظيّة ، إنَّه كان البديع في بعض الأحيان يذهب بجمال شعره ورونقه ، ويضطرّ الشاعر إلى الاتيان بكلمات لا تتفق ومذهبه الشعريّ العام . (١)

ويبدو أن أسلوبه الكتابي ، قد أثر في سهولة أسلوبه الشعريّ المقام ، إنَّ يقول ابن رشيّق : " والكتاب أرقّ الناس في الشعر طبعاً ، وأطعمهم تصنيفاً ، وأحاذهم ألفاظاً ، وأطفهم معاني ، وأقدرهم على تصرف وأبعدهم من تكلف " (٢) .

(١) انظر أمثلة على ذلك في : مخطوطة الديوان ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٦٥ ، ١٦٧ .

(٢) المحمّدة ١٠٦ / ٢ .

وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نستطيع تمييز أسلوبين واضحين في شمس
ابن الأبار : أسلوب الجزالة والقوة في قصائد مدحه ، وأسلوب اللين والبرقة
في بقية موضوعات شعره ، وهو بذلك يتفق مع مذاهب العصر ، واختلاف أساليبهم
 باختلاف موضوعاتهم الشعرية .

ولأن ذلك لا يعني أن كل قصائد مدحه كانت بنفس المستوى من
القوة والجزالة ، فالقوة والجزالة تتوافر عادة ، إذا وصف الحرب أو تعرض للأعداء ،
أو وصف الغيل أو تعرض لبعض صفات مبدوحه الحربية ، وهو حريص على الإتيان
بالألفاظ المناسبة التي تستطيع التعبير عن عاطفته ومبادئه ، يقول في فتح
تلمسان (١) :

لَمَنْ وَقَعَهُ بِالْخَرْبِ ضَمِيضَتِ الشَّرْقَا	أَرَأَيْتَ بِجَمْعِ الْمَارِقِينَ فَمَا يَرْقُـ
وَأَزْبَقَتْ مِنَ النَّقْعِ الْمَثَارِ سَحَابِيئَنَا	تَأَلَّقَ مَقُولُ الْحَدِيدِ بِهَا بَرْقُـ
مُطَابِقَةٌ عَرَضَ الْهَلَادِ وَطُولُهَا	فَلَا وَجْهَ إِلَّا وَاجِبُهُ وَلَا أَفْقُـ

ويقول أيضا في مجاء جند يفرأسن (٢) :

لَحْمِي لَقَدْ هَانَا وَكَانُوا أَعْيَسَرَةً	وَمَنْ ذَا يُقَاوِي السَّيْرَ وَالْبَيْضَ وَالزُّرْقَا
وَفَرُوا وَكَانَ الْكَرْمُ مِنْهُمْ سَجِيَّةً	وَمَنْ ذَا يُطِيقُ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَ وَالرَّشْقَا
بَارِكْ لَهُمْ وَأَفْوَا مَوَارِدَ حِينِهِمْ	فَيُعَدُّ لَهُمْ بِمَدَا وَسُحْقًا لَهُمْ سُحْقَا

وواضح من الأبيات السابقة ، جزالتها وقوتها وملائمتها للموضوع ، فالألفاظ
مختارة ، مائنة للمعنى الجام ، تحاول إظهار عظم المعركة ومدى أثرها نفسي
نفس الشاعر ، كما أنها في معظمها تملأ الجو ضحيجا مثل (النقع ، ضعضعت

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٩٠ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٩١ .

أراقت، مطبقة، مصقول الحديد). وفي الأبيات اللاحقة أيضا ألفاظ القوة التي كانت سبب الانتصار (السمر، البيض، الزرق، الطمن، الضرب، الرشيق)، وألفاظ المحقد والكره والشماتة التي تبين شعور الشاعر تجاه الأعداء (هانسوا، فروا، بعداً، سحقاً) .

وإذا كان ابن الأبار في معظم قصائده مدحه، جزل الأسلوب، قوي الألفاظ وبخاصة في قصائده الحربية، فإن بعض قصائده مدحه، وحتى الحربية، سهلة الألفاظ، واضحة الأسلوب، تقرب من أسلوبه في موضوعات شعره الأخرى، مثال ذلك قوله : (١)

نصرة وتمكين، وفتح مبين	ثلاثة عيطى في الأرميين
دولته يمن على المؤمنين	أنت أمير المؤمنين السدي
محا ظلام الشرك نور اليقين	لم يبق من أمرك من مريم
بن أبي حفص لدنيا وديين	يعني بن عبد الواحد المرتضى
فإن هذا العام أسنى السنين	فإن يكن مير ملوك العبوري

فالأبيات السابقة، سهلة واضحة، مباشرة مباشرة، يكاد لا يلحقها بالشعر سوى علية النظم فقط . ويبدو أن أسلوب ابن الأبار النثري كان يتسلل أحياناً إلى شعره . (٢)

أما أسلوب ابن الأبار في بقية موضوعات شعره، فإنه أسلوب سهل واضح، بعيد عن التكلف في غزله، وزمده، ووصفه للطبيعة، واعتذاره، وقصائده حنينه لوطنه، وراثته باستثناء قصيدته الرسمية التي قالها في رثاء شيخه

(١) مخطوطة الديوان : ص ١٤٨ .

(٢) انظر مجموعة من قصائد ابن الأبار السهلة في المدح في المصدر نفسه

ص ٨٣ ، ٦٢ ، ٥٦ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١١٤ ، ١٤٩ .

شيئته اللامعي ومن سقطوا معه ، وعودة إلى بعض مقطوعاته وقصائده في دراستنا الموضوعية ، تبين ذلك بكل وضوح . وهو في هذه الموضوعات - كحالها في معظم شعره - يحد إلى اختيار الألفاظ المتناسبة مع موضوعه وتعبير عن إحساسه بذلك حدق ، فمن ذلك قوله في صاحبته : (١)

سُمِّيَتْ بِأَلْحَسَنِ لَمَّا أَنَّ خُصَمَتِي بِهِ
فَطَابَقَ اسْمُكَ يَا حُسْنًا مَسَّاسَكَ

ويقول أيضا : (٢)

وَقَالَتْ مَنْ قَتَلِي خَيْرٌ مِنِّي
فَدَيْتُكَ يَا قَتُولُ ، أَنَا الْقَتِيلُ

فانتشاره لـ "حسن" و "قتول" ، فيه تعبير دقيق عما يجول في نفسه تجاه صاحبته ، فصاحبته غاية في الجمال والرفقة ، لذا لم يجد لها أفضل من اسم "بحسن" الذي يدل حقيقة على جمالها . وهي قاسية القلب كثيرة الهجر ، فتاة اللحظ ، بمعنى أنها "قتول" من تحب .

أما أثر العصر "فقطما نجد أدبيا لا يتأثر بمقاييس عصره ، بصورة أو بأخرى ، وعلى تفاوت في هذا التأثر . والمقاييس الأدبية في عصر من العصور تشبه من بعض الوجوه ، طراز الملابس الذي يشيع في فترة من الفترات ، فيفري بالأخذ به ، خشية الاتهام بالتخلف عن العصر . . . والذين لا يلتزمون بالمقاييس الأدبية المعاصرة ، يحتاجون إلى الكثير من الجرأة والقدرة والثقة بالنفس" (٣) .

(١) مخطوطة الديوان ص ١٠٣ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٠٦ .

(٣) صدى الغزو الصليبي : ص ١٩٨ .

وقد كان شاعرنا من أكثر شعراء عصره تأثيراً بمقاييس عصره الأدبيّة،
وذلك الاتجاه نحو البديع والمحسنات اللفظيّة، سواء في مشرق العالم الاسلامي
أو مغربه، حتى إنها كانت مقياساً لجودة الشعر والأدب عامّة.

وقد صرح ابن الأبار بذلك في إحدى قصائد مدحه لأبي زكرياء، مشيداً بأدب
الأمير، ومصلحاً من قيمته (١) :

فيه البديع، فلو عادَ البديعُ رأى حتماً على مثله ختماً على فيسه

إنّ أقاليدَ في الأدب في عصر الشاعر، مظهر من مظاهر القوة، ودليل

على جودة الأدب، ومن هنا كان تركيز الشاعر عليه، وبخاصة الجناس والطباق،

حتى إنّ قصيدة أو مقطوعة من شعره، تكاد لا تخلو من البديع، وإن كان

إغراق ابن الأبار واكثره منه، يكون عادة واضحاً جلياً في القصائد الرسميّة،

كقصيدته في رثاء شيخه الكلاعي، وقصائد المدح. أما بقية أغراضه الشعريّة،

فمع استناده للبديع فيها، إلّا أنّ شعره بقي محافظاً على رونقه وجماله

لحدم إغراقه فيه، وربما ابتعد عنه تماماً في بعض مقطوعاته، وعودة إلى

شعره الذي أوردناه في موضوع الغزل ووصف الطبيعة وشعره الوطني والحمدي،
يبين ذلك بكل وضوح.

فمن ذلك قوله متفسّلاً : (٢)

ومعترضاً بالخصن في حركاته	تسلّ القلوب اللغو من لحظاته
عاطيته ناساً نأناً سلافه	من ريقه الممسول أو وجناته
وأدامت سلطان العفاف تكرمها	والمرء مجبول على عاداته

(١) مخطوطة الديوان : ص ٢٠٩ .

(٢) شرح مقامات الحريري للشريشي، ٢/ ٩٥ .

وعلى الرغم من وجود بعض المقطوعات والقصائد التي لم يفرق ابن الأبار في استخدام البديع فيها ، إلا أننا نجد اللفظة قد طفت على معظم شعره ، وشعر شعراء عصره بشكل عام ، فاهتموا بها اهتماما واضحا ، وسنورد فيما يلي بعض الأمثلة التي تبين ولع الشاعر بالبديع ، وهي كثيرة ، ورد الكثير منها فيما ذكرناه من شعر سابقا ، وهذه بعض الأمثلة أيضا :

فمن تبنيساته قوله في قصيدته الهزلية في استصراخ الأمير الحفصي : (١)
وتنترت لهم الليالي فاقتضت سراءها وقضتهم ضراءها
رشا أيها المولى الرحيم جناحها واعتقد بأرشية النجاة رشاها
حاشاك أن تغنى حشاشتها وقد قصرت عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها ترجو سيحبي ارتضى إحياءها
تقع المائدة على رؤس رؤسها فيها يوقع لطمعهم جلاءها

ويقول في قصيدته الميمية في رثاء شيخه الكلاعي : (٢)
وهان عليهم أن تكون لحورهم متون الروابي أو بطون التهاشم
عفا نعتها إلا بقايا مباسم يعز علينا وطوها بالنماسم
ويا رب صوام الهواجر واصل هنالك مصروم الحياة بصارم

(١) نفح الطيب ، ٤ / ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ .

(٢) الذيل والتكملة ، السفر الرابع ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .

البيت الواحد ، كقوله : (١)
كانت حداثتي لأحد اقِ مونقصة
فصوّح النَّضْرُ من أرواحها وعَسَا

محا مءاسنِها طاعاً أُتِيجَ لها
ما نامَ عن مضمِها حيناً ولا نِمسا

وقولسنة : (٢)
نُحِمِّي وجوهنا في الجنانِ وجبهة
بما لقيتَ حمراً وجوه الملاحم

فقد تكررت الحاء في الأبيات السابقة بشكل واضح ، وكذلك الجيم
في البيت الثالث .

ولم تنل صور الطباق والمقابلة في شعر ابن الأبار عن تجنيساته ، فقد
بلغت من الغثرة ، بحيث يتمذر استقصاؤها ، " وإذا كان التجنيس نوعاً ممن
التداعي الذي يحركه رسم اللفظة أو صوتها ، فإنَّ الطباق يمثِّل
تداعياً يحركه معنى اللفظة ، لأن الشيء قد يذكر بنقيضه ، مثلما أنه قد
يذكر بشبيهه ، وعين يورد نقيض الشيء أو الأشياء ، يتولد الطباق أو المقابلة " (٣) .

ومنه بعض الأمثلة على ذلك ، يقول : (٤)
أملني إلي علياكَ منقططع
وتوسلي لرضاكَ متَّصل

ويقول : (٥)
فلئن نالمت التوسيدَ عقداً منشراً
فقد خرت التَّجسيمَ عقداً منظماً

٥٥٥٥٥

(١) ازهار الرياض : ٢٠٧/٣ .

(٢) الذيل ، والتكملة ، السفر الرابع ص ٩٠ .

(٣) صدم الشزو الصليبي ، ص ٢٠٤ ، وقد استغفنا من معالجة الدكتور محمود ابراهيم

في كتابه المذكور ، لطائفة الهدى عند ابن القيسراني للشبه الكبير بين أسلوب الشعراء .

(٤) معنأولة الديوان : ص ١١٦ .

(٥) المصدر نفسه : ص ١٣٢ .

فراح طمئهم أدم الليل أشهباً وأضحى لهم أشهب الصبح أدهما

ويقول : (١)

مداين ملها الإشراف مبتسماً جدلان وارتحل الإيمان مبتثلاً

ويقول : (٢)

فأخو الزهاد لحيشه مشسوع وأخو الضلال لحتفه متجرع

ويقول : (٣)

فأعينهم بعد الهجوع سوامد وأعينا بعد السهاد هواجم

ويقول : (٤)

لئن وزبوا ينشطهم قسودم لقد صدروا يثبطهم قسول

وبالإضافة إلى ما ذكرنا من ألوان البديع في شعر ابن الأبار، فقد وردت أيضاً أنماط يدعية أخرى كالنقسيمة والترصيع والمبالغة وغيرها، وقد جاء التأثير منها فيما ذكرنا له من شعر.

وقد يحمّد ابن الأبار أحياناً إلى التكلف والصناعة، كما هو الحال في إحدى قصائد مدحه، التي تممّد أن يلتزم في نهاية أبياتها بالإتيان بكلمتين، لا تليطان إلا في الحرف الأخير فقط، بحيث أنك تستطيع معرفة اللفظة الأخيرة في البيت قبل ذكرها.

(١) نفي الطيب ، ٢٥٧/٤ .

(٢) مخاولة الديوان : ص ١٧٥ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٨١ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٠٨ .

يتول في مقدمتها الفزلية : (١)

أبهرت صبري على كلفني بين تكبير وتكبير وتكبير
ودرت أذن لي يدروني طول تعذيب وتعذيب

وتستمر القصيدة حتى نهايتها على هذه الصورة .

ومن ألوان التكلف والصناعة أيضا ، التزامه التصريح في جميع أبيات القصيدة ، كما هو الحال في إحدى قصائده الدالية ، التي يقول في مقدمتها : (٢)

سنا الصباح من سناها الواقد شيدت مبانيها على قواعده

فقد التزم التصريح في كل أبياتها ، التي بلغت خمسة وخمسين بيتا .

ومن سمات أسلوب ابن الأبار أيضا ، الترادف ، فكثيرا ما كان يأتي بكلمتين متلاعتين لا اختلاف في معناهما ، كقوله : (٣)

يمخو ويصفح في ذات الإله كما

وقوله (٤) : وعززت بمد الهون والاذلال

وقوله (٥) : يزيل من الاملاق والفقر بالفنى :

(قاله وخو والصفح ، والهوان والذل ، والاملاق والفقر) كلها كلمات مترادفة لها مدلول واحد .

وثروة ابن الأبار اللغوية واسمة وعميقة ، تدل على ذلك رسائله وكتبه وأشعاره . ومع ذلك فإن ثروته اللغوية تتضائل ، ولا تجود عليه ذاكرته ،

-
- (١) محاولة الديوان : ص ١٠٦ .
(٢) المصدر نفسه : ص ٥٠ .
(٣) محاولة الديوان : ص ١١٨ .
(٤) المصدر نفسه : ص ١٢٠ .
(٥) المصدر نفسه : ص ٢٦ .

- فيلجأ إلّ، التّردّد . وقد يكرّر شطرا بأكمله ، كقوله : (١)
 أَيْنَ ابْنُ غَانِيَةٍ وَأَيْنَ غَسَاوُهُ لا ذاك محسوس الوجه — وولان
 وقوله مكرّرا المّطار الأول من البيت السابق : (٢)
 أَيْنَ ابْنُ غَانِيَةٍ وَأَيْنَ غَسَاوُهُ لا ملحد إلا وأصبح ملحداً
 ومن تكرّره أيضاً قوله : (٣)
 نطوّف بمثواه المقدّس كعبية فيمحو خطايانا محطّاً محطّاً
 فقد كرر الشّطر الأول بقوله : (٤)
 نطوّف بمثواه المقدّس كعبية ونندب في أفيائه عيشنا اللّدننا

وكثيراً ما يلجأ ابن الأبار إلى تكرار لفظة أو عبارة معينة ، كتكرّره عبارة
 " إمام دد " ، (٥) ، وعبارة " للدين والدنيا " (٦) بشكل كبير في قصائده
 مدنية ، اندلاقاً من ثقافته الدينيّة ، ونظرة أبناء عصره ، الذين كانوا يرون أن الحاكم
 عليه الموازنة بين الدين والدنيا .
 وتكرّرت في شعره بعض الألفاظ بشكل واضح في مطالع أبياته ، مثل : " هيّهات " (٧)
 و " بشرى " (٨) و " لله " (٩) و " هنيئاً " (١٠) و " بأيّ " (١١) و
 " غليلي " (١٢)

-
- (١) مناوراة الديوان : ص ٧٦ .
 (٢) المصدر نفسه : ص ٦٩ .
 (٣) المصدر نفسه : ص ١٣٢ . (٤) المصدر نفسه : ص ١٥٦ .
 (٥) انظر أمثلة على ذلك في : المصدر نفسه ص ٩ ، ص ٢٥ ، ص ٤٧ .
 (٦) انظر أمثلة على ذلك في : المصدر نفسه ص ٦٨ ، ص ٧٧ ، ٨٧ ، ١٣٠ ، ٢١١ .
 (٧) انظر أمثلة على ذلك في : المصدر نفسه ص : ٢١ ، ١٢١ ، ٢١١ ، والذيل والتكملة ص ٩٢ .
 (٨) انظر أمثلة على ذلك في : المصدر نفسه ص : ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٨ .
 (٩) انظر أمثلة على ذلك في : المصدر نفسه ص : ٣٤ ، ١٢٢ .
 (١٠) انظر أمثلة على ذلك في : المصدر نفسه ص : ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٤ .
 (١١) انظر أمثلة على ذلك في : المصدر نفسه ص : ٤١ ، ١١٥ .
 (١٢) انظر أمثلة على ذلك في : المصدر نفسه ، ص : ٣٤ ، ١٣١ .

وقد يحمّد الشاعر إلى تكرار كلمة أو حرف في أبيات متلاحقة ، محدثاً بذلك
 إيقاعاً موسيقياً جميلاً ، كتكراره " كأنه في أهبات متلاحقة في قصيدة يقولها فيها : (١)
 فدأته وهو الدليق مقيّدٌ وكأنه وهو الحبيب مسيّرٌ
 وكأنه ممّا بكى وتبسّم روضاته فجر يضح ويصخب

فقد تكرر الشاعر " كأنه " بشكل ملحوظ في القصيدة .

وكذلك صنع في إحدى قصائده ، مكرراً حرف " لا " بشكل ملحوظ في أبياتها . (٢)

ومن الملاحظ على أسلوب ابن الأبار أيضاً إكثاره بشكل كبير من أسلوب
 الاستفهام والتأوه والتفجع والنداء (٣) ، وهذه الأساليب مجتمعة ، تتفق
 مع حالة الشاعر ، فالاستفهام يشير إلى انفعالات الشاعر المتلاحقة ونفسيّته
 المظنة ، وكذلك النداء . وهذا يتفق مع ما عرفناه عن الشاعر بسبب كثرة الملمات
 التي أهدت به ، وفي مقدّماتها سقوط بلده ورحيله عنه ، وما واجهته أيضاً من
 مصاعب في تونس وبخاصة في أواخر حياته . كذلك فإن أسلوب التأوه والتفجع
 كثر في شعره الوطني ، وهو يدلّ دلالة أكيدة على شدة ألمه ، وكذلك استخدمه
 في الخزل مصوراً بعده عن صاحبه ، وما أصابه من ألم بعد رحيلها ، وفسي
 الرثاء أيضاً والزهد .

وقد أكثر أيضاً من أسلوب القسم للتأكيد على ما يقول .

ومن الأساليب التي كثر في شعره أيضاً ، استخدام " كم الخبريّة

(١) صندوق الديوان : ص ١٣ .

(٢) انظر القصيدة في : المصدر نفسه ص ٥٦ .

(٣) الأمثلة كثيرة على هذه الأساليب ومنها في : المصدر نفسه ص ٢٦ ، ١٤

١٢٢ ، ٣٧ ، ٢١ ، ٣٨ ، ١٢٥ ، ٠٠٠٠

الكثيرة (١) و "رَبِّ" (٢) و "صِغ المبالغة" (٣) ، وهذه كلها تتناسب بشكل واضح مع المبالغة ، التي كانت تعتبر من أبرز سمات شعر العصر ، وشعر ابن الأبار بشكل خاص .

ومن الأساليب التي كثر دورانها في شعره أيضا ، أسلوب الحوار ، وبخاصة في قصائده النزلية .

وقد كثر استخدام الشاعر لألفاظ الكواكب ، وبخاصة في مدائحه ، حتى إن قصيدة واحدة تكاد لا تخلو من ألفاظ الفلك والنجوم والربط بينهما وبين النصر ، أو تشبيه المدوح بالنجم العالي في المنعة والرفعة ، وهذا أثر من آثار العروب عامة والحروب الصليبية بخاصة (٤) .

وقد أكثر ابن الأبار من استخدام ألفاظ الفزل في الحرب ، وألفاظ الحرب في الفزل ، وهو مذهب أولع المتنبى باستخدامه ، وكان من السابقين إليه (٥) ، فمن ذلك قوله في صاحبه : (٥)

والسيف والرمح لا أرجو دفاعهما إذا تمرّس بي قلب وخلق^٢ عال^٢
ويقول أيضا : (٧)

يصول^٢ بسلطان من الحسن قاهرا^٢ ويزحف في جيش الجفون عرمرما^٢
ويقول في الأمير الحفصي (٨) :

يفازل^٢ السمرا غصانا وقد جعلت تحيل شم الرواسي خيله كئيبا^٢

-
- (١) انار بعض الأمثلة في : المصدر نفسه ، ص ٣٥ ، ١٢٤ .
(٢) انار بعض الأمثلة في : المصدر نفسه ، ص ٣٢ ، ٣٨ .
(٣) انار بعض الأمثلة في : مخطوطة الديوان ، ص ١١٨ ، ١٢١ .
(٤) انار : ابن سناء الملك ، حياته وشعره ص ٣٣ .
(٥) بيتية الدهر ١/١٩٣ . (٦) مخطوطة الديوان : ص ١١٧ .
(٧) المصدر نفسه : ص ١٣١ . (٨) المصدر نفسه : ص ٢٠ .

ونجد في شعر ابن الأبار، بعض العبارات المتداولة بين الناس من ذلك عبارة "منيثا مرثيا" و"لها الله" و"ضربة لازم" (١)

وكان لشقافة ابن الأبار الواسعة أثرها الواضح في شعره، فهو - كما أشرنا - مؤن فقيه محدث حافظ للقرآن الكريم . وقد كثرت الأحداث التاريخية والأعلام المشرقية في شعره، مما يؤكد عمق ثقافته وسعة اطلاعه . وكثرت كذلك الألفاظ الدينية في شعره، وبخاصة ألفاظ الحج، في مدحهم وغزله، وشعره الوطني، وذلك ليعطي قيمة كبيرة لموضوعه الذي يتحدث عنه .

يقول في بلده : (٢)

وحجبي إليها واعتمازي جملته
وقاذف دمع الجمار مـورد

وذاك لعمري منتهى شرف الممر
إذا ما أفاض الناس فاض على النحر

ويقول في الأمير الحفصي : (٣)

وفي ذروة البيت المتيق بناؤه
ويقول في صاحبه : (٤)

أطوف بها شوقاً وأمسك عقبة
فأحسبني بين المقام وزمزم

ويبدو تأثره بالقرآن الكريم، والحديث والفقه واضحاً في الأبيات التالية

يقول : (٥)

لا تعجب الخائن المفرور كثرته
فطالما همز الآلاف آحاد

(١) انظر أمثلة على ذلك في مخطوطة الديوان ص : ٩٦، ١٥، والذي ل
والتكلمة، السفر الرابع ص ٩٣ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ٦٤ . (٣) مخطوطة الديوان : ص ٤٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٤٢ .

(٥) المصدر نفسه : ص ٥٥، وهذا ينظر إلى قوله تعالى : " وإن يكن منكم
مائة يخلبوا ألفين باذن الله " . الأنفال (٦٥) .

- ويقول : (١)
وتنمُّ نور الشمس منه غيرة
يرتدُّ عنها الطُّرف " وهو حسيّر "
- ويقول : (٢)
سيعمل ما أبلى نداءه وبأسه
صنوف البرايا " يوم تبلى السرائر "
- ويقول : (٣)
هامت به السبع الشداد بجلها
وتنافست فيه الجهات الأربع
- وأما أثر الحديث في شعر فنه قوله : (٤)
أدرك بخيلك خيل الله أندلساً
إنَّ السبيل إلى منجاتها درسا
- وقوله : (٥)
حديث من الغنم القريب رواه
كاسناده عندي متانة متسه
- وقوله : (٦)
تقدَّ مك الرعب الذي مالهم به
قرار، ولا في الجيش منهم مطامع

- (١) مخطوطة الديوان : ص ٩١ ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : " ثم أرجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسيّر " الملك (٤) .
- (٢) المصدر نفسه : ص ٩٥ ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : " إنه على رجمه لقادر ، يوم تبلى السرائر " الطارق (٩) .
- (٣) المصدر نفسه : ص ١٧٤ ، وهذا ينظر إلى قوله تعالى : " وبينا فوقكم سبوحاً شداداً " النبأ (١٢)
- (٤) أزيلار الرياض ٣ / ٢٠٧ ، عبارة " خيل الله " مأخوذة من قول الرسول الكريم " يا خيل الله اركبي " سنن أبي داود ٥٥ / ٣ .
- (٥) مخطوطة الديوان : ص ٦٧ .
- (٦) مخطوطة الديوان : ص ١٨٠ ، ينظر إلى قول الرسول الكريم " نصرت بالرعب مسيرة شهر " صحيح البخاري ٨٧ / ١ .

- ومن أثر الغقه قوله : (١)
 خلافته أود شجلاً خلافة
 وقوليه : (٢)
 ولا غرو أن قيساً على تلك هذه
 فكم من قياس في عدالك غدا نصاً
 أما أثر ثقافته الكتابية فيبدو في قوله : (٣)
 ويخط بالخطي ما لا يدعي
 وقوليه : (٤)
 حملت أنباء الغنوح فيها تها
 وقوليه : (٥)
 إذا خلت الهيجا أسطر جيشها
 خطأ نحنوها حتى يقوضها مهجوا
 ومن أثر ثقافته النحوية والشمريّة والمروضية ، قوله : (٦)
 عسى لانتقال الحال نادتي المنى
 فأهيرة أني منادى مرخـم
 وقوليه : (٧)
 إليك تفر منك بلا ارتياب
 كعجاز ترد على صـدور
 وقوليه : (٨)
 تفتح الأعوام بالفتح خدمة
 ويسبق في مرضاته المعجز الصـدرا
 وقوليه : (٩)
 هو زان إشتوته وهم زانوا الهدى
 فكانه بيت القصيد مجسوداً
-
- (١) مخطوطة الديوان : ص ١٦٨ .
 (٢) المصدر نفسه : ص ٢٠٤ .
 (٣) المصدر نفسه : ص ٢١٤ .
 (٤) المصدر نفسه : ص ٨٧ .
 (٥) المصدر نفسه : ص ٦٩ .
 (٦) المصدر نفسه : ص ١٦٩ .
 (٧) المصدر نفسه : ص ٩٣ .
 (٨) المصدر نفسه : ص ٩٣ .
 (٩) المصدر نفسه : ص ٦٩ .

المعاني :

لم تختلف معاني ابن الأبار في شعره ، عن معظم المعاني التي طرقها شعراء عصره ، وقد استمدّها الشاعر من أكثر من رافد ، فمن ذلك ثقافته الخاصة ، وما ورثه من التراث الشعري العربي ، كما أنّ العصر الذي عاش فيه ، والظروف التي أحاطت به بشكل خاص ، والناس عامة ، كلّ ذلك ترك آثاراً واضحة في معانيه .

وقد اختلفت معاني الشاعر باختلاف موضوعاته الشعرية ، فقد كانت معانيه في معظم مدائحه تتناسب وغرض المدح ، وقد كثرت فيها المعاني التثليدية ، التي أكثر الشعراء من استخدامها من قبل ، كذلك كثرت فيها المعاني الدينية بشكل ملحوظ ، بسبب ثقافة الشاعر الدينية أولاً ، وإصابة الناس في دينهم ، بهزيمتهم أمام النصرانية ثانياً . وكثرت أيضاً معاني القوة والبطش والفتك ، ذلك لأنّ العصر الذي عاش فيه الشاعر ، كان عصر صراع وحروب ، بين الأندلسيين والصليبيين من جهة ، وبين الأمير الحفصي وأعدائه والناظرين عليه من جهة أخرى .

وطبيعي أن يكثر الشاعر من تكرار المعاني في مدائحه ، فكما أكثر من تكرار الألفاظ ، بسبب كثرة القصائد التي قالها في بني حفص ، ولم يقتصر تكرار المعاني على مدائحه فقط ، بل تعدّى ذلك ، إلى بقية موضوعاته الأخرى . وظاهرة التكرار ، هي من الظواهر التي طبع بها عصر ابن الأبار بشكل واضح .

أما معانيه في الرثاء والشكوى والاستعطاف والفضل . . . ، فهي رقيقة واضحة ، يكثر فيها الشاعر من البكاء والتوجّع والتحسّر ، وبخاصة في الرثاء والشكوى والاستعطاف والفضل ، وغالباً ما تكون في الزهد حقائيق مستمدة من تجاربه وخبراته وثقافته الدينية ، أمّا عن اقتفاء الشاعر لمعاني

عليها الطعلب، فاستولى على نصفها . قال : هذا ينظر لقول أبي عبد الله
ابن الأبار في خسوف : (١)

ألم تر للخسوف وكيف أودى بيد راتم لأمع الضياء
كمرأة جالها الصقل حششي أنارت ثم ردت في غشا

ومحاني ابن الأبار المبتكرة الطريفة ، كثيرة ، وهي مبثوثة في مختلف

أغراضه ، منها قوله : (٢)

والثريا بجانب البدر تعكسي راحة أو ماتت لتطم خذا

وقوله : (٣)

ودت تولد عنه وقد في الرسي لأزاهر ظلمت بها شهبانا

وقوله : (٤)

إن سال طهي في ذراهم سلسلا فالمذب في الأرض الكريمة ينبع

وقوله : (٥)

في وجنته من نعمته جمر بفؤادي موقد

وقوله : (٦)

خلال تجلى بها عصره فحنت إليه المصور الخوالي

والأسطة على ذلك كثيرة .

(١) درة الحجال : ٢٠٨ / ١ .

(٢) نغم الطيب : ٥٩٢ / ٢ .

(٣) مشطولة الديوان : ص ١٥٥ .

(٤) مشطولة الديوان : ص ١٧٦ .

(٥) الوافي بالوفيات : ٣٥٦ / ٣ .

(٦) مشطولة الديوان : ص ١٠٦ .

الأخيلة والصّور :

من العناصر الأساسيّة في العمل الأدبيّ ، الخيال ، والأخيلة .
عنصر مهمّ في رسم الصور ، وهو الملكة التي يستطيع بها الأديب أن
يؤثّر صورهم ، وهم لا يؤلفونها من الهواء ، إنّما يؤلفونها من إحساسات سابقة
لا يحصر لها ، تختزنها عقولهم ، وتظلّ كامنة في مخيلتهم ، حتى يحين الوقت
فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها " (١) .

وتعتبر الصورة وسيلة من وسائل التعبير عن التجربة الشعوريّة ، ومقياسها
هو " قدرتها على نقل الفكرة والمأطفة بأمانة ودقة " (٢) .
ولا بدّ من أن ، تتضافر الصورة مع بقيّة عناصر العمل الأدبيّ ، لينقل التحريّة
المنفعل بها ، ولا يمكن تصور وجود الصورة منفصلة عن المأطفة والخيال ، وإلاّ
فقدت روحها وقوتها في التأثير . (٣)

وإذا كان الأمر كذلك ، فما حظّ ابن الأبار من الصورة الشعريّة ؟
وما نوع صورته ؟ هل هي حسية أم معنويّة ؟ أمبتكرة أم مبتدلة ؟ وهل هي جزئية ،
سريعة ، ضيقة الاطار ، أم كليّة تتشكل من مجموعة صور جزئية ؟ وهل هي سهلة
قريبة الإدراك ، أم بعيدة تحتاج إلى إعمال الذهن ؟ وهل تناسبت مع
المعاني والأفكار العامة فيها أم تافرت ؟ وهل وفقّ الشاعر في إثارة المواطنف
التي يريد ؟ وأخيراً هل وفقّ الشاعر في كلّ صورته ، أم أن بعضها جاء
غير مؤسّق ؟

(١) في النقد الأدبي لشوقي صنيف ص ١٦٧ ، وانظر : أصول النقد الأدبي
لأحمد الشايب ص ٢١٣ .

(٢) أصول النقد الأدبي : ص ٢٥٠ .

(٣) كولردج ، محمد مصطفى بدوي ، ص ١٦٨ .

لقد احتوى شعرا ابن الأبار على نماذج مختلفة من الصور، تمثّل وتبيّن على كلّ التساؤلات السابقة، ففيه صور حسّية، ومعنوية، ومبتكرة ومبتدلة، وجزئية وكليّة، وقريبة وبعيدة الإدراك، وبعضها نجح في تصوير الأفكار والمعاني والحوافظ، وبعضها لم ينجح. وفيما يلي تفصيل وبيان لكل ذلك :

فابن الأبار في قصائده، يختلف اختلافا واضحا عنه في مقطوعاته من حيث الصورة، كما أنّ اختلاف موضوعاته كان يتدخل في نوع الصور التي يأتي بها، ومدى صدقها وملاءمتها، فصوره في قصائده تعتمد عادة على التشبيهات والكنايات والاستعارات التي كان يشكّل منها صورا جزئية. فالمدوح كالشمس في بهائه، والبدر والنجوم والصبح في إشراقه، وكعباء السحب في طهارته وكرمه، وكالبدر في علمه وجوده، وكالأسد في قوته. والخيول كالرماح في احتزازها ونشاطها، والرياح والأعاصير في قوتها، وكالظباء في سرعتها والمعصوبة كالخزلة في جمالها، وكالشمس تارة والبدر تارة أخرى، وعيونها كالنجم، وغداؤها ليل فاحم، وردفها كتيب رمل. وقدّما غصن، ورائحتها مسك

وواضح كيف أنّ الشاعر قد اعتمد على ما قاله من قبل شعراء العرب في تشبيهاته، فهي تشبيهات تقليدية لا أثر للخيال فيها .

ولكنّ الصور الجزئية في قصائده، ليست كلّها خالية من الخيال، ممتدة على التشبيهات التقليدية، فكثير منها، شكله الشاعر وصوره بنفسه. مضمّنا عليه نعمة من الجدة والخيال والجمال، وهي في كثرتها لا تقلّ عن تشبيهاته التقليدية التي استمدّها الشاعر من التراث الشعريّ السابق. ومثل تلك الصور كما أشرنا تظلّ جزئية، تأتي عادة في البيت أو البيتين، ولا تتعدّى ذلك،

إلا نادرا ، فمن ذلك قوله : (١)

أَرَاهُ نَسْنَى مَرَاهُ خِيَّـرةً أَضَحَّتْ مَفَاتِيحُ وَالْأَفَاقُ أَقْـفَالُ

فتصوير آراء المدوح بالمفاتيح ، وآفاق الدنيا بالأقفال ، صورة لا تخلو من الابتكار والطرافة ، عبر فيها الشاعر عن قوة الأمير الحنفي ، وبين أن لا قدرة لأعدا على أن يفعل كفعائله .

وقولسه : (٢)

أَرَدْتُ فِي مَجْبَرِي كَرْدٍ فَكِرْ غِلْظَةً وَشَبِيهُ خَصْرِكَ رِقَّةً جُثْـمَانِي

فقد أشار الشاعر بصورته البديعة إلى صفات أربعة هي : طول هجر المحبوب غلظة ، وعظم زلفها ، ورقة خصرها ، ونحول جسمه لشدة حبسه ، عن طريق تشبيه هجرها بردفها ، وخصرها بجسده ، وهي صورة جميلة مبتكرة .

وقولسه : (٣)

أَنَا فِي دَوَامِهَا مِثْلُهَا فِي حَسَنِهَا تَالَلُمَالِي فِي الْعَلَاقَةِ ثَانِ

فتشبيه علاقته بها في حسننها من حيث التفرد ، صورة لا تخلو من الجمال والابتكار . ومن هذه الصور أيضا قوله : (٤)

يَا شَوْقَ أَعْدَاقِي بِهَا لِحْدَائِقُ تَفْضِي جَدَاوِلَهَا إِلَى غَدْرَانِهَا

كَالْأَمْهَاتِ أَوْتَلَّهَا أَطْفَالُهَا فَرَمَتْ عَلَيْهَا الرَّرْقَنَ قِصَانِهَا

وقولسه : (٥)

وَكَأَنَّمَا الْأَمْدَاحُ فِيهِ مَغَارِقُ بِلِبَاسِهَا قَطَرُ النَّدى تَبِجَانِهَا

(١) مخطوطة الديوان : ص ١١٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٤٤ .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٤٥ .

(٤) المصدر نفسه : ص ٢١٠ .

(٥) المصدر نفسه : ص ١٥٥ .

ويقوله أيضا في الأمير الحفصي : (١)
يلد بأغوار الرواة ثناؤه
وغير ذلك من الأمثلة .

ووجود الصور الجزئية في قصائد ابن الأبار لا يعني انعدام الصور الكلية ، وقد أشرنا إلى بعض هذه الصور الواقعية التي نقلها ابن الأبار كما شاهدناها ، كصورة الجيش الحفصي ، وقد تجهز للخروج للمعركة ، واصطفافه ، وإحاطة الجند بالقائد الذي كان يتوسطهم ، وإحاطة الناس بهم ومسايرتهم لوداعهم في مشهد يبعث الهيبة والرغبة في النفوس ، وكذلك مشهد الأمير الحفصي وقد التقى الناس من حوله معززين موقرين في أحد الأعياد (٢) .

ولكن يبدو أن ميدان ابن الأبار في الصورة الشعرية ، هو فن الوصف ، وبخاصة وصف الطبيعة ، فقد قدم لنا أكثر من لوحة في وصف روضة أو غدير ، تلك اللوحات التي كان عنصر التشخيص من العناصر الأولى في إبرازها ، فهو يشخص منظره الذي يصفه ، ويبعث فيه الحياة ، حتى ليخيل للقارئ وكأنه أمام كائن حي ، وذلك بتشبيهاته المتلاحقة ، وصوره الجزئية التي تشكّل مجموعها لوحة متكاملة ، لا تخلو من حركة أو تشخيص أو لون ، وعودة إلى ما ذكرناه من لوحات في فن الوصف تبين ذلك بكل جلاء .

ولم يقتصر شغف الشاعر بالطبيعة ، بتقديره لوحات لمناظر طبيعية بألوانها وحركاتها وظلالها ، باعتنا فيها الحياة وكأنه رسام بارع . بل نراها مألوفة على الشاعر دنياه ، وماثلة في خياله ، حتى كانت المنبع الذي استقى منه

(١) من أوطاة الديوان : ص ٨٢ .

(٢) انظر ذلك : ص ٢٣٧ ، ٢٤٦ من هذه الدراسة .

الشاعر معظم صورته ، بما فيها من سحب وشجر وأزهار ونجوم وشمس . . . ، وهي
مبتوثة في شعره بشكل كبير وهذه مجموعة من الأمثلة على ذلك :

يقول في الأمير الحفصي : (١)

ألا والله كالبرق عيته الصببا لا يستطيع لنشره كتماننا

ويقول أيضا : (٢)

لين السبايا عطران كمننا هز الرياحين هبوب الرياح

ويقول في صابته : (٣)

أراج لذكرنا فأرد خيفة كما زعزت غصنا بهبتها الصبا

وحتم في الرثاء نجده يقول : (٤)

وعن القلوب تغفأت أضلاعهم فكأنها الأزهار دون كائهم

وهذه من صور ابن الأبار غير الموفقة ، لأن القلوب المتحسرة الدامية ،
إذا ما تغفأت الأضلاع عنها وبانت ، آلت الناظر وأفرغت ، بعكس الصورة فسي
الشاعر الثاني فهي صورة جميلة رقيقة .

ومن صوره الريبة غير الموفقة أيضا قوله : (٥)

وعصابة تغاف رؤوسهم الطيبا قطف البنان أزهار البستان

وواضح التكلف والخرابة في هذه الصورة ، فستان ما بين أناس تقطع رؤوسهم ،
وما بين أزهار تقطف ، فالأولى فيها قسوة وخوف ، والثانية رقة وجمال ، ولا جامع

(١) منطلوطة الديوان : ص ١٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٨ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٣٢ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٢٩ .

(٥) المصدر نفسه : ص ١٤٤ .

وقوله : (١)

انذار إلى الدبران فوق المشتري
فكأنه قد تاب من شمس الضحى

قد ضم أعلاه وفتح أسفله
لغما ، فألقاه عليه يظليله

واذا كانت الطبيعة هي الطبع للشاعر في كثير من صورته ، فإننا نجد
المرأة وصفاتها وما يتصل بها ، يحتل في المقابل جزءا كبيرا من صورته ، فمن
ذلك قوله : (٢)

ولاح لنا نون كما لجل الخد

ويانع رمان كما كعب النهـد

وقوله : (٣)

نظرت إلى البدر عند الخسوف
كما سمرت صفحة للحبيب

وقد شين منظره الأزمن
يحببها يرقع أركـن

والاثنان بصورة المناقض وما فيه من ألم ومشقة ، لتبيان حالة القلق والخوف التي
عاشها أهل البيت ، صورة جديدة لم نألها من قبل ، في قوله : (٤)

وكل سكت فأس وسبته بمد
لقد بات ألولها بليلة ماخض

أم اصطكت كالخافقين له خفقا
ومد عضلت وضعها وما فترت طلعا

ومن قوله كذلك : (٥)

وربما عديقة برزت عروسها
يشق بجدول فيها غد يسر

فتوجهها وطوقها الغمام
كما ينضى على درع حـمام

(١) مشأولة الديوان : ص ٢١٠ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٥٩ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٦٣ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٩٢ .

(٥) عضلت الوالدة وأعضلت : عسر عليها الولادة .

(٦) المصدر نفسه : ص ١٣٩ .

وقد استمد الشاعر صورته في البيت الأخير من واقعه الحربي .
ولما كان العصر الذي عاشه ابن الأبار عصر صراع وحروب ، سواء في بلده الأندلس
أم في تونس ، لذا وجدناه يكثر من الصور الحربية . وقد سبق وأن أشرنا إلى
إحدى صورته المكتملة لمنظر للريح في بستان أبي فهر ، أتى فيه الشاعر بكثير
من أدوات الحرب وما يتصل بها ، من خيول ورماح ودروع ومقدمات وجبان وساحة
قتال ، انتهى ليخيل للقارئ أنها حرب حقيقية (١) .

ومن صورته الجزئية المتأثرة بالبيئة الحربية قوله : (٢)
وَأَرَاهُ بَيْضَ تَمَلٍّ تَوَاطَعُ وَحَدَاؤُهُ سَمَرٌ تَعْدُ شُشُوعُ
وقوله في الفتوحات الحفصية وكثرها : (٣)
أَمَّتْ إِمَامَ الْهَدَى غُرًّا مُحَجَّلَةً كَأَنَّمَا فِي تَبَارِيهَا مَذَاكِيهُ

وإذا كان ابن الأبار قد كرر كثيرا من ألفاظه ومعانيه ، فإن تكراره لبعض
صوره ليس غريبا ، ومن هذا التكرار قوله : (٤)
وَكَأَنَّمَا عِزَمَاتُهُ وَعِدَاتُهُ عَصْفُ الشَّامِ وَقَدْ لَقِينَ سَحَابَا
فقد تكرر بقوله : (٥)
كَأَنَّ كِتَابَهُ الْبَاغِينَ مِيزَنُ وَبِأَسُ الرُّمُضَى عَصْفُ الشَّامِ
وصورة النائم والأزهار ، ماثلة في ذهنه كررها بشكل واضح ، فمن ذلك قوله : (٦)
كَأَنَّ أَرْجَحَهَا زَهْرُ الرُّوَابِي يَمِزُّ ضَاكِكًا جِيبَ الْكَمَامِ
وقوله في الرثاء : (٧)
سَقَى اللَّهَ شَجَرًا أَوْدَعَ الْبِرَّ وَالتَّقَى كَمَا تَوَدُّعُ الْأَزْهَارِ طَيِّبِ الْكَمَامِ

- (١) أنبار : ص ٢٥٠ من هذه الدراسة .
(٢) مغناوطة الديوان : ص ١٧٦ . (٣) الحداء : جمع حدأة وهي نعل السهم .
(٤) مغناوطة الديوان : ص ٢٠٧ . (٥) المصدر نفسه : ص ١٧ .
(٦) المصدر نفسه : ص ١٠٤ . (٧) المصدر نفسه : ص ١٢٥ .
(٨) المصدر نفسه : ص ١٤١ .

وقوله أيضاً : (١)

وعن الخطوب تفتأت أضلاعهم فكأنها الأزهار دون كرائم

أما عن ملائمة صورته للأفكار والمعاني والمواطف، فإنها في معظمها أتت ملائمة ومتناسبة، وبخاصة في غرضي الوصف والشعر الوطني .

يقول في تصوير ما ألم به بعد ضياع وطنه : (٢)

وأسكنني إلى الصبر في إلامها نوباً أودت على عقب السكون بالسكن
كزعزع الريح صلك الدوح عاصفها فلم يدع من جنى فيه ولا غصن
هذا فؤادي كالبرق الخفوق أسى وهذه أدومي كالمعارض الهتن
وأما وأحدا يموت الصبر بينهما موت المحامد بين البخل والجبن

فالأبيات السابقة مشتملة على أكثر من صورة، قصد الشاعر منها تبيان عظم المصيبة التي حلت به، وتصوير ما أصابه، فقال الشاعر كدوح ساكن جميل، أصابه ريح عاصف فحطمه وأزال كل مظاهر جماله، ويقابل الريح العاصف الذي ألم بالدوح، المحن والخطوب التي دهمته، بعد أن كان هاني المييش مطمئن النفس، فحطمت الخطوب كل مظاهر سعادته واطمئنانه، وأودت بهما كما أودت العاصفة بمظاهر جمال الدوح . فالمصيبة إن أَعْظِمة، أتى الشاعر بصورة سلبية مدركة لا تعقيد فيها من الطبيعة التي عشقها، لتصوير ما أصابه بعد مداحة الخطوب، فقد أودت الخطوب بسكنه وبأرضه وبكل مظاهر سعادته، كما أودت العاصفة بالأغصان والثمار وكل مظاهر جمال الدوح . ويستمر الشاعر في تصوير نتائج تلك الخطوب على نفسه، فطلبه كثير الخفقان

(١) مغلاوة الديوان : ص ١٢٩ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

سريع كالبرق - حسرة وألم ، ودموعه منهمة كالمطر الغزير . وأمام تلك الحالسة ،
فقد كُؤن صبره بين التأوهات المتصلة ، فانتهى صبره ومات ، كما توت المحامد
إذا طوّقت بالبخل والجبن .

فالصور التي تضمنتها الأبيات السابقة ، استطاعت نقل المعاني وتصوير الفكرة ،
وتبيان عاطفة الشاعر ، وهي عاطفة الحزن والحسرة والألم .

وهكذا نلاحظ أنّ خيال الشاعر في بعض صوره جزئي بسيط محسوس ، وأن
بعضه تقليدي لا ابتكار فيه ، وبعضه جميل فيه طرافة وجدة .
وقد تجلّت الصورة الشعرية المتكاملة المشكلة من عدة صور جزئية في فن الوصف ،
وبالذات وصف الطبيعة .

هذا بالإضافة إلى بروز أثر الطبيعة والبيئة الحربية في معظم صوره ، كذلك
فإنّ صوره أم تكن موفقة جميعها ، بل جاء بعضها متكيفا لا يتفق مع الكفرة والمعنى
والعاطفة التي يقصد الشاعر ايضاحها ، وإن كان الشاعر قد وفق في معظم
صوره ، ونجح في تبيان الفكرة والمعنى والعاطفة المقصودة . وقد لجأ الشاعر
إلى تكرار بعض صوره ، كما كرر من قبل بعض ألفاظه ومعانيه .

الموسيقى الشعرية :

لا يقلُّ عنصر الموسيقى في الشعر، عن بقية العناصر التي تحدّثنا عنها، فالشعر والموسيقى فنان من الفنون الأدبية، ولكلّ منهما صلة بالآخر، وكلّ منهما سمّي، "مادّة الموسيقى الأصوات، ومادّة الشعر الألفاظ، وهي تتحلّ إلى أصوات" (١) .

وقد تتشكّل موسيقى الشعر بتأثير من الوزن، الذي يدعم فاعليّة الكلمات، ويثوي، وشائج الملاحظات بينها، فيبرزها ويوجّه الانتباه إلى أصواتها (٢) . أو بتأثير من القافية بحسن إيقاعها، أو بتأثير بعض الفنون البديعية كالجناس والتصريح والموازنة (٣)

وليست الموسيقى الشعرية، مقتصرة على الوزن والقافية وبعض الفنون البديعية بل ربّما تشكّلت بتكرار كلمات متقاربة الحروف والنغم، فإنّ "المناسبة بحسن الوزن، ووقع الألفاظ في الأسماع، ومجيء هذا النوع في الشعر، يزيد من موسيقاه، وذلك لأنّ الأصوات التي تتكرّر في حشو البيت، مضافة إلى ما يتكرّر في القافية، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية، متملّدة النغم، مختلفة الألوان، يستمتع بهما من له أدراية بهذا الفن، ويرى فيها المهارة والقدرة الفنيّة" (٤) . وربما تشكّلت موسيقى الشعر، عن طريق اختيار الألفاظ المناسبة للموضوع، ومدى التلاؤم بين حروفها وحركاتها (٥) .

- (١) اندلر : في النقد الأدبي : ص ٩٥ .
- (٢) اندلر : نظرية الأدب لاوستن وارين ، ص ٢٢٥ .
- (٣) اندلر في النقد الأدبي : ص ٩٧ .
- (٤) موسيقى الشعر لابراهيم أنيس، ص ٣٩ .
- (٥) اندلر : قضايا النقد الأدبي والبلاغة لزكي المشاوي ، ص ٢٤٧ .

والناظر في شعر ابن الأبار، يلحظ أنَّ عنصر الموسيقى كان عنصراً أساسياً
يُنْبِئُ إليه، ويحرص على توافره في شعره، ولا يعدم الشاعر وسيلة أو أداة تحدث
الموسيقى المناسبة في شمره إلا ويستخدمها .

وقد رأينا من قبل ولع الشاعر بسائر فنون البديع، التي كانت إحدى أدواته
في إبداعاته موسيقاه، وقد أوردنا مجموعة من الأمثلة على ذلك، وهذه بعض
الأمثلة الأخرى يقول : (١)

كالنَّيْثِ كَقَاً إِنَّ هَبَاءَ كَاللَّيْثِ قَلْباً إِنَّ حَمِيَّ كَالْبَدْرِ وَجْهاً إِنَّ بَدَا
فقد قسَّم الشاعر البيت إلى ثلاثة أقسام متساوية متوازية، وجعل إزاء كل لفظة
في كل فقرة، لفظة توازيها في الفقرة الأخرى، (فالنَّيْثِ) تقابلها (الليث والبدر)
و (كَقَاً) تقابلها (قلباً ووجهاً) و (حَمِيَّ) تقابلها (حَمِيَّ وَبَدَا) ، هذا
بالإضافة إلى ما أحدثه تكرار حرف التشبيه الكاف من أثر موسيقي .
ومن ذلك قوله أيضاً : (٢)

فخزاً عِدَاهَا ، واسترقَّ رقابها وحَمِيَّ حَامَاهَا ، واسترتَّ بهاءها
فقد قسَّم البيت إلى أربعة أقسام، بكل قسمين متساويين متوازيين في ألفاظها وأصواتها ،
(فخزاً عِدَاهَا) تقابل (حَمِيَّ حَامَاهَا) ، و (استرقَّ رقابها) تقابل
(واسترتَّ بلهاءها) ، مع حرصه على إنهاء الفقرات الأربعة بنفس الصوت .

وقد يقسَّم الشاعر البيت إلى قسمين متساويين، كقوله : (٣)
وَسُلَّ عَلَى الْمَادِينِ سَيْفَكَ مَقْدِماً وَسُحَّ عَلَى الْعَافِينَ سَيْبَكَ مُنْعِماً
فقد قسَّم البيت إلى قسمين، وجعل لكل لفظة في الشطر الأول ما يوازيها
صوتياً في الشطر الثاني (فَسُلَّ) توازيها (سُحَّ) و (الماديين) (العافيين)

(١) مخطوطة الديوان : ص ٦٩ . (٢) نفع الطيب : ٤ / ٤٨٢ .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٣٣ .

و (سيفك) (سيك) و (مقدا) (منما) .

وقد يأتي الشاعر بكلمتين متلاحقتين متشابهتين في نغميهما لإحداث
الأثر الموسيقي، كقوله : (١)

هاشاك أن تفتي عشاشتها وقد قصرت عليك نداءها ورجاءها
فقد أتت بـ (نداءها) والحقها بكلمة تشبهها في نغمها وهي (رجاءها) .
والأمثلة على ذلك كثيرة . هذا بالإضافة لما ذكرناه من الجنس، أو تكرار
بـ (ميم) أكثر من مرة في كلمات البيت الواحد ، أو تكرار كلمة أو حرف في
أبيات متلاحقة ، والتزام الشاعر التصريع في كل مطلع قصائده ، وربما في أبيات
أخرى في القصيدة ، أو التزامه التصريع في كل أبيات القصيدة ، وما يحدث كل
ذلك من أثر موسيقي واضح (٢) .

ولقد وفق ابن الأبار في الموسيقى العامة لقصائده ، وهو غير حريص على
إحداث الموسيقى في البيت الواحد فقط ، ولكنه أكثر حرصاً على تشكيل موسيقى
عامة تتناسب مع موضوع القصيدة ككل ، بالألفاظ والحروف المستخدمة المناسبة ،
وربما الموسيقى المناسبة مع كل فكرة أو غرض أو عاطفة في القصيدة .

فلو اشتغلت القصيدة على مدح وغزل وشكوى ، لتبين أن موسيقى كل غرض من
هذه الأغراض الثلاثة يختلف عن الآخر وذلك لإتيانه بالألفاظ المناسبة لكل غرض .

لذا فقد كانت موسيقاه في رثاء وحنينه لوطنه وشكواه من مصائب
الدمار وبؤس حبيبته وهجرها ، شجية حزينة ، وهي عذبة رقيقة في غزله
ووصفه للطبيعة وبعض مدائح ، وهي صاخبة قوية في وصفه للمعارك والحروب ،
وهادئة تسودها نغمة حزينة في زهده . وعودة إلى ما ذكرناه من شعر في

(١) نفع الشيب : ٤ / ٤٨٠ .

(٢) راجع ص ٣٧٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ من هذه الدراسة .

دراستنا الموضوعية تبين ذلك :

يقول مشوقاً لأحبته : (١)

يا أُمِّ لَ وَدِّيْ كَمْ أَرُومُ تَدَانِيماً
إِنْ كَانَ جَسْمِي شَطَّ مِنْ مَثَاكِمُ
هَذِي الْهَوَانِجُ بِالْجَوَى مَلْمُوءَةٌ
لَا تَحْسَبُوا الرِّيحَ السَّمُومَ هِيَ الَّتِي
أَنْفَاسِي الصَّعْدَاءُ ظَكُمُهَا جَهْمًا
منكم ، وداركم تبين وتسنح
فالقلب ثاو بينكم لا ييسر
ما أميل لكم ومّا أجنس
هبت عليكم في الهواجر تطفح
شوق إليكم بالفؤاد مبسح

فقد أتى الشاعر بالألفاظ التي تعبّر عن المصاني التي كانت تدور في نفسه ، من تصوير لشدة شوقه وبعد أحبه ، وأحدث انسجاماً وتلاهما واضحاً بين الألفاظ التي تعبّر عن البعد (تبين ، تنح ، شط) ، والألفاظ التي تصوّر شدة مصانته (الجوى ، شوق ، مبرح ، تطفح ، الهواجر ، الريح السّوم) .
هذا بالإضافة إلى التلاؤم بين أصوات الألفاظ نفسها . وقد استطاع الشاعر تحميل ألفاظه ، أحاسيس وخلجات نفسه ، مشكلاً منها هذا البناء ، الذي أحدثت ألفاظه مجتمعة موسيقى محزنة ، استطاعت أن تكشف عن نفسيّة الشاعر المتألّمة الشاكية .

وربما استعان ابن الأبار إلى جانب أدواته السابقة ، بالبحر العروضي لإحداث الموسيقى المؤثرة ، كاستخدامه بحر (الخبب) في قصيدته التي مطلعها : (٢)
مَرْقُومُ الْحَدِّ مَرَّورُهُ
يَكْسُونِي السُّقْمُ مَجْرَرُهُ
وهذا البحر لا يخلو من سرعة وخفة ورقة ورشاقة ، تحدث أثراً موسيقياً مطرباً (٣) ،
بالإضافة إلى أدوات الشاعر الأخرى في إحداث موسيقاه .

(١) مغلطة الديوان : ص ٤٩ .

(٢) مغلطة الديوان : ص ٦٢ .

(٣) انظر : ميزان الذّهب لأحمد الهاشمي ص ٩٧ ، والوافي في العروض والقوافي

للتبريزي ص ١٩٥ .

وقد يحدد أحياناً إلى قافية بعينها في بعض أغراضه ، كما صنع في معظم قصائد رثائه ، إذ نظمها على قافية الميم . ولا يخفى ما لهذه القافية من أثر في تشكيل الموسيقى المحزنة بتكرارها في أبيات القصيدة . وننبه ، نا ، إلى أننا لا نعني وجود علاقة ثابتة بين الوزن والموضوع أو القافية والموضوع ، ولا توجد حتى الآن دراسة شاملة دقيقة ، تبين مدى العلاقة بين الوزن والقافية من ناحية ، والموضوع من ناحية أخرى ، وإن كان بمسح التذمّاء قد نبّهوا إلى أنّه ينبغي أن يختص كل بحر وقافية بما يناسبهما من الأغراض . وفي ذلك يقول ابن طبطب : " فساداً أراد الشعراء بناء قصيدة ، من معنى الذي يريد بناء الشعر عليه ، والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلس له القول عليه " (١) .

وقد حاول بعض المحدثين في مقابل ذلك ، نفي العلاقة بين الموضوع والوزن والقافية (٢) .

والحق أنّ الشعراء لم يلزموا أنفسهم ببحر معين أو قافية معينة مختصة بموضوع معين . فقد نظموا أشعارهم في أوزان شعرية متباينة ، دون أن يقصروا غرضنا ما على بحر أو قافية بذاتها . ولكن التذمّاء تبيّنها إلى أنّ بعض البحور قد كثرت ورائها في الشعر أكثر من غيرها ، يقول حازم القرطاجني : " ومن تتبع كلام الشعراء في جميع الأعراس . . . وجد الافتتان في بعضها أعمّ من بعض ، فأعلاما درجة في ذلك الطويل والبسيط ، ويطلوهما الوافر والكامل ومجال الشاعر في الكامل أفسح منه في غيره ، ويطلو الوافر والكامل عند

(١) عيار الشعر : ص ٥ .

(٢) انظر : في النقد الأدبي ، ص ١٥٢ ، وموسيقى الشعر ص ١٧٦ .

بعض الناس الخفيف : فأما المديد والرمل ففيهما لين وضعف ، فأما المنسرح ، ففي
الطراد الكلام عليه بعض اضطراب وتقلقل ، وإن كان الكلام فيه جزلا ، فأما السريع
والرجز ففيهما كزازة ، فأما المتقارب فالكلام فيه حسن الاطراد . . . (١) .

والناظر في شعر ابن الأبار ، يبين له أن البحور التي نظم عليها
شعره ، مرتبة حسب كثرتها ، هي : الطويل ، والكامل ، والوافر ، والبسيط
والرمل والخفيف ، وصخلع البسيط ، والسريع ، والرجز والمديد ، ومجزوء الوافر ، والكامل
والمتقارب ، ومجزوء الوافر ، والمجث ، والخيب ، والمنسرح .
وقد شككت البحور الأربعة الأولى ما يوازي ثلثي شعره تقريبا ، وهو بهذا
يساير الشعراء العرب الذين أكثروا من النظم على هذه البحور ، ويساير
شعراء عصره أيضا . (٢)

وهذه البحور أيضا من البحور الطويلة ، وهي أكثر ملائمة : لأغراض الشعر ،
لأنها كانت في أمور جدية كالمدح والثناء والزهدي ، وأخرى مصيرية كشعره الوطني ،
وهي أكثر قدرة على تصوير الممارك ووصفها ، وأقدر على حمل همومه وأحزانها .

وغيا يختص ببحر الخيب ، فعلى الرغم من أن القرطاجني صديق ابن الأبار
يقول فيه " والذي يشك في وضع العرب له الخيب " (٣) ، إلا أن ابن الأبار استخدمه
في شعره . ويذكر المراكشي ، أن هذا البحر استخدم لأول مرة في الأندلس
في عصر الموحدين في قصيدة مدح بها أبو يوسف يعقوب بن يوسف عند
رجوعه منتصرا من وقعة الإرك سنة ٥٩١ هـ . (٤)

(١) انظر : منهاج البلغاء : ص ٢٢٨ .

(٢) الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٣٥٢ .

(٣) منهاج البلغاء : ص ٢٤٣ .

(٤) اندلس : المصحب ص ٣٧٠ ، وانظر وقعة الإرك ص ٣ من هذه

الدراسة . أما مطلع قصيدة المدح فهو :

حيثك معطرة النفس
نفحات الفتح بأندلس

أما قوافي الشعر، فقد نظم الشاعر شعره على كل حروف المعجم، باستثناء الهاء والزاي والطاء، ونستطيع ترتيبها حسب كثرتها بالشكل التالي :

الذال ، والباء ، والراء ، والنون ، والميم ، واللام ، والهمزة ، والحاء ، والميم ، والقاف ، والصاد ، والهاء ، والميم ، والجيم ، والفين ، والسين ، والفاء ، والراء ، والذال ، والضاد ، والتاء ، والثاء ، والذال ، والشين ، والطاء .

وقد استلقت القوافي الستة الأولى ما يساوي ثلثي شعره تقريبا ، وأربعة منها هي من القوافي البذل التي كثرت ورائها في الشعر العربي (١) .

وبهذا يكون ابن الأبار ، قد اتفق مع الشعراء العرب في أوزانهم وقوافيهم ، فكان معظم شعره على البحور والقوافي التي كثر استعمالها في الشعر العربي .

(١) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب لمبد الله الطيّب ١ / ٤٦ .

الاعتناء والتقليد :

لقد أشرنا فيما سبق إلى عمق ثقافة ابن الأبار وسمتها في مختلف فنون العلم، ومن بينها فن الأدب، الذي تتلمذ فيه ابن الأبار على أكثر من شاعر .

ولا شك أنّ ابن الأبار قد اطلع على معظم التراث الشعريّ في المغرب والمشرق، يدلّ على ذلك تراثه الشعريّ الذي خلفه ، وترجمته لكثير من شعراء الأندلس في كتبه ، وتضمنها أشعاراً لهم ، وإصدار بعض الأحكام النقدية على شعرهم أحياناً، وكذلك تضمينه أشعاراً كثيرة في كتابه " درر السّمت " ، لكثير من شعراء المشرق كالنابغة الذبياني وأبي فراس الحمداني ، والنايفه الجعدي ، وأبي الحنيفة ، والعميطي ، وأبي الملاء الممرى ، وعنترة وغيرهم . وقد أكثر من تضمين أبيات للمتنبي وأبي تمام في كتابه بشكل خاص .

وراميني أنّ يتأثر الشاعر ببعض ما يدرسه ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، وطبعي أيضاً أن يتفاوت مدى تأثره بالشعر الذي يدرسه ، فيخفت ويضيق في أحيان ، ويكون على شكل ومضات تتداعى إلى ذهن الشاعر بقصد أو بدون قصد منه . وقد يزداد ويتسع في أحيان أخرى ليصل إلى حد الدراسة الواعية والاحتراف المقصود ، وكأنّ الشاعر كان يتمثل شعر من يقلّد أو بعضاً منه تمثلاً عميقاً بمد هضمه ودراسته دراسة دقيقة ، فيكون التشابه كبيراً ، والتقليد واضحاً ، والملاحج بارزة .

فمن الصّنف الأول على سبيل المثال : تقليده لأمراء القيس وعمر بن أبي ربيعة في القصّة الغزلية ، وكذلك تقليده لقصيدة أبي الحسن الحصري في

- يحررها وقافيتها التي مطلعها : (١)
يا ليل الصَّبِّ من غَدُّه أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
- في قصيدته التي مطلعها : (٢)
مَرْقُومُ الخَنْدِ مَوْرِدُهُ يَكْسُونِي السَّقْمُ مَجْرِدُهُ
- وقد تتوارد إلى ذهن الشاعر صورة بعينها ، أو معنى بعينه لشاعر اطلَّع على شعره ، فيضمنها في شعره ، كصورة الفراش الحائم حول النار والمحتسرق بها ، لبيان شدة حبه وكفه ، في قوله : (٣)
كَأَنَّ ظِلِّي فَرَّاشٌ فِي تَقَعُّمِهِ نَارًا ، لَهَا بِأَكْفُ الْغَيْدِ إِشْعَالُ
- وهي صورة شبيهة بقول ابن سهل : (٤)
إِنَّ نَوَادِي فَرَّاشٍ شَوْكُكُمْ صَادَفَ نَارَ الْفَرَامِ فَاحْتَرَقَا
- وكذلك تصوير خفقان الرايات ، بخفقان قلوب الأعداء ، لإظهار مدى هلمهم وغوهم ، في قول ابن الزقاق : (٥)
رَايَاتُهُ وَالنَّصْرُ مَعْقُودٌ بِهِمَا كَقُلُوبِ أَهْلِ الشَّرِكِ فِي الْخَفْقَانِ
- فقد أوردنا ابن الأبار وزاد عليها خفقان أجنحة الطيور : (٦)
وَرَايَاتُ الْأَنْدَلُسِ الْأَعْلَى إِذَا خَفَقَتْ وَأَجْنَحَةُ الطُّيُورِ
- وقد يسلخ الشاعر بيتاً لشاعر آخر بمعناه ومعظم ألفاظه ، كقوله : (٧)
وَمَا هُمْ وَلَا الْبُلْدَانُ إِلَّا وَدَائِعُ وَعَمَّا قَرِيبٍ تَسْتَرِدُّ الْوَدَائِعُ

-
- (١) وغياب الأعيان : ٣٣٢/٣ ، وانظر ترجمة الحصري في المكان نفسه .
(٢) مثنأولة الديوان : ص ٦٢ .
(٣) المصدر نفسه : ص ١١٦ .
(٤) ديوان ابن سهل : ص ٢٥٣ .
(٥) ديوان ابن الزقاق : ص ٢٣٦ .
(٦) مخطوطة الديوان : ص ٨٥ .
(٧) المصدر نفسه : ص ١٨٠ .

فقد سلخه الشاعر من بيت لبيد بن ربيعة في رثاء أخيه : (١)
وما المأل والأهلون إلا ودائعُ ولا بُدَّ يوماً أن تردَّ الودائعُ

وليس مثل هذا النوع من التأثر الجزئي في شعر ابن الأبار الذي لا يصد فيه إلى التركيز على شاعر بعينه ما يلفت النظر ، ولكن الذي يلفت النظر ، التقليد الواعي وترسُّم خطى بعض الشعراء بشكل مدروس ومقصود . وقد برز هذا التأثر بشاعرين كبيرين من شعراء المشرق هما : أبو تمام والمتنبي .

فقد ضمن الشاعر في شعره بعض أشعارهما ، كما أنه أشار إليهما إشارة توحى باعجاب وتعظيم لهما ولشعرهما ، باعتبارهما إمامين كبيرين من أئمة الشعر .

يقول في إحدى قصائد مدحه للأمير الحفصي : (٢)

علي بال أبي حفص يُعلمني مدائح ابن حسين آل حمدنا
ويشير إلى أبي تمام في قصيدة رثاء لأبي زكرياء ، وتهنئة المستنصر بالخلافة ،

مضمناً قصيدته بيتاً من شعر أبي تمام ، بقوله : (٣)

كنتُ المظليل مهنئاً وممسزياً لكن كفايتها أبو تمام
لا تلك الرزية لا رزية مثلهما والقسم ليس كسائر الأقسام (٤)

فهاتان الإشارتان ، توحيان بعظم المنزلة التي احتلها الشاعر اعران في نفس ابن الأبار ، ومدائح المتنبي ، هي الضوء الذي ينير دربه في مدح بني حفص .
هي المثل الأعلى الذي يحتذى به الشاعر محاولاً الوصول إليه ، وكذلك الحال بالنسبة لأبي تمام .

(١) شرح ديوان لبيد بن ربيعة : ص ١٢٠ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٥٤ .

(٣) مخطوطة الديوان : ص ١٢٩ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ص ٥٢١ .

وعلی الرغم من إشارة الشاعرة إلى قیمة هذين الشاعرين في نفسه ، إلا أننا لا نستطيع الحكم على تقلیده لهما . وتأثره بهما ، ما لم نورد مجموعة من الأمثلة التي تبين بشكل جلي اقتباسه بشكل متمم لكثير من الفاظ وصور ومخاني وتراكيب شعريهما ، والجو العام لبعض قصائدهما ، وكأن الشاعرة قد دهم شعريهما ، وتمثله تمثلاً واعياً .

وهذه بعض الشواهد العامة للتأثر :

يقول أبو تمام : (١)

أَرْضُ سَلَمَتِ اللَّهْوِ خَلَمِي خَاتَمِي فيها ، وطلعتُ السُّرُورَ ثلاثاً
وصورة طلائع مسرات الأيام ثلاثاً ، كررها ابن الأبار في رثائه لأبي زكرياء بقوله : (٢)
بينني ثلاثاً سُلُوةً أَيْسَافاً أودى الحمامُ بناصر الإسلام
وتشبيه الأعداء بالشياطين ، ورجعهم بنجوم القفا في قول أبي تمام (٣) .
وَلَمَّ شَيْءٌ مِنْهُمْ عَنْ حَدِّ مَلْحَمَةٍ كانت نجومُ القفا فيها لهم زُجْماً
كررها ابن الأبار بقوله : (٤)
أَطْلُ عَلَى الدُّنْيَا هُدَاهُ وَقَدْ غَدَّتْ وراحتُ شياطينُ الفؤايةِ نَزْغاً
فَاتَّبَعَهَا شُهْباً نَوَاقِبَ بِالْقَسَى تُحَرِّقُهَا حَتَّى فُشَا وَتُخَشِّفُهَا (٥)
ومن الصور التي قلدها أيضاً ، عجز شعلان عن تحمل ما يتحمله اندسوح أو الشاعر نفسه ، في قول أبي تمام : (٦)
حَمَّالٌ مَالَوْعِلٌ أَصْفَرُهُ عَلَى شعلان لانهدأت ذرى شعلان

(١) شرح ديوان أبي تمام : ص ١٣٤ . (٢) مخطوطة الديوان : ص ١٢٦ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ص ٤٩٩ .

(٤) مخطوطة الديوان : ص ١٨٤ .

(٥) تفصيح : انتشر ، وهذه الصورة مأخوذة من الآية القرآنية :

" ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوما للشياطين ، واعتدنا

لهم عذاب السَّعِير " الملك (٥)

(٦) شرح ديوان أبي تمام : ص ٧١١ .

- ويقول ابن الأبار : (١)
لو أن شهلانا تعمل بعض ما
جئت، خرت ذرى شهلان
وجيش الرعب الذي يتقدم المدح في بيت أبي تمام : (٢)
لم يخنز قوماً ولم ينهض إلى بلد
إلا تقدمه جيش من الرعب
يشير إليه ابن الأبار بقوله : (٣)
تلقها رعباً ورعباً مخامراً
فرسل على حكم الضنى ورسائل
واقران الفراق بالموت، وعدم القدرة على تحمله في قول أبي تمام : (٤)
الموت عندي والفرا
استغده الشاعر بقوله : (٥)
ويهن ذلك للفراق وطعمه
وصورة الأمر الجيد الذي يبين كالتجوم في الظلمة والشدّة في قول ابن الأبار : (٦)
رعى الله دهرًا خول الأمن والضنى
أيادي لاحت في دجى الممر أنجما
تشبه إلى مدد كبير قول أبي تمام في المدح : (٧)
وساعدت تحت البيات فسوارس
تخالهم في فحمة الليل أنجما
والتأكيد للمعبوبة على أن القلب معها وإن القلب معهما وإن قول أبي تمام : (٨)
يا منى النفس إن قلبي وإن با
ن بى البين عندكم حيث كنتم

- (١) مخطوطة الديوان : ص ١٦٤ .
(٢) شرح ديوان أبي تمام : ص ٢٧ .
(٣) مخطوطة الديوان : ص ١١١ .
(٤) شرح ديوان أبي تمام ص ٧٥٧ .
(٥) مخطوطة الديوان : ص ١٦٤ .
(٦) المصدر نفسه : ص ١٣١ .
(٧) شرح ديوان أبي تمام ص ٥٤٥ .
(٨) المصدر نفسه ص ٧٧٤ .

يشبهه إلى حد كبير قول ابن الأبار : (١)
 إِنَّ تَأَنَ بَيْسِي شَطَّ مِنْ مَثَاكُمُ فَاَلْقَبُ ثَاوِ بَيْنَكُمُ لَا يَبْسُرُ
 وقد يستعير الشاعر شطراً من بيت مَنْ يقلده ، فيضمه في شعره ، كقوله : (٢)
 من راح بالبيض النواعم هايمها لم يندُ للسعر الذَّوابلِ هايمها
 فالشطر الاول من البيت ، استعاره ابن الأبار من بيت أبي تمام مع تفسير
 واضح في بعض كلماته : (٣)
 وَمَنْ كَانَ بِالْبَيْضِ الْكَوَاعِبُ مُفْرَمًا فَمَا زِلْتُ بِالْبَيْضِ الْقَوَاضِبُ مُفْرَمًا
 وتبادل الشعر بالمطامير ، بين المادح والمدوح في قول أبي تمام : (٤)
 فَالْبُسْنِي مِنْ أُمَّهَاتِ تِلَادِهِ (٥) وَأَلْبَسْتُهُ مِنْ أُمَّهَاتِ قَلَائِدِي
 استندمه ابن الأبار بعينه في قوله : (٦)
 فَمَا أَيْهَا مَنْهُ فِي حَبَاءِ مَنْشَرٍ وَمَا هُوَ مِنِّي فِي ثَاءِ مَنْظَرٍ
 أما تأييد الله للمدوح ، واختياره خليفة له في قول أبي تمام : (٧)
 جَمَلَ الْخَلَاةِ فِيهِ رَبُّ قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ لِلشَّيْءِ " كُنْ فَيَكُونُ "
 فقد رثى عليه ابن الأبار في شعره بشكل واضح ، كقوله : (٨)
 خَلَاةُ اللَّهِ فِيهِ قَسِيرَتٌ وَأَمْرُهُ عِنْدَهُ اطْمَأْنَنَتٌ

-
- (١) مغالطة الديوان : ص ٤٩ . (٢) المصدر نفسه : ص ١٦ .
 (٣) شرح ديوان أبي تمام : ص ٥٤٣ .
 (٤) المصدر نفسه : ص ١٨٨ .
 (٥) التلاد : المال الأصلي القديم .
 (٦) مخطوطة الديوان : ص ١٤٢ .
 (٧) شرح ديوان أبي تمام : ص ٦٠٦ .
 (٨) مخطوطة الديوان : ص ١٤٩ .

وقد يحبب الشاعر بتقسيم بيت أو بموسيقاه ، كقوله : (١)
 للحقِّ ممتنعٌ ، في الله مرتفعٌ (٢) بالله منتصرٌ ، لله متصفٌ
 فهو شبهه بقول أبي تمام : (٣)
 تدبيرٌ محتصمٌ ، بالله منقضمٌ
 لله مرتقبٌ ، في الله مرتفبٌ
 ولم يزل تأثر ابن الأبار بالمتنبي عنه في أبي تمام ، وهذه شواهد عامة على ذلك .

يقول ابن الأبار في مدوحه : (٤)
 هو واحدٌ الدنيا ومن لم يرضه
 فليأت في الدنيا له بمشالٍ
 وهذا شبهه إلى حد كبير بقول المتنبي : (٥)
 إلى واحدٍ الدنيا إلى ابن محمدٍ
 شجاع (٦) الذي لله ، ثم له الفضلُ
 وقول ابن الأبار أيضا : (٧)
 من شامَ برق جبينه في أزمنةٍ
 أثرى بغير سماعه الهطالِ
 شبهه بقول المتنبي : (٨)
 فما بغير شامَ برقك فاقسه
 ولا في بلادٍ أرت صبيها محالٍ
 وتدريب بيت المال لشدة كرم المدوح في بيت ابن الأبار : (٩)
 تخريب بيت المال عادةٌ جوده
 وحصانة العلواء في تخريبه
 موجود في شعر المتنبي أيضا ، إذ يقول : (١٠)
 طاك إذا امتألت مالا خزائنه
 أذاقها طعم شكل الأم للولسدر

-
- (١) منظومة الديوان : ص ١٨٧ . (٢) رمض للأمر : احترف له غيظا ،
 (٣) شرح ديوان أبي تمام : ص ٢٧ . وارتمضي من كذا : اشتد عليه وأقلقه .
 (٤) منظومة الديوان ص ١٢١ . (٥) النعرف الطيب في شرح ديوان
 (٦) هو شجاع بن محمد الطائي المنبجي . أبي الطيب المتنبي ، ص ٣٩ .
 (٧) منظومة الديوان : ص ١٢١ . (٨) النعرف الطيب : ص ٤١ .
 (٩) منظومة الديوان ص ٢٢ . (١٠) النعرف الطيب : ص ٥٩ .

واستعياء السحب من كرم المدوح ، في قول ابن الأبار: (١)
وما ساء ليت يده نسيده إلا تبين في الحيا منه الحياء
لها ما يشبهها في قول المتنبي (٢) :
فلم نر قبل ابن الحسين أصابماً إذا ما هطلن استحييت الدائم الوطف
وقول ابن الأبار مفضلاً مدوحه على من سبقه في قوله: (٤)
أمضى من الماضين عزماً صادقاً يستقصر المنصور والساقحاً
له ما يماثله في شعر المتنبي ، إذ يقول: (٥)
ليت المدائح تستوفي مناقبه فما كليب وأهل الأعصر الأول .
وكذلك سرور المدوح في ساعة المعركة في قول ابن الأبار: (٦)
وأكثر ما نطقه جذلان ضاحكاً إذا ما بكى الخطي في كفه دماً
له ما يشابهه في قول المتنبي: (٧)
يلقى الوغى والقنا والنازلات به وقوا ، ابن الأبار في الرثاء: (٨)
كم يافع المبيض العرمم دونه لو أن شيئاً للحمام دَفُوعُ
شبيه إلى حد كبير بقول المتنبي: (٩)
ما زلت تدفع كل أمر فساد حتى أتى الأمر الذي لا يدفع

-
- (١) مخطوطة الديوان : ص ٩ . (٢) المرف الطيب : ص ١٠٣ .
والودف جمع وطفاء وهي المسترخية الجوانب ، وابن الحسين هو أحمد
بن الحسين القاضي المالكي .
(٣) مخطوطة الديوان : ص ٤٢ . (٤) المرف الطيب : ص ٣٥١ .
(٥) مخطوطة الديوان : ص ٤٣٢ . (٦) المرف الطيب : ص ١٨٧ .
(٧) مخطوطة الديوان : ص ١٧٨ . (٨) المرف الطيب : ص ٥٣٤ .
(٩) المصدر نفسه : ص ٣٨٤ .

- وذلة ملوك الأرض للسندوح في قول المتنبّي : (١)
تألّ ملوك الأرض خاشعة لهُ تفارقه حلكي وثلقاء سُجُودا
ركز عليها ابن الأبار في شعره بقوله : (٢)
إنّ شجر الدنيا به وملكه فملوكها خول له وصنائع
وقد يتأثر الشاعر بتقسيم بيت معين وبموسيقاه ، كقوله : (٣)
المد لله لا أهل ولا ولسند ولا قرار ولا صبر ولا جلسند
فهو شبيه بشكل واضح بقول المتنبّي : (٤)
بم التحلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكين
وربما تأثر ابن الأبار بشطر معين في أحد الأبيات ، كما في قوله : (٥)
سيف الهدى أودى به سيف الردى قد يفتك الصمام بالصمام
فالشار الثاني من البيت السابق تأثر فيه الشاعر كما يبدو ببيت المتنبّي
الذي يقول : (٦)
عيب طيك ترى بسيف في الوغى ما يصنع الصمام بالصمام

ولم يقتصر تأثر ابن الأبار بأبي تمام والمتنبّي ، ببعض الصور والمعاني
في أبيات متناثرة في شعره بل ربما تعدّى ذلك إلى احتذاء* وتأثر بقصيدة
محنة بشكل عام ، في موضوعها وبعض معانيها ، وألفاظها وقافيتها وبحرها ،

-
- (١) العرف الطيب : ص ٣٨٤ .
(٢) مخطوطة الديوان ، ص ١٧٨ .
(٣) المصدر نفسه : ص ٧٤ .
(٤) العرف الطيب : ص ٥٠٨ .
(٥) مخطوطة الديوان : ص ١٢٧ .
(٦) العرف الطيب ، ص ٤٥٤ .

كما هو الحال في قصيدته في رثاء شيخه الكلاعي ، التي برز فيها تأثره بشكسل
واضح بتقصيدتين من قصائد الرثاء عند أبي تمام ، مطلع الأولى : (١)
لَفَنَّا وَصَرْفُ الدَّهْرِ لَيْسَ بِنَائِمٍ خُزْنًا لَهُ قَسْرٌ بِغَيْرِ خَزَائِمٍ
ومطلع الثانية : (٢)
أَمَّا لِي لَنْ أَعَزَّ أَعْلَامُ حَالِمٍ وَمَهْمَا يَدُ فَا لَوْجَدُ لَيْسَ بِدَائِمٍ
فالقصيدتان تشتركان مع قصيدة ابن الأبار في الموضوع وهو الرثاء ، وكذلك
في اليمع والقفية . وبالإضافة إلى ذلك فهذه لبعض الأمثلة على تأثره
بالقصيدة الأولى .

يقول ابن الأبار : (٣)
أَلَمَّا بِأَمْلَاءِ الْمَلَا وَالْمَكْنَامِ تَقْدُّ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالصَّوَارِمِ
وهذا المطلع شبيه بقول أبي تمام : (٤)
أَلَمَّا فَهَذَا مِصْرُ الْبَاسِ وَالنَّسْدِ وَحَسْبُ الْبُكَاءِ أَنْ قَلَتْ مِصْرُ هَاشِمٍ
وقول ابن الأبار : (٥)
وعوجا عليها مأرباً وحفصاً وشبهه أيضاً بقول أبي تمام : (٦)
فَلَا تَطْلُبُوا أَسْمَاءَهُمْ فِي جَفُونِهَا فَقَدْ أَسْكَنْتُ بَيْنَ الطَّلَى وَالْجَمَامِ
واستعارة ابن الأبار لبعض ألفاظ أبي تمام واقتباسه لبعض معانيه وإلباسها لباساً
جديداً يدلهر في قوله : (٧)
بَعِثْكَ طَارِحْنِي الْحَدِيثَ عَنِ النَّبِيِّ أَرَأَيْتُ فِيهَا بِالدُّمُوعِ السَّوَاغِمِ

٥٥٥٥٥

- (١) شرح ديوان أبي تمام ص ٧٠١ ، والخزائم مثل الحلقة التي توضع في أنف البعير .
(٢) المصدر نفسه ٥٥٨ . (٣) الذيل والتكلمة ، السفر الرابع ص ٩٠ .
(٤) شرح ديوان أبي تمام : ص ٧٠١ . (٥) الذيل والتكلمة ، السفر الرابع ص ٩٠ .
(٦) شرح ديوان أبي تمام : ص ٧٠٤ . والطلَى : الأعناق .
(٧) الذيل والتكلمة ، السفر الرابع : ص ٩١ ، ٩٠ ، ٩٣ .

عظائم رامودنا فحاضوا لنيلها
ولا روع يشيهم صدور المعظائم
٥٥٥٥٥
بحيد مداه لا يشق غباره
إذا فاه فاض السحر ضربة لازم
وقد تأثر الشاعر بأبيات السابقة بأبيات أبي تمام : (١)
خليل من بعد الأسى والجوى قفا
ولا تنققا فيض الدموع السواجم
٥٥٥٥٥
وما نابة فاتت به بعظيمه
ولكنها من أمهات المعظائم
٥٥٥٥٥
أهلهم صار الدمع ضربة لازم
وما كان لولا أنت ضربة لازم
ومن أمثلة التثنية في القصيدة الثانية قول ابن الأبار : (٢)
يمان كلاعي نماء إلى الملا
تمام حواه قبل عقد التمام
٥٥٥٥٥
وسامت فيها الباقيات نواديسا
يورق تحت الليل ورق الحمايم
٥٥٥٥٥٥
ولو برد السلوان حر جوانحي
لاثرت عن طوع سلو البهائم
فقد استعار ابن الأبار في أبياته السابقة بعض الألفاظ من أبيات أبي تمام
التالية : (٣)
وإن ظك مفبوعا بأبيض لم يكن
يشد على جدواه عقد التمام
٥٥٥٥٥
شجا الريح فازدادت حنينا لفقد
وأحدث شجوا في بكاء الحمايم
٥٥٥٥٥٥

(١) شرح ديوان أبي تمام : ص ٧٠١ ، ٧٠٤ ، ٧٠٣ .

(٢) الذيل والتكملة ، السفر الرابع ، ص ٩٣ ، ٩٢ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ والأبيض الإنسان الحر ،
وجدواه : عطاؤه .

أَتَصْبِرُ الْمَلُوءَ عِزَاءً وَحَسْبِيَّةً فَتَوَجَّرُ، أَمْ تَسْلُو سَلَوَ الْبَهَائِمِ

ومن القصائد التي تأثر ابن الأبار بنهجها العام ، وبعض معانيها
وضَّح في نهاية قصيدته بأعجابه بها ، قصيدة أبي تمام في رثاء المعتصم
وتهنئة الواثق ، بالخلافة ، ومظلمها : (١)

مَا لِلدَّمْعِ تَرَوُّمٌ كُلَّ مَسْرَامٍ وَالْجَفْنُ تَاكُلُ هَجْعَةً وَمَسَامٍ
فقد وجد ابن الأبار فيها مثلاً يحتذى ، في قصيدة رثائه لإبي زكرياء وتهنئة
المستنصر بالخلافة ، ومظلمها : (٢)

بَيْنِي ثَلَاثًا سَلَوَةُ الْأَيْسَامِ أَوْدَى الْحَمَامُ بِنَاصِرِ الْإِسْلَامِ
فالقصيدتان متشابهتان . في البحر والقافية والموضوع وبعض المعاني بالإضافة
إلى أنهما قد قسمتا إلى قسمين بارزين :

القسم الأول : رثاء الخليفة الراحل وإظهار شدة البكاء والحزن على فقده ، وتمتدح
لبعض فضائله .

والقسم الثاني : مدح الخليفة الجديد وتقديمه للناس حاكماً جديراً بالخلافة
وأولادها .

ومن الجدير بالذكر أن ابن الأبار قد أطال في قصيدته كما أطال أبو تمام ، فقد
بلغت قصيدته ثمانية وخمسين بيتاً ، في حين بلغت قصيدة أبي تمام : اثنين
وخمسين بيتاً .

ونالك مجموعة من قصائده ، تأثر فيها الشاعر بقصائد مميّنة لأبي تمام أو المتبني ،
في بحرنا وقافيتها ، وكان يحرض على أن ينهي أبيات قصيدته بكلمات استخدمها
أبو تمام أو المتبني في نهايات أبيات قصيدته ، مما يشمر أنه كان يتمثل بمضمون

(١) شرح ديوان أبي تمام : ص ٥٢٠ .

(٢) مخطوطة الديوان : ص ١٢٦ .

قصائد، هما يومي، مسبق فينظم على ضوالها ، وإن كان موضوع القصيدتين قد يكون مختلفا ، وكذلك معنى الأبيات ، وقد أحصيت له مجموعة من القصائد في ذلك (١)

والأمثلة التي تبين تقليد ابن الأبار لهذين الشاعرين كثيرة ، وقد أحصيت منها مجموعة كبيرة ، ولكن حسبنا ما قدمنا .

وبالإضافة إلى ما ذكرناه من شواهد تبين تأثر الشاعر بأبي تمام والمتنبي ، فإن هناك بعض السمات التي اشتهر بها الشاعران وأكثر ابن الأبار من التركيز عليها كتركيزه على وصف الخيول المحاربة في قصائده الحربية (٢) وهجائه لأعداء الصدوق ، والاستهزاء بهم ، وهما سمتان بارزتان في شعر المتنبي خاصة .

وكذلك التركيز على شخصية القائد المسلم ، وهو في ذلك أقرب إلى أبي تمام ، لأن قصيدة أبي تمام الحربية ترتبط بالقائد أكثر من ارتباطها بالجيش عامة (٣) .

وكذلك إسقاط ابن الأبار للمقدمة الفُزْلِيَّة في معظم قصائده وبخاصة الدرمية ، وهي سمة لازمت معظم قصائد المتنبي الحربية . ومن السمات أيضا : استخدام ابن الأبار ألفاظ الحرب في الفُزْل ، والفُزْل في العرب ، وهي من السمات التي كان المتنبي من السابقين إليها .

-
- (١) انظر الأولى والثانية والثالثة في مخطوطة الديوان (ص ٣٤ ، ٣٥) ، (ص ٢١٦ - ٢١٩) (١٣٠ - ١٣٣) ومثيلاتها في : شرح ديوان أبي تمام (ص ١٣٩ - ١٤٣) و (ص ٦٢٦ - ٦٣١) ، (ص ٥٤١ - ٥٤٩) . ومخطوطة الديوان أيضا (ص ٧٥ - ٧٧) و (١٣٤ - ١٣٩) و (١١٦ - ١١٩) ومثيلاتها في الصرف الطيب (ص ٦٤ ، ٦٥) و (ص ٢١٨ - ٢٢٢) ، (ص ٥٢٥ - ٥٣١) .
- (٢) الحمدة : ٢٢٩ / ١ . (٣) شعر الصراع لنصرت عبد الرحمن ٣٢٩ .

ومنها أيضا مخاطبة ابن الأبار المدوح بمثل مخاطبة المحبوب والصديق
للتأكيد على صدق مدحه كقوله : (١)
يقولون ما أضناه أظت أحبهم
هو الفرة الفراء صيرني مضي

وقوله : (٢)
أذوب إذا أُعجب عنه شوقا
فكيف به إذا أرف الرحيل ؟
وهي سمة أكثر المتنبي من استخدامها في شعره (٣) .

ومن السمات أيضا : عنصر الفخامة والقوة في قصائده الحربية ، وهي من السمات
البارزة في شعر المتنبي الحربي أيضا .

ويجد الاستمرار السابق ، يجوز لنا أن نتساءل : ما السر الذي دعا
ابن الأبار إلى . اقتفاء أثر هذين الشاعرين على وجه التحديد ، بشكل واع
ومدروس ؟ .

لا يستطيع الباحث تحديد سبب بعينه ، ولكن ربما تجمعت وتضافرت
الأسباب التالية فأدت إلى تأثر الشاعر بأبي تمام والمتنبي خاصة وهي :
١ . اهتمام الأندلسيين بانتاج المشاركة بشكل عام ، وبشعر أبي تمام
والمتنبي بشكل خاص ، ونقل شعريهما وذيوعه (٤) بين الأندلسيين ،
ومحاولة تقليد هما في كثير من معانيهما وأغراضهما .
٢ . كثرة وشهرة شعر أبي تمام والمتنبي الحربي ، الذي تناول حروب المسلمين
مع الروم ، وسجل الكثير من الملاحم البطولية التي خاضها المسلمون ،
فهما من أبرز الشعراء الذين اهتموا اهتماما واضحا بالشعر الحربي

(١) . مخطوطة الديوان : ص ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٢٠ .

(٣) يتيمة الدهر : ١ / ١٩١ .

(٤) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، محمد رضوان الداية : ص ٢٦٨ .

- وتمجيد الانتصار والاعلاء من شأن صاحبه ، ولما كانت الدولة الحفصية عند حلول ابن الأبار في بلاطها ، لا تزال في بداية أمرها ، وأن ماركها وانتصاراتها قد كثرت ضد بني غانية والقبائل العربية ، وبعض الثورات والفتن الداخلية ، فقد وجد ابن الأبار ، في قصائد أبي تمام والمتنبي الحميرية نموذجا يستحق أن يُحتذى ويُقلد ، لأن شمره وشعرهما شمر حماسي يقال تمجيدا للانتصار وصاحبه ، بالإضافة إلى أن قصائدهما الحميرية كانت تسجيلا للانتصارات المسلمية على أعداء لابن الأبار ، احتلوا أرضه وطردوه عنها . وكان الشاعر يأمل أن يرى يوما في هؤلاء ليصيد له ولأبناء بلده أرضهم وكرامتهم .
- ٣ أما تقليده في رثائه لبعض قصائد أبي تمام الرثائية ، فربما يعود إلى أن بعض النقاد قد اعتبروا أبا تمام من الممدودين في إجابة الرثاء ، واعتبروا أيضا قصيدته في رثاء المعتصم وتهنئة الواثق بالخلافة النموذج الرفيع في التهنئة والتمزية (١) .
- ٤ وربما كان للدعوة التي دعا إليها حازم القرطاجني ، من الاقتداء بالشعراء والاستفادة منهم ، (٢) بعض الأثر في محاولة تقليده لمن سبقه من الشعراء ، وبخاصة فحول الشعراء ، وعلى رأسهم أبو تمام والمتنبي .
- ٥ ولا نغفل في الرأي ، إذا ما ذهبنا إلى أن ابن الأبار ربما لاحظ الشبه الكبير بين حياته وصلته بابي زكرياء وعيشه في بلاطه ، وحياته المتنبي وصلته بسيف الدولة وعيشه في بلاطه أيضا ، بالإضافة إلى الشبه بين بعض صفاتهما .

(١) الحمدة : ٢ / ١٤٨ ، ١٥٥ .

(٢) منهاج البلاغ : ص ٢٧ .

فقد قرب سيف الدولة المتنبّي منه ، منذ حلوله في بلاطه ، حتى أصبح من أبرز شعرائه . وكذلك فعل أبو زكرياء مع ابن الأبرار ،

وقد أحب المتنبّي سيف الدولة حباً شديداً ، وكان يرى أنه قد اجتمعت فيه كلّ الصفات الحميدة ، وأنه خير من يدافع عن الأمة الإسلامية في وجه الخطر الصليبي ، حتى أنه لشدة حبه له ، لم يهجه بعد تركه لبلاطه ، بعكس ما صنّع مع كافور الإغشيدي ، الذي لم يتورع عن هجائه والتعريض به ، بعد مفارقاته لمصر .

وكذلك كان ابن الأبرار محباً لأبي زكرياء ، محباً به ، حريصاً على توثيق صلته به ، وكان يرى فيه كل الصفات النبيلة التي اغتقر إليها حكم عصره وفي مقدمتها القوة التي قد تنجح في حماية من تُرد من مسلمي الأندلس وإعادة أرضهم .

والمتنبّي سخر كل شعره منذ حلوله في بلاط بني حمدان لخدمتهم ، وكان يحثّره بجهاز إعلام لبني حمدان في حالاتي السلم والحرب ، وكذلك كان ابن الأبرار منذ حلوله في بلاط بني حفص ، يرى في شعره وسيلة إعلام ناطقة باسم الدولة الحفصية في حالة سلمها وحربها ، واعتبره أيضاً سلاحاً قوياً في إثبات الخلافة لبني حفص والمدافعة عنها .

والمتنبّي ، عاش في بلاط غصّ بالعلماء والأدباء الذين اجتمعوا حول سيف الدولة ما بين معظمين ، وكذلك كان بلاط بني حفص يفتّ بالأدباء والعلماء الأندلسيين والتونسيين على حدّ سواء .

والمتنبّي ، عاش إلى جوار سيف الدولة الذي عُرف بثقافته الماليية وتذوّقه للشعر ، وإكثاره من الاجتماع بالأدباء والعلماء ، وعقد الندوات لهم

وتقريبهم منه ، وكذلك عاش ابن الأبار إلى جانب أبي زكرياء ، الذي كان عالما
فاضلا أدبيا منذ وقفا للشمس ، حريصا على مجالسة العلماء والأدباء .

والمتنبي عاش في ظل ظروف حرب وغزوات متلاحقة كانت تفسد
عليه - كشاعر بلاط - مواكبة شعره لتلك الأحداث ، وكذلك عاش ابن الأبار
في ظل ظروف وغزوات متلاحقة أيضا قام بها الأمير الحفصي ضد أعدائه .

والمتنبي تكالب عليه الحساد ، يستكثرون عليه عمق صلته بسيف الدولة
وحتى كل منهما للآخر ، وحاولوا الإيقاع بينهما ، والتفريق إلى أن نجحوا ، وكذلك
كانت حالة ابن الأبار في البلاط الحفصي ، فقد كثر حساده ، وحاولوا
الإيقاع بينه وبين الأمير الحفصي ونجحوا في ذلك ولكن ابن الأبار استطاع
استعادة تلك العلاقة إلى ما كانت عليها .

ونشير هنا إلى أن المتنبي قد أكثر من الحديث عن حساده والتفريق
بينهم في قصائده ولكن ابن الأبار التزم جانب الصمت تقريبا في هذه القضية
كذلك فإن ابن الأبار لم يستطع ترك الأمير الحفصي كما فعل المتنبي لأسباب
أشرنا إليها (١) .

والمتنبي كان ذا حساسية فائقة ، أجبرته على ترك البلاط الحمداني
على الرغم من حبه لسيف الدولة ، وكذلك كان ابن الأبار الذي أنفك من نقل
العلامة السلطانية لغيره ، وجاهر بالرفض غاضبا ومتمثلا ببيت من يراه شبيهسا
له وهو المتنبي ، في بيته الذي يفضّل النار في الصرة والكرامة يهطل الدل في الجنان .
والمتنبي كان طموحا كثيرا الاعتداد بنفسه ، وكذلك عرف ابن الأبار

(١) انظر ص ١٧٢ من هذه الدراسة .

بالطموح والاعتداد بنفسه ، حتى أمام الأمير الحفصي (١) .

ومما يلفت النظر ، أن الفترة التي قضاها ابن الأبار إلى جوار أبي زكرياء ، قريبة جداً من الفترة التي قضاها المتنبّي إلى حوار سيف الدولة ، فقد مكث الحفصي في بلاط سيف الدولة من سنة (٣٣٧ هـ - ٣٤٦ هـ) كانت أحفل سنوات حياته الأدبية ، إن قال فيها ما يقرب من ثلث شعره (٢) ، وكذلك مكث ابن الأبار إلى جوار أبي زكرياء من (سنة ٦٣٧ هـ - ٦٤٧ هـ) كانت أيضاً من أحفل سنوات حياته الأدبية ، إن بلغ ما قاله فيه ما يزيد على نصف شعره تقريباً .

هذه الأسباب مجتمعة ، ربما تكون هي السبب في تقليد ابن الأبار لهذين الشاعرين دون غيرهما بشكل مقصود ، ولكن هل استطاع ابن الأبار أن يصل إلى مرتبة أبي تمام والمتنبّي ؟ وما الذي نأخذه عليه في تقليده لهما وتمثله لهما ؟

لقد كان ابن الأبار يطمح إلى الوصول إلى ما وصل إليه أبو تمام والمتنبّي ، وبخاصة بعد اتصاله بأبي زكرياء الحفصي ، وحمله على عاتقه بأن يكون شاعر دولة في السلم والحرب ، ولكنه لم يستطع أن يصل إلى مرتبتهما في شعرهما بشأن عام ، وإن كانت بعض قصائده لا تقل في ستواها وقيمتها عن بعض قصائد أبي تمام والمتنبّي (٣) .

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٦ / ٦٥٣ .

(٢) انظر الشعر العربي في بلاطات الطوائف لنسيم نصر ص ٦١ .

(٣) انظر مخطوطة الديوان : ص ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٤٦ ، ١٢٥ ، ٩٣ ، ٨٩ .

١٩٢٠ ، ٨٣ .

وربما كان أبرز سبب لذلك ، أنَّ ابن الأبار لم يكن محاربا ، "ولم
تَن له شدة نفس" المتنبى وعنفوانه ، ومن ثم لم يكن قادرا على أن يندمج
اندماجا صادقا مع العنف ومناظره ، وبالتالي على أن يُصوِّر العنف تصوير مستريح
إليه مندمج فيه ، والتناسب ما بين أسلوب الأدب وشخصيته ، أمر تعارف عليه
كتاب الشرق والغرب على السواء" (١) .

وقد تكون طبيعة الحرب ما بين سيف الدولة والروم والدولة العباسية مع
البيزنطيين تختلف عن الحرب التي كان يخوضها أبو زكريا ، فالاولى
تغلب عليها طبيعة الشمول والاتساع ، لأنها حرب بين عقيدتين : الإسلامية
والنصرانية ، في حين كانت معظم غزوات أبي زكريا ضد انثائرين والمتمردين
في الداخل ، مع أنَّ ابن الأبار كان يطمح ويحدث على توسيع نطاق الحرب لتشمل
محتلي بلدنا ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .

هذا بالإضافة إلى اختلافات ذاتية شخصية بين ابن الأبار من جهة
وابن أتمام والمتنبى من جهة أخرى .

ولكن تقليد ابن الأبار لم يصل به إلى انعدام شخصيته ، كما أنه
لا ينفى عنه صدق الماطفة وحرارتها في كثير من مدائحه وربما كانت في مرثيته
أكثر وضوحا وخاصة في رثائه لأبي زكريا الحفصي ، ومن ينظر في قصيدته
التي قلد فيها أبا تمام في رثائه للمعتصم وتهنئته للوائق بالخلافة ، يلحظ
بكل جلاء أنَّ الشاعر قد نجح فيها ، وأنها لم تقل في مستواها عن قصيدة
أبي تمام . وقد لاحظنا من خلال دراستنا لشعره أنَّ الشاعر لم يفقد ملامحه
في إنتاجه الشعري ، وأنه بشعره قد صور لنا تصورا صادقا أميناً مظلما

(١) صدى الفزوة المصليبي : ص ١٩١ .

ما يتصل بالبيئة والأحداث التي أحاطت بهما يشمر أن التقليد لم يكن مجرد دوران في قلبه أولئك الذين قلدهم فحسب ، دون أصالة منه أو ضياع شخصيته وذويانها في العمل الذي يقلده ، فقد كان له أسلوبه الخاص وكان يصدر فسي كفير من أعماله الأدبية عن انفعال صادق ، مهورا حقيقة وواقعا يحيط به ، ومحاولة الارتفاع بعمله ليصل إلى موازاة عمل أدبي رائع له مكانة عظيمة في نفسه ، فمضى الرغم من تنليده لقصيدتين من قصائد أبي تمام في قصيدة رثائه لشيخه الكلاعي واستتمارت لبعض ألفاظهما وصورهما وموسيقاهما إلا أن أحدا لا يشك في استقلاله في عمله ، وإلى نقله لانفعال حقيقي وقضايا تحيط بالشاعر ، مما يضيف في علمه التسمية السمة الواقعية فهو في تقليده ليس عبداً للعمل الذي يقلده ، يعتديه خطوة خطوة ، ولا يكاد يخرج عنه في شيء ، وإنما يصحب بعمل أدبي فيحاول الوصول إليه أو التفوق عليه وإن كان في بعض الأحيان ، قد يستبد به التأثر ، ويهنيق أفقه وتخلق نفسه فيعمد إلى تكرار صور بعينها أو عبارات بعينها دون ابداع أو أصالة وهذا هو الذي نأخذ ، على ابن الأبار في تقليده . . . كذلك فإن التقليد الفني يبقى عليه مأخذ لا ينجو منه لهما بلخ من درجات الحسن والافتقار ، ذلك هو أمر الاستعداد من مشاعر الآخرين وتجاربهم ومواقفهم بدلا من الاستعداد من الذات بمشاعرهما وتجاربها ومواقفها . . . فكان ضمة شكلاً من أشكال الهيمنة الفكرية والشمورية يغرض نفسه على الشاعر اللاحق فيقيد ويعد من انطلاقه . . . وإن ذاك يتلخص لمادته الشمورية نموذجاً سابقاً ، بسبب علاقة ما بين موضوع هذه المادة وموضوع الأنموذج السابق ثم يقيس نجاحه أو فشله بمدى قربه أو بعده عن الأنموذج المحدثي " (١)

(١) صدى الفنزو الصليبي : ص ١٩٦ .

الصدق :

صدق الشعور أو صدق الانفعال ، من العناصر الأساسية في العمل الأدبي ، وهو الذي يمنح الأدب ما يُسمى بصفة الخلود (١). وهو "عنصر أسلوبيّ يحسّ دون أن يُشرح أو يُعرض عرضاً مباشراً صريحاً" (٢). ولكي يتوافر هذا المنصر في العمل الأدبي ، فلا بدّ من وجود مشير ، يثير عاطفة الأديب ، ويحرّك أحاسيسه نحو الموضوع الذي يتناوله في عمله الأدبيّ ، وتختلف درجات الصدق باختلاف المشير. وإذا كان الأمر كذلك ، فهل كان ابن الأبار صادقاً في شعره ؟ وهل كان صدقه بنفس المستوى في مختلف موضوعات شعره ؟

لقد عانى ابن الأبار من تجربة مؤلمة مرّة ، عاشها منذ بدايتها ، وكان لها عظيم الأثر في نفسه ، وفي نفوس أبناء وطنه تجربة أفضت عليه مضجعه ، وأخذت عليه كلّ أحاسيسه ، ألا وهي سقوط وطنه . ومن هنا كانت مقطوعاته التي قالها في وطنه - كما لاحظنا - تفيض باللوعة والألـم والحسرة . يكثر فيها من البكاء والتأوه على ما فات من أيام قضاها في وطنه بين أهله ، وعلى ثرى مسقط رأسه ، وكلما مرّت بنفسه أيام سعادته ، ثارت نفسه وبكت . وقد نقل لنا الشاعر ما كان يختلج في نفسه تجاه وطنه بكل صدق وأمانة ، ببساطة ودون تكلف ، فكان لتلك المقطوعات عميق الأثر في نفوس سامعيها ، لأنّها نابغة من قلب اكتوى بنار الفربة ، وجرب مرارة البعد ،

(١) انظر: النقد الأدبي ص ٢٢ .

(٢) الأسلوب : ص ٥٢ .

فهو لا يكاد يلتفت إلى وطنه - حتى في قصائد مدحه للحنفيين - إلا وتحسّ بصدق أحاسيسه ونقائها . فمقطوعاته في وطنه هي أصدق ما خلف لنا الشاعر من شعر ، بل إنك لتشعر بالصدق أيّما قرأت له شيئاً يتصل بوطنه ، فمقطوعاته وقصائده في وصف الطبيعة في وطنه ، تدلّ دلالة أكيدة أيضاً على صدق أحاسيس الشاعر ، وتبيّن وكأنه جزء لا يتجزأ من تلك البقعة الجميلة التي عاش ربيع عمره بين أحضانها .

وتأتي مقطوعات الشاعر التي قالها في الشكوى في أواخر حياته ، وفي شكواه مما أصابه بعد ابتعاده عن الأمير أبي زكرياء ، وقصائده ومقطوعاته في اعتذاره له ، في مرتبة تالية من حيث الصدق ، ويلحق بها تلك المقطوعات الزهدية التي حاول فيها الشاعر التمسك بحبل الله فقط ، بعد أن خبر الحياة وجربها فذاق حلوها ومرّها ، وربما تساوت بعض مقطوعاته في الشكوى والزهد ، مع بعض مقطوعاته في حنينه لوطنه ، ذلك أن تلك المقطوعات ، كانت ثمرة تجربة حياتية ، عانى منها الشاعر وكابد ما صقل نفسه وهذبها .

أما غزله ، فكما أشرنا فإن الشاعر قد أكثر من ألغاز البكاء والمذاب والحنن والحسرة في شعره ، لبعده عن صاحبه ، مما يشير إلى صدقه ، وإن كنا لا نعرف إن كان الشاعر قد خاض تجربة حبّ في شبابه أم لا . ولكن تلك المقطوعات ، تشير إلى عاطفة صادقة لا تكلف فيها ولا زيف .

وتأتي قصائده الرثائية في منزلة سابقة من حيث الصدق لقصائد مدحه ، سواء في بني حفص أو في شيخه الكلاعي ، وهذا لا يعني أن الشاعر لم يكن صادقاً فيها ، ولكن حرصه على مقاييس عصره الأدبية - كما ذكرنا - وبخاصة في رثاء شيخه ، كان يقلل من عنصر الصدق فيها ، وإن كانت قصائد رثائه لبني حفص ذات موسيقى شجيّة محزنة .

وقصيدة المدح منذ القدم ، مشار إلى أنها مبنية على عواطف متكلفة ، لا رتباطها بالمطاء . وكأنّ المدح يشتري عواطف الأديب بمطائه ، فمواطف الأديب مرتبطة بقيمة المطاء ، فإذا أكثر أجاد ، وإذا قلّ أو منع ، هجأ أو لم يمدح ، وهذا يعني أن الشاعر يبيع عواطفه مقابل حفنة من الدراهم ، أو بمعنى أدق ، يتكلف العاطفة أو الانفعال لكي يحصل على ما يريد من مال . وإذا كان حال المادحين كذلك ، فهل كان ابن الأبار من هذا الصنف؟

لقد أشرنا في الفصل الذي تحدثنا فيه عن شعر ابن الأبار في بلاط الحفصيين ، إلى أنّ علاقة الشاعر بهم ، لم تكن علاقة مدح متجول على أبواب المدح وحين ، يبيع شعره ويعرضه على كل من يتوسّم فيه القدرة على العطاء ، ولكنّ شعره كان نابعاً من حبّ حقيقيّ لهم ، لا يواثهم له ، وشعره بنوع من الاستقرار والراحة في بلاطهم ، بعد أن فقد وطنه ، كما أنه كان يرى في الأمير الحفصيّ خير خليفة للمسلمين يمكن أن يعمل على استرداد وطنه ، فأحبّه وصّرح بذلك الحبّ في أكثر من قصيدة ، وأخذ على عاتقه نشر كل مكرمة تتصل بهم فكان شامرا الدولة ، تسعده قوتها ، فينفل ويتفنى بانتصاراتها . فالانفعال إذا لم يكن سقيما متكلّفا قائما على حفنة من الدراهم فقط ، بل كان نابعاً فهي حقيقة من حبّ وإعجاب وتقدير ، بالإضافة إلى كرم الأمير الحفصي وجزييل عطائه . ومع ذلك فقد كانت قصائد مدحه سواء في الحفصيين أو في غيرهم ، أقل موضوعات شعره صدقا ويعود ذلك إلى أمرين بارزين : أولهما : كثرة إغراق الشاعر في البديع في بعض مدائحه ، حتى يبدو وكأنه يصنع صناعة تخلو من أيّ حسّ أو شعور . وثانيهما : طولها ، بعكس بقيّة موضوعات شعره ، إذ من الملاحظ أن المقطوعات عادة أكثر صدقا من القصائد حتى في الموضوعات التي كان الشاعر فيها صادقا . فلو قارنا بين قصيدة ومقطوعة قالهما الشاعر في وطنه مثلا ، لتبيّن أنّ صدقه في المقطوعة أكثر بروزا منه في قصيدته ويعود ذلك إلى أن المقطوعة تعبر عن ومضة ودفقة شعورية سريعة يمكن تسجيلها بكل دقة ، بعكس القصيدة الطويلة ، ونحن بهذا لا ننفي الصدق عن قصائده ، ولكن القضية نسبية .

٣ - قيمته وآراءه النقاد فيــــه

لقد أجمعت المصادر التي ترجمت لابن الأبار ، على شاعريته وقيمه الأدبية . وهذه آراء بعض من عاصره ولحق به في أدبه ، شعره ونثره . يقول ابن سميذ : " واجتمعت به ، ورأيت فاضلا في النظم والنثر والتاريخ وملح الآداب " (١) ويقول في موضع آخر : " كاتب مشهور وشاعر مذكور " (٢) . ويقول الفيريني : " وأشعاره وكتائبه متداولة بين الناس ، ومرغوب فيها عندهم ، وموجودة لديهم . ولو لم يكن له من الشعر ، إلا القصيدة التي رفعها لمقام الأمير أبي زكرياء - رحمه الله - ، يستنجد به ويستصرخه لنصرة الأندلس ، لكان فيها كفاية " (٣) . ويقول الصفدي : " له يد في البلاغة والانشاء في النظم والنثر " (٤) . أما ابن خلدون فيقول : " وكان بليفاً في الترسيل والشعر " (٥) ويقول المقري : " كان أبو الحسن حازم ، والكاتب الفقيه المحدث ، أبو عبد الله ابن الأبار ، فرسي رهان في ميدان الآداب " (٦) . ويقول مخلوف : " حامل لواء المنشور والمنظوم " (٧) . ويقول الكتاني : " وهو عندي عدل ابن الخطيب وابن خلدون في الإنشاد وملكة الشعراء " (٨) .

(١) المفرب : ٣٠٩ / ٢ .

(٢) القدح المصلى : ص ١٩١ .

(٣) عنوان الدراية : ص ٣١٢ .

(٤) الوافي بالوفيات : ٣٥٦ / ٣ ، وقد كرر الكتبي والذهبي والياقسي ما ذكره

الصفدي ، انظر : فوات الوفيات ٢ / ٤٥٠ ، والمبر في خبر من غيره ٢٤٩ / ٢٤٩ ،

ومرآة الجنان : ١٥٠ / ٤ .

(٥) تاريخ ابن خلدون : ٦٥٣ / ٦ .

(٦) أزهار الرياض : ٢٠٤ / ٣ .

(٧) شجرة النور الزكية : ص ١٩٥ .

(٨) فهرس الفهارس : ١٩٩ / ١ .

هذا بالإضافة لما ذكرناه من تعظيم وتمجيد بعض أصحاب الكتب السابقة لقصيدة ابن الأبار السينية التي أنشدها في استصراخ الأمير الحفصي (١). وعلى الرغم من أن الأحكام السابقة في معظمها جزئية ذاتية تأثرية ، يعتمد فيها عادة اللاحق على السابق ، إلا أنها بمجموعها تشير إلى منزلة ابن الأبار الشعرية وإلى أن أسلوبه الشعري كان مقبولا ومحبا لدى معاصريه ومن تبعهم.

ونحن بعد دراستنا لشعر ابن الأبار ، هذا الشعر الذي بقي نائها لفترة طويلة ، حتى كاد ذكر ابن الأبار الشاعر يضيع بضياعه ، نقول : إن ابن الأبار الشاعر كان يصدر عن ملكة شعرية متأصلة ظهرت إمارتها وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره . . . تلك الموهبة التي عمل على صقلها بحفظه للشعر ، وثقافته الواسعة . وعودة إلى ما خلفه لنا في وصفه للطبيعة وغزله وزمعه وجنينه وكثير من قصائد مدحه ، تشير إلى أنه كان يصدر في شعره عن طبع متأصل فيه ، طبع مكنه من الإكثار في القول والاطالة . فهو لم ينظم الشعر هواية ، إنما نظم نتيجة طبع وموهبة حقيقية ، وإن كان في بعض الأحيان - كما أشرنا - يعتمد إلى الصناعة التي كانت تفسد عليه موهبته ، ولكنها الصناعة التي ترضي ذوق أبناء العصر ، أو بشكل أدق : المرض الذي تسرب إلى نفوس الناس في مشرق العالم الإسلامي ومفربه على حد سواء ، والحلمة التي أصبح لا مفر من التزيين بها ، فهي مقياس الجودة وعنوان الجمال ، وإذا ما تحلل منها الأديب : اتهم بالعجز والقصور . وعند ما كان ابن الأبار يتحلل من المواقف الرسمية ، التي تفرض عليه الصنعة والإغراق فيها في بعض الأحيان ، كان يقول شعرا رقيقا جميلا سهلا ، لا يجدو أي أثر للتكلف أو الصنعة عليه ، مما يبنى سلامة طبعه وتوافر موهبته ، التي كان يضطر إلى إفسادها في كثير من مواقفه الرسمية .

(١) انظر ذلك ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ، من هذه الدراسة .

ولا بدّ من أن نسجل أنّ لشعرا ابن الأبار قيمة كبيرة، من الناحية الأدبية والتاريخية والاجتماعية فقد زاد ابن الأبار بشعره حجم التراث الأدبي الأندلسي ، إذ زاد بنا وصلنا من شعره - كما ذكرنا - على خمسة آلاف وستمئة بيت ، كانت موزعة على معظم الفنون الشعرية التي عرفت في زمنه . كذلك فإنّ شعره قد أبان عن كثير من خصائص الشعر في زمنه ، تلك الخصائص التي تمثلت في شعره خير تمثيل من صنعة ومبالغة وتكرار كذلك فقد تفرّد شعره في الحاضر ، بإعطائنا صورة واضحة عن الحياة الأدبية في البلاط الحفصيّ ومدى نشاطها والموضوعات التي كانت تطرق في البلاط ، ذلك البلاط الذي كان يقيم بالشعراء والأدباء ، الذين لم يصلنا من شعرهم شيء يذكر ، باستثناء شعر حازم القرطاجني ، الذي لم يكن بفزارة شعرا ابن الأبار وكثرته . كذلك فقد أوضح لنا الخصومة التي كانت قائمة بين الدولة الحفصية والموحديّة ، وموقف شعراء البلاط من ذلك . وكان شعرا ابن الأبار مصدراً تاريخياً لله من القيمة التاريخية ، ما لا يقل عن قيمته الأدبية ، فقد سجل لنا كثيراً من الحوادث التاريخية ، في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأندلس ، وتاريخ دولة الناشئة في تلك الفترة هي دولة بني حفص ، فسجل وقعة أنيشة ورثى شهداءها ، وسجل في قصائده ، ما أصاب الأمة الإسلامية في الاندلس من ذلّ وقتل وتشريد ، وما أصاب البلاد الأندلسية من خراب ودمار على أيدي النصارى ، وأبان عن سوء الحالة التي وصل إليها الناس في تلك الفترة ، والتفكك الذي شجّع أعداءهم على احتلال أرضهم وطردهم منها ، فكان شعره وثيقة يرجع إليها لمعرفة سوء حالة الناس الاجتماعية وهو دليل أيضاً وتأكيد على هدف حرب عدوّهم وهو اجتثاث كل ما يمسّ للإسلام والمسلمين .

وفي تونس كان شعره سجلا ووثيقة تاريخية مهمة لدراسة عصر الأمير أبي زكرياء الحفصي بالذات ، فقد أنّح في قصائد مدحيه لكل الفتوحات الحفصية التي حدثت زمن أبي زكرياء ، حتى إنها تعتبر رديفا وتدعيما لما ذكرته كتب التاريخ عن فتوحات الأمير الحفصي ريبـل إنّ لها قيمة تفوق ما ذكرته كتب التاريخ ، لأنها أشارت إلى بعض الجزئيات التي لم نعثر لها على وجود فيما وصلنا من كتب تاريخية . وأشار أيضا إلى سوء العلاقة بين الحفصيين والموحدين ، وإلى استقرار الحياة الاجتماعية وإزدهارها في تونس ، وهو ما أكدته كتب التاريخ وأشار إلى بعض المظاهر العسكرية والمظاهر الحضارية وبعض الماديات في الدولة مما يعطي شعره قيمة حقيقية كبيرة لكل دارس للدولة الحفصية . كذلك فإنّ شعره أكد لنا ، أنه على الرغم من حسن استقبال الأندلسيين في تونس ، إلا أنّ حياتهم لم تسلم من التنقيص والكيد لهم من التونسيين ، حسدا ومنافسة . ولا شك أنّ شعره يعتبر من المصادر الأولى أيضا في دراسة حياة ابن الأبار وشخصيته وثقافته .

لقد كان ابن الأبار ، شاعر ذات وجماعة وبلاط . فهو لم ينكسر ذاته ، ولم ينس أمته ويتنكر لها ، فقد لبى انفعالات نفسه في غزله وزهده ووصفه وشكواه ، وعبر عن حالة أمته وشاركها مصابها ووقف إلى جانبها كما ظهر في شعره الوطني . وكان بحق شاعر بلاط في تونس بكل ما في الكلمة من معنى ، وكانت الدولة الحفصية تفاخر به أمام أعدائها . وهو شبيه بأولئك الذين تجمّعوا حول الخلفاء الموحدين ، ينشرون فضائلهم ويذمّون خصومهم ، وبدأ فعّون عنهم في شعرهم ، أمثال : ميمون بن خبازة ، وأبي العباس الجراوي ، والغازاري وغيرهم .

ورعد ،

فإننا نؤكد بعد أن أطلعنا على رأي معاصري ابن الأثير
ومن لحق بهم في شعره ، وتمجيدهم له ، وبعد دراستنا لشعره :
أن ابن الأثير الشاعر ، لا يقل منزلة عن معظم شعراء زمنه البارزين ، وأننا
نضيفه إلى قائمة هؤلاء من أمثال : حازم القرطاجني ، وأبي البقاء الرندي ،
وأبي بكر الصابوني ، وابن عريية وغيرهم .

الخاتمة

بعد هذه الدراسة الشاملة لشعرا ابن الأهار وحياته ، التي لم تخل من بعض الصعوبات ، ولم تخل في الوقت نفسه ، من كثير من الجوانب التي كانت تشدنا وتجعلنا نتفاعل مع هذه الشخصية وشعرها التفاعل الحقيقي مما كان يهدد المشقة ويفض على النفس بهجة ومادة ، يحسن بنا ان نسجل أهم النتائج التي توصلنا اليها في دراستنا وهي :

١ . لقد تبين لنا في الفصل الأول الذي تحدثنا فيه عن العصر ما يلي :

أ - بالنسبة للحياة السياسية : فقد شهدت الأندلس في القرن السابع الهجري ، انحلالا وضعفا وتفككا . وشهدت صراعا مريرا بين الموحدين من جهة ، وبين الأندلسيين من جهة أخرى ، وأحيانا بين الأندلسيين والموحدين ، مما كان له عظيم الأثر في تحطيم القوة الإسلامية في الأندلس ، وتمكن القوة النصرانية من الأندلسيين وطردتهم من بلادهم ، واضعاف الخلافة الموحدية وانكماش رقعتها .

ب - ولم تكن الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، أفضل من الحياة السياسية ، بل كانت انعكاسا لها . فقد ساءت الأحوال الاقتصادية ، وكثرت المجاعات ، وقلّت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، وتدهورت الصناعة والتجارة ، وتبددت الأموال . وفيما يتصل بالحياة الاجتماعية ، فقد ساءت أيضا ، وكثر لهو الحكام ، وأهملوا الرعيّة ، فاشتدّت عليهم الأحوال ، وكثرت الهجرة لسقوط المدن الأندلسية ، وأصيب الناس بهزيمة نفسية ، وأجبروا على مفادرة بلادهم .

ج - أما فيما يتصل بالحياتين الثقافية والأدبية ، فقد كانتا على عكس الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة . فقد ظهرت في هذا العصر مجموعة كبيرة من العلماء والأدباء ، وكثرت مؤلفاتهم في مختلف فنون العلم . وكذلك ظهرت مجموعة بارزة من الشعراء ، أمثال حازم القرطاجني وابن الأبار ، وابن سهل ، وابن مرج الكحل ، وغيرهم الكثير . وقالوا في مختلف موضوعات الشعر ، وبرز من جديد — موضوع عرفته الأندلس من قبل وهو الشعر الوطني . ومما يسجل على الحياتين الثقافية والأدبية ، عدم الاستقرار ، وذلك لهجرة العلماء والأدباء من مدنهم الأندلسيّة التي سقطت إلى بلاد أخرى .

د - وإذا كان العصر الذي عاش فيه ابن الأبار في الأندلس ، يتسم بالضعف في الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة ، فإنّ حياته في تونس كانت في ظلّ قوّة سياسيّة بارزة قويّة هي الدولة الحفصيّة ، كذلك فقد ازدهرت مختلف جوانب الحياة من اقتصاديّة وثقافيّة وأدبيّة ، وظهر بالاضافة إلى العلماء والأدباء ، الذين هاجروا من الأندلس ، مجموعة كبيرة من التونسيين أيضا .

وفي الفصل الثاني الذي تحدثنا فيه عن حياة ابن الأبار وآثاره توصلنا إلى ما يلي :

أ - أن ابن الأبار عربي في نسبه ، ينسب إلى قضاة وأن لا خلاف في اسمه أو كنيته أو لقبه ، وأن مولده كان في بلنسية سنة ٥٩٥ هـ ، وكانت نشأته فيها أيضا ، وهي نشأة علمية منذ بدايتها ، إذ نشأ في بيت والد عالم ، حرص على أن يوجه ابنه الوجه العلمي منذ صغره . وقد انطلق ابن الأبار بعد ذلك فاتصل بمعظم كبار علماء عصره ، وأخذ عنهم ، وسمع منهم ، فكثرت شيوخه . ولم يتوقف عند مرحلة معينة في تلقي العلم بل ظل يتلقاه حتى أواخر حياته ، فاستمتت ثقافته وتعمقت .

ب - وفيما يتصل بأهله وأسرته ، فإن ما توصلنا إليه في هذا الشأن ، لا يكاد يذكر لقلته ، فلم نتعرف إلا على والده العالم ، وعلى صهره ابن البطري والزهرى . واستعطينا أن نؤكد أن ابن الأبار ، قد تزوج وأنجب أبناء منذ وجوده في الأندلس .

ج - أما شخصيته وصفاته ، فقد تعرفنا على مجموعة من صفاته فهو حسن الخلق ، بعيد عن الرذائل ، كريم ، قانع ، يأنف من البخل . وقد تربى على العفة وهو رجل مؤمن ومخلص ووفى ، وهو عطوف شفيق ، ورجل خير وشفاعة ، ويمتاز بحس وطني صادق . وقد عرف أيضا بالأبهة والجلال والرياسة والطموح ، كذلك فإنه شديد الحساسية ، يثور لكرامته ، ولا يرضى بأن تمس بسوء .

د - وتوقفنا عند عقيدته ، وناقشنا فكرة تشييع ابن الأبار ، فتبين أن ابن الأبار لم يكن متشييعا ، بل كان من كبار علماء السنة والجماعة .

د - أما حياته الادارية وتنقلاته ، فقد أكدنا أن ابن الأبار عمل عند أمراء بلده في بلنسية ، منذ أيام شبابه ، وأن ما وصلنا عن حياته وهو في الأندلس ، لا يزال يشوبه الكثير من الغموض . كذلك فقد أكدنا أن ابن الأبار قد جال في بلاد الأندلس ، ولكننا لم نستطع معرفة السبب الحقيقي لتجواله . واستمر ابن الأبار بعد رحيله إلى تونس بالاتصال بالأمراء ، فعمل عند أمراء بنسي حفص ، وكانت حياته في تونس ، أكثر وضوحاً من حياته في الأندلس ، وتبين لنا أنه لم يفادر تونس إلا إلى بجاية .

و - وكانت وفاة ابن الأبار على يد المستنصر سنة ٦٥٨ هـ ، وقد توقفنا عند التهمة التي ذكرتها بعض كتب التاريخ حول مقتل ابن الأبار ، فنفيها وأكدنا أنه قد اتهم بلاشك بمحاولة القيام بثورة على الأمير الحفصي .

ز - وفيما يتعلق بآثاره ، فقد تعددت حتى وصلت إلى خمسين مؤلفاً ، وقد استطعنا إحصاء أسما بعضها ، وتحدثنا عن آثاره التي وصلتنا وهي قليلة ، لم نزد على ثمانية . وتبين أن ابن الأبار قد احتل مكانة علمية مرموقة ، عند أبناء عصره ، ومن لحقوا به ، وشهد له جميع من ترجموا له ، ومن تناوله من المحدثين ، بسمة الثقافة والبراعة العلمية .

٣ • وتوصلنا في التمهيد في الباب الثاني ، إلى أن ابن الأبار كان صاحب موهبة شعرية ظهرت منذ حداثة سنه ، وهو ابن خمس عشرة سنة أو قبل ذلك ، وأنه اتصل بمعظم أدباء عصره ، وخاصة من برز منهم واشتهر ، وأن منصبه ومكانته الاجتماعية ، كانت تسمح له بذلك .

وتبين لنا أن من المرجح أن يكون قد جمع شعره بنفسه في حياته .
وتوقفنا عند مخطوطة الديوان ، فوصفناها وصفا دقيقا ، ووصلنا إلى أنها
لم تضم شعرا ابن الأبار كله ، وأن المصادر المختلفة قد ضمت فئسي
ثنائها مجموعة غير قليلة من شعرا ابن الأبار ، لم نعثر له على ذكر فئسي
الديوان .

٤ . وفي الفصل الثالث الذي تحدثنا فيه عن شعره في البلاط الحفصي ،
استطعنا أن نخرج بالنتائج التالية :

أ - أن الخيار الوحيد أمام ابن الأبار بعد سقوط بلده ، كان توجهه
إلى تونس والعيش فيها ، وأن عوامل كثيرة قد مهدت الطريق
أمامه ليكون شاعرا بلاط ، مع أننا لم نعرف عنه أنه كان شاعرا بلاط
وهو في الأندلس ، وأنه لم يكف بكونه كاتبا عالما مقدما فئسي
البلاط الحفصي ، بل عمل جاهدا على أن يكون شاعرا البلاط
الحفصي . واستطاع أن يحقق ذلك ، حتى بلغت أشعاره
في البلاط الحفصي (٣٦٢٨) بيتا ، وأنه بشعره قد تناول
كل ما يتصل بالبلاط الحفصي ، وأن مدائحه كلها تقريبا ، كانت
في أبي زكريا الحفصي ، مؤسس الدولة الحفصية ، في حين لم
نجد له في أبي يحيى والمستنصر إلا القليل من المدائح .

ب - وتبين أيضا أنه عمل على تصوير المراحل المختلفة التي مرت بها
حياته زمن أبي زكريا الحفصي ، وقد انحصرت في ثلاث مراحل :
مرحلة السعادة والاعجاب المتبادل بين ابن الأبار وأبي زكريا
الحفصي ، ثم مرحلة الشكوى والهمامة ، وما تخللها من قصائد اعتذار

واستعطاف ، وأهيرا مرحلة قبول الشفاعة ، وهودة الحياة السي
ما كانت طيه . وظهر أنه على الرغم من قلّة المادة الشعرية
التي خلفها الشاعر زمن المستنصر إلا أن ما وصلنا يؤكد
سوء حياته زمن المستنصر .

ج - وتوصلنا كذلك ، إلى أن موضوعات شعره قد تعددت فهي
البلاط الحفصي فمنها المدح والوصف والرشا . . . ، وأنها
تعددت وتنوعت بتعدد وتنوع الظروف والأسباب التي أحاطت
بالشاعر في البلاط الحفصي . ففي المدح ، حشد الشاعر
كثيرا من المعاني المرمية الإسلامية صرّزت في مدائحه المعاني
الدينية بشكل واضح ، وكذلك عنصر الجالفة ، وأبان الشاعر
في مدائحه عن موقفه السياسي ، المعيد للخلافة الحفصية
والمهاجم للخلافة الموحدية . كذلك فقد أرّخ الشاعر لكثير
من الفتوحات الحفصية ، وتحدث عن كثير من الظاهر العسكرية
في الدولة الحفصية ، وركز الشاعر بشكل واضح على شخصية
القائد الحفصي وقوته . وفي الوصف ، تبيّن لنا أن الشاعر
قد على جامدا على تخليد أثر عظيم من الآثار الحفصية ،
وهو بستان أبي فهر . فقد وصفه بما فيه من قصور وجمال طبيعي ،
وصف بعض جلسات الشعراء مع الأمير الحفصي . وفي الرثا ،
وصلنا إلى أن ابن الأبار ، قد رثى أبا زكريا الحفصي وولده
زكريا ، بعد موتها في ثلاث قصائد ، كنوع من الوفا
والإخلاص لهما بعد وفاتهما .

د - أن شعره في البلاط الحفصي ، يمتطينا صورة عن نمط ونوع الأدب
الذي كان يطرق في البلاط الحفصي ، كما يؤكد ازدهار الحياة
الأدبية في ظل بني حفص .

وفي الفصل الرابع الذي تحدثنا فيه عن أغراض شعره ، تبين لنا أن الشاعر قد طرق معظم الأغراض التي عرفها الشعراء من قبل ، وشعراء عصره بشكل خاص . فقد طرق فن أغراض الشعر : المدح ، والشعر الوطني ، والفزل ، والوصف ، والرباع ، والزهد ، والحكمة ، والفخر ، والهجاء ، والألفاظ والأحاجي ، بالإضافة للاعتذار والاستعطاف والشكوى . وقد اتضح من المادة الشعرية التي تركها ابن الأثير ، أنه كان شاعر مدح في الدرجة الأولى ، أو بشكل أدق شاعر بسلطان . في تونس ، أما في الأندلس ، فلم نجد له من المدح سوى القليل ، فقد مدح أمير بلده السيد أبا زيد الموحدي ، وزيان بن مردنيش ، ويحيى بن أحمد الخزرجي رئيس شاطبة ، ولكن مدائحه فيهم لا تكاد تذكر ، فهي لم تزد في كل واحد على القصيدة أو القصيدتين . وفي الشعر الوطني ، تبين لنا أن شعره الوطني انقسم إلى قسمين بارزين : قسم قاله قبل سقوط بلده ، وقسم قاله بعد سقوطه . واتضح من المادة الشعرية التي تركها في وطنه ، أنه كان شاعر جماعة لا شاعر ذات فقط ، أحب وطنه بصدق ، ومذل قسارى جهده لإنقاذه .

وقال ابن الأثير الكثير من القصائد والمقطوعات في الشعر الفزلي ، ورجحنا أن ما قاله من غزل ، كان قبل سقوط بلده ، وهو في بلنسية . أما بعد رحيله ، فمن المرجح أن غزله اقتصر على الفزل التقليدي فسي طالع قصائد مدحه . واتضح بشكل جلي ، أن ابن الأثير ، كان صاحب مذهب عذري في غزله ، وأنه اطلع على معظم التراث الفزلي واستفاد منه .

وهشق ابن الأبار الطبيعة بكل ما فيها ، فأسبغ عليها من وصفه الكثير ، وكان صادقا في وصفه لها ، فقد وصف البساتين بكل ما فيها ، والانهار ، والأزهار ، . . .

وفي الرثاء ، لم نجد لابن الأبار إلا إضافة الى رثائه للحفصيين ، سوى بعض المقطوعات في أناس مجهولين ، وقصيدة في رثاء شيخه الكلاعي ومن سقطوا معه ، رجحنا أنها قصيدة وطنية ، عبر فيها الشاعر عن أحاسيسه الوطنية نحو أولئك المجاهدين ، وعلى رأسهم شيخه الكلاعي ، وقصيدة أخرى في رثاء صديق له .

وفي الزهد ، لاحظنا أن من المرجح أن يكون ما وصلنا من شعر لابن الأبار ، لا يمثل كل ما قاله في الزهد ، لأن عوامل كثيرة كانت تفرض على الشاعر أن يكثر من هذا الفن ، وقد تحدث فيما وصلنا من زهد له عن الدنيا والآخرة ، وقال بعض القصائد والمقطوعات تشوق فيها إلى المصلى وضريح الرسول ونعله عليه السلام . وكانت لابن الأبار مشاركة قليلة جدا في الحكمة والفخر والهجاء والألفاظ والأحاجي .

وفي الفصل الخامس الذي تحدثنا فيه عن الخصائص العامة لشعر ابن الأبار ، اتضح لنا أن كل شعر ابن الأبار تقريبا ، كان يهدف إلى تحقيق دور وظيفي ، وأن هذا الدور انحصر في هدفين بارزين : الأول : تصهير ما أصاب وطنه وأُمَّته ، ومحاولة استنجاده بكل من يرى فيه الخير لتحقيق هذا الهدف . وهذا هو هدف شعره الرئيسي ، منذ بداية المأساة في بلده ، وحتى مفارقة الشاعر للحياة .

والثاني : خدمة الدولة الحفصية وأمرائها ، حتى كان شعره جهازاً اعلام حقيقي ، يث من خلاله ، محاسن الدولة وأمجادها ودافع عنها ووقف في وجه أعدائها .

ويحد أن بينا الدور الوظيفي لشعرا ابن الأبار ، انتقلنا فحدثنا عن الخصائص الفنية لشعره . وفي بناء القصيدة تبين أن الشاعر قد سار على النهج التقليدي في جزء قليل من قصائده ، حيث بدأها بالمقدمة الفرعية ، وأنه اهتمت عن المقدمة الفرعية في معظم قصائده مدحه ، وخاصة الحرية منها ، وتبين أن الشاعر كان موقفاً إلى حد كبير في مطالع قصائده . كذلك فقد أحسن الشاعر في الانتقال من المقدمات الفرعية إلى الموضوع الرئيسي ، وهو ما يسمى بحسن التخلص ، وكان الشاعر موقفاً في نهايات قصائده أيضاً ، بحيث كانت تلك النهايات متفقة وملائمة مع موضوع القصيدة ، وإن كان في جزء من مدائحه ، قد التزم الخاتمة الدعائية التقليدية . واتضح أيضاً فسي بناء القصيدة ، أن قصائد ابن الأبار ، على الرغم من احتوائها على أكثر من موضوع إلا أنها كانت وحدة واحدة في بنائها غير مفككة ، باستثناء قصائده التي بدأها بمقدمات فرعية ، فلم يكن هناك من رابط يربط بين أفكار ومعاني الفقرات وموضوع القصيدة ، على الرغم من حرص الشاعر على ما سعى بحسن التخلص .

أما أسلوبه الشعري ، فقد غلبت عليه السهولة والبعد عن التعقيد بشكل عام ، وجاء متفقاً مع الموضوعات الشعرية . فهو يميل إلى الجزالة والقوة غالباً في مدائحه ، وخاصة الحرية منها ، وإلى اللين والركة في بقية موضوعاته الأخرى . واتضح أن الشاعر قد تأثر بشكل كبير بمقاييس عصره الأدبية ، فأكثرت في شعره من الجناس والطباق والترصيع ، وخاصة في قصائده الرسمية ، قصائد المدح والثناء . كذلك فقد التزم الشاعر التصريح في مطالع قصائده وأكثر من الترادف والتكرار ، ومن أساليب الاستفهام والتأوه والتفجع والنداء والقسم ، ومن

استخدام كم الخبرية التكريرية ، وربّ وصيغ الجالفة ، وكثرت في شعره أيضا
الفاظ الكواكب ، وخاصة في مدائحه ، واستخدم الفاظ الفزل في الحسب
والفاظ الحرب في الفزل ، وكثرت في شعره كذلك الأحداث التاريخية
والاعلام المشرقية والألفاظ الدينية ، وخاصة الفاظ الحج ، وبرز تأثره بشكل
واضح بالقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه ، والمصطلحات والألفاظ
الملحية .

والنسبة لمعانيه ، فقد جاءت متفقة مع أغراض شعره ، وكثرت فـي
شعره المعاني التقليدية والمعاني الدينية ، واضطرّ إلى تكرار كثير من
معانيه ، وظهرت في شعره بعض المعاني المبتكرة الطريفة ، التي لفتت أنظار
معاصريه ومن لحق بهم .

أما الأخيلة والصور ، فقد ظهر لنا أنّ خيال الشاعر في بعض صوره
جزئي بسيط محسوس ، وأن بعضه تقليدي لا ابتكاري فيه ، وبعضه جميل فيه
ابتكار وطرافة . ولم يكن الشاعر موفقا في كل صوره ، فقد جاّ بعضها متكلفا
لا يتفق مع الماطفة والفكرة والمعنى ، وبعضها جاّ متفقا مع الماطفنة
والفكرة والمعنى . وبرزت الصورة الشعرية المتكاملة بشكل واضح في وصفه ،
وخاصة وصف الطبيعة ، أما بقية شعره ، فقد كانت الصورة غالبا جزئية فيـر
متكاملة . وتمد الشاعر أيضا إلى تكرار بعض صوره .

وفيما يتصل بالموسيقى الشعرية ، فقد لاحظنا اهتمام الشاعر
الزائد بها ، وكان يستخدم في تشكيلها أكثر من أداة ، وقد أتت موسيقاه

متفقة مع الموضوع الذي كان يطرقه الشاعر ، واستخدم الشاعر في شعره معظم البحور الشعرية ، وإن كان معظم شعره قد أتى على أربعة بحور طويلة أكثر العرب من استخدامها وهي : الطويل والكامل والوافر والبسيط ، واستخدم الشاعر أيضا بحرالمشعر الأندلسي استخدمه من قبل عصر الموحدين وهو بحر الخمس ، ونظم الشاعر شعره على معظم قوافي الشعر ، باستثناء الخاء والزاي والظاء ، وكان معظم نظمه على القوافي التي كثرت في الشعر العربي ، وهي : الدال والباء والراء والميم والنون واللام .

أما الاحتذاء والتقليد ، فقد اتضح أن الشاعر قد سار في هذا الأمر باتجاهين :

الاتجاه الأول : تقليد صورة معينة لشاعر معين ، دون محاولة اقتفاء كل معانيه أو معظمها .

الاتجاه الثاني : التقليد الواعي المدروس ، لشاعر معين في ألفاظه ومعانيه وطريقته ، وقد تبدى هذا التأثر بشاعرين كبيرين من شعراء المشرق ، هما : الحنيني وأبو تمام .

وفيما يتصل بصدق عاطفة ابن الأبار في شعره ، فقد اتضح لنا أن أكثر شعره صدقا ، هو شعره الوطني ، وخاصة قصائد ومقطوعات حنينه لوطنه بعد رحيله عنه ، ويحتل شعره في الطبيعة ، وشكواه في أواخر حياته ، وشكواه مما أصابه بعد ابتعاده عن الأمير أبي زكريا ، وقصائد اعتذاره لـه ، وبعض مقطوعاته في الزهد ، وبعض مقطوعاته في الشكوى من بعد المحبوبة ، مرتبة تالية بعد شعره في الحنين إلى وطنه ، وربما تساوت بعض مقطوعاته في الشكوى والزهد ، مع بعض مقطوعات حنينه لوطنه في صدقها .

وتأتي قصائد رثائه في مرتبة سابقة لقصائد مدحه من حيث الصدق ، وهذا تكون قصائد مدحه - على الرغم من صدقه في بعضها - أقل شمره صدقا .

وفي نهاية الفصل الخاص ، اتضح لنا أن كل الذين ترجموا لابن الأبار ، أجمعوا على شاعريته وراعته الأدبية ، وتبين لنا أيضا أن لهصر ابن الأبار قيمة كبيرة من الناحية الأدبية والتاريخية والاجتماعية ، وأنه كلن بحق شاعر ذات جملة وطلاط .

هذه هي أبرز نتائج هذا البحث . واني أسأله تعالى أن أكون بهذه الدراسة ، قد وفقت الى الوصول الى الهدف الذي سميت من أجله ، وأزلت الغموض الذي اكتنف حياة ابن الأبار وشمره .

والله وليّ التوفيق

المصادر والمراجع

المصادر :

أ - المخطوطة :

- ١ - ابن الأبار القاضي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر
القاضي الهنسي : ديوانه ، نسخة (ميكروفيلم) في مركز الوثائق
والمخطوطات في الجامعة الأردنية ، رقم (٦٧١) مصورة عن
النسخة الأصلية في مكتبة الخزانة الملكية في الرباط رقم
(٤٦٠٢) .

ب - المطبوعة :

- ٢ - القرآن الكريم .
٣ - ابن الأبار القاضي :
التكلمة لكتاب الصلاة ، مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد ،
القاهرة ، سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .
٤ - _____ :
الحلّة السّيرة ، تحقيق حسين مؤنس ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣ م .
٥ - _____ :
إعقاب الكتاب ، تحقيق صالح الأشر ، مجمع اللغة العربية ،
دمشق ، سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .
٦ - _____ :
درر السّمت في خبر السّمت ، تحقيق عبد السلام الهّراس
وسعيد أحمد أعراب ، مطبعة كريمانيس ، تطوان ، سنة
١٩٧٢ م .

- ٧ - ابن الأبار القاضي :
المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصّدي ، دار الكاتب
المعربي ، القاهرة ، سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- ٨ - _____ :
مقتضب تحفة القادم ، نشره الفريد البستاني في مجلة المشرق ،
مجلد ٤١ ، بيروت ، سنة ١٩٤٧ م .
- ٩ - _____ :
مظاهرة السمي الجليل ومجاورة المعنى الميلى في معارضة طقوس
السبيل ، نشرها صلاح الدين المنجد في كتيب " رسائل
ونصوص " ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، سنة ١٩٦٣ م .
- ١٠ - ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد
الواحد الشيباني :
الكامل في التاريخ ، دار صادر ودار بيروت ، سنة ١٣٨٥ هـ -
١٩٦٥ م .
- ١١ - ابن الأثير ، أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصلي
الشافعي :
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، المطبعة البهية ، القاهرة ،
سنة ١٣١٢ هـ - ١٨٩٤ م .
- ١٢ - ابن الأحرر ، أبو الوليد اسماعيل بن يوسف الخزرجي :
ستودع الملامة ومستبدع العلامة ، جامعة محمد الخامس ، كليّة
الآداب ، الرباط ، سنة ١٩٦٤ م .
- ١٣ - ابن أبي أصبهمة ، أبو المباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السّدي
الخزرجي :
عيون الأنبا في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ،
بيروت ، سنة ١٩٥٦ م .

- ١٤ - البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل :
صحيح البخاري ، مطبوعات محمد علي صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ١٥ - البغدادي ، اسماعيل باشا :
هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار الصنفين ، مكتبة
المثنى ، بغداد ، سنة ١٩٥٥ م .
- ١٦ - البغدادي ، عبد القادر بن عمر البغدادي :
خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ،
دار الكتاب العربي ، القاهرة ، سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- ١٧ - التبرهزي ، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن الشيباني :
شرح القوائد المشر ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، مكتبة
محمد علي صبيح وأولاده ، مصر ، سنة ١٣٨٢ هـ .
- ١٨ - _____ :
- الوافي في المروني والقوافي ، تحقيق فخر الدين قباوة ، وعصر
يحيى ، دار الفكر ، دمشق ، سنة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
- ١٩ - التجاني ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني :
رحلة التجاني ، قدّم لها حسن حسني عبد الوهاب ، المطبعة
الرسمية ، تونس ، سنة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .
- ٢٠ - التجيبي ، أبو بحر صفوان بن ادريس :
زاد المسافر وغرة محبّ الأدب السافر ، أعدّه وطق عليه محمد
القادر محداد ، دار الرائد العربي ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ م .
- ٢١ - التجيبي ، القاسم بن يوسف السبتي :
برنامج التجيبي ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، الدار العربية
للكتاب ، ليبيا - تونس ، سنة ١٩٨١ م .

- ٢٢ - أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي :
شرح ديوان أبي تمام ، شرحه إيليا حاوي ، دار الكتاب اللبناني ،
بيروت ، سنة ١٩٨١ م .
- ٢٣ - الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري :
يتمية الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ،
مكتبة الحسين التجارية ، القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .
- ٢٤ - ابن حجة الحموي ، أبو بكر بن علي الأزراري :
خزانة الأدب وغاية الأرب ، مجهول النشر .
- ٢٥ - ابن حجر المسقلاني ، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكثاني :
الإصابة في تمييز الصحابة ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، سنة
١٣٢٣ هـ .
- ٢٦ - _____ :
تهذيب التهذيب ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، الهند ،
سنة ١٣٢٥ هـ .
- ٢٧ - ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد :
جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف ،
القاهرة ، سنة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .
- ٢٨ - الحميري ، محمد بن عبد المنعم :
الروض المصطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ،
بيروت ، سنة ١٩٧٥ م .
- ٢٩ - ابن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني :
سند الامام أحمد بن حنبل ، المكتب الاسلامي ودار صادر ، بيروت ،

- ٣٠ - ابن الخطيب ، لسان الدين :
الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة
الخانجي ، القاهرة ، سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- ٣١ - _____ :
أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، أو
(تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) ، تحقيق وتعليق
د . هليلي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ، سنة ١٩٥٦ م .
- ٣٢ - ابن خلدون ، عبدالرحمن المغربي :
تاريخ بن خلدون أو (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام
العرب والمجمل والبحر ومن عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر)
دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة ١٩٦٨ م .
- ٣٣ - _____ :
مقدمة ابن خلدون ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٠٩ .
- ٣٤ - ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر :
وفيات الأعيان وأنبأ أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ،
بيروت ، سنة ١٩٧٢ م .
- ٣٥ - أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني :
سنن أبي داود ، دار الحديث ، حمص ، سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- ٣٦ - ابن أبي دينار ، أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني :
المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمام ، المكتبة
المتيقة ، تونس ، سنة ١٩٦٧ م .

- ٣٧ - الذهبي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي :
تذكرة الحفاظ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر
آباد الدكن ، سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
- ٣٨ - _____ :
المبر في خبر منبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد ، دائرة
المطبوعات والنشر ، الكويت ، سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.
- ٣٩ - ابن رشيقي ، الحسن بن علي بن رشيقي القيرواني :
شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، جمع وتعليق زين العابدين
السنوسي ، دار المغرب العربي ، تونس سنة ١٩٧٣ م.
- ٤٠ - _____ :
المعدة في محاسن الشعروآدابه ونقده ، تحقيق محي الدين عبد
الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م.
- ٤١ - الرعيني ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الاشبيلي :
برنامج شيخ الرعيني ، تحقيق إبراهيم شيوخ ، مديرية أحياء التراث
القديم ، دمشق ، سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م.
- ٤٢ - ابن الزبير ، أبو جعفر أحمد بن الزبير :
صلة الصلة ، مكتبة خياط ، بيروت ، (نسخة صورة) .
- ٤٣ - ابن أبي زرع ، علي بن أبي زرع الفاسي :
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار طوك المغرب وتاريخ
مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، سنة ١٩٧٢ م.
- ٤٤ - _____ :
الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية ، دار المنصور للطباعة
والوراقة ، الرباط ، سنة ١٩٧٢ م.

- ٤٥ - الزركشي ، أبو عبدالله محمد بن ابراهيم :
تاريخ الدولتين الموحديّة والحفصيّة ، تحقيق محمد ماضور ،
المكتبة المتينة ، تونس ، سنة ١٩٦٦ م .
- ٤٦ - ابن الزقاق ، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن عطية :
ديوانه ، تحقيق عفيفة محمود ديراني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ م .
- ٤٧ - ابن السّراج ، محمد بن محمد الأندلسي الوزير :
الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة ، تحقيق محمد الحبيب
الهيئة ، الدار التونسيّة للنشر ، تونس ، سنة ١٩٧٠ م .
- ٤٨ - ابن سميد ، أبو الحسن علي :
المغرب في حلل المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ،
القاهرة ، سنة ١٩٦٤ م .
- ٤٩ - _____ :
اختصار القدر المملّى في التاريخ المملّى ، اختصره أبو
عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل ، تحقيق ابراهيم الابياري ،
الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريّة ، القاهرة ، سنة ١٩٥٩ م .
- ٥٠ - _____ :
رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق النعمان عبد التّمال
القاضي ، لجنة احيا التراث الاسلامي ، القاهرة ، سنة
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- ٥١ - _____ :
الفصول الياصرة في محاسن شعراء المائة السابعة ، تحقيق
ابراهيم الابياري ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م .

- ٥٢ - السللاوي ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري :
زهر الأفنان من حديقة ابن النوان ، مجهول النشر ، سنسنة
١٣١٤ هـ .
- ٥٣ - ابن سهل ، أبو اسحاق إبراهيم بن سهل الاشبيلي :
ديوانه ، تقديم احسان عباس ، دار صادر بيروت ، سنسنة
١٩٦٧ م .
- ٥٤ - السَّهْوَطِي ، جلال الدين عبد الرحمن :
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو-
الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، سنة
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- ٥٥ - الشريشي ، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي :
شرح مقامات الحريري ، تحقيق محمد أبو الفضل ، المؤسسة
المصرية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
- ٥٦ - الصفدي ، صلاح الدين خليل بن إيلك :
الوافي بالوفيات ، ج ٧ ، باعثنا احسان عباس ، دار النشر
فرانزشتاين بريسبادرن ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م . ج ٢ باعثنا
س . ديدريغ ، مطبعة وزارة المعارف ، استانبول ، سنة ١٩٤٩ م .
ج ٣ باعثنا س . ديدريغ ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، سنة
١٩٥٣ م . ج ٨ باعثنا محمد يوسف نجم ، دار النشر فرانزشتاينر
بقيسبادرن ، سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- ٥٧ - الضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة :
بغية الطمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب المصري ،
القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م .

- ٥٨ - ابن أبي الضياف ، أحمد :
اتحاف أهل الزمان بأخبار طوك تونس ويهد الأمان (١٩٦٣ م)
تونس ، سنة ١٩٦٣ م .
- ٥٩ - ابن طباطبا ، محمد بن أحمد الملوي :
عيار الشعر ، تحقيق طه الحاجري ، ومحمد زغلول سلام ، المكتبة
التجارية الكبرى ، القاهرة ، سنة ١٩٥٦ م .
- ٦٠ - المباسي ، عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد :
شرح شواهد التلخيص المستعنى معاهد التنصيص ، المطبعة
الهيئة المصرية ، ؟ ، سنة ١٣١٦ هـ .
- ٦١ - المبدري ، محمد بن محمد بن علي بن أحمد :
الرحلة المغربية ، تحقيق محمد الفاسي ، وزارة الدولة ، الرباط ،
سنة ١٩٦٨ م .
- ٦٢ - ابن عبد الطك المراكشي ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الطك :
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، سفر (٤) ، تحقيق
احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٦٥ م .
- ٦٣ - ابن عذاري ، أبو المباس أحمد بن محمد المراكشي :
البيان المصرب في اختصار أخبار طوك الأندلس والمغرب ، القسم
الثالث ، هتي بنشره امروس هوميسي مراندة ، دار كريمانيس
للطباعة ، تنطوان ، سنة ١٩٦٠ م .
- ٦٤ - ابن العربي ، أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الطائي الأندلسي :
رسالة روح القدس في محاسن النفس ، مطبعة الملم ، دمشق ، سنة
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

- ٧٣ - القرطاجني ، أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن الأنصاري :
ديوانه ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، الدار التونسية للنشر ،
تونس ، سنة ١٩٧٢ م .
- ٧٤ - ابن القنفذ ، أبو المباس أحمد بن حسين بن علي :
الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي
وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، سنة
١٩٦٨ م .
- ٧٥ - الكهني ، محمد بن شاكر بن أحمد :
فوات الوفيات ، حققه وضبطه محي الدين عبد الحميد ، مكتبة
النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥١ م .
- ٧٦ - لبيد بن ربيعة ، أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك :
شرح ديوانه ، تحقيق احسان عباس ، وزارة الارشاد والأبناء ،
الكويت ، سنة ١٩٦٢ م .
- ٧٧ - الحنفي ، أبو الطيب أحمد بن الحسين :
المعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، شرح ناصر
اليازجي ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٠٠ .
- ٧٨ - المراكشي ، عبد الواحد :
المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العربي ،
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
- ٧٩ - سلم ، أبو الحسن سلم بن الحجاج :
صحيح سلم بشرح النووي ، المطبعة المصرية ، القاهرة ، سنة
١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م .

- ٨٠ - ابن مضا* ، أبو المعبس أحمد بن عبد الرحمن القرطبي :
الرد على النحاة ، تحقيق شوقي ضيف ، دار الفكر العربي ،
القاهرة ، سنة ١٩٤٧ م .
- ٨١ - المقرئ ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلصاني :
أزهار الرباعي في أخبار عياني ، ضبطه وحققه مصطفى الشقا
ورفاقه ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة
١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م .
- ٨٢ - _____ :
نخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ،
دار صادر ، بيروت ، سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ٨٣ - ابن منبه ، وهب بن منبه :
التيجان في طوك حمير ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ،
حيدرآباد الدكن ، سنة ١٣٤٧ هـ .
- ٨٤ - ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم :
لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، سنة ١٣٧٤ هـ -
١٩٥٥ م .
- ٨٥ - الثبافة الذبائي ، زياد بن معاوية بن ضباب :
ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ،
القاهرة ، سنة ١٩٧٧ م .
- ٨٦ - النباهي ، أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقي :
الموقية المليا فيمن يستحق القضاء والفتية أو (تاريخ قضاة
الأندلس) ، نشره إليفي بزوفنسال ، دار الكاتب المصري ، القاهرة ،
سنة ١٩٤٨ م .

- ٨٧ - اليافعي ، أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي :
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ،
مطبعة دار المعارف النظامية ، حيدرآباد ، سنة ١٣٣٩ هـ .
- ٨٨ - ياقوت الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي :
معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، سنة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

المراجع :

- ١ - ابراهيم ، محمود :
صدي الفزو الصليبي في شمرا بن القيسراني ، المكتب
الاسلامي - دمشق ، ومكتبة الأقصى - عمان ، سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- ٢ - أرسلان ، شكيب :
الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، مطبعة عيسى
البابي الحلبي ، صر ، سنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .
- ٣ - أشباح ، يوسف :
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد
الله عنان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة
١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .
- ٤ - أمين ، أحمد :
النقد الأسبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة
١٩٦٣ م .
- ٥ - الأمين ، محسن :
أعيان الشيعة ، مطبعة الانصاف ، بيروت ، سنة ١٣٧٨ هـ -
١٩٥٩ م .

- ٦ - أنيس ، ابراهيم :
موسيقى الشعر ، مجهول النشر .
- ٧ - الأوسى ، حكمة :
الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،
سنة ١٩٧٦ م .
- ٨ - النشيا ، انخل جنثالت :
تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس ، مكتبة
النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٩ م .
- ٩ - بدوى ، محمد مصطفى :
كولوريج ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨ م .
- ١٠ - بروكلمان ، كارك :
تاريخ الأدب العربي ، تحرير يمقوب بكر ، دار المعارف ، القاهرة ،
سنة ١٩٧٧ م .
- ١١ - البستاتي ، فؤاد أفرام :
دائرة المعارف ، ٢ بيروت ، سنة ١٩٥٨ م .
- ١٢ - ابن تاويت ، محمد :
الأدب المغربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة ١٩٦٠ م .
- ١٣ - التواتي ، عبدالكريم :
مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس ، مكتبة الرشاد ، السدار
البيضاء ، سنة ١٩٦٧ م .
- ١٤ - حقي ، احسان :
تونس العربية ، دار الثقافة ، بيروت .

- ١٥ - الداية ، محمد رضوان :
تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، دار الأنوار ، بيروت ، سنة
١٩٦٨ م.
- ١٦ - _____ :
أبو البقاء الرندي . شاعر رثاء الأندلس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،
سنة ١٩٧٦ م.
- ١٧ - الزركلي ، خير الدين :
الأعلام ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٠ م.
- ١٨ - السعيد ، محمد مجيد :
الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، دار الرشيد
للنشر ، الجمهورية العراقية ، سنة ١٩٨١ م.
- ١٩ - السّمرة ، محمود :
القاضي الجرجاني : الأديب الناقد ، المكتب التجاري للطباعة
والتوزيع والنشر ، بيروت ، سنة ١٩٦٦ م.
- ٢٠ - الشايب ، أحمد :
أصول النقد الأدبي ، المطبعة الفاروقية ، الاسكندرية ، سنة
١٩٤٠ م.
- ٢١ - _____ :
الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٦ م.
- ٢٢ - ابن شريفة ، محمد :
أبوالمطرف أحمد بن عميرة المخزومي : حياته وآثاره ، مطبعة
الرسالة ، الرباط ، سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.
- ٢٣ - ضيف ، شوقي :
في النقد الأدبي ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٦٦ م.

- ٢٤ - الطَّبَّاع ، عبدالله أنيس :
الحلّة السَّيْرَاء لابن الأَبَّار ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ،
سنة ١٩٦٢ م .
- ٢٥ - الطهراني ، الشيخ أَقَابَزَرَك :
صفى المقال في صنفى علم الرجال ، ٤ طهران ، سنة ١٩٥٩ م .
- ٢٦ - الطَّيِّب ، عبدالله :
المُرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، دار الفكر ، بيروت ،
سنة ١٩٧٠ م .
- ٢٧ - عبدالرحمن ، نصرت :
شعر الضراع مع الروم في ضوء التاريخ ، مكتبة الأقصى ، عمان ، سنة
١٩٧٧ م .
- ٢٨ - عبدالمجيد ، عبدالمزيز :
ابن الأَبَّار : حياته وكتبه ، معهد مولاي الحسن ، الرباط ، سنة
١٩٥١ م . (نسخة صورة) .
- ٢٩ - عبدالوهاب ، حسن حسني :
المنتخب المدرسي في الأدب التونسي ، وزارة المعارف الممومية ،
القاهرة ، سنة ١٩٤٤ م .
- ٣٠ - _____ :
شهرات التونسيات ، مكتبة المنار ، تونس ، سنة ١٩٦٦ م .
- ٣١ - _____ :
ورقات عن الحضارة المصرية بأفريقية التونسية ، مكتبة المنار ، تونس
سنة ١٩٦٦ م .

- ٣٢ - المشماوي ، محمد زكي :
قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، دار النهضة
العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٩ م .
- ٣٣ - علام ، عبدالله علي :
الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، دار
المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٧١ م .
- ٣٤ - علي ، محمد كرد :
رسائل البلغاء ، دار الكتب العربية الكبرى ، مصر ، سنة
١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م .
- ٣٥ - عنان ، محمد عبدالله :
عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٣٨ هـ - ١٩٦٤ م .
- ٣٦ - _____ :
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، مطبعة مصر ، القاهرة ،
سنة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .
- ٣٧ - الفندي ، محمد ثابت ورفاقه :
دائرة المعارف الإسلامية ، ٤ ، ٤ ، سنة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م ،
(تمريب) .
- ٣٨ - القيسي ، نوري حمودي :
الأديب والالتزام ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، سنة ١٩٧٩ م .
- ٣٩ - الكتاني ، عبد الحى بن شمس الآفاق بن محمد :
فهرس الفهارس والأثبتات ومعجم المعاجم والحشيفات والمسلسلات ،
المطبعة الجديدة بالطالعة ، سنة ١٣٤٦ هـ .

- ٤٠ - كخالة ، عمر رضا :
معجم المؤلفين ، مطبعة الترقى ، دمشق ، سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٧٥ م .
- ٤١ - _____ :
أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،
سنة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- ٤٢ - الكماك ، عثمان :
مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ،
معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨ م .
- ٤٣ - مخلوف ، محمد بن محمد :
شجرة النور الزكية في طبقات الطبكية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،
سنة ١٣٤٩ هـ .
- ٤٤ - المنوني ، محمد :
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، المطبعة المهدية ،
تطوان ، سنة ١٩٥٠ م .
- ٤٥ - الناصري ، أحمد بن خالد بن محمد :
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، مطبعة دار الكتاب ،
الدار البيضاء ، سنة ١٩٥٤ م .
- ٤٦ - نصر ، محمد ابراهيم :
ابن سناء الطك : حياته وشعره ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ،
سنة ١٩٧٠ م .

٤٧ - الهاشمي ، أحمد :
ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

٤٨ - وارين ، أوستن ، وورينه وليك :
نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي ، مطبعة خالـد
الطرايشي ، دمشق ، سنة ١٩٧٢ م.

الدوريات

٤٩ - مجلة المشرق ، مجلد (٤١) ، بيروت ، سنة ١٩٤٧ م.